أخلاق النورسى كأخلاق قرآنية

الأستاذ حسين عاشور(*)

إذا كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو النموذج البشرى الأسمى للأخلاق ، وهو القدوة الكبرى للبشرية في هذا الصدد ، فإن من الطبيعي أن يحاول كل مسلم أن يتحلى بما أمكنه من شمائل الأخلاق المحمدية ، ولاشك أن المصلحين والدعاة وأهل العزيمة أكثر حرصاً على التحلي بما أمكن من تلك الأخلاق ، وهكذا فإن الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى – ذلك المصلح الكبير — من أكثر الناس حرصا على التحلي بما أمكن من تلك الشمائل ، ولاشك أن نجاح النورسى فى دعوته ووصول رسائله وأفكاره إلى عدد هائل من البشر في تركيا وخارجها يرجع فى جزء كبير منه إلى تحلى الرجل بعدد من الصفات الأخلاقية التي أعطته المصداقية والقدرة على الوصول إلى قلوب الناس، وأعطته الصلابة والقدرة على الصبر على ظلم الظالمين وتعسف السلطات معه في بعض الأحيان. ولأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم – وهو القدوة في الأخلاق للشيخ النورسى – كان خلقه القرآن ، فإن شمائل الشيخ النورسى مستمدة بدورها من القرآن الكريم ، ولعلنا إذا ما تتبعنا مواقف حياة الشيخ النورسى، وكذا أفكاره وآراؤه واجتهاداته التي اشتملت عليها رسائله نجد أن الأخلاق القرآنية تهيمن على جزء كبير من أفكاره وممارساته على حد سواء، ومن الصعب بالطبع تتبع كل تلك الآثار في مؤلفاته ومواقفه وسيرته ، لأن ذلك يعنى أن نتكلم عن كل شئ تقريبا وكل يوم وكل فكرة ، لأن الأخلاق القرآنية تسرى في كل ذلك سريانا خفيا وظاهرا وشاملا ومستمرا ، ولهذا السبب فإن تركيزنا على بعض المواقف والأفكار سيكون مجرد ضرب نماذج أو اختيار

(*) المشرف العام لمجلة المختار الإسلامي، القاهرة

بعض الفاكهة من بستان كبير ، ولا يعنى هذا أن تلك المختارات التي سنقف عندها هي أفضل الفاكهة وأعطر الزهور في بستان الشيخ النورسى، بل هي مثل غيرها الكثير مجرد قطفات سريعة ووقفات أمام خضم هائل من المواقف والأفكار الأخلاقية .وفى الحقيقة فإن الشيخ سعيد النورسى نفسه يلفت نظرنا إلى حقيقة تأثره الأخلاقي والفكري بالقرآن الكريم، قائلا"إن الحقائق والمزايا الموجودة في (الكلمات) ليست من بنات أفكاري ولا تعود إلى أبدا إنما للقرآن وحده، وقد ترشحت من زلال القرآن" .وقياسا على ذلك فإن مواقف الشيخ سعيد النورسى وحياته ما دهى إلا رشحات من القرآن الكريم .

* * *

واجه الشيخ سعيد صعوبات جمة في حياته ودعوته، وقد تنوعت تلك الصعوبات تنوعا كبيرا بدءاً من ظروف شديدة الصعوبة ظهر فيها الشيخ سعيد .. كان المنحنى الحضاري الإسلامي في ذلك الوقت في أسوأ مراحل نزوله، وكانت القوى الدولية تتآمر على الإسلام والمسلمين، وكانت الخلافة العثمانية تسقط، وكان العلمانيون والدنيويون ودعاة تنحية الإسلام والثقافة الإسلامية والشرع الإسلامي لهم الكلمة الأولى والأخيرة في كل المجالات تقريبا بما فيها المجال الثقافي، أي أن الضغط كان هائلا، ومع ذلك ورغم ذلك بل رغم حالات التعسف الواضحة ضد الشيخ من نفى وسجن وشائعات وحصار، رغم كل شئ نجح الشيخ سعيد النورسى في الصمود،وتوصيل دعوته وكلماته، وهذا يعنى أننا أمام مصلح يتمتع بصفات أخلاقية نادرة، يتمتع بالصبر والثقة في الله،يتمتع بالصلابة والتجرد، يتمتع أيضا بالإخلاص وعدم الرياء، يتمتع بالتجرد وعدم الطمع، يتمتع بما يجعله أهلا لأن يواجه قوى عاتية كبيرة متنوعة داخلية وخارجية، وهو الذي لا يملك إلا قلبه وعقله ولسانه ولا شئ أكثر!!.. يقول الأستاذ مصطفى صنغور أحد ملازمي الإمام في تلك الأيام الصعبة: إن المنظمات الإلحادية السرية كانت تستهدف إزالة الشعائر الإسلامية ورفعها الواحدة تلو الأخرى، وطمس روح الإسلام في الأمة التركية التي رفعت راية الإسلام طوال ستة قرون بل منذ عهد العباسيين، ولتحقيق هدفهم هذا بدءوا بتنفيذ خطة تنشئة جيل يقوم بنفسه بعد ثلاثين سنة بإزالة القرآن ونزعه من القلوب، وفعلا بدأوا بتنفيذ خطتهم هذه ونجحوا في قطع روابط هذه الأمة بالإسلام وسعوا لها بشتى الوسائل، فالقضية إذن ليست قضية جزئية موضعية، بل هي

قضية عامة شاملة تتعلق بإيمان الملايين من أبناء الجيل المقبل وتتعلق بالحياة الأبدية لشعب كامل .. شعب الأناضول حيث شهدت تلك الفترة تحولات رهيبة ودماراً فظيعاً، وعداءً شرسا للإسلام والقرآن، ونسى التاريخ المجيد لهذه الأمة البطلة حتى دفعت تلك المنظمات الإلحادية الجيل الناشئ – ولا سيما طلاب المدارس – إلى نسيان ماضي أجدادهم الملـــئ بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وذلك بكلام براق في الظاهر لكي يقطعوا صلتهم بالإسلام حتى هيأوا جوا ملائما لإقرار نظام إلحادي سافر. فينبغي وضع تلـــك الأيـــام الحالكة القاسية الرهيبة نصب العين لدى دراسة دعوة الأستاذ النورسى وخدمته للقرآن والإيمان". وهذا الكلام من الأستاذ مصطفى صنغور يدل دلالة قاطعة على أن صـــفات الأستاذ النورسى الأخلاقية كانت عالية جدا وإلا لما استطاع مواجهة تلـــك الظـــروف الحالكة القاسية الرهيبة!!..

* * *

اهتم الأستاذ النورسى بكشف وتعرية وفضح وتحليل ما يمكن أن نسميه بالصـــفات الأخلاقية السلبية، وهو في هذا يكشف عن إيمانه بالصفات الأخلاقية الإيجابية من ناحية ويكشف أيضا عن تمسكه بها، ويدعوا إلى الأخذ بها في نفس الوقت. وفى هذا الصـــدد فإنه يقتفى أثر الصحابة الذين كان بعضهم يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشر مخافة أن يقعوا فيه. ومن هذه الصفات الأخلاقية السلبية من دسائس شـــياطين الإنـــس والجن مثل حب الشهرة، وذلك لصرف خدام القرآن عن ذلك العمل المقدس وذلـــك الجهاد المعنوي الرفيع، وإفساد الإخلاص وإحباط العمل ومن ثم الفشل في النهاية .وهو هنا يكشف عن جانب حقيقي في شخصيته دون أن يتحـــدث عنـــه، وهـــو التجـــرد والإخلاص والترفع عن الجاه والشهرة، ولاشك أن ذلك كان أحد أهم عوامل نجـــاح دعوته ووصولها إلى قلوب الملايين. وثاني هذه الصفات هي الشعور بـــالخوف، ويـــرى الأستاذ النورسى أن الطغاة والظالمين الماكرين يستغلون كثيرا هذا الشعور لدى الإنسان فيلجمون به الجبناء، ويستفيد كثيرا جواسيس أهل الدنيا ودعاة الضلال من هذا الشعور لدى العوام، ولاسيما لدى العلماء، فيلقون في روعهم المخاوف ويثيرون فيهم الأوهـــام بمثل شخص محتال، يُظهر لأحدهم ما يخافه – وهو على سطح دار– فيـــثير أوهامـــه، ويدفعه تدريجيا إلى الوراء حتى يقربه من الحافة، فيرديه على عقبه فيهلك، كذلك يـــثير

أهل الضلالة عرق الخوف حتى يدخل بعضهم في فم الثعبان لئلا تلسعه بعوضة .ولاشك أن تمتع الأستاذ سعيد النورسى بعكس صفة الخوف –وهى الشجاعة والإقدام والثقة في الله كان عاملا هاما من عوامل نجاح دعوته، وهى بالتأكيد صفة أخلاقية قرآنيـــة،ومن المفيد هنا أن نذكر حادثة تؤكد شجاعة الأستاذ النورسى ذلك أنه عندما احتل الإنجليز استانبول ودمروا لمدافع في المضيق، سأل في تلك الأيام رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية من المشيخة الإسلامية ستة أسئلة، وكان الأستاذ سعيد في ذلك الوقت عضـــوا في دار الحكمة الإسلامية فقالوا له : أجب على أسئلتهم بستمائة كلمة كما يريدون، فقال لهم: إن جواب هذه الأسئلة ليس ستمائة كلمة ولا ست كلمات ولا كلمة واحدة بل بصقة واحدة، لأنه عندما داست تلك الدولة بأقدامها مضايقنا وأخذت بخناقنا ينبغي البصاق في وجه رئيس أساقفتهم إزاء أسئلته التي سألها بكل غرور .ومن الطبيعي أن موقفا كهـــذا كان يمكن أن يجر الهلاك والمشقة على الأستاذ النورسى، ولكنه كان يؤمن بأن الشجاعة خلق إسلامي رفيع ينبغي الأخذ به في كل الأحوال،بل أكثر من هذا كـــان يـــؤمن أن الشجاعة تنجى من المهالك بعكس الجبن، فهو يقول :إن أكثر من يجـــرح ويصـــاب في الحروب هم الذين يهربون، وأن أقل الجنود إصابة هم أولئك الثابتون في مواقعهم، فالآية القرآنية الكريمة تقول :" قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم "وهى تشير بمعناها الإشاري إلى أن الفارين من الموت يقابلونه أكثر من غيرهم .والصفة السلبية الثالثة هـــي الطمع، ويرى الشيخ النورسى أن الشياطين يقتنصون الكثير بشباك الطمع، يقول الشيخ سعيد :"الرزق مقدر بالقدر الإلهي، والله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولذا يجب أن يكون الرزق حلالا، والسعي له مشروعاً بدون إراقة ماء الوجه، وأن الاطمئنان بالقناعة يـــديم الحياة ويضمن الرزق أكثر من المرتب" . ولاشك أن الشيخ النورسى قد ضـــرب المثـــل العالي في هذه الصفة، فقد كان زاهدا، لا يطمع في شئ من حطام الدنيا وتعالى دائمـــا على اللهاث من أجل المال، وكان مثلا يحتذى في رفض تلك الصفة السلبية – الطمع – والتحلى بعكسها وهو القناعة . والصفة الأخلاقية الســـلبية الرابعـــة هـــي التعصـــب والعنصرية،والشيخ سعيد النورسى هنا يفند أفكار دعاة القومية التركية، ويعتبرها عملا من دسائس الشيطان لأنها تأتى على حساب الانتماء الإسلامي، وبديهي أن الشيخ سعيد النورسى وهو الكردي الأصل كان يعكس الانتماء الإسلامي والإنساني الواسع الفسيح،

فوجه دعوته الإصلاحية للكرد والأتراك والعرب وغيرهم على حد سواء، وكان يرفض دعاة العنصرية والتعصب للقومية التركية أو الكردية أو أى قومية عنصرية. والصفة الأخلاقية السلبية الخامسة هي الأنانية والغرور،ولاشك أن الشيطان يدفع الإنسان إلى الفساد والإفساد وتخريب الأرض عن طريق إثارة نزعة الغرور والأنانية فيه، ولاشك أن الشيخ سعيد النورسى قد تخلى عن الغرور والأنانية وإلا لما وصلت أفكاره إلى هذا العدد الهائل من الناس، حيث إن المغرور والأناني لا يمكن أن يصل إلى قلوب الناس مهما كانت درجة ذكائه إلا في حالات استثنائية وهى مؤقتة سرعان ما تتلاشى ... أما استمرار الأجيال وتواصلها في الاقتداء بالشيخ النورسى يدل دلالة قاطعة على نفسية بسيطة غير مغرور وعن أنا غير متغطرسة. يقول الأستاذ النورسى: إن أخطر جهة من الأنانية هي الحسد والغيرة، فإذا لم يكن العمل خالصا لله وحده فإن الحسد يتدخل فيفسد العمل. والصفة الأخلاقية السلبية السادسة هي حب الراحة والدعة، ولاشك أن الشيخ الأستاذ سعيد النورسى قد تمتع بعكس هذا الخلق السلبي، لا يركن إلى الراحة والدعة، بل شديد الحماس والنشاط وبذل الجهد في سبيل خدمة العلوم الإسلامية أو الدفاع عن حقائق الإسلام أو فضح أفكار الظالمين والملحدين، ويرى الأستاذ سعيد النورسى أن هناك طرقا شيطانية عديدة لفتنة الإنسان ودعوته إلى الدعة والراحة وصرفه عن الحماس والنشاط، ويؤكد الأستاذ النورسى على أن الإسلام يحض على الصبر والنشاط والهمة لقوله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا، ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ". وهكذا فإن الشيخ سعيد النورسى كان يتمتع بحق بالصفات الأخلاقية الإيمانية، وهى أخلاق قرآنية في جوهرها، وهكذا فإن أخلاق سعيد النورسى كانت أخلاق قرآنية.

بديع الزمان النورسي وتجديد دراسات العقيدة الإسلامية "دراسة في ضوء رسائل النور"

أ.د.أحمد محمد أحمد الجلي(*)

مقدمة:

إن العقيدة الإسلامية مصدرها الوحي الإلهي القرآن والسنة، وقضاياها ثابتة وحقائقها لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ومن ثم لا يطالها التطوير ولا التجديد. ولكن كما جاء الوحي الإلهي بأصول العقيدة، فقد جاء أيضاً بوسائل إثباتها وطرق الإقناع بها. وهذه الأخيرة جاءت متنوعة بتنوع مدارك الناس الذين خاطبهم القرآن، واختلاف إمكاناتهم العقلية ومداركهم العلمية.

وقد التزم السلف، من الصحابة والتابعين، بأصول العقيدة وبمنهجها معا، ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا مناهج واستحدثوا طرقاً، اختلفت في درجة بعدها أو قربها من المنهج القرآني. فهناك المنهج الكلامي، والمنهج الصوفي، ومنهج الفلاسفة، وقد كان لتلك المناهج أثرها – بدرجات متفاوتة فيما بينها – على دراسات العقيدة، وأدت في النهاية إلى جمود العقيدة وإضعاف أثرها في نفوس الناس. لذلك ظهر خلال التاريخ الإسلامي مجددون حاولوا رد الناس إلى المنهج القرآني، وإحياء العقيدة في نفوس الناس من أمثال الإمام أحمد بن حنبل (164-241 هـ/ 780- 855م)، والإمام الأشعري (260-324 هـ)، وأبو حامد الغزالي (450-505 هـ/ 1058-1113م)،

(*) جامعة الإمارات العربية المتحدة – الإمارات العربية المتحدة

وابن تيمية (661-728 هـ /1263-1328م)، ومحمد بن عبد الوهاب (1115-1206 هـ /1702-1792م). وغيرهم من الأعلام الذين ظهروا خلال التاريخ فجددوا الدين وأحيوا تعاليمه في نفوس اتباعه.[1]

و لا شك أن الإمام بديع الزمان النورسي، بحكم ثقافته الإسلامية وتعليمه الشرعي، خبر الكلام ومدارسه، ووقف على مصطلحات المتكلمين وحججهم، كما عرف التصوف ورجاله، وتجارب الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم.كما كان له إلمام واسع بالفلسفة الإسلامية ومنهج أصحابها. فضلا عن متابعته للتطور الفكري والعلمي في عصره.

وتحاول هذه الدراسة أن تبين إلى أي مدى كان لثقافة النورسي الكلامية وتجاربه الصوفية، ومعارفه الفلسفية والعلمية أثر في فكره العقدي، وما موقفه من تلك المناهج والنظم المعرفية، وذلك من خلال عرض القضايا التالية:موقفه من الكلام والتصوف والفلسفة. والمنهج الذي اتبعه في تقرير قضايا العقيدة الإسلامية.

وقبل تناول هذه القضايا لا بد من إشارة موجزة، إلى العصر الذي عاش فيه النورسي، وما كان يموج به من أفكار وتحديات، وانعكاس ذلك كله في تكوينه العلمي والنفسي، والمواقف التي اتخذها، والمنهج الذي اتبعه في مواجهة تلك التحديات.

ظهر النورسي (1293-1379هـ/1876-1960م) في عصر اتسم بالقلق الحضاري والاضطراب السياسي، عصر شهد انهزام المسلمين أمام الغزو العسكري والسياسي والحضاري الغربي، وبلغ تراجع المسلمين الحضاري نهاياته، فتمزق العالم الإسلامي إلى دويلات، سقطت معظمها تحت نير الاستعمار الأوربي، وأصاب الخلافة العثمانية الانحلال، والانهيار والتفكك. كما شهد العصر زلزالاً خطيراً هز كل ما توارثه البشر من قيم ومثل وأفكار، وأشاع الفوضى والاضطراب والشك والقلق في نفوس الناس، عصر ألَّه فيه الناس العلم وعبدوا العقل والطبيعة، واشتد فيه افتتان بعض المسلين بالغرب وشاعت فيه موجات الإلحاد والشك والبعد عن معين الدين.

وقد استوعب النورسي أحداث زمانه، لا سيما في تركيا والعالم الإسلامي، الذي سعت الدوائر الغربية واليهودية والصليبية إلى تمزيق أوصاله، وهدم معتقدات أهله، وإفساد أحوالهم، مما نتج عنه سقوط الخلافة العثمانية، وشيوع الفكر العلماني المادي الإلحادي، وقد أثقلت تلك الأحداث والتطورات كاهل بديع الزمان وأشعرته بعظم المسؤلية الملقاة على كاهله، وكبر التبعة التي عليه أن يتحملها فاندفع إلى مواجهة ذلك

التحدي، وسعى إلى أن يعيد للأمة الثقة في نفسها ودينها، ويوقظ شعورها بعظمة إيمانها وقيمها، وأن يحي الأمل في نفوس أبنائها.

وأعد نفسه لتحمل هذه المسؤلية إعداداً علميا متميزاً، فدرس كتب التفسير والحديث والفقه والنحو، وطالع كتب الفلسفة وعلم الكلام والمنطق، وانكب على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء، والفيزياء، وعلم طبقات الأرض" الجيولوجيا"، والفلسفة الحديثة والتاريخ والجغرافيا، وتعمق في هذه العلوم جميعها، وحاز متونها وفنونها، وبز المتخصصين فيها، فسمي ببديع الزمان اعترافا بتميزه، وعرفاناً من قبل أهل العلم بذكائه وغزارة علمه.

ثم بدا حركته الإصلاحية داعيا إلى نهضة الأمة، وانتشالها من براثن الجهل والتخلف، وذلك عن طريق نشر العلم، وفتح المدارس التي تعلم العلوم الكونية والعلوم الإسلامية، ورغم أن دعوته لم تجد آذاناً صاغية ولا استجابة من أولي الأمر، فإن ذلك لم يثنه عن الجهر بآرائه، والإعلان عنها في الصحف، وبين يدي من يقابلهم من المسؤلين، وإذاعتها بين الناس عامة. فكتب رسائله المعروفة برسائل النور، بيَّن من خلالها حقائق الإسلام، وأقام الأدلة على وجود الله تعالى وترسيخ العقيدة الإسلامية، وشهر من خلالها سلاحه لمحاربة التيارات الملحدة، والتوجهات العلمانية. فأعاد الثقة للمسلمين بدينهم، وأنقذ الكثيرين من التردي في شراك المخططات التي سعت إلى فصلهم عن عقيدتهم وحضارتهم، وواجه في هذا السبيل حرباً ضروسا، ومؤامرات شتى للقضاء عليه وعلى حركته. ومن ثم قضى معظم حياته متنقلا بين المحاكم والسجون، متهما بتأليف جمعيات دينية سرية، وتحريض الشعب على الحكومة العلمانية، وقلب نظام الحكم. وقد اتخذ من تلك المحاكم منابر للدفاع عن الإسلام، مستخدما كل ما أوتي من قوة الحجة وشجاعة الرأي.كما كرس حياته كلها في توجيه وتربية تلاميذه الذين التفوا حوله، يتمثلون فكره ومنهجه، وينشرون تعاليمه ورسائله، حتى وافته منيته في الخامس والعشرين من رمضان سنة 1379هـ، الموافق للثالث والعشرين من مارس 1960م.[2]

أهمية العقيدة في منهج النورسي التجديدي:

اعتبر النورسي العقيدة أساس كل بناء، وصلاحها مؤذن بصلاح الأحوال جميعها، كما أن الخلل فيها يؤدي إلى الضياع والخذلان في شتى مناحي الحياة.لذا جعل قضية الإيمان القضية الأساسية التي كرس لها حياته وفكره، ووظف لها كل طاقاته: " إن دعوتنا

هي الإيمان ... و إن زماننا هذا هو زمان خدمة الإيمان ووظيفتنا هي الإيمان وخدمتنا تنحصر في الإيمان". وقد اتخذ من رسائل النور وسيلة لإنقاذ أسس الإيمان وأركانه لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب، وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة."[3] وكما يقول الأستاذ إحسان قاسم:" في تلك السنوات الحالكة، كان الإسلام يتعرض لزلزلة كبيرة في تركيا، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية والإعلام التي تملكها وبأقلام جميع المنافقين والمتزلفين وأعداء الإسلام من الكتاب والصحافيين، في الوقت الذي كممت فيه أفواه دعاة الإسلام، وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم، لذلك فقد تعرضت أسس الإسلام وأصوله ومبادؤه الأولية إلى الشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذي لم يكن يجد أمامه مرشدا وموجها. لذلك فقد قرر الأستاذ سعيد النورسي، أن يحمل تلك الأمانة الكبرى على كاهله، و أن يحاول إنقاذ الإيمان في تركيا... نعم إنقاذ الإيمان، تلك كانت هي المسألة الرئيسية التي لا تتحمل التأجيل أو التسويف أو الاهتمام بأي أمر عداها".[4]

مناهج دراسة العقيدة وموقف النورسي منها

ميز بديع الزمان النورسي، في دراسته لقضية الإيمان (العقيدة)، بين اربعة مناهج اتبعت كلا منها طائفة اتخذها سبيلا للوصول لليقين، وتأسيس الإيمان. يقول بديع الزمان النورسي:

"هناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات، وهو معرفة الله جلَّ جلاله :

أولها:منهج الصوفية، المؤسس على تزكية النفس والسلوك الإشراقي.

ثانيها: منهج علماء ا الكلام المبني على الحدوث والإمكان، في إثبات واجب الوجود.

ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم، إلا ان فكر البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا اصبحا منهجين طويلين، وذوي مشاكل فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك.فأصبحتا طويلة وذات مشاكل.

ثالثها: مسلك الفلاسفة، المشوب بالشكوك والشبهات والأوهام.

رابعها وأولاها: طريق القرآن الكريم، الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، وبحزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو اقصر طريق إلى الله، وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان."[5]

و لقد ركز كل من تلك المسالك على منهج معين، فبينما ركز الفلاسفة والمتكلمون على العقل، آثر الصوفية الذوق والكشف، لايضاح الحقائق، بينما تجاوز القرآن الكريم هذه جميعا فأوضح الحقائق الإيمانية والمعرفة الإلهية والمقدسة إيضاحا أرفع بكثير وأسمى بكثير وأقوى بكثير مما أوضحه أولئك العلماء والأولياء. لذا قام النورسي بتقييم تلك المناهج، وكشف عن ما فيها من قصور وخلل، وما تضمنته من إيجابيات ومحاسن، وتبنى من خلال رسائله منهج القرآن الكريم، وعبر عن ذلك بقوله عن رسائل النور: " وشقت رسائل النور طريقا إلى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلا إلى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والأوراد، ضمن براهين منطقية وحجج علمية، وكشفت طريقا مباشرا إلى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة، ضمن علم الكلام وعلم العقيدة وأصول الدين."[6]

موقف النورسي من علم الكلام

إن المنهج الكلامي وإن كان قد لبى حاجات المجتمع، في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وقابل التحديات التي واجهت الأمة في فترة من التاريخ، فإنه لم يلبث أن أغرق في الجدل وغرق في مناهج الفلاسفة ومصطلحاتهم، و من ثم لم يوفق في عرض قضايا العقيدة وإيجاد القناعة بها، وقد أشار المتكلمون أنفسهم إلى ذلك، وعبروا عن خيبة أملهم فى الكلام كمنهج برهاني، يقنع الخاصة ويبعث اليقين والطمأنينة فى نفوس العامة، وعدم جدوى الكلام ونفعه. فالشهرستانى يعبر عن ما شاهده من حيرة كثير من المشتغلين بالمناهج الكلامية فيقول:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم[7]

والغزالي في بحثه عن اليقين، وبعد أن خبر الكلام تعلماً وتعليماً وتأليفاً يقول: "فصادفته علما وفيا بمقصوده غير واف بمقصودي ". ومقصود علم الكلام، كما يقول، يتمثل في:" حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش المبتدعة"[8]. ويذهب الغزالي إلى أنه:" لا يحصل عن هذا العلم، ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق "[9]، ويقول أيضاً عن الكلام: "وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما

خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة، وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة عن هذا الوجه مسدود"[10] . ويقول الغزالى أيضاً: " فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله، فلا يحصل من علم الكلام، بل يكاد أن يكون الكلام حجاباً عليه ومانعاً منه، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة "[11].

ويعبر فخر الدين الرازي عن عدم قناعته شخصياً بمنهج المتكلمين، وكيف أنه أضاع عمره سدىً فى البحث عن اليقين عن هذا الطريق، فيقول :

"نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذىً ووبال
و لم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**)[طه: 5]، و (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) [فاطر:10]، وأقرأ في النفي: (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**)[الشورى: 11] و (**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**)[طه :110]، ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي"[12].

وقد كانت هذه الأقوال والاعترافات وأمثالها، عاملاً هاماً من عوامل الشك في قيمة الكلام الإيجابية، من حيث تثبيت العقيدة، وترسيخ اليقين؛ الأمر الذي دفع ابن خلدون إلى القول: "ينبغي أن يعلم، أن العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأما الآن فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه"[13].

وفي العصر الذي عاشه بديع الزمان، جمدت الدراسات الكلامية، وفقدت العقيدة – التي كانت تدرس من خلالها – أثرها في نفوس الناس . كما أن التحديات التي كان يواجهها الفكر الإسلامي لم يعد يفيد معها أسلوب الكلام القديم، بل كانت في حاجة إلى أسلوب جديد منطقي في أساسه، علمي في أدلته، واقعي في معالجته، منسجم مع روح العصر، معبر عنه بأسلوب واضح قريب إلى العقول جميعا".[14] يقول النورسي: " إن قسماً من مصنفات أغلب العلماء السابقين، والكتب القديمة للأولياء الصالحين، يبحث

عن ثمار الإيمان ونتائجه وفيوضات معرفة الله سبحانه وتعالى. ذلك لأنه لم يكن في عصرهم تحد واضح و لا هجوم سافر لجذور الإيمان وأسسه، إذ كانت تلك الأسس متينة ورصينة. أما الآن فإن هناك هجوما جماعيا منظما عنيفا على أركان الإيمان وجذوره و لا تستطيع تلك الكتب التي كانت تخاطب المؤمنين فحسب، أن تقف أمام هذا التيار القوي و لا أن تقاومه وتصده."[15]

ويتلخص موقف النورسي من علم الكلام في أنه قدر هذا العلم وأثنى على جهود علمائه، ولكن في الوقت نفسه نقد هذا العلم وكشف عن قصوره. فالنورسي كان على معرفة وثيقة بهذا العلم ودقائقه، إذ درس الكلام واستوعب منهجه وقضاياه، ويتضح ذلك جليا من خلال رسائله.اذ نجده يستخدم المصطلحات الكلامية مثل : إبطال الدور والتسلسل، والمحال، وواجب الوجود، ووجوب الوجود، وغيرها من المصطلحات الكلامية، كما أنه استخدم بعض أدلة الكلام مثل: دليل التمانع، ودليل الحدوث والإمكان.ولكنه حين استخدم دليل التمانع تميز على المتكلمين، بأن جعله دليلا يقينياً لا ظنياً كما هو الحال عند المتكلمين. أما دليلي الإمكان والحدوث فقد أشار النورسي إلى أنهما دليلان تشعبا من القرآن، لكن البشر أفسداهما، فأصبحا جدليين عقيمين مليئين بالشكوك والأوهام.[16]

ورغم معرفته بعلم الكلام واستفادته من مصطلحاته، وخبرته بأدلته وبراهينه، فان النورسي يشترك مع الائمة الذين نقدوا علم الكلام من أمثال الامام احمد بن حنبل، والغزالي، وابن رشد والرازي وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وجلال الدين الرومي وغيرهم من العلماء، و المفكرين، والصوفية الذين شككوا في قيمة الكلام كمنهج يقود إلى اليقين.[17]

وينتهي النورسي إلى أن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة، كما أن علم الكلام لا يوصل إلى اليقين الإيماني الذي يطمئن إليه الإنسان، في ما يتعلق بوجود الله تعالى ووحدته وصفاته.

وبدلا من الكلام استخدم النورسي أسلوب القرآن الكريم في عرض مسائل وجود الله تعالى، ووحدانيته، ومسائل النبوة والآخرة، والقضاء والقدر بشكل واضح جلي. يخاطب قلب الإنسان وفكره وعقله وخياله، ، بل جميع لطائفه معا، و لا يحصر الكلام في العقل أو الذوق ويورد أمثلة مادية من واقع المرء وبيئته من النباتات والحيوانات والنجوم ومن النفس الإنسانية..الخ.[18]

وقد أطلق بعض الدارسين على الطريق الذي اتبعه النورسي بأنه علم كلام جديد، أو علم كلام قرآني، مبني على القرآن ويستقى من القرآن المنهج والمصطلح.[19] بينما يذهب كاتب آخر إلى انه وان كان لا بد من اطلاق مصطلح الكلام على منهج النوورسي، فيجب تقييده بأنه علم كلام من نوع خاص، يتميز عن علم الكلام التقليدي بأن منطلقه القرآن الكريم، وان الاستدلال فيه لا يعود للعقل فحسب بل ينضم اليه مخاطبة القلب[20].وأحسب أنه من الأفضل أن يلتزم بتسمية هذا المنهج بما فضل النورسي نفسه أن يسميه به وهو: طريق القرآن، لأن قوامه كما يستنبط من أقواله: الجمع بين طريقي أهل الكلام، وأهل الكشف، ويخاطب هذا العلم المقترح العقل والقلب في ذات الوقت، بخطاب لحمته وسداه القرآن الكريم".[21]

موقف النورسي من التصوف

لا شك أن النورسي قد عرف التصوف معرفة تامة، وخبر أصوله وخاض بعض تجاربه، وقرأ لعمالقة التصوف من أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني ("مؤسس الطريقة القادرية، والمعروف باسم الغوث الأعظم، (470-561هـ/1077-1166م)، والشاه النقشبندي" محمد بهاء الدين"، مؤسس الطريقة النقشبندية، (ت.791هـ/1389م) والشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي المشهور بالامام الرباني (971-1034/1563-1642م)، وتأثر بهم، وشهد بايجابيات التصوف التي تخدم الإيمان وتدعمه، ووقف على مزالق الطريق الصوفي ومخاطره. وقد كان للطريقة النقشبندية أثر كبير عليه إذ استقى منها كثيرا من المصطلحات، واستفاد من منهجها التربوي.

لذلك وجد التصوف في منهج النورسي المكانة والتقدير الجدير به، ، فهو يقدر التصوف الصافي النابع من القرآن والسنة، ويعتبر التصوف مرحلة من مراحل الارتقاء الإيماني، و لكنه لا يمثل قمة هذا الارتقاء.

ويرى النورسي أن التصوف يهدف من خلال الطريق الصوفي إلى تجلي الحقائق المبينة في القرآن، والوصول إلى الكمال عن طريق القلب، وذلك من خلال الذكر والتفكر، ومن ثم فإن للتصوف أثراً لا يجوز إنكاره، وان ما يبدو من انحرافات لدى بعض السالكين لهذا الطريق الصوفي.، لا ينبغي أن يكون سببا في تجاهل أثر التصوف، أو غمط أعلام التصوف الذين رفعوا راية الإيمان، حقهم، لأن بعض مظاهر السلوك المنحرف لدى بعض الصوفية، لا يعود إلى أساتذة الطريق الخبيرين به، أو المريدين المتمسكين

بآداب الطريق وأصوله، بل تحدث تلك الانحرافات والأخطاء من أناس لم يسلكوا الطريق، و لم يتأدبوا بأدب أهله.[22]

ورغم ثنائه على التصوف والصوفية، فإن النورسي أخذ على التصوف ما يأتي:

1- إن الطريق الصوفي طريق صعب وضيق وطويل ومحفوف بالمخاطر، ومن ثم فهو طريق غير مأمون، إذ قد ينتهي ببعض سالكيه إلى الضلال والخسران.

2- رغم قيمة التجربة الصوفية، فإنها لا تعتبر مصدرا مناسبا من مصادر المعرفة التي يمكن أن تواجه اكتساح الحضارة الغربية المادية المعاصرة. فالعصر في نظر النورسي ليس بعصر التصوف وطريقه، وانما عصر إنقاذ الإيمان."[23]

3- يأخذ على التصوف انحراف بعض الصوفية المعاصرين الذين قادوا الأجيال إلى الركون والسكون تحت مظلة السير إلى الله تعالى بلا عودة، وهم في هذا يخالفون نهج السابقين من الأولياء الربانيين الذين كانوا يسلكون الطريق إلى الله من أجل العودة إلى الأرض، وهم اكثر إيمانا وقوة وعزما وإقداما في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومثل هذا النهج لا يصلح لمواجهة المخاطر التي يواجهها الإسلام في هذا الزمان من الإلحاد والزندقة والفوضى والأوهام، وليس يجدي تجاه هذه المخاطر إلا الاعتصام بحقائق القرآن الكريم"[24]

4- وجه النورسي نقدا خاصا لأصحاب وحدة الوجود، وخص من بينهم، محي الدين بن عربي، (560-638هـ)، الواضع الحقيقي للنظرية في إطارها الإسلامي، ويتمثل نقد النورسي للنظرية وأصحابها فيما يأتي:

- إن النظرية تقود إلى إنكار الموجودات، وهو أمر مخالف لتعاليم الإسلام وقيمه.فابن عربي - كما يقول النورسي - يقول:" لا موجود إلا هو" لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار الموجودات.وإرجاع الموجودات إلى مستوى الخيال المجرد، وهذا مخالف لما ورد في القرآن، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وما بينه الصحابة وعلماء الأمة، من أن حقيقة الأشياء ثابتة، وأن لله تجليات بالصورة الحقيقية لجميع أسمائه.[25]
- إن النظرية أو المشرب أو النزعة أو الحال-كما فضل النورسي أن يسميها- مرتبة ناقصة، ولكن لكونها مشربة بلذة وجدانية ونشوة روحية، فإن معظم الذين يحملونها أو يدخلون اليها، لا يرغبون في مغادرتها فيبقون فيها، ظانين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسموا فوقها مرتبة، و لا يطالها أفق[26].

• ان أهل وحدة الوجود، هم مثل سائر الصوفية والأولياء، أهل حق وحقيقة، يشهدون الأسرار الدقيقة والحقائق اللطيفة، وخاصة في حال الاستغراق والسكر، ولكن عندما يكونون في حالة الاستغراق يشاهدون أمثلة لطيفة كثيرة في عالم المثال الذي يشبه العالم المادي، وعندما يفيق أحدهم، من حالة السكر والاستغراق، يمكن أن يذكر ما شاهده في حالة الاستغراق السابقة كما هو هناك، وحتى أنه يمكن أن يكتبه أيضا. والى جانب ذلك، وبسبب نقصهم في نقطة تحقيق التوازن بين العالمين، فإنهم يخلطون بين موجودات العالم المادي وأمثلة العالم المعنوي، لهذا السبب فإن النورسي يرى أن مرتبة الشهود هي دون مراتب الإيمان بكثير. وإذا أردنا الحديث بشكل واضح، فإن استكشافات أهل الشهود ومشاهداتهم وأذواقهم بعيدة جدا عن الأحكام المتعلقة بالحقائق الإيمانية للأصفياء الذين هم ورثة الأنبياء، ويستندون على القرآن والوحي، و لا يمكن أن يصلوا إليهم. وباختصار فإنه يجب أن توزن جميع الحالات الغامضة والكشفيات والأذواق والمشاهدات بميزان السنة والقرآن."[27]

بدلا من طريق التصوف الضيق الخطر، الذي لا تؤمن عواقبه، قدم النورسي طريقا آخر أكثر أمانا وأيسر مسلكا، يحدد من خلاله أربع مراتب للرقي الروحي: تبدأ بالعجز الذي يقود إلى الفقر والشفقة، وينتهي بالتفكر. فالعجز يوصل إلى حبه تعالى الذي وسع كل شيء، والفقر الكلي يوصل إلى رحمته تعالى، والشفقة توصل إلى شفقته المطلقة، والتفكر يوصل إلى حكمته سبحانه التي وسعت كل شيء.ويتميز هذا الطريق بما يأتي:

• إن هذا الطريق – إن صحت تسميته بذلك–، منشأه وأساسه من القرآن، وهو أقصر من الطريق الصوفي المعروف، وهو أسلم لأنه لا يترك الباب مفتوحا للشطحات الوجدانية، أو العبارات غير المنضبطة بأدب الشرع، إذ يلتزم المرء فيه، دوما بحدود الشرع وآدابه كما أنه طريق الصحابة الكرام والتابعين رضي الله عنهم..[28]

• أوراد هذا الطريق القصير، وأذكاره، تنحصر في اتباع السنة النبوية.. والعمل بالفرائض، و لا سيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان، والعمل بالأذكار عقبها.. وترك الكبائر.

• تتولد لدى سالكي هذا الطريق، لأنه يقوم على براهين يقينية، درجة من القناعة أكثر بكثير مما عند مريدي الطريق الصوفي المنبني على الاعتقاد في أشخاص الأقطاب وأقوالهم.

● ما يراه أهل الولاية من الحقائق بالعمل وبالعبادة وبالسلوك، وبالرياضة الروحية، وما يشاهدونه من حقائق الإيمان وراء الحجب، فانه يتحقق لدى سالكي هذا الطريق لأن رسائل النور المنبثق منها، شقت طريقا إلى الحقيقة في موضع العبادة ضمن العلم، وفتحت سبيلا إلى حقيقة الحقائق في موضع السلوك والأوراد ضمن براهين منطقية وحجج علمية، وكشفت طريقا مباشرا إلى الولاية الكبرى في موضع علم التصوف والطريقة ضمن علم الكلام وعلم العقيدة وأصول الدين، بحيث انتصرت على الضلالة الفلسفية التي تغلبت على تيار الحقيقة والطريقة في هذا العصر، والشاهد هو الواقع."[29]

● المعرفة الناتجة عن طريق التصوف ناقصة ومبتورة اذا ما قيست بالمعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء من القرآن الكريم مباشرة، ذلك لأن الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، يستلزم لدى أصحاب التصوف إنكار وجود الكائنات. بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، من غير أن تقضي على الكائنات بالعدم، و لا تسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية، وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شيء مرآة تعكس المعرفة الإلهية، وتفتح في كل شيء نافذة إلى المعرفة الإلهية، كما عبر عنها سعد الدين الشيرازي شعراً".[30]

● يستشهد النورسي باقوال الصوفية أنفسهم الذين أدركوا سموا الطريق القرآني وشموله، ويورد نصا للإمام الرباني السرهندي يقول فيه: "إن أكبر مبلغ للألوهية هو النبي صلى الله عليه وسلم، وهناك طريقان يوصلان الإنسان إلى كمالات النبوة التي نشرها النبي صلى الله عليه وسلم في العالم أحدهما: طريق الولاية ويدعى الولاية الصغرى، وهو طريق صعب الوصول إليه وتكثر فيه الأستار ويتطلب قطع مراتب عديدة فيه. والطريق الثاني: هو طريق الولاية الكبرى، وهو طريق الوراثة النبوية، ويوصل إلى الحقيقة مباشرة دون الدخول إلى برزخ التصوف، وهو طريق خاص بالأنبياء والصحابة والتابعين وبعض كبار تابعي التابعين، وطريق جماعة تأتي في آخر الزمان. وهذا الطريق قصير وسهل ودون أية مخاطر."[31]

● وينتهي النورسي بالدعوة إلى الدخول في منهجه المؤسس على القرآن والذي تعبر عنه رسائل النور لأنه المنهج الملائم لمواجهة تحديات العصر، فيقول:" لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشاه النقشبندي والإمام الرباني وأمثالهم من أقطاب الإيمان رضوان الله عليهم أجمعين، في عصرنا هذا لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية والعقائد

الإسلامية. ذلك لأنهما منشأ السعادة الأبدية.وأن أي تقصير فيهما يعني الشقاء الأبدي. نعم لا يمكن دخول الجنة دون إيمان بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف"[32].

وهكذا يتضح موقف النورسي من الصوفية والتصوف، والمتمثل في: رفض نظريات التصوف الفلسفية:الحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ووحدة الشهود، والداعي في الوقت نفسه إلى الالتزام بمنهج رسائل النورالتي تحقق ما يحققه الطريق الصوفي بايسر سبيل.

موقف النورسي من الفلسفة.

كانت الساحة التركية، إبان عصر النورسي، مسرحاً لمختلف التيارات الفلسفية والسياسية التي ظهرت في الغرب، من نظريات مادية، وتيارات الحادية، وفلسفات طبيعية. وقد كان لكل ذلك تأثير سلبي على كثير من المثقفين الأتراك.الذين تبنوا تلك النظريات، وبدأوا ينشرون الإلحاد ويدافعون عنه، مستندين إلى بعض من تلك النظريات الفلسفية، ومن هنا كان اهتمام بديع الزمان النورسي بالفلسفة، والمشتغلين بها.

و لم يصدر النورسي حكما عاما على الفلسفة، بل ميز بين أصنافها، وحاول تقييم كل صنف منها.فهناك فلسفة فاسدة استندت إلى أسس مادية طبيعية، وحاولت إيهام الناس بأن تلك الأسس أسس علمية. وقد شن النورسي هجوما عنيفا على هذه الفلسفة المادية الطبيعية، وبين أن ما سلكه أولئك الملاحدة الماديون من طرق ومناهج بعيدة كل البعد عن المسلمات المنطقية والعقلية، و أنها لا تعدوا أن تكون محض خرافة خرقاء.

وفي مقابل هذه الفلسفة الطبيعية التي أصبحت وسيلة للتردي والإلحاد، فان هناك نمطا آخر من الفلسفة أو الحكمة التي تهتم بالنظم الاجتماعية، والقيم الأخلاقية والمثل الإنسانية، وتعين على رقي الإنسان وتقدم المجتمعات، فمثل هذه الفلسفة لا تتعارض مع للدين و لا يعارضها، ويمكن للمؤمنين الاستفادة منها.

فالنورسي، إذن لا يرفض الفلسفة على اطلاقها، ، وانما هو يقسم الفلسفة إلى قسمين: قسم لا يتعارض مع حقائق القرآن الكريم، وطبيعي ان لا يرفض النورسي هذا القسم من الفلسفة لا سيما أنه هو الذي ملأ رسائله بالأدلة المنطقية، وأدلة العلم التجريبي في إثبات حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية، فجعل بذلك الحس والعقل مصدرين مهمين من مصادر المعرفة في الوجود.

فالفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهد للرقي الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن فلا تعارضها

و لا يمكنها ذلك. وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة، وتعارض الحقائق القرآنية."[33]

أما رأي النورسي في الفلاسفة الذين ظهروا في تاريخ المسلمين، فهم لم ينالوا في رأيه إلا أدنى درجات المعرفة الإيمانية: يقول النورسي:" ونظرا لاستناد الفلسفة إلى مثل هذه الأسس السقيمة ولنتائجها الوخيمة، فان فلاسفة الإسلام الدهاة، الذين غرَّهم مظهر الفلسفة البراق، فانساقوا إلى طريقها كابن سينا والفارابي، لم ينالوا إلا أدنى درجات الإيمان، درجة المؤمن العادي، بل لم يمنحهم حجة الإسلام الإمام الغزالي حتى تلك الدرجة"

وكذا أئمة المعتزلة، وهم من علماء الكلام المتبحرين، فلأنهم افتتنوا بالفلسفة وزينتها وأوثقوا صلتهم بها، وحكموا العقل، لم يظفروا درجة المؤمن المبتدع الفاسق."[34]

بل يتهم النورسي افلاطون وارسطو والفارابي وابن سينا بأنهم:" مهدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع الشرك، أمثال: عبدة الأسباب وعبدة الأصنام، وعبدة الطبيعة وعبدة النجوم، وذلك بتهييجهم الأنانية لتجري طليقة في أودية الشرك والضلالة، فسدوا سبيل العبودية إلى الله، وغلقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص المندرجة في فطرة الإنسان، فضلوا في أوحال الطبيعة و لا نجوا من حمأة الشرك كليا، و لا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع."[35]

وهكذا فان النورسي يرفض الكلام في صورته التقليدية، كما يرفض التجربة الصوفية الفلسفية التي تقوم على المعرفة الاشراقية، وتعتمد على رياضات وتجارب فردية، قد تختلط فيها الالهامات الرحمانية مع النفثات الشيطانية، و لا نستطيع أن نفرق بين الاثنين، فضلا عن رفضة للفلسفة المادية الالحادية.

منهج النورسي في تناول قضايا العقيدة

نظراً لاخفاق المذاهب الكلامية والطرق الصوفية والمناهج الفلسفية، والخلل الذي أصاب مناهجها وعدم ملاءمتها لظروف العصر، دعا النورسي إلى العودة لمنهج القرآن الكريم، والأخذ بأسلوبه في الخطاب والعرض.ويتميز أسلوب القرآن بالخصائص التالية:

1. يستمد القرآن أدلته من الكون المحيط بنا، وما يعج به من أنماط الكائنات والأحياء.

2. يدعو القرآن الناس إلى التفكر ويعرض عليهم نماذج من الحجج العقلية والبراهين المنطقية، والأدلة العلمية.

3. تتنوع أساليب القرآن وأنواع خطابه لتشمل جميع البشر على اختلاف مواهبهم ومقدراتهم العقلية.

4. تلتقي في القرآن الكريم جميع ملكات الإنسان وخصائصه: عقله وقلبه وحواسه وروحه، ويأخذ كلا منها بنصيبه من الخطاب القرآني.[36]

ومن تتبع رسائل النور نجد أن النورسي التزم بهذا المنهج القرآني، في تناوله لقضايا العقيدة وعرضها، متجاوزا الاتجاهات الكلامية، والنزعات الصوفية، والمناهج الفلسفية المادية، واستنبط من القرآن الكريم منهجا زاوج فيه بين إقناع العقل وتنوير الروح والقلب.

فالقرآن يخاطب جميع الموجودات، ويخاطب الإنسان ككل، وبخطابه لا يتلقى الفيض العقل او القلب فحسب، بل تتلقى ذلك الفيض جميع أحاسيس الإنسان وجوارحه.:" إن العقل والقلب، والروح، والنفس، والحس تأخذ حصتها من الحقائق التي هي بحكم الغذاء والطعام في رسائل النور، وإلا فإن العقل يأخذ حصة جزئية، وتبقى الأحاسيس الأخرى دون غذاء.

فالكلمات والأنوار المستقاة من القرآن الكريم" أي رسائل النور"، إذن ليست مسائل علمية عقلية وحدها، بل أيضاً مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية.. فهي بمثابة علوم إلهية نفسية ومعارف ربانية سامية".[37]

" ثم ان الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراته، و لا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته... وإنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معا وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلق إلى أوج العلا وتصل إلى مرق لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلا عن أقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة"[38].

إن خطاب القرآن يتجاوز حدود الكلام والتصوف، إذ قصارى ما يبلغه الكلام إقناع العقول، ومنتهى ما يبلغه التصوف إخضاع القلوب، و لا شك أنه لا خير في عقل لا خشوع فيه، و لا خير في لسان يلهج بالذكر و لا فكر معه، فالأجدى و الأنفع الجمع بين الحسنيين(قناعة العقل وخشوع القلب).[39]

وبهذا المنهج عرض النورسي لمسائل العقيدة وقضاياها كمسألة وجود الله تعالى، والوحدانية، والنبوة، والآخرة والقضاء والقدر.وغيرها من القضايا التي تمثل أركان العقيدة وأسسها ويدور حولها محور الدراسات العقدية، والتي تمثل أساس بناء الإسلام الذي تقوم عليه كل نظم الإسلام وقيمه وتعاليمه، والتي كانت ولازالت مثار الجدال والتحدي من قبل طوائف عديدة قديمة وحديثة .

وسنعرض في ما يلي لمنهج النورسي في معالجة قضية :وجود الله تعالى ووحدانيته، واسمائه وصفاته، كنموذج نرى من خلاله كيف التزم النورسي بمنهج القرآن الكريم، وما احدثه من تجديد في العرض والبيان:

وجود الله تعالى: لإثبات وجود الله تعالى اتبع النورسي عدة أساليب من بينها:

1. استخدام بعض أدلة المتكلمين: رغم ما وجهه النورسي من نقد لدليلي "الحدوث"، و"الإمكان" كما سبق أن أشرنا، فقد استفاد من هذين الدليلين، بعد أن جردهما مما اعتورهما من مصطلحاتهما الجافة، وأسلوبهما المشوش، ووظفهما لإيصال الناس إلى معرفة الله الخالق.:" نعم إن حقيقة الحدوث استولت على الكائنات استيلاء تاما، إذ ترى العين المجردة حدوث أكثرها، ويرى العقل حدوث القسم الآخر..وهكذا فإن إحداث وإيجاد عوالم حياتية وكائنات مسخرة موظفة في هذه الدنيا، ومن ثم إدارتها بكل علم وبصيرة وحكمة وميزان وموازنة، وانتظام ونظام واستخدامها في المقاصد الربانية، ولغايات إلهية وخدمات رحمانية، واستعمالها بكل قدرة، واستخدامها بكل رحمة تدل بالبداهة أن لا بد من وجود الخالق ذي الجلال، ويظهر للعقول كالشمس إنه سبحانه ذو قدرة وحكمة لا نهاية لها".

أما الإمكان فيشاهد في كل الكائنات ما صغر منها وما كبر، ما دق منها وما عظم، ودخولها في الوجود بذاتية خاصة، وصور معينة، وشخصية مميزة، وصفات مخصوصة، وبكيفيات حكيمة، وبأجهزة ذات مصلحة وفوائد..وقد أعطيت تلك الصور والصفات والخصائص دون غيرها من الصفات والصور، ومنحت تلك الخصائص من بين احتمالات كثيرة وإمكانات متعددة. الأمر الذي يدل على وجود الخالق سبحانه الذي خصص ورجح وأحدث وعين.[40]

2. ركز النورسي على الأدلة المستنبطة من القرآن الكريم، من منطلق دلالات الأنفس والآفاق، ففي تفسيره لقول الله تعالى: (**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّه لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**)" [يونس:62] يشرح هذين الدليلين فيقول عن المنهج النفسي: " فالسير

النفسي يبدأ من النفس، ويصرف صاحب هذا السير نظره عن الخارج، ويحدق في القلب مخترقا أنانيته، ثم ينفذ منها ويفتح في القلب ومن القلب سبيلا إلى الحقيقة.. ومن هناك ينفذ إلى الآفاق الكونية فيجدها منورة بنور قلبه، فيصل سريعا، لأن الحقيقة التي شاهدها في دائرة النفس يراها بمقياس أكبر في الآفاق، وأغلب طرق المجاهدة الخفية تسير في هذه السبيل، وأهم أسس هذا السلوك هو كسر شوكة الأنانية وتحطيمها، وترك الهوى، وإماتة النفس."

ويصور في السياق نفسه المنهج الثاني المعروف في أدبياته بالآفاقي بقوله:" أما النهج الثاني فيبدأ من الآفاق، ويشاهد صاحب هذا النهج تجليات أسماء الله الحسنى، وصفاته الجليلة في مظاهر تلك الدائرة الآفاقية الكونية الواسعة ثم ينفذ إلى دائرة النفس، فيرى أنوار تلك التجليات بمقاييس مصغرة في آفاق كونه القلبي، فيفتح في هذا القلب أقرب طريق إليه تعالى، ويشاهد أن القلب حقا مرآة الصمد، فيصل إلى مقصوده، ومنتهى أمله"[41]

واتباعا لمنهج القرآن الكريم، استخدم النورسي المادة العلمية التي قدمها القرآن الكريم لمعرفة الله تعالى، والتي يشاهدها الإنسان أمامه مع اختلاف بيئات الناس، والمتمثلة في أجزاء الكون التي نشاهدها من شمس وقمر، وجبال وبحار وأنهار وأشجار، ونباتات وفواكه، ومن طيور ودواب وحيوانات إلى غير ذلك من كائنات وأحياء وأشياء. يعيشون خارج عصرهم من الناحية الفكرية والحضارية، بل وحتى النفسية".[42]

ومن الأدلة القرآنية التي ركز عليها دليلي: العناية والغاية، والاختراع. وقد سبق لابن رشد أن بين هذين الدليلين، واعتبر دليل العناية أحد الطرق التي نبه عليها القرآن الكريم، وينبني على أصلين:

أحدهما : أن جميع الموجودات في الكون موافقة لوجود الإنسان .

الثاني : إن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، ولا يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق.

وقد وردت الإشارة إلى هذا الدليل في العديد من الآيات القرآنية، النبأ: 6-16، الفرقان: 61، عبس: 24-32 [43]

أما الطريق القرآني الثاني فهو دليل الاختراع، كما يقول ابن رشد، ويقوم هذا الدليل أيضا، على أصلين:

أولهما : أن هذه الموجودات مخترعة، **الأصل الثاني**: إن كل مخترع فله مخترع، فيصبح من هذين الأصلين أن للوجود فاعلاً مخترعاً له."[44]

وقد أورد النورسي كلا من دليلي العناية والاختراع، وبين :" أن النظام المندمج في الكائنات وما فيه من رعاية المصالح والحكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفيا قاطعا وهم المصادفة والاتفاق الأعمى"[45].واستخلص من ادلة الاختراع :" إن الله قد أعطى كل فرد، وكل نوع، وجودا خاصا، هو منشأ آثاره المخصوصة، ومنبع كمالاته اللائقة، فلا نوع يتسلسل إلى الأزل، لأنه من الممكنات.."[46]

ومن خلال تفسيره لقوله تعالى: (**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) [الزمر: 62-63]. وقوله تعالى: (**فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) [يس:83]. يثبت النورسي أن كل موجود من الموجودات يدل على وجوب وجود الله تعالى، ويشهد على وحدانيته فيقول:" تأمل في بستان هذه الكائنات، وانظر إلى جنان هذه الأرض، وانعم النظر في الوجه الجميل لهذه السماء المتلألئة بالنجوم، تر أن للصانع الجليل جل جلاله ختما بمن هو صانع كل شيء على كل مصنوع من مصنوعاته، وعلامة خاصة بمن هو خالق كل شيء على كل مخلوق من مخلوقاته، وآية لا تقلَّد خاصة بسلطان الأزل والأبد على كل منشور من كتابات قلم قدرته على صحائف الليل والنهار وصفحات الصيف والربيع.

سنذكر من تلك الأختام والعلامات بضعا منها نموذجا ليس إلا، انظر مما لا يحصى من علاماته إلى هذه العلامة التي وضعها على "الحياة": " إنه يخلق من شيء واحد كل شيء، ويخلق من كل شيء شيئاً واحداً "، فمن ماء النطفة بل من ماء الشرب يخلق ما لا يعد من أجهزة الحيوان وأعضائه، فهذا العمل لا شك أنه خاص بقدير مطلق القدرة.

ثم إن تحويل الأطعمة المتنوعة – سواء الحيوانية أو النباتية- إلى جسم خاص بنظام كامل دقيق ونسج جلد خاص للكائن، وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة، لا شك أنه عمل قدير على كل شيء وعليم مطلق العلم.

نعم إن خالق الموت والحياة يدير الحياة في هذه الدنيا، إدارة حكيمة بقانون أمري معجز، بحيث لا يمكن أن يطبق ذلك القانون وينفذه إلا من يصرِّف جميع الكون في قبضته.

وهكذا إن لم تنطفئ جذوة عقلك و لم تفقد بصيرة قلبك فستفهم أن جعل الشيء الواحد كل شيء بسهولة مطلقة وانتظام كامل، وجعل كل شيء شيئاً واحداً بميزان

دقيق، وانتظام رائع، وبمهارة وإبداع، ليس إلا علامة واضحة، وآية بينة لخالق كل شيء وصانعه."[47]

3- رد النورسي خلال عرضه لقضية وجود الله تعالى على الماديين، إذ شهد عصره ظهور مذاهب فكرية ونظريات فلسفية تبنت الإلحاد منطلقاً واتخذت من التفسير المادي للكون والحياة هادياً فظهرت الماركسية بمنهجها المادي الجدلي، والوجودية الملحدة بنظريتها العدمية والوضعية وفلسفتها التطورية، وهذه المذاهب وإن اختلفت فيما بينها فأنها تلتقي في الأساس المادي الذي تقوم عليه، وتتفق في إنكارها كل ما ليس بمادي وتنظر إلى المادة باعتبارها الفاعل الوحيد في الكون والحياة[48] .

وقد استخدم فلاسفة هذه المدارس المادية الجدل الفلسفي المبنى على قضايا الحتمية المادية وحتمية التطور والاحتمالات الرياضية ودور الصدفة في نشأة الكون، كما أستند العلماء التجريبيون منهم على التجربة باعتبارها الطريق الوحيد للمعرفة واعتبروا كل ما لا يخضع لها باطل بما في ذلك المعتقدات الدينية من إيمان بالله وملائكته والرسالات الإلهية والآخرة وما فيها من غيبيات .

فهذه الفلسفات بمناهجها وما أثارته من قضايا مثلت تحدياً كبيراً للعقائد الدينية، ومن ثم اهتم النورسي بها ورد مقولات تلك الفلسفة المادية التي تنسب الوجود إلى الأسباب المادية، أو تزعم وجود الأشياء وجودا ذاتيا، أو تدعي أن الطبيعة هي التي أوجدت الأشياء.ويقول في مقدمة رسالة الطبيعة:" أيها الإنسان : اعلم أن هناك كلمات رهيبة تفوح منها رائحة الكفر النتنة، تخرج من أفواه الناس، وترددها ألسنة أهل الإيمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون، وسنبين ثلاثا منها هي الغاية في الخطورة:

أولاها: قولهم عن الشيء:" أوجدته الأسباب"، أي ان الأسباب هي التي توجد الشيء المعين.

ثانيها: قولهم عن الشيء:" تشكل بنفسه"، أي أن الشيء يتشكل من تلقاء نفسه، ويوجد نفسه، بنفسه، وينتهي إلي صورته التي انتهي إليها كما هي.

ثالثتها: قولهم عن الشيء:" اقتضته الطبيعة"، أي أن الشيء طبيعي، والطبيعة هي التي أوجدته واقتضته.

نعم! ما دامت الموجودات موجودة وقائمة أمامنا بما لا يمكن إنكارها مطلقا، وأن كل موجود يأتي إلى الوجود في غاية الإتقان والحكمة، وهو ليس بقديم أزلي، بل هو محدث جديد.

فيا أيها الملحد ! إما أن تقول إن هذا الموجود – وليكن هذا الحيوان مثلا-توجده أسباب العالم، أي أنه يكتسب الوجود نتيجة اجتماع الأسباب المادية، أو أنه تشكل بنفسه، أو أنه يرد إلى الوجود بمقتضى الطبيعة ويظهر بتأثيرها ! أو عليك أن تقول: إن قدرة الخالق ذي الجلال هي التي توجده.لأنه لا سبيل إلى حدوثه غير هذه الطرق الأربعة، حسب موازين العقل.فإذا ما أثبت-إثباتا قاطعا-أن الطرق الثلاثة الأولى محالة، باطلة ممتنعة، غير ممكنة، فبالضرورة والبداهة يثبت الطريق الرابع، وهو طريق وحدانية الخالق بيقين جازم لا ريب فيه."[49]

4- تقرير حقائق العقيدة بلغة العصر،:

إن العقلية التي أصبحت سائدة في ذلك العصر هي العقلية العلمية العملية، أي العقلية التي تقتنع بالأسلوب الذي يستخدم معطيات العلم التجريبي، لذلك خاطب النورسي تلك العقلية، وسعى إلى تقريب أصول العقيدة بأمثلة حية من معطيات العلوم التجريبية، ولذلك شاع في كتاباته سوق الأمثلة العلمية من الطبيعة والكائنات الحية، والنبات والحيوان والذرة. يقول النورسي: " إن في حركة كل ذرة وفي سكونها، يتلمع نوران للتوحيد، كأنهما شمسان ساطعتان... إن كل ذرة من الذرات، إن لم تكن مأمورة بأوامر الله تعالى، وإن لم تتحرك بإذنه وفعله، وإن لم تتحول بعلمه وقدرته، فلا بد أن يكون لكل ذرة علم لا نهاية له، وقدرة لا حد لها، وبصر يرى كل شيء، ووجه يتوجه إلى كل شيء، وأمر نافذ في كل شيء، لأن كل ذرة ... تعمل عملا منتظما في جسم كل كائن حي، علما أن أنظمة الأشياء، وقوانين تركيبها، مخالف بعضها بعضا، و لا يمكن عمل شيء ما لم تعلم أنظمته، وحتى لو قامت الذرة بعمل، فلا يخلو من خطأ، والحال أن الأعمال تنجز من دون خطأ، فإذن إما أن تلك الذرات العاملة تعمل وفق أوامر من يملك علما محيطا بكل شيء، وبإذنه وبعلمه، وبإرادته... أو ينبغي أن يكون لها مثل ذلك العلم المحيط والقدرة المحيطة".[50]

5-العناية بآثار العقيدة في النفس الإنسانية :

تحولت دراسات العقيدة، في العصور المتأخرة إلى بحث نظري ينظم المقدمات ويستخلص النتائج وأصبحت شروحها رياضة عقلية شبيهة بمعادلات الجبر، لا تحرك النفس ولا ينفعل بها الوجدان، وأصبحت الأدلة على وجود الله، وواجب الوجود تذكر

من غير أن يستشعر من يذكرها عظمة الخالق في قرارة نفسه، ويختلج في بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سواه وألهمة فجوره وتقواه "[51]

لذلك اهتم النورسي بآثار العقيدة وارتباطها بالقيم الأخلاقية والأنماط السلوكية، ودعا إلى تخلق المسلمين بأخلاق الله تعالى وأكثر من التذكير بجلال الله وجماله، واحسانه لعباده، وحكمته في خلقه وكماله، ليلفت نظر المسلم إلى التخلق بتلك الأخلاق الإلهية، والتحلي بما تدل عليه، و لا يكفي، كما يقول أن نتعلم أن الله حكيم، و لا نبغي الحكمة و لا نتجللها، كما لا يكفي أن نعلم أن الله رحيم و لا نرحم و لا نتراحم، وبهذا ربط النورسي الإيمان بآثاره النفسية والواقعية، وأعاد وشائج القربى والتلاحم لجزئيات العقيدة، وبهذا جدد النورسي دراسات العقيدة، وأزال عن تلك الدراسات ما اتسمت به خلال قرون عديدة من جمود وجفاف. ومن ثم جاء تركيزه على الجوانب التي تميز المؤمن عن غيره، وعلى ما يعكسه الإيمان على نفس المؤمن، وعقله وقلبه، وأثره في واقع حياته.ومن تلك الآثار التي تترتب على الإيمان :

1. الإيمان بالله يمد الإنسان بنظرة متميزة للعالم، فبدلا من النظرة الموحشة المتشائمة التي يولدها الإلحاد، وتتولد لدى الغافلين الضالين، نجد أن المؤمن ينظر إلى الكون ويراه: " كتابا بليغا كتبه الأحد الصمد، ومدينة منسقة عمرَّها الرحمن الرحيم، ومعرضا بديعا أقامه الرب الكريم لإشهار مصنوعاته، فيبعث بهذا البيان حياة في تلك الجمادات، ويجعل بعضها يسعى لإمداد الآخر، وكل جزء يغيث الآخر ويعينه، كأنه يحاوره محاورة وديعة صميمة"[52]

2. كما أن الإيمان بالله يزود المؤمن بإجابة شافية على تلك الأسئلة المحيرة التي حارت فيها الفلسفة والإنسانية وضلت فيها الأمم.فبهذا الإيمان: ينكشف السر المغلق للأسئلة المحيرة: من أين يأتي سيل الموجودات، وقافلة المخلوقات؟ والى أين المصير؟ و لم جاء؟ وما ذا يعمل؟ وبسر التوحيد تتحقق مزايا الكون وكمالاته، وتدرك الوظائف الإلهية للموجودات، وتتقرر نتيجة خلق المخلوقات، وتعرف أهمية المصنوعات، وتبرز ما في هذا العالم من مقاصد إلهية".[53]

3. يحدث الإيمان توازنا في عقل الإنسان وعواطفه.فالعقل الضال الذي يسير بغير هدى ويتخبط في الظلام، يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج بما يجمع من آلام الماضي الحزين ومخاوف المستقبل الرهيبة"، بينما الإيمان يعالج هذه الأزمة الداخلية بمعنى التوحيد وأعماله القلبية كالصبر والشكر.، والرضا، واليقين، والتوكل، وتفويض المر لله، وتجنب

التحسر والأسى على الماضي الفائت، أو الترقب المميت لمآتي المستقبل... والعواطف الرقيقة تتكسر أجنحتها، وتزول شفافيتها، بغياب الإيمان، والشفقة والحنان يتحولان إلى دافعين أليمين؛ بما تنشآنه في النفس غير المؤمنة من ألم الأسى على ما يصيب البشر والحياة من مظاهر الأذى والشر والزوال، التي تورث في الوجدان" ألم الحرقة، وعذاب الفراق، وجرح العطف". وكذلك الحب... المتكدر برؤية الزوال. بينما يكشف التوحيد للمؤمن أسرار وجود الشر والموت والزوال وحكمه؛ فتبقى عواطفه متوازنة، سليمة متوافقة مع دواعي العقل ورؤى الإيمان. فالشر في المنظور الإيماني ليس إلا أمرا عارضا جزئيا و لا يخلو من حكمة، والموت بمثابة" مقدمة لحياة باقية"، وزوال الأشياء إنما هو تجديد لها ولأمثالها، فهو تجديد ممتع ملذ شبيه بتجدد مشاهد السينما، وشبيه بتجدد جمال حباب النهر الجاري تحت ضوء الشمس".[54]

4. إن للإيمان أثر كبير في تقوية الروابط الاجتماعية، وتوثيق عرى الوحدة والمودة بين أفراد المجتمع، لأن " الإيمان بعقيدة واحدة يستدعي حتما توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد، ووحدة العقيدة هذه تقتضي وحدة المجتمع".[55]

التوحيد:

لإثبات عقيدة التوحيد، لم يستخدم النورسي جدل المتكلمين، وحججهم العقيمة، بل التزم بمنهجه القرآني القائم على قواعد العلم والعقل، واستقراء النظام الموجود في الكون وقوانين الطبيعة، والذي من خلاله تظهر وحدة الخلق وانسجامه وترابطه، من ناحية، وتكون هذه الوحدة مظهرا من مظاهر وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، يقول النورسي: " إن موجودات الكون كلها بأنواعها المختلفة تتعاون فيما بينها كتروس ودواليب معمل رائع يعمل بنظام دقيق جدا، فتترابط أجزاؤها بعضها مع بعض ترابطا وثيقا، ويسعى كل جزء لتكملة مهمة الآخر.

فمثل هذا التعاون وهذا التساند وهذه الاستجابة وهذا السعي في المعاونة وإسعاف الآخرين وهذا الترابط والاندماج يشكل وحدة متحدة الأجزاء في الوجود كله تماما كما في أعضاء جسم الإنسان التي لا يمكن فك بعضها عن بعض لشدة الترابط والاندماج فيما بينها.أي أن الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود يلزم أن يكون زمام جميع العناصر بيده، وإلا فلا يمكنه السيطرة على ذلك العنصر الواحد. وهكذا فإن ظاهرة التعاون والتجاوب والتساند الجارية على وجه الكون بين جميع أجزائه هي اسطع شعار وختم للتوحيد ".[56]

أسماء الله تعالى وصفاته:

قد أثير جدل كثير حول قضية الأسماء والصفات، واشتد النـــزاع حولها بين مدارس الفكر الإسلامي لاسيما بين "السلف" والمتكلمين، ولازال هذا النـــزاع يحتـــل مكانـــة متقدمة في قضايا العقيدة . وأن النـــزاع حول هذه القضية في الماضي لم يثمـــر شـــيئاً وكانت له أثار سلبية، انعكست على مسار الفكر الإسلامي ووحـــدة المجتمـــع . ولم يستطيع جدال المعاصرين حول هذه المسألة أن يؤدى إلى نتيجة إيجابية، .ولعل النورسي أدرك أنه من الأوفق في مثل هذه القضية الرجوع إلى منهج القرآن الكريم وبيان الـــرأي الصحيح فيها بعيداً عن الجدل الكلامي بين الفرق.وتركزت معالجته للقضية على ما يلي:

- إن أسماء الله الحسني، هي المنطلق لمعرفة الله تعالى حق المعرفة، وواجب الإنســـان كما يقول قراءة هذه الأسماء وتعلمها وكشف معانيها، والتجول في المراتب التي تصفها وتشرحها هذه الأسماء، حتى يتمكن الإنسان من أن يجد الموضع الذي يستطيع أن يتوجه إليه بمشاعر الشكر، وكلما ازدادت معلومات الإنسان عن ربه ومعرفته به ازداد حبه له، وسعى لأن يجعل نفسه محبوبا لديه.[57]
- التعرف على أسماء الله تعالى وصفاته من خلال آياته المنبثة في الكون، فكما يدلنا الكون على وجود الله تعالى، فانه يدلنا على أسمائه الحسنى وصفاته العلى: "إن كتـــاب الكون الكبير هذا إذ تعلمنا آياته التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيتـــه، يشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة. ويثبت أيضـــاً كمال ذاته الجليلة المبرأة من كل نقص، والمنـــزهة عن كل قصور. ذلـــك لأن ظهـــور الكمال في أثر ما يدل على كمال الفعل الذي هو مصدره، كما هو بديهي، وكمـــال الفعل هذا يدل على كمال الاسم، وكمال الاسم يدل على كمال الصفات، وكمـــال الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الـــذات ذات الشؤون حدسا وضرورة وبداهة".[58]
- أن تكون نقطة البدء دوما من جزئيات الوجود: إن الانتقال من الآثار والفعـــال التي نشاهدها إلى الأسماء والصفات يحتاج إلى تأمل دقيق وتفكير عميق، ويمكـــن البـــدء دائما من جزئيات الوجود، ومطالعة الأسماء والأفعال العديدة المتجلية في كائن واحد مع الأسماء والأفعال المتجلية في جميع الكائنات. ويضرب النورسي بعض الأمثلة، مثل إرسال اللبن الخالص السائغ إلى رضيع صغير لا يملك حولا و لا قوة، يظهر الجمال الســـرمدي لرحمة الله بجميع محتاجي الكون.والشفاء من مرض عضال يتجلى من خلاله جمال شفقة

الرحيم وكمال إحسانه الشفاء إلى جميع المرضى،[59] فكل شيء في العالم يسند جميع الأشياء إلى خالقه، وكل اثر في الدنيا يدل على أن جميع الآثار هي من مؤثرة هو... وأن كل فعل إيجادي في الكون يثبت أن جميع الأفعال الإيجابية إنما هو من أفعال فاعله هو.. وان كل اسم من الأسماء الحسنى الذي يتجلى على الموجودات يشير إلى أن جميع الأسماء انما هي لمسماه هو... أي أن كل شيء هو برهان وحدانية واضح، ونافذة مطلة على المعرفة الإلهية. فالكائن الفرد مهما صغر مثال للكائنات جميعها، ومن ثم قان موجده لا بد أن يكون موجد الجميع، فالذي يحي البعوضة لا بد أن يكون هو المحيي لجميع الحشرات.والذي يجعل الذرات تدور، هو محرك الموجودات جميعا.ومن ناحية أخرى فان الأسماء متداخل بعضها في بعض فمثلا اسم المحي عندما يتجلى ويمنح الحياة، يتجلى من خلاله اسم الحكيم، والكريم والرحيم والرزاق، وغيرها من الأسماء الإلهية. والنظر إلى الاسماء بهذا المنهاج يوصلنا إلى أن كل اسم، وكل فعل، وكل أثر، برهان وحدانية، وختم توحيد، وخاتم أحدية بحيث يدل على أن الكلمات التي هي الموجودات المسطورة في صحائف الكون، وفي سطور العصور إنما هي كتابة قلم نقاشه ومصوره جل وعلا".[60]

● وهكذا فان الإنسان يستطيع في ضوء القرآن مطالعة الكون ككتاب يجد أسماء الله تعالى وصفاته في كل جزئية من جزئياته، ومن خلال ذلك يصل إلى معرفة ربه، ويستمتع بلذة مناجاته سبحانه وتعالى.

خلاصة البحث:

من خلال هذه الدراسة الموجزة لمظاهر التجديد في دراسة العقيدة عند النورسي، تبين ما يأتي:

1. إن النورسي كان على معرفة تامة وعميقة، بالمناهج المختلفة لدراسة العقيدة: المنهج الكلامي، والمنهج الصوفي، والمنهج الفلسفي، ومن ثم قدم تقويما موضوعيا لكل منها. فلم يرفض الكلام في جملته، كما لم يستبعد التجربة الصوفية تماماً، و لم يذم الفلسفة على إطلاقها، بل بين قصور الكلام – في صورته التقليدية التاريخية – عن مواجهة التيارات المادية الإلحادية الحديثة، رغم ما فيه من جوانب إيجابية، وكشف عن عجز التصوف عن مقابلة التحديات التي كان يواجهها الفكر الإسلامي، وذم الجانب المادي

الإلحادي في الفلسفة، مع تقديره لما يمكن أن تلعبه من دور إذا توافقت مع الوحي وسارت في ركابه.

2. أقام النورسي منهجه في دراسة العقيدة – كما يظهر من خلال رسائله – متتبعا خطى القرآن الكريم، مستمدا من القرآن الكريم، القضايا والمنهج.، ووفقا لذلك المنهج القرآني عالج قضايا الإيمان جميعها: وجود الله تعالى ووحدانيته، واسمائه وصفاته، والآخرة وما فيها من وقائع وأحداث، والنبوات، والملائكة، والقدر.

3. اقتصرت الدراسة على قضايا محددة من قضايا العقيدة: وجود الله تعالى ووحدايته وأسمائه وصفاته. ومن خلالها تبين أن النورسي استفاد من ثقافته الكلامية، ومعارفه الصوفية، وخبرته الفلسفية، وقبل هذا كله كان منطلقه القرآن الكريم، ووظف ذلك كله من اجل إنقاذ الإيمان، وذلك باستنباط الأدلة، وصياغة القضايا:فركز على أدلة القرآن الكريم، بخصائصها المتميزة، ورد على الفلسفة المادية ونقض حججها وبين تهافتها، وجاء خطابه متسما بالسهولة، وملائما لمدارك الخاصة والعامة، وحاول من خلال رسائله إثبات حقائق الإيمان لجميع طبقات الناس على اختلاف درجاتهم في الفهم، والاستحسان، والطبيعة والميل.هذا مع ربط القضايا جميعها بالجانب التربوي الذي يحدث أثرا في حياة الناس أفرادا وجماعات.

بهذا المنهج استطاع النورسي أن يحول قضايا العقيدة إلى قضايا حية ينفعل بها المسلم ويتفاعل معها، ويكون لها تأثير على سلوكه ورؤيته للكون وتقييمه للأحداث والمواقف. وبهذا كان النورسي جديراً بأن يعد – كما يقول الأستاذ محسن عبد الحميد – من أكابر المجددين، ليس في العصر الحديث فحسب، بل في تاريخ الإسلام كله".[61]

الهوامش:

1 انظر: التطور والتجديد في دراسات العقيدة الإسلامية، (أحمد محمد أحمد الجلي)، مؤتمر : تجديد الفكر الإسلامي، كلية الشريعة –جامعة اليرموك، الأردن، 3–5 يوليو 2001م

2 يراجع :بديع الزمان النورسي ، نظرة عامة عن حياته وآثاره(احسان قاسم الصالحي)،)، مطبعة النجاح الجديدة– الدار البيضاء، 1998م

3 الملاحق ملحق قسطموني(بديع الزمان النورسي) تر. إحسان قاسم الصالحي ص: 105.

4 بديع الزمان النورسي ، نظرة عامة عن حياته وآثاره(إحسان قاسم الصالحي).ص: 73.

5 المثنوي العربي النوري(بديع الزمان النورسي) تحقيق: احسان قاسم الصالحي، درا سوزلرللنشر، القاهرة، 1994م:ص:427–428.

6 ملاحق أمير داغ ص: 276.
7 نهاية الإقدام في علم الكلام (الشهرستاني) مكتبة المثنى بغداد ص3
8 المنقذ من الضلال (الغزالي) دار الكتاب اللبناني بيروت ط.2 1985م، ص:87.
9 المرجع نفسه ص:91.
10 إحياء علوم الدين (الغزالي) مطبعة الاستقامة، القاهرة د. ت. ج1 ، ص86
11 المرجع نفسه : ص21/20 .
12 درء تعارض العقل والنقل (ابن تيمية) تحقيق: محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ط. أولى 1981/1408. – ج1 ، ص160
13 مقدمة ابن خلدون(عبد الرحمن بن خلدون) تحقيق:علي عبد الواحد وافي، البيان العربي، القاهرة ط.أولى 1376/ 957م ، ج3 ، ص1083 .
14 النورسي الرائد الإسلامي الكبير (محسن عبد الحميد)، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل 1408/ 1987م. ص: 35.
15 ملحق قسطموني (النورسي) ص: 10
16 انظر:المثنوي العربي، ص:428.
17 انظر: التجديد في دراسة العقيدة الإسلامية (احمد الجلي) مصدر سابق.
18 بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره (إحسان قاسم الصالحي) ص:207.
19 انظر: النورسي الرائد الإسلامي الكبير(محسن عبد الحميد) ص: 55–58.
20 انظر: بديع الزمان النورسي وإثبات الحقائق الإيمانية(عمار جيدل) شركة نسل للطبع والنشر، ط. أولى، 1422/2001م ص: 121–122.
21 المصدر نفسه ص:130.
22 انظر: المكتوبات ص: 445.
23 ملحق أمير داغ :28/1.
24 من معالم التجديد عند النورسي (محسن عبد الحميد) ، ملاحق: ملحق أميرداغ / 344/2.
25 انظر: المكتوبات ص: 425/424.
26 المرجع نفسه، ص: 105
27 المكتوبات 76 ، انظر: آراء النورسي حول مذهب وحدة الوجود(بلال قوشبنار) المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان النورسي: " تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي".
28 المكتوبات ص: 460. انظر: بديع الزمان النورسي والتصوف، (جعفر بن الحاج السلمي)المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي ، 20–22 يوليو 1998.
29 الملاحق– أميرداغ/276
30 المكتوبات / 424–425.بتصرف.
31 الإمام الرباني ، الرسائل الجزء الأول ص 361–366 نقلا عن د. أحمد آق كوندوز: رسائل النور مدرسة إيمانية جديدة ، المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان النورسي.
32 المكتوبات ، المكتوب الخامس ص: 27.
33 ملحق اميرداغ ، 1/ 286.أيضا:مقدمة كتاب Asa-yi Musa (عصا موسى) نقلا عن محسن عبد الحميد ص:72.

34 الكلمات: ، الكلمة الثلاثون، ص: 645.
35 المصدر نفسه: ص:642.
36 انظر: دراسات في العقيدة الإسلامية (أحمد محمد أحمد الجلي) مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة ، ط. أولى 2002، ص:26-32.
37 المكتوبات ص: 459.
38 الملاحق قسطموني (سعيد النورسي) ترجمة إحسان قاسم ص: 105.
39 جيدل :65.
40 الآية الكبرى ص:93-96 بتصرف.
41 المكتوبات : 575.
42 بديع الزمان النورسي واثبات الحقائق الإيمانية(عمار جيدل) ص:64
43 الكشف عن مناهج الأدلة (ابن رشد) ص: 118-120.
44 المرجع نفسه ص:119
45 المثنوي العربي ص:428-429.
46 صيقل الإسلام(بديع الزمان النورسي) تر.إحسان قاسم الصالحي ، ص: 124-125.
47 الكلمات : 328.
48 الإلحاد المعاصر (أحمد الجلي) ص : 8-12
49 اللمعات (بديع الزمان النورسي) تر.إحسان قاسم الصالحي دار سولرز للنشر، ط. ثانية 1413/ 1993 م ص: 268.
50 أنا ص: 56-57.
51 انظر عقيدة المسلم (محمد الغزالي) ص : 8-9
52 الكلمات: ص:527.
53 الشعاعات (بديع الزمان النورسي) تر.إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ط.ثانية 1993/1414. ص:14.
54 الشعاعات ص: 21.
55 المكتوبات ص: 341.
56 حقيقة التوحيد أو التوحيد الحقيقي (النورسي) تر.إحسان قاسم الصالحي ص:74-75.
57 انظر: لمعات الأسماء الحسنى في رسائل النور (أوميد شمشك) المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان النورسي." بديع الزمان سعي النورسي واعادة بناء العالم الإسلامي في القرن العشرين".
58 الكلمات: ص: 342.
59 انظر : الشعاعات (النورسي) تر. إحسان قاسم ، ص: 8.
60 انظر: المكتوبات ص: 228-230.
61 من معالم التجديد عند النورسي (محسن عبد الحميد) مؤتمر:" جهود بديع الزمان النورسي في تجديد الفكر الإسلامي" 17، 18 مارس 1999. الرباط.

الأخلاق الإسلامية
في رسائل النور

أ.د. مجاهد مصطفى بهجت(*)

وهو دراسة عن الأخلاق في محورين:

الأول: مفهوم الأخلاق وأهميته في الإسلام خلال رسائل النور.

الآخر: التربية الأخلاقية في القرآن الكريم والسنة النبوية خلال رسائل النور.

إن دراسة رسائل النور تكشف عن احتفائها بالأخلاق وحفولها بهذه القيم النبيلة، ولا جرم فإن تراث الشيخ بديع الزمان النورسي زاخر بهذا الجانب، ومعروف أن مشروع الإصلاح والتغيير عند الشيخ سعيد النورسي سلك طريقين في حياته[1] ، أعان الله على تحقيق الأول، وهي رسائله التي وصلت اليوم بحمد الله إلى القاصي والداني من المسلمين، وبلغات مختلفة[2]، بعد أن كانت محاصرة لا يجد ضوء أشعتها ثغرة في سماء، سحابها كثيف، وغيومها ملبدة، لكنها اليوم كالشمس في رابعة النهار ظهوراً وبياناً، وكالسلسال الرقراق يبعث الحياة في الأرض الخصبة الطيبة. وعسى أن يتحقق حلمه في واقع الحياة في الطريق الآخر بمشروع الجامعة الإسلامية الزاهرة[3].

المحور الأول: مفهوم الأخلاق وأهميته في الإسلام خلال رسائل النور

قبل دراسة الأخلاق في رسائل النور نتبين مكانة الأخلاق في الإسلام، فلا ينبغي أن تفهم الأخلاق على أنها طرف أو جانب من جوانب الحياة الاجتماعية، بل هي جوهر الإسلام وروحه، وهدفه وغايته، وهي البعد الحقيقي المهيمن عليه الساري في جميع جوانبه.

(*) جامعة كبانغ سآن – ماليزيا

ويقسم بعضهم الإسلام إلى عقيدة وشريعة وأخلاق، ويجعل قواعد الدين في العقيدة والأخلاق والمعاملات، لكن العلاقة بين الدين والأخلاق علاقة ارتباط وتلازم عضوية، وهما حقيقتان لا تنفصلان، والصلة بينهما تصل إلى درجة التوحد لأن الأخلاق مستمدة من العقيدة وتقوم على قاعدة التقوى[4]. بل يجعل أحد الدارسين الأخلاق من أسس الإيمان، والإيمان من أسس الأخلاق[5].

وقد وضح الرسول (صلى الله عليه وسلم) العلاقة بين الإسلام والخلق فقال: الدين (الإسلام) حسن الخلق[6]، وهو غاية الإسلام "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[7]، والأخلاق ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان "إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً"[8]، ولا يقبل الإيمان المجرد من الخلق "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"[9]، وهو مما يثقل الميزان بالحسنات يوم القيامة "ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق"[10]، وهو مما يدخل الناس الجنة، سئل (صلى الله عليه وسلم) عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: "تقوى الله وحسن الخلق"[11]، بل يقرب حسن الخلق من مجلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة: " إن من أحبكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً"[12]، وهكذا يمكن القول أن الأخلاق ثمرة للإيمان والاعتقاد الصحيح.

ويمكن أن تعد الأخلاقية واحدة من الخصائص المميزة للإسلام مع الربانية والعالمية والإنسانية والوسطية والتكامل والتسامح والتنوع.[13] ولا يعترف الإسلام بتجزئة الأخلاق أو الفصل بين الناس، فالحلال والخير للجميع وكذلك الحرام والشر. ولا يعترف الإسلام بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، فالله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً.[14]

والهدف من العبادات تحقيق الأخلاق الفاضلة فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"[15]، وفي الصوم تصوم الجوارح عن المنكرات "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"[16]، والزكاة "صدقة تطهرهم وتزكيهم بها"[17]، والحج لا "رفث ولا فسوق ولاجدال في الحج"[18].

يؤكد الإمام النورسي أهمية الأخلاق بارتباطها بالإيمان، فيرى أن "الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية التخلق بالأخلاق الإلهية أي التحلي بالسجايا السامية، والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه"[19]، ويوضح المعنى مرة أخرى فيقول: " أي كونوا عباد الله المخلصين متحلين بأخلاق الله محتمين بحماه معترفين بقرارة

أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم"[20]. ويحسن التعبير في أسلوبه البليغ عن المسلم المؤمن الممتثل للأوامر القرآنية فيجعله ثمرة مباركة لشجرة الكون يقول: " أما إذا ربّى الإنسان بذرةَ استعداده وسقاها بماءِ الإسلام، وغذّاها بضياءِ الإيمان تحت تراب العبودية موجهاً أجهزتَها المعنوية نحو غاياتها الحقيقية بامتثال الأوامر القرآنية، فلابد أنها ستنشقّ عن أوراقٍ وبراعم وأغصانٍ تمتدّ فروعُها وتتفتّح أزاهيرُها... فيصبح الإنسان بذرةً قيّمةً حاوية علىٰ أجهزة جامعةً لحقيقة دائمة ولشجرة باقية، ويغدو آلةً نفيسة ذات رونق وجمال، وثمرةً مباركة منورة لشجرة الكون[21].

ويستنتج أهمية الأخلاق للإنسان من بعض الأمور فمن ذلك:

خلق الله الإنسان على صورة الرحمن، فهذا يعني السيرة والأخلاق[22].

2- حب الله للرسول صلى الله عليه وسلم لأخلاقه،وتأتي هذه المحبة ضمن محبة الله لجماله، ولصنعته، وأخلاق مخلوقاته يقول: "وإنه سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته يحب محمداً صلى الله عليه وسلم، إذ هو في ذروة الأخلاق الحميدة، كما اتفق عليها الأولياء والأعداء، ويحب كذلك من يتشبهون به في الأخلاق، كل حسب درجته...هو مقام خصّ بمحمد صلى الله عليه وسلم، ولأجله منح اسم "حبيب الله".[23]

فما هي الأخلاق المهمة للمسلم؟

إذا بحثنا عن الأجود والأفضل في الأخلاق، ومن الصعب أن نفاضل بينها فيمكن الاهتداء للأفضل حيث يرى أن التقوى أساس الأخلاق في هذا الوقت، يقول: ففي هذا الوقت الذي يتسم بالدمار- الأخلاقي والروحي - وبإثارة هوى النفس الأمارة، وبإطلاق الشهوات من عقالها...تصبح التقوى أساساً عظيماً جداً بل ركيزة الأسس، وتكسب أفضلية عظيمة حيث أنها دفع للمفاسد وترك للكبائر، إذ أن درء المفاسد أولى من جلب المنافع قاعدة مطردة في كل وقت[24]. ويؤكد هذا المعنى لطلاب النور بالتسلح بالتقوى فيقول: إن أهم وظيفة تقع على عاتق طلاب النور خدام القرآن الكريم، في هذا الوقت هي: اتخاذ التقوى أساساً في الأعمال كلها، ثم التحرك وفقها أمام تيار الدمار الرهيب المهاجم والآثام المحيطة بهم، إذ يواجه الإنسان ضمن أنماط الحياة الاجتماعية الحاضرة مئات من الخطايا في كل دقيقة، فالتقوى هي التي تجعل- دون ريب - الإنسان كأنه يقوم بمئات من الأعمال الصالحة، وذلك باجتنابه تلك المحرمات[25]. وقد ذكر في

تفسير قوله تعالى:" لعلكم تتقون" إن حكمة خلق البشر هي التقوى.. وكذا رمز إلى أن نتيجة العبادة مرتبة التقوى.. وكذلك إيماء إلى أن التقوى أكبر المرات[26]. ثم ذكر مراتب التقوى، وهي: التقوى عن الشرك، ثم التقوى عن الكبائر، ثم التقوى بحفظ القلب عما سواه تعالى، وكذا التقوى بالتجنب عن العقاب، وأيضاً التقوى بالتحرز عن الغضب.[27]

ويتفق معه الدكتور درّاز في أهمية التقوى إذ يراها الفضيلة الأم التي تتكاتف فيها كل الوصايا، فهي العدل والرحمة، وتتواثق في الشريعة جميع العناصر الفردية والاجتماعية والإنسانية والإلهية على نحو متين[28].

وهو يحدد الفروق والخطوط الفاصلة بين بعض الأخلاق المتقاربة، فعزة النفس عند القوي تكبّر، والتواضع غير التذلل والوقار غير التكبّر، يقول: " إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبّراً، وكذا التواضع الذي يشعر به.

القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللاً. ومثلاً: إن جدّية ولي الأمر في مقامه وقارٌ، بينما لينُه ذلة. كما أن جديّته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع.[29]

هناك بون شاسع وفرق هائل بين الاقتصاد والخسة، إذ كما أن التواضع الذي هو من الأخلاق المحمودة يخالف معنىً التذللَ الذي هو من الأخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة. وكما أن الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنىً التكبّر الذي هو من الأخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة. فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الأخلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيج من السفالة والبخل والجشع والحرص. بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، إلاّ ذلك التشابه الظاهري.[30]

ويضرب لذلك مثلاً بقصة ابن عمر في موقفين مختلفين: تعامله في السوق على شيء لا يساوي قرشاً واحداً، وإغداقه على فقيرين بقطعتي ذهب عند باب داره. وحين سئل عن ذلك بين أن ما كان منه في السوق من الاقتصاد والحصافة، وليس بخسة أو بخل، وما كان منه مع الفقيرين من الرأفة والرقة وسمو الروح.

ويدرك كذلك نسبية الأخلاق، فالشجاعة والسخاء إذا كانتا محمودتين في الرجال فليستا كذلك عند النساء، يقول: إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نـــزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدّلت مكاناً بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة ومن الشخص إلى الأمة، فمثلاً: الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج[31].

ولكن يبقى جمال المرأة في الأخلاق، فيحذر من ارتباط المحبة بالجمال الظاهري السريع الزوال، ويؤكد أهمية ارتباط المحبة بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً، "وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها. وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. وبمحبتهما تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلاّ تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها، بزوال الجمال الظاهري"[32].

وينبه إلى أن الأخلاق ليست فطريةً فقط بل هي كسبية أيضاً ويقرر أن نمو الأخلاق يكون بالمجاهدة، يقول: " فإذن نشوء الحسيات العالية ونمو الأخلاق إنما هو بالمجاهدة، وتكامل الأشياء إنما هو بمقابلة الأضداد ومزاحمتها"[33]

ويتفق معه الدارسون على إمكانية كسب الأخلاق وتقويمها بوسائل كثيرة، منها تعميق معاني العقيدة في النفس، وتزكية النفس بالعبادات، والتوبة والمحاسبة اليومية، وزرع الخلق الحسن بالتكلف[34].

لكن الشيخ سعيد النورسي وجد في محنة السجن التي ابتلي بها منحةً حيث يرى السجن مدرسة يوسفية تربوية تنمي الأخلاق، حقاً إن السجن مدرسة تربوية لتقويم الأخلاق. فليشاهد مسؤولو السجن ومن يتولون أمره، أنّ من ظنوهم مجرمين قتلة، وحسبوهم سفهاء مخلين بالنظام، قد أصبحوا طلاب مدرسة تربوية مباركة يتعلمون فيها الأدب الجميل والخلق القويم[35].

ويقرر كذلك كسب الأخلاق من بعضنا البعض لعل الله سبحانه يجعلنا ممن يغرسون في هذا السجن الغراس لتخرج منه أشجار مثمرة نافعة. ونسعى جاهدين ليكون مسؤولو

السجن أساتذة مرشدين يهيئون في هذه المدرسة اليوسفية رجالاً إلى الجنة، ومشرفين طيبين يتولون حسن توجيههم، وليسوا زبانية عذاب على جناة قتلة[36].

ويقرر تلاميذه استفادتهم الأخلاق من رسائل النور، لأنها تعلم الأخلاق القرآنية، يقول أحدهم: إن قيامه منذ ما يقرب من خمس وعشرين سنة بمحاولة إنقاذ إيمان مئات الآلاف من الناس برسائل النور، ولاسيما من أمثالي من المساكين الذين لم نكن نعرف شيئاً عن الإسلام وإعطاءنا دروساً في الإيمان الذي هو السعادة القصوى والغاية من الحياة يعد دون شك فضلاً إلهياً.[37]

وتلاميذه وإن لم يكونوا بمستوى أخلاقي واحد، لكنهم تميزوا بها، وكانت مقاومتهم للتخريبات عملاً خارقاً. "وذلك لأن معاول الهدم ومطارق التخريب منذ عشرين عاماً مقترفةً أشد أنواع الظلم وأقسى ضروب التعسف لإفساد الأخلاق.." [38].

وهذه الرسائل في الذروة تعليماً للأخلاق والفضيلة، فالرسائل القرآنية أينما حلت قاومت الدمار، وحالت دون تهدم هذا الأساس الاجتماعي المتين بل حاولت تعميره.

ويرى الفساد الأخلاقي كبيراً أبشع من فساد يأجوج مأجوج قد دب في العالم وأحاط بظلمات الإرهاب والفوضى وعمت الحياة والأخلاق مظالم شنيعة وإلحاد شنيع.

وهي كذلك تعارض السقوط الأخلاقي، ولذلك تعتمد على الأمثال والنصائح الأخلاقية...كما أن معظم رسائل النور كتبت لتوضيح الحقائق الدينية والإيمانية، وحول عقائد الإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر. ولكي تتوضح هذه الحقائق بشكل أفضل انتهجت رسائل النور أسلوب ضرب الأمثال وإيراد القصص، وقدمت رأيها العلمي وإرشاداتها ونصائحها الأخلاقية ضمن مناقب حميدة وتجارب في الحياة وقصص ذات عبر، ولا تحتوي هذه الرسائل على أي شئ يمكن أن يمس الحكومة أو المراجع الرسمية[39].

ورسائله تحارب الفلسفة المُضرة، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة.[40]

ويدرس أسباب تدهور الأخلاق ويرى أن سبب تردي الأخلاق في كلمتين:

إذا شبعت فلا عليّ أن مات غيري جوعاً.
اكتسب واتعب أنت لآكل وأستريح أنا.

ويديم هاتين الصفتين جريان الربا وعدم الزكاة، و يجد الدواء لهذا المرض بتطبيق الزكاة وتحريم الربا. ويبين أهمية الزكاة الحقيقية "إنها ركن مهم في بناء سعادة الحياة البشرية ورفاهها جميعاً، بل هي عمود أصيل تتوطد به إدامة الحياة الحقيقية للإنسانية، ذلك لأن في البشرية طبقتين: الخواص والعوام. والزكاة تؤمّن الرحمة والإحسان من الخواص تجاه العوام وتضمن الاحترام والطاعة من العوام تجاه الخواص. وإلا ستنهال مطارق الظلم والتسلط على هامات العوام من أولئك الخواص، وينبعث الحقد والعصيان اللذان يضطرمان في أفئدة العوام تجاه الأغنياء الموسرين. وتظل هاتان الطبقتان من الناس في صراع معنوي مستديم، وتخوضان غمار معمعة الاختلافات المتناقضة، حتى يؤول الأمر تدريجياً إلى الشروع في الاشتباك الفعلي والمجابهة حول العمل ورأس المال كما حدث في روسيا"[41].

ويضرب مثلاً لمن سقطت أخلاقهم بمدينة عظيمة فيها قصور، فيدخل إلى أحد القصور فإذا صاحبه واقفٌ أمام الباب وهو يداعب كلبه ويلاعبه، والنساء يرقصن مع الشباب الغرباء؛ وكانت الفتيات اليافعات ينظّمن ألعابَ الأطفال. وبوّاب القصر قد اتخذ طورَ المشرف يقودُ هذا الحشد، فأدركت أن هذا القصر خالٍ من أهله وأنه قد عُطلّت فيه الوظائف والواجبات. فهؤلاء السارحون من ذويه السادرون في غيّهم قد سقطت أخلاقهم وماتت ضمائرهم وفرغت عقولُهم وقلوبُهم فأصبحوا كالبهائم يهيمون علـــى وجوههم ويلعبون أمام القصر. ثم مشيتُ قليلاً فـــفاجأني قصرٌ آخر، ورأيت كلباً نائماً أمام بابه؛ ومعه بوّاب شهمٌ وقور هادئ، وليس أمام القصر ما يثير الانتباه؛ فتعجبت من هذا الهدوء والسكينة واستغربت! واستفسرتُ عن السبب، فدخلت القصرَ فوجدته عامراً بأهله؛ فهناك الوظائف المتباينة والواجبات المهمة الدقيقة ينجزها أهلُ القصر، كلٌّ في طابقه المخصص له؛ في جوّ من البهاء والهناء والصفاء بحيث يبعث في الفؤاد الفرحة والبهجة والسعادة. ففي الطابق الأول هناك رجالٌ يقومون بإدارة القصر وتدبير شؤونه، وفي طابقٍ أعلى هناك البناتُ والأولاد يتعلمون ويتدارسون؛ وفي الطابق الثالث السيداتُ يقمن بأعمال الخياطة والتطريز ونسج الزخارف الملونة والنقوش الجميلة على أنواع

الملابس، أما الطابق الأخير فهناك صاحبُ القصر يتصل هاتفياً بالملكِ لتأمين الراحةِ والسلامةِ والحياة الحرّة العزيزة المرضية لأهل القصر، كلٌّ يمارس أعماله حسب اختصاصه وينجز وظائفه اللائقة بمكانته الملائمة بكماله ومنـــزلته. ونظراً لكوني محجوباً عنهم فلم يمنعني أحدٌ من التجوّل في أنحاء القصر؛ لذا استطلعت الأمور بحرّية تامة. ثم غادرتُ القصر وتجولت في المدينة فرأيتُ أنها منقسمةٌ إلى هذين النوعين من القصور والبنايات، فسألت عن سبب ذلك أيضاً فقيل لي: "إن النوع الأول من القصور الخاليةِ من أهلها والمبهرجِ خارجُها والمزينةِ سطوحُها وأفنيتُها ما هي إلاّ مأوى أئمة الكفر والضلالة. أما النوع الثاني من القصور فهي مساكن أكابر المؤمنين من ذوي الغيرة والشهامة والنخوة". ثم رأيت أن قصراً في زاوية من زوايا المدينة مكتوبٌ عليه اسم (سعيد) فتعجبت، وعندما أمعنت النظر أبصرت كأن صورتي قد تراءت لي، فصرختُ من دهشتي واسترجعت عقلي وأفقتُ من خيالي[42].

المحور الثاني: التربية الأخلاقية في القرآن الكريم والسنة النبوية خلال رسائل النور.

يركز الإمام النورسي على القرآن الكريم في منطلقاته الفكرية وتصوراته النظرية، وهو يتلمس التربية الأخلاقية في القرآن الكريم.

يرى أن القرآن المعجز قد جمع أموراً كثيرة، منها أفراد محاسن الأخلاق، مع أنواع البلاغة وأصناف الأساليب العالمية، وخلاصات العلوم الكونية والمعارف الإلهية وأن النظام الإعجازي كامن في جمعه لهذه الأمور الكثيرة المختلفة، المتنوعة والمتباينة دون اختلال نظام أو اختلاط وتشوش.[43]

ويرى أن أصول الأخلاق في القرآن عالية فهو ينهى عن مساوئ الأخلاق.

والقرآن كتاب إنساني يرشد إلى الأخلاق الحسنة، والرسول (صلى الله عليه وسلم) مع القرآن الكريم مرشدان إلى الأخلاق[44].

ففي الفاتحة نتعلم الأخلاق في قوله تعالى "اهدنا الصراط المستقيم"، كما أن أقصر الطرق المؤدية من مكان إلى آخر هي الطريق المستقيم، وأن أقصر الخطوط الممتدة بين نقطة وأخرى بعيدة عنها هو الخط المستقيم؛ كذلك أن أصوب طريق في المعنويات وفي الطرق المعنوية وفي المسالك القلبية وأكثرها استقامة هي أقصرها وأيسرها...وكذا فإن أيسر الطرق في الأخلاق الإنسانية وأنفعها وأقصرها وأسلمها هي في الصراط المستقيم وفي الاستقامة.[45]

ولمعرفة الفرق بين التربية الأخلاقية القرآنية، وتربية الفلسفة الأخلاقية يقارن بين تلميذيهما:

فتلميذ القرآن المخلص عبد عزيز لا يستذل لأعظم مخلوق، وهو متواضع لين هين لا يتذلل لغير الله، وهو فقير ضعيف لكنه مستغن عن كل شيئ بما ادخره الله له، وهو قوي لاستناده إلى قوة سيده، وهولا يعمل إلا لوجه الله، ولا يسعى إلا لرضاه بلوغاً إلى الفضائل.

والتلميذ المخلص للفلسفة فرعون لكنه ذليل يعبد أخس شيء لأجل منفعته، وهو متمرد وعنود، متمرد لكنه يرضى بمنتهى الذل للحصول على لذة، وعنود دنيء يخنع للأشخاص ويقبّل أقدامهم، ومغرور جبّار لكنه عاجز لعدم وجود من يستند إليه، وهو نفعي ومصلح، غاية همّته تلبية رغبات النفس والبطن والفرج، وهو دساس مكّار يتحرّى مصلحته الشخصية.[46] وخلاصة ذلك يمكن عرضها في هذا المخطط:

صفات تلميذ القرآن	صفات تلميذ الفلسفة
1- عزيز	1- فرعون
2- متواضع هين لين	2- ذليل خسيس
3- فقير ضعيف	3- متمرد عنود
4- قوي متصل بالله	4- مغرور جبار
5- لا يعمل إلا لوجه الله	5- نفعي مصلحي

وواضح أن مفردات أخلاق تلميذ القرآن متصلة بالله عزّ وجلّ بخلاف أخلاق تلميذ الفلسفة تتصل بمصلحته الخاصة وشهواته ومنفعته.

وأعظم معجزة بعد القرآن للرسول (صلى الله عليه وسلم)، هو ذاته المباركة، أي ما اجتمع فيه، من الأخلاق السامية والخصال الفاضلة، ثم أن الشريعة الغراء التي لم يأت ولن يأتي بمثلها هي معجزة أخرى عظيمة للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)[47].

وخلقه (صلى الله عليه وسلم) القرآن... ويتجلى ذلك في معاملته وسلوكه مع الناس، وأن شريعته الغراء تضم أكثر الخصال الحسنة، تشهد بذلك محاسن الأخلاق في دينه القويم[48].

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يشبهه بمصباح كبير عظيم في قصر فخم، وتشعبت منه قوة الكهرباء إلى مصابيح أصغر فأصغر موزعة في منازل صغيرة، فلو أطفئ المصباح الكبير فسيعم الظلام المنازل الأخرى وتستولي الوحشة فيها. ثم يخاطب نفسه منبهاً وموضحاً أن القصر الكبير هو المسلم، والمصباح الكبير هو الرسول في قلب ذلك المسلم، فإن نسيه وأخرج الإيمان به من قلبه، فسيحدث في قلبه دمار رهيب وتستولي عليه الوحشة.[49]

والرسول (صلى الله عليه وسلم) بالبداهة أكمل مرشد بالقرآن الكريم للجن والإنس، وهو كذلك أحسن من كشف بحقائق القرآن عن مغزى القصد.[50]

وهو الجامع لمكارم الأخلاق، اجتمع فيه من الخصال العالية كافة[51]، وأخلاقه (صلى الله عليه وسلم) في أسمى الدرجات، وصفاته في أعلى المراتب[52]، وهو(صلى الله عليه وسلم) مثال كمال الموجودات، وممثل لفضائل الأخلاق ومثاله المجسم والقدوة الحسنة لها[53].

وقد مدح الله تعالى رسوله بحسن الخلق فقال: "وإنك لعلى خلق عظيم"[54]،وجاء في وصفه عن أنس رضي الله عنه أنه "كان أحسن الناس أخلاقاً"[55]

وأبرز صفاته(صلى الله عليه وسلم) الشفقة والرحمة "نعم، لقد وردت روايات صحيحة تبين مدى رأفته الكاملة وشفقته التامة على أمته، بأنه صلى الله عليه وسلم يدعو يوم الحشر الأعظم بـــ: (أمّتي أمّتي) في الوقت الذي يدعو كلُ أحد، بل حتى الأنبياء عليهم السلام بـــ: نفسي نفسي من هول ذلك اليوم ورهبته... وكذا فإن سيرته العطرة كلها، وما نشره في الآفاق من مكارم الأخلاق المكللة بالشفقة والرحمة، تبين كمال رأفته وشفقته"[56]

وقد رفع الرسول(صلى الله عليه وسلم) أخلاق العرب بتربية الصحابة (رضي الله عنهم) وقلع الأخلاق الوحشية فيهم، يقول: " ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميعَ أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيّرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدنة.

فانظر! ليست سلطنتُه على الظاهر فقط، بل هاهو يفتح القلوب والعقول؛ ويسخِّر الأرواح والنفوس، حتى صار محبوبَ القلوب ومعلّمَ العقول ومربي النفوس وسلطان الأرواح"[57].

ويوضح ما للصحبة النبوية من تأثير خارق ونور عظيم فيقول: "بينما أعرابي غليظ القلب يئد بنته بيده، إذا به يكسب خلال حضوره مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ومن صحبته ساعة من الزمان، رقة قلب وسعة صدر وشفافية روح ما يجعله يتحاشى قتل نملة صغيرة. أو آخر يجهل شرائع الحضارة وعلومها، يحضر مجلس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيصبح معلماً لأرقى الأمم المتحضرة - كالهند والصين - ويحكم بينهم بالقسطاس المستقيم، ويغدو لهم مثلاً أعلى وقدوة طيبة[58].

وقد نظر الصحابة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) المثال الأكمل والنموذج الأتم والتفوا حول رايته[59]،وهكذا فالحاجة للنبي ضرورية، يقول: " فملكة تعديل الأخلاق الموهومة لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة، لذا فالإنسان بالضرورة محتاج إلى نبي يمسك بميزان العدالة الإلهية النافذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع[60].

وقد بلغ الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تميزه أن" اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلاً"[61]. وهو يملك الأخلاق السامية في ذاته المباركة، ومن السجايا الرفيعة في مهمة رسالته، ومن الخصال الفاضلة فيما يبلّغه من شريعة ودين، ما يضطر إلى تصديقه ألدّ أعدائه فلا يجد سبيلاً للإنكار[62].

ويجري مقارنة بين عظماء الفلسفة فالغاية القصوى عندهم التشبه بالواجب، أي بالخالق جل وعلا، لكن الغاية القصوى في مسار النبوة التخلق بالأخلاق الإلهية بالتحلي بالسجايا والخصال التي يأمر بها الله سبحانه[63].

والرصيد الأخلاقي هو الذي يكسب أصحاب الديانات الأخرى إلى الإسلام، يقول: "ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام، وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل ربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام[64].

ومن هذا المنظور وإذا أردنا أن نلخص أفكار بديع الزمان حول الجهاد في المرحلة الأولى لحياته، نستطيع القول أنه رغم مشاركته "بالجهاد المادي" ببطولة لا نظير لها، إلا أنه يرى أن الجهاد الأصلي والأساسي هي إحياء سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والأخلاق الإسلامية إلى جانب الجهاد المتعلق بالعلم والترقي والحضارة ... لذلك كان القسم الأعظم من مجاهدة بديع الزمان، يتركز في بؤرة تدريس العلوم الدينية والمعاصرة معاً، والسعي لمزجها، وتتعلق بالتعليم والإصلاح التعليمي[65].

ملاحظة: اعتمدت في هذه الدراسة على القرآن الكريم، و الحديث النبوي في أصوله،ثم كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان سعيد النورسي المعد في قرص الحاسوب، وأبرز مصادر الكليات: الكلمات والمكتوبات واللمعات والشعاعات وإشارات الإعجاز،ومن الملاحق ملحق قسطموني، وأمير داغ، وصيقل الإسلام، وبعض المصادر الواردة في القائمة المدرجة أدناه.

من المصادر والمراجع في موضوع الأخلاق الإسلامية

الأخلاق الإسلامية: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ط 4 دار القلم، دمشق سنة 1996م.

الأخلاق الحميدة العلاج الإسلامي لسوء الخلق: عبد الحميد كشك،ط مكتبة التراث الإسلامي، مصر. د.ت.

الأخلاق في الإسلام: د. محمد عبد القادر حاتم، ط الهيئة المصرية العامة 1995م.

بديع الزمان سعيد النورسي ومفهوم الجهاد في العصر الحديث: شكران واحدة، من بحوث المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي"تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي" 24-26 أيلول 1995م، استانبول.

تهذيب الأخلاق: عبد الحي فخر الدين الحسني، ط المكتبة العصرية، بيروت د.ت.
الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة: د. يوسف القرضاوي، ط 1 مكتبة وهبة، مصر سنة 1994م.
جوامع الأخلاق والسياسة والحكمة: محمد العربي الخطابي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1993م.
خلق المسلم: محمد الغزالي، ط أخبار اليوم، مصر، د.ت.
دستور الأخلاق في القرآن: د. محمد عبد الله دراز، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط دار الرسالة، بيروت سنة 1998م.
المدخل إلى القيم الإسلامية : د. جابر قميحة، ط دار الكتب الإسلامية، القاهرة 1984م.
المناهج التغييرية الإسلامية خلال القرن العشرين: فتحي يكن، ط1 1998.
نحو ثقافة إسلامية أصيلة: د. عمر سليمان الأشقر، ط 6 دار النفائس، عمان سنة 1997م.
النظام الأخلاقي في الإسلام: د. محمد عقلة، ط مكتبة الرسالة الحديثة الأردن، 1986م.
النظم الإسلامية: د. منير حميد البياتي، ط دار البشير عمان 1994م.
هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقاً: محمود محمد الخزندار، ط دار طيبة للنشر، الرياض 1996م.

---

1 المناهج التغييرية الإسلامية ص113 وما بعدها.

2 لعل من الأُمور المهمة والخدمات الجليلة إعداد قرص الحاسوب المتضمن لكليات رسائل النور باللغات الثلاث التركية والعربية والانجليزية، مع البحوث المقدمة في الندوات العلمية الثلاث السابقة وهي سنة 1992م و1995م و1998م في إستانبول وندوتي الأردن والمغرب 1997و1999. مع ما يقدمه القرص من الخدمات البحثية وجمع المعلومات التي أفدت منها كثيراً في اعداد هذا البحث، فجزى الله المعدّين لهذا القرص خير الجزاء.

3 الجامعات الإسلامية في وطننا العربي والإسلامي كثيرة، لكن القليل منها ما يحقق الطموح والآمال في مناهجها وبرامجها.

4 النظام الأخلاقي في الإسلام ص39–45. والفرق بين الإسلام والغرب أن الغرب فصل الأخلاق عن الدين، وهي تقوم على المصلحة والمنفعة، وفصل الأخلاق عن العلم وغاب عنه أن العلم بلا أخلاق يتجه نحو الشر.

5 الأخلاق الإسلامية ص 22.

6 الأدب المفرد ص81، وكنــز العمال 17/3.

7 مسند الإمام أحمد 381/2، الموطأ ص651.

8 رواه الترمذي وحسنه 78/5، ومسند الإمام أحمد250/2، 385/4، راجع فتح الباري 458/10.

9 مسند الإمام أحمد 135/3.
10 البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود 172/7، والترمذي وصححه، وفي رواية أخرى " خير ما أعطي الناس خلق حسن" مسند أحمد 4/ 278، و راجع فتح الباري 458/10.
11 البخاري في الأدب المفرد، والترمذي ، راجع فتح الباري 458/10.
12 الترمذي وحسنه 370/4، راجع جامع الأصول 6/4.
13 الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة ص26.
14 المصدر السابق ص27. والحديث رواه مسلم رقم (1015)، والترمذي رقم (2989) وأحمد328/2.
15 العنكبوت آية45.
16 رواه الخمسة إلا مسلم راجع التاج61/2.
17 التوبة 103.
18 البقرة 197.
19 المكتوبات ص642.
20 نفسه ص643.
21 الكلمات، ص363.
22 أمير داغ ص 284، وأصل الحديث "خلق الله عز وجل آدم على صورته" أخرجه البخاري برقم 6227، ومسلم برقم 2841.
23 المكتوبات، ص393.
24 الملاحق ، ملحق قسطموني، ص 169.
25 نفسه.
26 راجع إشارات الإعجاز ص160.
27 نفسه ص 161
28 راجع دستور الأخلاق ص681.
29 صيقل الإسلام ص333 وراجع اللمعات ص303.
30 اللمعات ص 219.
31 صيقل الإسلام ص 333. وراجع في المعنى نفسه اللمعات ص 303.
32 الكلمات ص765.
33 إشارات الإعجاز ص 207.
34 راجع النظم الإسلامية ص 107-125، و نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص162-163.
35 الشعاعات ص 246.
36 الشعاعات ص 251.
37 الشعاعات ص 601 ، وراجع ص591.

38 ملحق قسطموني ص 136.
39 الشعاعات ص 337.
40 أمير داغ ص 286.
41 المكتوبات ص355 و ص604 وراجع الكلمات ص473.
42 الكلمات ص 363 –364.
43 راجع الكلمات ص 466.
44 راجع المكتوبات ص 434.
45 الشعاعات ص 649.
46 الكلمات ص 144.
47 راجع المكتوبات ص 236.
48 راجع المكتوبات ص 277.
49 راجع الكلمات، ص417.
50 راجع المكتوبات ص 277.
51 راجع الكلمات 741، وراجع إشارات الإعجاز ص 166.
52 راجع المكتوبات 276.
53 راجع المكتوبات ص 252. وراجع صيقل الإسلام ص 142.
54 القلم آية 4. وقد وردت آيات أخرى تذكر أخلاقه كالتوبة آية 128، وآل عمران آية 159.
55 رواه البخاري ومسلم.
56 اللمعات، ص29.
57 الكلمات، ص258، وراجع إشارات الإعجاز ص 170– 71، وراجع المثنوي العربي النوري ص 60.
58 الكلمات، ص574.
59 الكلمات ص 574.
60 صيقل الإسلام ص 139.
61 المكتوبات ص236.
62 المكتوبات ص 252.
63 راجع الكلمات ص 642.
64 صيقل الإسلام– الخطبة الشامية
65 بديع الزمان سعيد النورسي ومفهوم الجهاد ص 9.

موقف بديع الزمان النورسي
من علم الكلام

الأستاذ: عبدالوهاب بوخلخال(*)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين

أن القارئ لرسائل النور، لا شك أنه سيلاحظ أمرين :

الأول: اهتمام الأستاذ النورسي ـــ رحمه الله ـــ بالعقيدة: فهو قد جاء في مرحلة تعرضت فيها حقائق الإيمان وعقائد الإسلام إلى هجمة الحادية شرسة،فما كان منه إلا أن انبرى يدافع عن تلكم الحقائق من خلال رسائل النور مستهديا في ذلك بهدي القرآن الكريم وسنة المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

الثاني: أن النورسي كان يتناول مباحث العقيدة وفق منهج متكامل يتألف من جانبين :

أ / جانب بنائي تمثل في المحددات النظرية التي رأى النورسي أنها كفيلة بعرض العقيدة الإسلامية عرضا يجعلها فاعلة في دنيا المسلم المعاصر،موجهة لحياته فردا ومجتمعا.

ب / جانب هدمي (نقدي) تمثل في تلك الوقفات النقدية التي تناول من خلالها النورسي المناهج الأخرى،سواء تلك التي اعتمدها المسلمون في عرض العقيدة أو تلك التي استند إليها الملحدون لترويج ضلالاتهم، ولهذا وجدناه يطيل الوقوف مع مناهج الفلاسفة والمتكلمين والصوفية .

(*) أستاذ ثانوي لعلوم الشريعة، قسنطينة – الجزائر

وعليه فهذه الورقة تهدف إلي إلقاء الضوء على جزئية من الجانب الثاني من منهج النورسي أعني بيان موقفه من علم الكلام .

وقد تناولت الموضوع من خلال :

1 – بيان وضعية علم الكلام في عهد النورسي من حيث نظرة العلماء إلي قيمته و تصورهم لوظيفته .

2 – بيان تصور النورسي لعلم الكلام الجديد، و هذا مرورا بنقده لعلم الكلام من حيث المنهج بشكل عام و من حيث الأدلة التي استعملها المتكلمون من قبل .

و أرجو أن أجلي من خلال هذا البحث موقف الأستاذ النورسي من علم الكلام و أن أشير إلي أهم المقومات التي يراها الأستاذ كفيلة ببناء علم عقيدة قادر على نصرة حقائق الإيمان .

و الحمد لله رب العالمين

أولا : علم الكلام على عهد النورسي.

يحسن بنا قبل الحديث عن موقف النورسي من علم الكلام – وهو ما سنبينه في العنصر الثاني – أن نتحدث عن وضعية هذا العلم في عهده من حيث تصور العلماء لوظيفته ومنهجهم في عرض العقيدة و الاستدلال عليها من خلاله.

وسنشير بإيجاز إلى المراحل التي مر بها هذا العلم منذ نشأته وصولا إلى عصر النورسي، فهو – أي علم الكلام – "باعتباره وجها من وجوه التفكير البشري، عرضة لأن يمر في حياته بربى يعلو فيها ويتألق ويزدهر وبوهاد يخبو فيها ويبهت وقد يسترخي ويتجمد، وذلك لظروف وملابسات تاريخية واجتماعية وحضارية[1].

وقد حاول – ابن خلدون – في الفصل الذي عقده لعلم الكلام في المقدمة[2] أن يحدد لنا بعض هذه الملابسات وكذلك فعل (الشيخ محمد عبده) في رسالته [3]، والشيخ زاهد الكوثري – في مقدمة كتاب – تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري – لابن عساكر[4]. وجاء تحديدهم عاما يمكن أن نقسم من خلاله تاريخ علم الكلام إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : من النشأة إلى غاية القرن الخامس الهجري.

المرحلة الثانية :من القرن الخامس الهجري إلى العهد الذي عاش فيه كل واحد منهم.

وهذه الملخصات على اختلاف كاتبيها وأزمانهم نجدها تكاد تتفق على أن هذا العلم بدأ بسيطا ثم تطور،إما بسبب طبيعة العقيدة التي حدد القرآن كلياتها و لم يحدد تفاصيلها، فلما خاض الناس في هذه التفصيلات حدث الخلاف –كما يقول ابن خلدون[5] – وإما بسبب التحول الاجتماعي والسياسي الذي طرأ على تركيبة المجتمع الإسلامي، خصوصا بدخول بعض الأقوام في الإسلام ولما يتخلصوا كليا من موروثاتهم القديمة – كما يرى محمد عبده–[6].

ثم بانقسام الناس إلى متشيع للعقل متوسع في التأويل و إلى واقف مع ظواهر النصوص والمنقول من تفسيرات السلف ثم خروج الأشعري بمذهبه التوفيقي، ثم التطور الذي حصل داخل المذهب الأشعري على يد (الباقلاني)[7] و(الجويني) و(الغزالي) الذي كان له دور في تصحيح المذهب و خلط المباحث الفلسفية بالمباحث الكلامية مما أفضى في النهاية إلى الاختلاط المنهجي بين العلمين كما نبه إلى ذلك ابن خلدون بقوله: "تم توغل

المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما"[8]. و أكد الأمر ذاته – محمد عبده – مع بيان النتيجة النهائية حيث أصبحت مباحث هذا العلم أقرب إلى التقليد من النظر" فانحرفت الطريق بسالكيها و لم يعد بين الناظرين في كتب السابقين إلا تحاور في الألفاظ أو تناظر في الأساليب على أن ذلك في قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور"[9].

ونجد تحديدا آخر للمراحل التي مر بها علم الكلام أكثر دقة وتفصيلا أورده المستشرقان – لويس غرديه — و – جورج قنواتي – في كتاب (فلسفة الفكر الديني بين الإسلام و المسيحية)[10]حيث قسما المراحل التي عرفها علم الكلام إلى سبع مراحل هي:

1- عهد ما قبل النشأة في المدينة.

2- عهد التخمير أو التلاقي مع علم اللاهوت المسيحي.

3- عهد النضال: الصراع بين المعتزلة وأصحاب النقل أو التلاقي مع الفلسفة اليونانية.

4- انتصار الأشعرية.

5- الانتقائية الغزالية و الطريقة المعروفة بطريقة المتأخرين.

6- عهد التقليد و الجمود.

7- عهد الإصلاح أو حركة التجديد.

وتكمن أهمية هذا التقسيم في كونه حاول أن ينظر إلى تطور علم الكلام من زاوية العوامل الداخلية المتعلقة بطبيعة العقائد كما أشار ابن خلدون و أيضا من زاوية العوامل الخارجية،سواء منها ما تعلق بالتطورات السياسية و الاجتماعية أم ما تعلق منها بتلاقي الثقافة الإسلامية مع الموروثات الحضارية الأخرى من يهودية ومسيحية وفارسية ورومانية و هندية.[11]

وسيكون وقوفنا مع المرحلتين السادسة و السابعة لأنهما تغطيان العصر الذي عاش فيه النورسي ونستطيع من خلالهما تبين الجهود التي بذلها لإعادة هذا العلم إلى وظيفته الأصلية.

وعند التأمل نجد أن أبرز ما يميز مرحلة التقليد و الجمود هو ذلك التغير الذي حدث في تصور العلماء لوظيفة علم الكلام فبعد أن كان هذا العلم منذ نشأته ذا وظيفة دفاعية يهتم بنصرة العقائد أمام شبهات أهل البدع[12]، أصبح همه الشرح و البيان المجرد.

نلمس هذا التحول من تغير تعريف علم الكلام عند المشتغلين به :

ففي البداية كانت كل التعريفات تركز على وظيفتين لعلم الكلام (الأولى) : إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية، (الثانية) : رد الشبهات التي يوردها المبدعة على العقائد الدينية بالأدلة العقلية أيضا[13].

فالفارابي يعرفه في (إحصاء العلوم) بقوله "صناعة الكلام ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء و الأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة و تزييف كل ما خالفها من الأقاويل"[14].

وعرفه الغزالي في – المنقذ من الضلال – بأنه علم " إنما مقصوده حفظ عقيدة السنة و حراستها من تشويش البدعة "[15].

وعرفه ابن خلدون بأنه" علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف و أهل السنة"[16].

ولكن لما تطرق الضعف إلى هذا العلم أصبح تعريفه لا يدل على الدفـــاع بقدر ما يدل على الشرح والبيان والتقرير وهذا ما نجده عند ابن عرفة حيث يعرفه بقوله: "علم الكلام هو الوصول لإدراك حقيقة الإيمان بواضح الأدلة والبرهان المنجي من الخلود في النيران"[17].

ويصبح عند غيره هو العلم "الذي يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم"[18] أو هو "علم تقرير العقائد وبيان ما جاء في النبوات "[19].

بل نجد اقتصارا على وظيفة الإثبات دون إشارة إلى وظيفة الرد على الشبهات كما كان في التعريفات الأولى، فعرفه البيجوري بقوله: "علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسب من أدلتها اليقينية "[20].

فأصبحت مباحثه تهتم بالشرح و البحث عن حقائق الأشياء كشأن الفلسفة فخاض المتكلمون" في البحث عن الجوهر و الأعراض و أحكامهما لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق"[21].

و لم يلبث علم الكلام أن أصابه الجفاف في أزيائه الأشعرية ففقد طراوة نشاطه الأول وأخذ يتجمد في الأطر التي تتناقلها (الكتب المدرسية) تقليديا إذ يقبل العلماء عليها فيشرحونها ويعيدون شرحها، لنقارن مثلا (جوهرة التوحيد)[22] للباجوري والمحصل للرازي [23]فإنا لنجد التقسيمات الكبرى ذاتها و الأجوبة ذاتها باقية على حالها غير مرتبطة بواقع زمنها إنها مدرسية (ترسيمية) بأسوأ ما ينطوي عليه الحد من معنى جمدت الفكر شيئا فشيئا وحالت بين العلماء وبين أن يخرجوا بفكر أصيل وأن يعملوا بروح نقدية وأن يعالجوا برحابة في الصدور إن لم يكن بجراءة في الإقدام ما أشكل من المسائل المحرجة التي تثيرها الحياة الحديثة"[24].

فغياب الوظيفة الدفاعية لعلم الكلام جعلته ينفصل عن الواقع ويهمل التحديات الواردة على العقيدة الإسلامية وجعلت "سائر كتب التوحيد المؤلفة بعد القرن الثامن تتلهى بالشرح والتهميش و التحشية عن القضية الحقيقية التي هي مواجهة ما يجد من الشبه الموجهة للعقيدة الإسلامية أو على أضعف الإيمان تجديد أساليب وطرق الردود على الشبه القديمة ذات العناصر المستديمة بما يناسب أوجه الإقناع للعقليات المتجددة التكون وقد عم هذا الجمود الذي أصبح عليه علم الكلام كلا من المضمون والأســـلوب" [25]، فنجد أنفسنا و نحن في القرن الخامس عشر الميلادي والتاسع عشر" أمام المناقشات نفسها ومع الأدلة نفسها ردا على الخصوم ذاتهم كالمعتزلة والفلاسفة وسواهم من الذين انقرضوا "[26].

ولقد أدرك كثير من المصلحين ما انتهى إليه علم الكلام من جمود "وكيف عبثت به في نهاية الأمر أيدي المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده"[27] فانبرى بعضهم يريدون أن يعودوا به إلى سالف عهده حاميا للعقيدة من كل تشويش، بادئين بإعادة ربطه بتحديات الواقع وحاجات العصر فكان الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس ووحيد الدين خان و مصطفى صبري [28].

وجاءت جهود النورسي أيضا ضمن هذا المسار، فكيف كان موقفه من هذا العلم الذي جمد وتحجر و لم يعد وفيا لا بمقصده و لا بمقصد أهل العصر[29]؟

هذا ما سنتناوله في العنصر الموالي.

ثانيا: موقف النورسي من علم الكلام :

1) النظر إلى قيمته :

إن النتيجة التي وصل إليها (ابن خلدون) بعد تلخيصه لمسيرة علم الكلام هي كون هذا العلم قد فقد قيمته و لم تعد له حاجة لانتهاء أهل البدع وشبهاتهم، يقول: "وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا "[30] لكن النورسي يذهب إلى عكس هذه النتيجة تماما فيرى أن علم الكلام أو علم العقيدة من أوكد العلوم في هذا العصر لأن" الضروريات الدينية التي لا مجال فيها للاجتهاد لقطعيتها و ثبوتها والتي هي في حكم القوت والغذاء قد أهملت في العصر الحاضر وأخذت بالتصدع فالواجب يحتم صرف الجهود وبذل الهمم لإحياء هذه الضروريات وإقامتها"[31].

ويرى أن (الملحدة والمبتدعة) لم ينقرضوا بل إن العصر الذي يعيش فيه هو عصر الإلحاد والفلسفات المادية التي تهدد حقائق الإيمان يقول في مقدمة (رسالة الطبيعة) مبينا سبب تأليفها: "دعيت لزيارة (أنقرة) سنة 1337 هـ /1922م وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي إلا أنني أبصرت خلال موجة الفرح هذه، زندقة رهيبة تدب بخبث ومكر وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها فتأسفت من أعماق روحي وصرخت مستغيثا بالله العلي القدير ومعتصما بسور هذه الآية الكريمة[32] من الغول الرهيب الذي يريد أن يتعرض لأركان الإيمان"[33].

ويرى بأن الكشف عن حقائق الإيمان أفضل من البحث عن الأذواق و الكرامات كما هو شأن الصوفية متبنيا في ذلك مقولة الإمام الرباني: "إن انكشاف مسألة صغيرة من مسائل الإيمان لهو أفضل في نظري من مئات من الأذواق و الكرامات"[34].

و إنما حاز هذا العلم هذه القيمة عند النورسي لأن مباحثه تتعلق بأخطر قضية في حياة الإنسان و هي قضية الإيمان، هذا الإيمان الذي يسمو به "إلى أعلى عليين فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين فيكون في وضع يؤهله لنار جهنم"[35].

2) تصوره لوظيفة علم الكلام :

لقد بينا فيما سبق أن وظيفة علم الكلام أصبحت عند المتأخرين تقتصر على شرح العقائد في صيغها التي جمدت عليها منذ زمن، حتى تصور ابن خلدون أنه لا فائدة في الاشتغال بهذا العلم و وجدنا من يناقش أمورا قد انتهت و انقرض أصحابها[36]، متخذين في ذلك طريقة مدرسية تهتم بالتقسيم الصوري لمباحث علم الكلام دون نظر إلى وظيفته الواقعية التي تحتم رد الشبهات التي يوردها الخصوم و بالأسلوب الذي يفهمونه.

والنورسي الذي عاش تلك الهجمة الإلحادية التي شنتها الفلسفة المادية على حقائق الإيمان أدرك بفكره الثاقب أن الاقتصـــار على شرح تلك العقائد في صيغها القديمة دون الانتباه إلى الشبهات المثارة حولها و دون تجديدها بما يتلاءم مع عقلية إنسان هذا العصر لا يمكن أن يحفظ على المسلمين إيمانهم.

وإنا لنلمس إدراكه هذا من خلال التنبيه إلى وظيفته و رسالته فهو، يقول لمن يظن أنه صاحب طريقة صوفية" ليس هذا العصر بعصر تصوف وطريقة إنما هو عصر إنقاذ الإيمان "[37]وإنما إنقاذ الإيمان يكون بإحيائه في قلوب المؤمنين وبالتصدي لشبهات المناوئين، فعلم الكلام في صيغته القديمة وكما وصل إلى النورسي في مؤلفات الإيجي والجرجاني والبيضاوي[38] فضلا عن أنه لم يعد مستجيبا لتحديات العصر فإنه كان يخاطب جانبا واحدا من جوانب الإنسان وهو "العقل"دون بقية الملكات واللطائـــف الأخـــرى المركبة فيه ولذلك استطاع هذا العلم "في فترات الجدال العقلي بين الخاصة أن ينقذ الإيمان ولكنه لم يستطيع أن يصوغ حياة المسلم صياغة ربانية تحقق المعنى الحقيقي لعبودية الإنسان لرب العالمين"[39].

وهذه الوظيفة بشقيها – إحياء الإيمان و رد الشبهات – هي التي حددها النورسي من خلال رسائله يقول:"إن رسائل النور قد أظهرت خدماتها كسيف ألماسي قاطع بيد هذه المعجزة الكبرى – يعني القرآن – حتى ألزمت الحجة أعداءها العنيدين و ألجأتهم إلى

الإستسلام وإنما تقوم بوظيفتها بين يدي هذه الخزينة القرآنية من حيث كونها معجزة لمعانيه المعجزة على نحو تستطيع تنوير القلب والروح والمشاعر، مناولة كلا منها علاجاتها الناجعة، ولا غرو فهي الداعية إلى هذا القرآن العظيم المستفيضة منه وحده ولا ترجع إلا إليه.

وإنها تقوم بمهمتها خير قيام، انتصرت في الوقت نفسه على الدعايات المغرضة الضالة التي يشيعها أعداؤها، وقضت على أشد الزنادقة تعنتا ودكت أقوى قلاع الضلالة التي تحتمي بها "الطبيعة"برسالة "الطبيعة"، كما بددت الغفلة، وأظهرت نور التوحيد في أوسع ميادين العلوم الحديثة وأشد الظلمات الخانقة للغفلة"[40].

بل هو يعلن صراحة أن رسائل النور يمكن أن تكون مصدرا (لعلم كلام جديد) من شأنه أن يقي المسلم من مزالق الأفكار الفلسفية الضالة، وأن ينقل المؤمن من دائرة المعرفة المجردة إلى ميدان السلوك الذي يمتزج فيه العقل مع القلب أو الفكر مع الوجدان.

يقول – متحدثا عن بعض رسائله – : "فيمكن لمن ضل من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ما ينجيه من مزالق الأفكار الفلسفية.

بل يمكن أن يستخرج منها بالتهذيب و التنظيم و الإيضاح عقائد إيمانية و ***علم كلام جديد في غاية القوة و الرصانة لرد ضلالات أفكار هذا الزمان***.

بل يمكن لمن اختلط عقله بقلبه، أو التحق قلبه بعقله المتشتت في آفاق الكثرة أن يستنبط منها طريقة كسكة الحديد متينة أمينة يسلك فيها تحت إرشاد القرآن الكريم .. كيف لا وكل ما في رسائلي من المحاسن ما هو إلا من فيض القرآن الكريم"[41].

إن هذا النص بالغ الدلالة في التأكيد على وعي النورسي بالقصور الذي طرأ على علم الكلام في صورته القديمة، وكذا ضرورة إنشاء علم كلام جديد يتناسب مع الظروف المستجدة، نلمس هذا خصوصا عند قوله : "... وعلم كلام جديد في غاية القوة والرصانة لرد ضلالات أفكار هذا الزمان".

أي أن علم الكلام القديم صار ضعيفا عاجزا غير متماسك الحجج، لا يمكنه أن يرد ضلالات الفكر الحديث التي تقود المسلمين عبر مسالك (العلم) و(الفكر) إلى المزالق التي تنأى بهم عن إسلامهم و عقائدهم الراسخة.

وعليه فالمطلوب إيجاد (علم كلام جديد) سماته القوة والرصانة والقدرة على الوفاء بحاجات العقل و القلب فيمزج الفكر بالوجدان، فلا تكون النتيجة – بعد تحصين الحقيقة الإيمانية – إلا انبعاث المؤمن بها إلى السلوك "تحت إرشاد القرآن الكريم".

ومما يدعم أن النورسي كان مدركا لضرورة تجديد علم الكلام، تصريحه بما يدل على أنه كان واعيا بهذه الضرورة أثناء كتابته لرسائل النور، والتي يعتبرها (علم كلام حقيقي) أو – على الأقل – تمهيدا لإنشاء علم كلام حقيقي يتجاوز جميع ما كتبه السابقون على اختلاف مسالكها و مشاربهم.

يقول – مجيبا على طلب أحد تلامذته– : "تذكرون في رسالتكم رغبتكم في تلقي درس في علم الكلام مني، **أنتم يا أخي تتلقون ذلك الدرس فعلا، فما استنسختموه من (الكلمات) دروس منورة لعلم الكلام الحقيقي**.

فقد قال علماء محققون، كالإمام الرباني : سيبين أحدهم في آخر الزمان علم الكلام – أي المسائل الإيمانية الكلامية لمذهب أهل الحق – بيانا جليا بحيث يفوق على جميع ما كتبه أهل الكشف و الطريقة الصوفية، فيكون وسيلة لنشر تلك الأنوار، حتى أن الإمام الرباني قد رأى نفسه ذلك الشخص.

فأخوك هذا العاجز الفقير الذي لا يذكر بشيء لا يمكنني أن أدعي –بما يفوق حدي ألف مرة – أنني ذلك الشخص المنتظر، إذ لست أهلا لأن أكون ذاك من أية ناحية كانت.

ولكن يمكنني أن أقول : أنني أظن نفسي خادما لذلك الشخص المنتظر، أهيئ الميدان لمجيئه و جنديا من جنود طلائعه"[42].

ولقد سبق وبينا في دراسة أوسع أن خاصية الواقعية و الحيوية[43] من أهم الأسس التي اعتمدهاالنورسي في صياغتة الجديدة لعلم العقيدة، وإن تتبع عرض حقائق الإيمان والاستدلال عليها في رسائل النور يؤكد لنا تطبيقه لها مما أعاد لهذا العلم حضوره في واقع المسلمين مدافعا و حارسا للعقيدة .

3) تقييمه لعلم الكلام :

على ضوء القيمة التي أعطاها النورسي لعلم الكلام – باعتباره علما يتعلق بأهم قضية في حياة الإنسان – و انطلاقا من تصوره لوظيفته، سنتناول تقييمه لجهود المتكلمين من قبل، و ذلك من خلال الملاحظات التي أوردها في مواضع مختلفة من رسائله.

وهذه الملاحظات يمكن تصنيفها إلى صنفين :

أ- ملاحظات تتعلق بنقد المنهج و المسلك الذي اتبعه المتكلمون في عرض حقائق الإيمان و الاستدلال عليها.

ب- ملاحظات تتعلق بمناقشة المتكلمين في بعض الأدلة التي أوردوها أو بنقد بعض آرائهم في المسائل المختلفة.

أ-نقد المنهج :

من يقرأ رسائل النور يجد، أن النورسي يرى بأن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية، و أنه هو المسلك الذي يجب أن يقدم على سائر المسالك في مجال الاستدلال عليها، و أن كل تقديم للعقل عليه يعده انحرافا قد يؤدي إلى الضلالات .

ومن هنا جاء نقده للمتكلمين – أو على الأقل لبعضهم – لأنهم قدموا العقل على النقل فصعبوا الوصول إلى الحقائق التي يعرضها القرآن بيسر و وضوح، و حتى و إن وصلوا إليها فإنها لا تـــورث اطمئنانا و قناعة كتلك التي يورثها القرآن بأدلته السهلة الواضحة .

يقول: "فالقرآن يرى جميع الدساتير التي تحقق سعادة الدارين و يبينها مع بيانه كل ركن من أركان الإيمان الستة بالتفصيل، و كل ركن من أركان الإسلام الخمسة بقصد وجد، محافظا على الموازنة بينها جميعا، مديما تناسبها، فنشأ من منبع الجمال و الحسن البديع الحاصل من تناسب تلك الحقائق و توازنها إعجاز معنوي رائع للقرآن.

فمن هذا السر يتبين أن علماء الكلام – و إن تتلمذوا على القرآن الكريم – و ألفوا ألوف الكتب – بعضها عشرات المجلدات – إلا أنهم لترجيحهم العقل على النقل – كالمعتزلة - عجزوا عن أن يوضحوا ما تفيده عشر آيات من القرآن الكريم، و تثبته إثباتا قاطعا بما يورث القناعة و الاطمئنان، و ذلك لأنهم يحفرون عيونا في سفوح جبال بعيدة ليأتوا منها بالماء إلى أقصى العالم بوساطة أنابيب – أي سلسلة الأسباب – ثم يقطعون تلك السلسلة هناك، فيثبتون وجود واجب الوجود، و المعرفة الإلهية التي هي كالماء الباعث للحياة.

أما الآيات الكريمة فكل واحدة منها كعصا موسى تستطيع أن تفجر الماء أينما ضربت و تفتح من كل شيء نافذة تدل على الصانع الجليل و تعرفه"[44].

فالنورسي يرى من خلال هذا النص أن المعرفة الناشئة عن علم الكلام معرفة قاصرة لأن أصحابها سلكوا لإثباتها طريقا طويلة تستعصي على الأفهام.

يقول:"إن معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين تلك المعرفة متى ما كانت بأسلوب القرآن الكريم المعجز البيان فإنها تصبح معرفـــة تامـــة و تسكب الاطمئنان الكامل في القلب.

ولقد شبهنا في مقالات أخرى الفروق بين نهج القرآن الحكيم و نهج علماء الكلام بما يأتي: هناك من يأتي بالماء بواسطة الأنابيب من مكان بعيد يحفره من أسفل الجبل، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا فيأخذونه.

فعلماء الكلام يثبتون واجب الوجود باستحالة التسلسل اللانهائي للأسباب وكذلك باستحالة التسلسل الدوري، و هذا سير في طريق طويل جدا.

أما المنهاج الحقيقي للقرآن الكريم فإنه يجد الماء و يفجره في كل مكان، فكل آية فيه كعصا موسى تفجر الماء أينما ضربت ...و في كل شيء له آية تدل على أنه واحد"[45].

وهنا نجده يتفق مع ما ذهب إليه "ابن رشد"[46] في نقده للمتكلمين عامة و للأشاعرة على الخصوص في استدلالاتهم على وجود الله – تعالى - حيث سلكوا في ذلك طرقا صعبة وغير يقينية فيقول: "فقد تبين لك من هذا كله - أي بعد استعراضه لأدلة الأشاعرة – أن الطرق المشهورة للأشعرية في السلوك إلى معرفة الله سبحانه ليست طرقا نظرية يقينية ولا طرقا شرعية يقينية، وذلك ظاهر لمن تأمل أجناس الأدلة المنبهة في الكتاب العزيز على هذا المعنى، أعني بمعرفة وجود الصانع، و ذلك أن الطرق الشرعية إذا تؤملت وجدت في الأكثر قد جمعت وصفين :أحدهما :أن تكون يقينية، والثانية: أن تكون بسيطة غير مركبة، أعني قليلة المقدمات، فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأول"[47][48].

ويرى النورسي أيضا أن المنهج الكلامي يتجه إلى عقل الإنسان دون جوانبه "لطائفة"الأخرى، مما يجعل المعرفة الناشئة عنه معرفة "باردة " لا تضبط السلوك ولا تدفع إلى العمل "لأن الإيمان لا يحصل بالعلم فحسب، فهناك لطائف كثيرة للإنسان لها حظها

من الإيمان، فكما أن الأكل عندما يدخل إلى المعدة ينقسم و يتوزع إلى مختلف العروق والأعصاب بمختلف الصور، كذلك المسائل الإيمانية الآتية عن طريق العلم عندما تدخل معيدة العقل و الفهم فإن كل لطيفة من لطائف الجسم كالروح و القلب والسر والنفس وغيرها تأخذ حصتها و تمصها حسب درجاتها"[49].

وهو بهذا يتفق مع الصوفية الذين يرون بأن المعرفة الناتجة عن العقل ليست هي المعرفة الكاملة الموصلة إلى اليقين و العلم الكامل بالله – تعالى – [50]، يقول الإمام السرهندي – وهو الذي يعتبره النورسي أعظم أساتذته–: "ومن المحقق أن ميدان الاستدلال ضيق جدا وحصول اليقين من طريق الدليل والنظر والفكر متعذر"[51] ويعلل ذلك بقوله في موضع آخر:"فإن قدم الاستدلال لا ثبات لها، و لا قرار لخزف معمول من طين و المستدل ليس له تمكين"[52].

ويقول الأمير عبد القادر في "الموقف السادس والتسعون" :"... وأما هداية الخلق فهي هداية العقول، وهي إما أن يكون فيها زيغ أو ضلال و حيرة و إما أن يكون فيها خروج عن المقصود جملة واحدة فهي إما مهلكة و إما ناقصة.

إذ غاية معرفة العقل التنزيه عن صفات المحدثات، بأنه ليس كذا وليس كذا وما هي هذه المعرفة المطلوبة منا، و إنما المطلوب منا طريقة الرسل عليهم السلام"[53].

وعليه يمكننا أن نقول بشكل عام – أن هناك ثلاثة مآخذ يسجلها النورسي على منهج المتكلمين:

1- تقديم العقل على النقل .
2- اتخاذ مسالك في الاستدلال بعيدة عن مدارك الناس.
3- مخاطبة العقل دون بقية لطائف الإنسان.

ب– مناقشة الأدلة :

مثلما نجد في الرسائل ملاحظات حول المنهج الذي اتبعه المتكلمون، نجد أيضا مناقشات لبعض الأدلة التي اعتمدوها في إثبات الوحدانية أو غيرها من المسائل كالقدر وعلاقته بسلوك الإنسان و مفهوم الأسباب.

ونحن هنا لن نورد مناقشاته لكل الأدلة و إنما سنبين طريقته في هذه المناقشة .

فالنورسي له في ذلك طريقتان:

الأولى:أن يورد الدليل الذي اعتمده المتكلمون – و يكون عادة من أدلة الأشاعرة – ويقرهم عليه، ثم يعطي وجها آخر للاستدلال مما يراه محققا للغرض أكثر.

الثانية : أن يورد الدليل و يعمل إبطاله.

فمن أمثلة الطريقة الأولى: وقوفه مع دليل "الإمكان"ودليل"الحدوث"اللذين ساقها المتكلمون كأدلة على وجود الله – تعالى – يقول:"قال – تعالى – "**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**" (الأنبياء : 22).

"**كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم و إليه ترجعون**" (القصص : 88).

هذه نافذة يطل منها علماء الكلام الذين سلكوا في سبيل إثبات وجود الله –سبحانه – طريقا مدعما بأدلة "الإمكان "و"الحدوث" و نحن إذ نحيل تفاصيل تلك الأدلة إلى مظانها من أمهات كتب العلماء الأعلام ك"شرح المواقف" و"شرح المقاصد " نذكر شعاعات من فيض نور القرآن غمرت القلب و نفذت إليه من خلال هذه النافذة "[54].

ثم يبين تصوره للدليل من خلال الآيتين[55].

وبعدها يذكر ما يقوله المتكلمون عن "الحدوث" فيقول : "أما بصدد "الحدوث" فقد قال علماء الكلام ... ونحن نقول – يعطي مفهومه للحدوث – والشيء ذاته مع مفهوم "الإمكان" حيث يبين تصوير المتكلمين للدليل ثم يعطي مفهومه هو له[56].

وأيضا في مسألة إبطال الدور و التسلسل[57].

ومن أمثلة الطريقة الثانية: مناقشته لأدلة "المعتزلة" في مسألة القدر والأسباب وما يتفرع عنها من جزيئات كمفهوم الشر والخير وحكم مرتكب الكبيرة[58] ومناقشة الشيعة في مسألة الإمامة[59].

وفي ختام هذا المبحث نقول : بأنه على الرغم من نقد النورسي للمتكلمين و تحفظه على منهجهم عموما و على بعض أدلتهم – إلا أننا نجده قد ذكرهم في بعض المواضع من رسائله، .بما يشعر بتقديره لمجهوداتهم.

فهو يصفهم بأنهم "علماء أعلام "[60] و بأنهم "عباقرة "[61]تبدو الأمور التي قد يراها أهل الفلسفة عظيمة جليلة تافهة لا تكاد ترى بين مقاصدهم[62].

بل أكثر من ذلك، نجد أن النورسي قد استعمل بعض قواعد المتكلمين في الاستـــدلال كالســـبرو التقسيم[63] و الإلزام[64] و قياس الغائب على الشاهد [65]و أيضا تبنى بعض نظرياتهم[66] .

الخاتمـــة

نرجو أن نكون من خلال هذه الورقة قد سلطنا الضوء على موقف النورسي – من علم الكلام – ودعوته إلى إحداث علم كلام جديد قادر على نصرة العقيدة الإسلامية، والوقوف في وجه التحديات المختلفة، التي وإن بدت اقتصادية واجتماعية وأخلاقية فإن لها حتما خلفية فلسفية .

وقيمة فكر النورسي في هذا الجانب، كونه يجسد الوعي الذي يجب أن تبنى عليه دعوات الإصلاح اليوم، وذلك بالجمع الذكي بين التراث – أو على الأقل الجانب الحي منه – و بين منجزات العصر جمعا يحقق في حياة المسلم ما كان في حياة أسلافه من تناسق بين الأصالة و المعاصرة .

وفي الختام نذكر بأن الورقة إنما تطرقت إلى جزئية من منهج متكامل، فمن المجازفة إدعاء الوفاء بحق البيان، و الجزئية لا تفهم حق الفهم إلي ضمن الكل، فلا يمكن أن ندرك قيمة هذه الوقفة النقدية مع علم الكلام إلا إذا تطرقنا إلي المحددات النظرية التي ارتضاها بديلا لما درج عليه من سبقه، و هذا ما فصلناه في دراسة أخرى أشرنا إليها أعلاه .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر و المراجع

1 – المصادر :

1 – الكلمات : ترجمة إحسان قاسم الصالحي " دار سوزلر للنشر " إستانبول، ط 3، 1419هـ/ 1998م.

2 – اللمعات : ترجمة إحسان قاسم الصالحي " دار سوزلر للنشر " إستانبول، ط 1، 1413هـ/ 1993م.

3 – الملاحق : ترجمة إحسان قاسم الصالحي " دار سوزلر للنشر " إستانبول، ط 1، 1415هـ / 1995م..

4 – المثنوي العربي النوري : تحقيق إحسان قاسم الصالحي، "دار سوزلر للنشر" إستنبول ط4، 1420هـ/1999م.

5- مختارات من المثنوي العربي النوري : إختارها و قدم لها أديب إبراهيم الدباغ، مطبعة الزهراء الحديثة (الموصل) ط 1، 1404 هـ / 1983م

2 / المراجع :

1- البيجوري (ابراهيم) : تحفة المريدي على جوهرة التوحيد، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، 1347هـ/1947م.

2- بيصار (د/ محمد) : في فلسفة ابن رشد الوجود و الخلود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 3، 1973م

3 – حنفي (د/ حسن) : من العقيدة الى الثورة، مكتبة مدبولي، مصر، د.ط، د.ت .

4 – ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت .

5 – الزركلي (خير الدين) : الإعلام، دار العلم للملايين، بيروت (لبنان)، ط 7، 1986م .

6 – السرهندي (أحمد بن عبد الأحد) : مكتوبات الإمام الرباني، تعريب : محمد مراد المنـــزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت .

7 – العاشور (مصطفى زكي) : بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته و آثاره، دار المحراب للطباعة والنشر، د.ط، د.ت .

8 – عبده (محمد) : **رسالة** التوحيد، قدم لها : حسن يوسف الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط 5، 1347هـ/1988م.

9 – عبد القادر (الأمير الجزائري) :

-المواقف (صورة مخطوطة)، موفم للنشر، الجزائر، 1996م.

10 – ابن عساكر (ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله) : تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الإمام أبي الحسن الأشعري، دار الكتاب العري، بيروت، ط 4، 1411هـ/1991م.

11 – الغزالي (أبوحامد) :

– إحياء علوم الدين، دار الفكر العربي، د.ط، د.ت .

– المنقذ من الضلال، ضمن الجموعة الكاملة لأعمال د/محمودعبدالحليم، دار الكتاب العربي، لبنان .

12– غردية (لويس، وج قنواتي) : فلسفة الفكر الديني بين الإسلام و المسيحية، ترجمة د/ صبحي صالح و فريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت، ط 2، 1978 ..

13 – فخري (ماجد) : ابن رشد فيلسوف قرطبة، منشورات دار المشرق، بيروت، ط 2، 1986 .

- د.ط، د.ت .

14 – النجار (د/ عبد المجيد عمر) :

- مباحث في منهجية الفكر الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 92 .

– الفكر العقدي عند الامام ابن عرفة، (فصلة) من النشرة العلمية للكلية الزيتونية، ع 7 س 1405هـ/1984م.

15 – نصار (د/محمد عبد الستار) : منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، (بحث مقدم) الى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الاسلامي، قسنطينة – الجزائر – 9–89/09/12)، منشورات المعهد العالمي للفكر الاسلامي .

المجـــــــــــــلات :

1– الأمة : " النورسي رائد الفكر الاسلامي في الحديث "، د/ محسن عبد الحميد ع 19 س 2 رجب 1402هـ / مايو 1982 م .

الهوامش

1– عبد المجيد النجار: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 92، ص79.

2– المقدمة :دار الجيل،بيروت،د.ت،د.ط،ص507–517 .

– ابن خلدون :(732 هـ –808هـ/1332 م–1406م):هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضري الاشبيلي ، ولد في تونس ورحل إلى فاس وتلمسان والأندلس، تولى قضاء المالكية

في مصر ، توفي في القاهرة ، و هو مؤرخ و مؤسس فلسفة التاريخ و علم الاجتماع ، اشتهر بكتاب (العبر و ديوان المبدأ و الخبر في تاريخ العرب و العجم و البربر...)و(المقدمة) [الإعلام (330/3)]

3- رسالة التوحيد: قدم لها حسن يوسف الغزال ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، ط5 ،1347ه /1988م ه ص43-53

– محمد عبده: (1849م-1905م)هو: محمد بن عبده خير الله ولد في (محلة نصر) بمديرية (البحيرة) لأسرة ريفية متوسطة في دلتا النيل، التحقق بالأزهر عام 1866م تخرج منه سنة 1877م، حمل لواء الإصلاح مع الأفغاني، وسجن ونفي سنة (1882م) تولى الإفتاء سنة (1899 م) من مؤلفاته (رسالة التوحيد). (الإسلام و النصرانية بين العلم و المدنية).[الأعلام (252/6)].

4- ابن عساكر: تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط4 ، 1411هـ /1991م (مقدمة الكوثري) ، ص 7-22.

– ابن عساكر: (499هـ-571هـ): هو ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر، ولد بدمشق وتفقه فيها وسمع فيها الحديث ورحل إلى بغداد ثم المدينة ومكة، وتتلمذ عليه خلق كثير، له مؤلفات عديدة معظمها في الحديث والتاريخ منها(تاريخ دمشق) .(فضل المدينة)، فضل مكة)

– والأشعري: (260هـ-323هـ): هو على بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن، يصل نسبه إلى الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ، بدأ معتز ليا ثم تخلى عنهم واختط لنفسه طريقا توفيقيا ، حتى لقب بشيخ أهل السنة.

له مؤلفات عديدة منها (مقالات الإسلاميين) ، (الإبانة)

– انظر الترجمة :كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر و الأعلام (263/4) و فيه أن تاريخ الوفاة 324هـ.

5- المقدمة:ص513

6- رسالة التوحيد :ص43 و ما بعدها.

7- الباقلاني (338هـ-403هـ/950م-1013م): محمد بن الطيب محمد بن جعفر، أبوبكر، قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي فيها، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجهه عضد الدولة سفيرا عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية ، من كتبه (إعجاز القرآن) ، (الإنصاف) ، (دقائق الكلام)، (تمهيد الدلائل) ، (التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة). [الأعلام (176/6)].

8- المقدمة : ص516 . و هو ما يسجله الغزالى أيضا في (المنقذ) بقوله: "فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله – تعالى- إليه ، فأحسنـــوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرهم إلى تسليمها إما التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار" .

انظر : الغـــزالي : المنقذ من الضلال ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود (ضمن المجموعة الكاملة) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط2 ، 1985 ص89-90.

9 – رسالة التوحيد:ص52.

10 – فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية،دار العلم للملايين،بيروت،ط1 ،1: /35-159.

* و هذا الكتاب مع الفوائد التي تضمنها إلا أن فيه كثيرا من المقدمات والاستنتاجات التي اعتمدها الكاتبان أو توصلا إليهـــا تحتـــاج إلى منـــاقشة ومراجعة .

11- وقد تتبع أيضا (الدكتور حسن حنفي) تطور علم الكلام من خلال المؤلفات التي عرضت لهذا العلم، مركزا على انفصاله عن الواقع وأثر ذلك في تفكيرنا الحاضر .

لكن تحليله لمضمون علم الكلام – على الرغم من أهميته- لا يساعدنا على تبين المراحل الكبرى السابقة الذكر .

انظر : د/حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة ، مكتبه مدبولي ، مصر د.ت ، المجلد الأول ، (المقدمات النظرية) ج 1 ص 141-227 ،

12- عبد المجيد النجار: الفكر العقدي عند الإمام ابن عرفة ، (فصلة) من النشرة العلمية للكلية الزيتونية للشريعـــة وأصـــول الديـــن ع7، س 1405هـــ /1984،ص 56 وما بعدها. يمكن تبين هذه الميزة بجلاء من خلال استعراض المصنفات الأولى لعلماء الكلام (المؤسسين)، فإذا أخذنا الأشعري كمثال نجد أن أهم مؤلفاته كانت ردا و دفاعا(الفصول في الرد على الملحدين والخارجـــين على الملة كالفلاسفة والطبائعيين وأهل الشبه ....) ، (اللمع في الرد على أهل الزيغ و البدع)، (الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك و التضليل) ، (الجوابات في الصفات في مسائل أهل الزيغ و الشبهات)، (القامع لكتاب الخالدي في الارادة) و غيرها.

انظر : تبيين كذب المفتري : ص128-131.

13- مباحث في المنهجية الفكر الإسلامي : ص 100.

14- المرجع نفسه : ص99.

-الفارابي (260هـــ – 339هـــ) :هو أبو نصر محمد ، أشتهر بلقب المعلم الثاني ، له عدة شروحات على أرسطو و على غيره من الفلاسفة ، من مؤلفاته (الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون و أرسطو) ، (تحصيل السعادة) ، (المدينة الفاضلة) ، (إحصاء العلوم) [الأعلام (20/7)].

15 – المنقذ من الضلال :87.

16- المقدمة :ص507 و انظر :تعريف : الايجي و الجرجاني في (المواقف) و طاش كبرى زاده في (مفتاح السعادة).

17- الفكر العقدي عند الإمام ابن عرفة :ص57.

18- رسالة التوحيد :ص43 .

19- المرجع نفسه :ص44.

20- تحفة المريد على جوهرة التوحيد (مرجع سابق) :ص8 .

21- المنقد من الضلال :ص91 .

22- يقصد تحفة المريد على جوهرة التوحيد ، لأن صاحب الجوهرة هو إبراهيم اللقاني.

- والبيجوري أو الباجوري (1860م) هو ابراهيم بن محمد بن أحمد شيخ الجامع الأزهر من فقهاء الشافعية ، نسبته إلى الباجور من قرى المنوفية بمصر ، تقلد مشيخة الأزهر سنة 1263هـ له حواش كثيرة منها : تحفه المريد على جوهرة التوحيد.

23- الرازي (544هـ /606هـ) : هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، التيمي البكري ابو عبد الله فخر الدين الرازي ، الإمام المفسر، له مؤلفات كثيرة منها: مفاتيح الغيب، ومعالم أصول الدين، وأسرار التنـزيل [الأعلام (313/6)].

24- فلسفة الفكر الديني :1 /137 -138

25- مباحث في منهجية الفكر الإسلامي :117-118

26- فلسفة الفكر الديني :140/1

27- رسالة التوحيد :ص 53 .

28- من الغريب أن بعض الذين تحدثوا عن جهود الإصلاح في مجال علم الكلام لم يشيروا إلى جهود النورسي ، على الرغم من سبقه الزمني لبعض المصلحين و على الرغم من وضوح رؤيته التجديدية.

انظر :- مباحث في منهجية الفكر الإسلامي :ص132.

- فلسفة الفكر الديني (142-167).

- محمد عبد الستار بيصار ، منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر ، (بحث مقدم إلى ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي ، قسنطينة -الجزائر 9- 12 سبتمبر 1989) منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ص19-22 .

29- وهذا على عكس ما كان قد وجده الغزالي في عصره حيث قال :"فصادفته علما وفيا بمقصوده غير واف بمقصودي " -المنقذ من الضلال :ص87.

30- المقدمة :ص517.

31- الكلمات : ص 562- 563.

32- يقصد قوله – تعالى- **(قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات و الأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم و يؤخركم إلى أجل مسمى قالوا :إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين)** [إبراهيم :الآية 10].

33- اللمعات :ص 267.

34- المصدر نفسه : 574.

35- الكلمات :ص348.

36- انظر مؤلفات المتأخرين : السنوسي و اللقاني و البيجوري.

37- زكي العاشور : بديع الزمان سعيد النورسي حياته و آثاره،دار المحراب للطباعة والنشر،د.ت،د.ط، ص197.

38 – الإيجي (...757هـ /...1355م) : هو عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الغفار أبو الفضل، عضد الدين الإيجي ، عالم بالأصول والعربية، من أهل (إيج) بفارس، ولي القضاء ، سجنه صاحب كرمان ومات مسجونا من تصانيفه :المواقف في علم الكلام ، العقائد العضدية، الرساله العضدية، جواهر الكلام، شرح مختصر ابن الحاجب (الأعلام 295/3).

– البيضاوي (....–685هـ /....1286م) :هو عبد الله بن عمر بن محمد على الشيرازي، أبو سعيد أو أبو الخير ، ناصر الدين البيضاوي ، قاض مفسر، علامة ، ولد في المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز ، و ولي قضاء شيراز و رحل إلى تبريز فتوفيى فيها ، من تصانيفه : أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل (المعروف بتفسير البيضاوي)، طوالع الأنوار، منهاج الوصول إلى علم الأصول (الأعلام:)

–الجرجاني : (740هـ –816 هـ /1339م –1413م) : هو علي بن محمد الشريف ، ولد قرب إقليم اشرباد (جرجان) بفارس ، اشتهر بدراساته الكلامية و الفلسفية ، له عدة شروح على أهم الكتب في أصول الفقه و علم الكلام و الفلسفة. [الأعلام (7/5)].

39– د/محسن عبدالحميد:النورسي رائد الفكر الإسلامي في العصر الحديث ، مجلة الأمة :ع19 س2 ،ص48.

40– الكلمات :ص173 ، و إنا لنلمس الروح الدفاعية (القتالية)من خلال المصطلحات التي استعملها النورسي في هذا النص :سيف–استسلام–انتصرت–قضت–دكت أقوى قلاع الضلالة ، بددت...

41– المثنوي العربي النوري ، تحقيق إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، إستانبول ، ط4 ، 1420هـ/1999م ، ص 206.

42– الملاحق : ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر للنشر ، استنبول ، ط1 ، 1415هـ/1995م ، ص 75.

43– وذلك في أطروحتنا الموسومة ب(بديع الزمان سعيد النورسي ومنهجه في عرض العقيدة) وهي مقدمة لنيل درجة الماجستيرمن جامعة الأميرعبدالقادر للعلوم الاسلامية/قسنطينة/الجزائر.

44– الكلمات :ص 514 –515.

45– بديع الزمان سعيد النورسي حياته و بعض آثاره : 194 –195.

46– ابن رشد (520هـ –595هـ /1126م –1198م) هو: محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي، أبو الوليد الفيلسوف و الفقيه، شرح أرسطو ، له مؤلفات عديدة منها (فصل المقال فيما بين الحكمة و الشرعية من الاتصال)، (بداية المجتهد و نهاية المقتصد) ، (مناهج الأدلة). [الأعلام (318/5)].

47 قارن هذا مع قول النورسي في شرط الدليل :"فمن شرط الدليل أن يكون ظاهرا و أظهر من النتيجة أمام الجمهور " [الكلمات :ص266].

48 – ماجد فخري : ابن رشد فيلسوف قرطبة ، منشورات دار المشرق بيروت ، ط2 ، 86 ، ص 203–204 وأيضا : محمد بيصـــار : الوجـــود و الخلود في فلسفة ابن رشد ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط3 ، 1973 ، ص60–61.

49– النورسي حياته و آثاره : ص 105.

50 – انظر :إحياء علوم الدين : (1 /86 –87).
51– المكتوبات: 62/1.
52– المرجع نفسه : 276/1.
53– المواقف : صورة مخطوطة ، موفم للنشر ، الجزائر ، 96 ، الجزء الأول ورقة رقم :ب 61.
–الأمير عبد القادر (1222هـ–1300هـ/1807م–1883م): هو عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى الحسيني الجزائري، أمير مجاهد، من العلماء الشعراء، ولد في القنيطنة من إيالة وهران (الجزائر) ، تعلم في وهران وحج مع أبيه سنة 1241هـ ، فزار المدينة ودمشق وبغداد ، ولما دخل الفرنسيون الجزائر سنة 1830م بويع على الإمارة سنة 1843م وقاد مقاومة مسلحة، وأسس دولة، إضطرته ضروف الحرب إلى الإستسلام سنة 1848م، نقل إلى فرنسا وإستقر في دمشق سنة 1271هـ و كانت له فيها مواقف مشرفة إن على المستوى الإنساني أو العلمي، توفي بدمشق وبعد الإستقلال نقلت رفاته إلى الجزائر. من آثاره العلمية : (ذكرى العاقل) ، (رسالة في العلوم و الأخلاق)، (ديوان شعر)، (المقراض الحاد)، (المواقف) وهو ثلاثة أجزاء في التصوف. [الأعلام (4/45–46)].
54– الكلمات : ص824.
55– المصدر نفسه : 824–825.
56– المصدر نفسه : 825.
57– المصدر نفسه : 826.
58– اللمعات : ص 118.
59– المصدر نفسه : 28–38.
60– الكلمات :ص824.
61– المصدر نفسه :ص401.
62– المصدر نفسه : ص 401.
63– انظر مثلا : رسالة الطبيعة : اللمعات : ص 268 –283.
64– المصدر نفسه : 270.
65– و هو المسلك الأكثر استعمالا في كل الرسائل.
66– مثل نظرية (الكسب الأشعري)

نحو منظور جديد لتدعيم الأخلاق
في الفكر الإسلامي المعاصر في ظل العولمة

أ.د. عبد المجيد عمراني(*)

إن الأرضية الأساسية للمؤثرات الأخلاقية والتيارات الفلسفية والفكرية التي ظهرت مع بداية هذه الألفية والتي ستتولد عنها عدة مناهج ونظريات وإتجاهات مختلفة ستدفع حتما بالعقل البشري أن يفكر وأن يبدع ويخترع بحرية مطلقة وبمنهج علمي له مميزات وخصوصيات تختلف عن الأسس والمناهج والتقنيات السابقة. ترى كيف يكون المنهج الأحادي الذي يدعو إلى عولمة فلسفة الأخلاق وفلسفة العولمة؟. وهل يمكن ان نـــتصور منهجا خاصا لعلم الأخلاق في ظل التحولات الجذرية للحياة الإنسانية في الفكر الإسلامي المعاصر؟ وماهو مصير الأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصر ؟ وماهي الطرق أو السبل التي يمكن إدخالها أو إستعمالها في منظومتنا الأخلاقية وفي إطار المفاهيم الجديدة التي تساير ثقافة العولمة ؟. وهل نساهم بإمكانياتنا الحضارية والثقافية والأخلاقية في تطوير لثقافة المعولمة الجديدة؟.

ومجمل هذه الأسئلة في هذا البحث تدفعنا إلى دراسة هذا الموضوع من زاوية فلسفية وتقسيمه إلى ثلاث نقاط أساسية يمكن الإستعانة بها عند الدراسة والبحث في هذا المجال وهذه النقاط كالتالي:

1- فلسفة العولمة.

(*) عضو المجلس الأعلى للغة العربية – عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة باتنة – الجزائر

2- ما ينبغي أن يكون عليه السلوك البشري في إطار المفاهيم الجديدة للأخلاق الإسلامية.

3- مكونات الشخصية في مواجهة العولمة.

نحو منظور جديد لتدعيم الأخلاق

في الفكر الإسلامي المعاصر في ظل العولمة

لم تكن دراسة مفهومي العولمة والأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصر هي السبب الرئيسي في إلقاء الضوء على المراحل التاريخية التي مرت بها المفاهيم الجديدة فقط بل هي دراسة التصورات والتنبؤات المستقبلية نحو منظور جديد للتوافق بين الأخلاق الدينية وفكرة العولمة ، وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يرى بأن هذه الإشكالية ظهرت مع نهاية القرن العشرين نتيجة الانتصار الديمقراطية الليبرالية الحرة و ظهور مفاهيم جديدة كالحداثة وما بعدها ونهاية التاريخ،ونهاية الفلسفة وبداية التاريخ الجديد. وأغلبها حدثت نتيجة الثورة المعلوماتية الكبرى التي أصبحت فيما بعد ثقافة الجميع، وتعد من أهم المميزات الإيجابية التي أنتجتها ثقافة العولمة.

إذا كانت الأخلاق مبحث من مباحث القيم وتبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك البشري فإن فكرة العولمة التي حدد معناها باللغة الإنجليزية (Globalization) وبالفرنسية (Mondialisation) تعني الشمولية أي بمعنى آخر تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل العالم كله. وبالرغم من أنها مازالت محل نقاش وانتقادات من قبل المفكرين عامة وعلماء السياسة والاقتصاد بخاصة إلا أنها تهدف إلى إحداث التغيير المستمر في مجالات عديدة أهمها المنافسة الحرة بين القطاعات والمؤسسات الحرة والابتكار الثقافي أو التكنولوجي وانتشار المعلومات وزيادة التشابه بين الجماعات والمجتمعات البشرية، وكذلك إزالة أو تذويب الحدود الجغرافية بين الدول. كل هذه العوامل أو العمليات تدعو إلى عولمة العالم أو إلى " الكونية " أو إلى " الكوكبية " وتساعد أو تدعم المجتمعات الأكثر تحضرا لتوسيع حضارتها، والأكثر ثقافة لنشر ثقافتها ولغتها والأكثر فلسفة لتؤثر بفلسفتها، والأكثر خلقا لنشر أخلاقها والأكثر صناعة لترويج مصنوعاتها، والأكثر اتصالا لنشر إعلامها وفعالية نشاطها المعرفي واللغوي. وأن هذه العناصر الأساسية والإيجابية عند بعض الباحثين تنفرد بها الدول الغربية عن غيرها حيث أصبحت العولمة عندها كإيديولوجيا جديدة. وهذا في رأينا يعود إلى عولمة اللغة الإنجليزية التي دخلت

جميع الميادين العلمية وأصبحت تسيطر على أكبر شبكة عالمية في توزيع المعلومات عن طريق الانترنيت.

أما رؤيتنا المبدئية لفكرة العولمة فهي تعني سقوط السلطوية والاتجاه نحو الديموقراطية الليبرالية الحرة والدعوة إلى العالمية (Universalism) الجديدة التي تدعو بدورها إلى التنافس البشري في شتى الميادين وتطالب بعولمة الاقتصاد و بعولمة المؤسسات الإنتاجية وبعولمة التربية والتعليم والأخلاق، وبعولمة الحضارة والثقافة كما تدعو إلى الفكر الفلسفي الجديد، وهي فرصة للمجتمعات عامة لكي تستفيد من خبرات المجتمعات الأخرى وتنشر ثقافتها وحضارتها وتاريخها ودينها وتبلغ رسالتها إليهم. أن كل شيء في هذا العالم أصبح معولما ويدعو باستمرار إلى التجديد والتغيير الجذري بسبب عوامل عديدة جديدة مفروضة على الإنسانية، وهذا ما دفع بالقطبية الأحادية لكي تنادي بتوسيع سياستها وفلسفتها الجديدة معتمدة على إمكانياتها المادية وحضارتها المتطورة وثقافتها الإبداعية وتقنياتها الخلاقة. وهذا بالتوغل في أعماق المنظومات الإقليمية من أجل تحقيق الرأسمالية الجديدة التي يحلم بها العالم الجديد في ظل العالمية الجديدة.

على الرغم من أن العولمة مفروضة على المجتمعات البشرية فإن إيجابياتها تدفعنا إلى التنبؤ المستقبلي بعولمة الأخلاق الدينية وبداية التاريخ الجديد لفلسفة الأخلاق، والعالمية الجديدة المبنية على مناهج موضوعية أساسها المعاملة والتفاهم بين الشعوب. ولكن الأسئلة المطروحة والمفتوحة في هذه الدراسة نلخصها في ثلاث نقاط أساسية هي:

1- هل الحضارة الغربية هي التي فرضت علينا فكرة العولمة؟ إذا كان الجواب بنعم فإن الأخلاق ستصبح معولمة في المستقبل. أما إذا كان الجواب بـــلا فالأخلاق ستبقى محل دعوة إلى عالميتها ؟

2- من هم الذين سيقودون الأخلاق المعاصرة في الحضارات مستقبلا ؟ وما هو المنهج الإيجابي البديل الأخلاقي الذي ندعو إليه ؟

3- ماهو مصير الأخلاق الإسلامية في ظل العولمة الجديدة ؟

ترى كيف تكون حقيقتنا الواقعية إذا سلمنا بهذه الحقيقة ؟ وكيف تكون حقيقتهم الواقعية إذا سلموا لحقيقتنا التاريخية الحضارية ؟ وهل الكونية مكسب للبشرية ؟ كيف يتصور الآخرون أخلاقنا الإسلامية ؟ وهل فعلا تتماشى ثقافتهم المعولمة مع الثقافات الأخرى ؟

إذن فلأبواب مفتوحة للمساهمة بالاقتراحات العلمية وبالفرضيات المنهجية من أجل أخلاق معولمة جديدة.

على الرغم أيضا من ان مميزات فكرة العولمة تتمثل في الثورة العلمية التكنولوجية والمعلوماتية والقوة المادية والعسكرية في عالم معولم وتسعى إلى بسط نفوذها للسيطرة على القوة الدينية الروحية إلا أنها مازالت كمشروع حضاري جديد تدعو إلى الفكر الفلسفي الجديد في ظل التاريخ المجتمعي الجديد وتهدف إلى التاريخانية العالمية والتي نتجت عن تطور الصراع الطبقي للمجتمعات البشرية عبر التاريخ والمراحل الأخيرة للنظام الرأسمالي المبني على المنافسة الحرة التي دفعت العالم إلى أن يكون قرية صغيرة .

بالإضافة إلى ذلك فهي نظام او نسق تجاوز الناحية الاقتصادية الشاملة و هي الاتصال يشمل الثقافة بمفهومها الواسع عامة والإيديولوجية بخاصة لأنها في رأينا أصبحت نظاما متكاملا واثاره شاملة وكاملة لايختص بها جانب دون آخر. وعلى هذا الأساس فإننا نعتقد بأن الأثر الثقافي والفكري والأخلاقي والفلسفي والإيديولوجي المستقبلي هو الذي يقود ظاهرة العولمة ونتنبأ بإيديولوجية عالمية جديدة تهدف إلى علمنة وعقلنة الفلسفة الجديدة. والمعرفة كسلطة وأداة هيمنة، ومن يملك المعرفة الشاملة وأدوات توزيعها والقدرة على إستعمالها وتوظيفها في مبحث القيم يملك سلطة التحكم والسيطرة على العقول التابعة.

ولهذا اصبحت العولمة تدعى"بالأمركة" وأصبحت كحقيقة واقعية مفروضة على البشرية ويجب علينا ان نتعامل معها ونساند طرح منظريها لكي نتماشى مع تطور ثقافتها وأخلاقنا في الفكر الإسلامي المعاصر.

حقيقة ان العالم أصبح معولما مع بداية الألفية الثالثة وأصبح يتجه نحو منظومة تربوية موجهة في ظل الإيديولوجية الجديدة التي سمحت " للمركزية العالمية " ان تعولم ثقافتها وأخلاقنا الإسلامية وتنفرد بالإبداع والإبتكار والإنتاج عن الأمم الأخرى ، وتتمتع بالمركزية الثقافية بشكل تلقائي ، وستؤثر بمختلف مجالاتها على الثقافات الأخرى مما يسهل عليها تبليغ حضارتها وتوسعها في العالم.

ترى ماهو مصير الثقافات والحضارات المتمركزة في أنحاء العالم ؟ فعلا لقد تنبه معظم الفلاسفة والباحثين في جميع الحضارات وطبيعة الصراع فيها والنتائج التي أدت إلى تطورها وإزدهارها وإنتشارها أو أسباب إضمحلالها وهذه الدراسات مازالت محل نقاش وإنتقادات من قبل المهتمين إذ يذهب صموئيل هانتنغتون (SAMUELHUNTINGTON)

المفكر الأمريكي إلى تحديد شكل من المجتمع الحضاري القائم على : "أن مجموعة من الدول تنتمي إلى حضارة واحدة وتورطت في حرب مع مجموعة أخرى من حضارات مختلفة طبيعي ان يجتمعوا ويناصروا الذين ينتمون إلى حضارتهم " [2].

والصراع مازال كظاهرة معقدة يصطدم بظاهرة أخرى أعقد منها إذ ينتج عن ذلك العنف والدمار والخراب وأحيانا التوسع الثقافي والحضاري على حساب الآخرين .

وعلى هذا الأساس فإننا نعتقد بأن الفلسفة عامة والمثالية بخاصة انتهت مع نهاية القرن العشرين وبدا تاريخ جديد معولم في ظل التنبئوات الفكرية والفلسفية لظاهرة العولمة مستقبلا بعولمة الثقافة والإعلام والإتصال والحضارة والعلم ستدفع حتما العالم إلى إتجاه إيديولوجي موحد أي نحو أخلاق جديدة .

وفي تصورنا فإنه بهذا الفكر الأحادي ستزول الثقافات الضيقة والمذاهب الاجتماعية الفلسفية تدريجيا وتتصادم الحضارات لعقود من الزمن وعنها يبدا التاريخ الجديد المعولم للإنسانية كما هو الحال للطبقة العاملة التي كانت تناضل ضد الظلم والطغيان والعبودية والفوارق الطبقية حيث زالت العلاقة التناحرية بين الطبقتين واصبحت علاقة منفعة بين الاعداء السابقين. واصبحت تدعم النظام بشتى الوسائل لأن ترسانة النظام او السلطة الحاكمة استطاعت ان تدمج كل العناصر المناهضة لها سواء كان ذلك بطريقة المغالطة الثقافية أم بالطريقة المادية وهذا ما جعلنا نفكر في حل جديد للوصول إلى مشروع حضاري جديد للتاريخ الجديد الموحد في عولمة الإيديولوجية العالمية والتي ستفرض على البشرية في عدة ميادين، ومنهج الأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصر سيكون ضمن المناهج العالمية المعاصرة.

والعولمة لا تدعو إلى سقوط الشمولية والسلطوية والإتجاه نحو الديمقراطية الفردية فقط، بل تدعو إلى "العالمية الجديدة والأخلاق الجديدة" في ظل التنافس في ميادين مختلفة وذلك في إطار عولمة الاقتصاد وعولمة التكنولوجيا والسياسة والتعليم، وهي فرصة للمجتمعات النامية لكي تطبق التاريخانية وتستعمل المنهج العقلاني الخاص في المنظومة التربوية لكي تدعم الأمبراطورية العالمية الجديدة التي ترتكز على مبدأ الخصخصة.

حقيقة إن الثقافة بمفهومها الواسع هي العادات والتقاليد والقيم والأعراف والأخلاق والسلوك واللغة والدين الخ ... كما عرفها علماء الأنتربولوجيا، وعلى هذا الأساس لكل مجتمع مميزاته وخصوصياته، والإنسان بدوره كائن بيئوي وكوني في آن واحد،

متجذر في تراثه وأصالته ومبادئه كالشجرة وهو دائما يبحث وتطلب الرحيل إلى الإنسانية جمعاء. ونجده في نفس الوقت، بين مطلبين لايستطيع الإنسلاخ[4] عنهما، أي بين مطلب الخصوصية ومطلب الكونية. والأخلاق تبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك البشري بينما علم الجمال يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الأثر الفني وعلم المنطق يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه الفكر الصحيح، وتسمى هذهى العلوم بمبحث القيم في الفلسفة المعاصرة.[5]

وبالرغم من هذا فهو يسعى إلى التطور والرقي والتغيير والتفاهم مع الأخرين على مستوى الفكر والمعرفة وأيضا بمفهوم "نعارف الحضارات" او "حوار الحضارات" لقوله تعالى: "يأيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ".[5]

والعالم الإسلامي جزء لا يتجزء من هذه الكونية فهو يسعى دائما إلى التجديد والتغيير والتعارف والتحضر والرفاهية في شتى الميادين ، وهذه حقيقة موضوعية تؤكدها هذه الآية أي ان الإنسانية بجميع تنوعاتها العرقية والقومية واللغوية واللسانية والدينية تعود إلى أصل واحد. والمبدأ الأساسي هو نظرة كل أمة إلى أمة أخرى وسعيها نحو بناء العالم على أساس الأسرة الواحدة.[6]

وعلىهذا الأساس فإننا لانتعجب بمن يتنبؤون أو يتوقعون "بميلاد مجتمع معولم".

نستنتج مما سبق بان فلسفة العولمة ستعولم العالم من الناحية الاجتماعية والثقافية والإيديولوجية والتربوية. والعالم الإسلامي سيساهم بإمكانياته المتواضعة في تطوير كل مشروع يدعو إلى التجديد والتغيير ، والشراكة ، واللغة الأنجليزية هي الأكثر إنتشارا في العالم لأنها ليست لغة العلم والمعرفة فقط بل هي وسيلة في حد ذاتها للحصول على العلم والمعرفة والتكنولوجيا الجديدة وهذا يتجسد في الدول الأكثر تطورا وتقدما من آسيا مرورا بأوروبا إلى شمال أمريكا. ولغتنا العربية كلغة هذه الشعوب التي تستعمل الإنجليزية كوسيلة وكأداة وكمنهج للحصول على التقنيات المعرفية والعلمية التطبيقية بخاصة.

ومن خلال ما تقدم وما تأسس وما ننتظره من التحويلات والتغيرات والتنبؤات المستقبلية وفي إطار الإصلاحات التي شملت جميع الميادين في العالم الإسلامي سنقتصر في دراستنا هذه على تصور خاص لتدعيم الأخلاق في الفكر الإسلامي في ظل سياسة العولمة الجديدة التي ستعم العالم في العقود القليلة القادمة.

إذن وفي إطار إصلاح ما يمكن إصلاحه في المجتمع الإسلامي يتطلب منا الإعتماد على الذاات وعلى إستغلال طاقتنا البشرية المؤهلة لتطوير إستراتيجيتنا التعليمية والأخلاقية فضلا عن محاولة خلق التكتلات مع المجتمعات التي تربطنا بها اللغة والأصالة والتاريخ والقيم الحضارية [8] وذلك للتأثير في الأحداث العالمية وجعلها كنموذج للتاريخ الذي سيصبح معولما وقابلا للتغيير وتطوير الذهنيات وإعادت تهذيب الأطروحات وتقوية فرص النمو السريع والتكيف مع الجديد بطرق ومناهج بيداغوجية علمية تتماشى مع فلسفة العولمة الجديدة والأخلاق الجديدة، وذلك للخروج من عزلتنا الثقافية. وفعلا إذا أردنا ان نقوم بإصلاح مجتمعنا الإسلامي وندعو إلى مشروع جديد في فلسفة التربية الأخلاقية عامة والتعليم بخاصة ونجعلها في هرم الأولويات وذلك لفرض وجودنا في عالم معولم يستلزم علينا ان نقترح هذه الأولويات التي نعـــتقد بانها مكملة للإقتراحات في هذا الـــمجال ، وما أكثرها ، تتمثل فيما ينبغي ان يكون عليه السلوك البشري في الفكر الإسلامي المعاصر :

1- الإيمان العميق بإنشاء مؤسسات علمية ومراكز البحث والترجمة ومجامع علمية تهتم بالتطورات التاريخية لفلسفة الأخلاق عند العرب والمسلمين.

2- فاللغة الإنجليزية اصبحت معولمة لأن اكثر من 90 ٪ من سكان العالم يتعاملون بها ولتهيئة الأرضية لفلسفتنا الأخلاقية يجب علينا ان ندخل اللغة الإنجليزية في جميع الميادين وذلك للدخول في السياسة الأحادية الموجهة نحو عالم معولم.

3- إعادة النظر في برامج التعليم ومناهج وطرق التدريس في المراحل الأولى وفق المتطلبات المعرفية والعلمية الجديدة في الفكر الإسلامي المعاصر وتوحيدها.

4- الإيمان العميق بالمراحل التاريخية التي تحققت باللغات الأجنبية من إبداع وخلق وفن وإبتكار صناعي وما وصلت إليه من إحداث ثورة معلوماتية في هذا العصر .

6- إدخال مناهج وطرق ومفاهيم أخلاقية جديدة في إصلاح المنظومة التربوية في مجتمعنا الإسلامي تتماشى مع الثقافة العالمية المعولمة لكي لا يبقى التعليم عندنا تقليديا .

7- مساهمة النخبة الإسلامية المثقفة و المؤمنة بتعدد الثقافات العالمية الموجهة والمتخصصة في علم الأخلاق والتربية في إعداد البرامج التعلمية ومدى فعاليتها في المجتمع الإسلامي.

8- توعية المسلم بفلسفة العولمة وإدراك نتائجها الثقافية والخلقية ، وتغيير الذهنيات القديمة للدخول في الفكر التربوي الأخلاقي الجديد[12] .

9- إنشاء ميزانية خاصة للباحثين والمهتمين بعلم الأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصر وجعلها في هرم الأولويات وذلك لمسايرة الفلسفة الجديدة .

خاتـــــمة

وفي نهاية دراستنا هذه نستنتج بأن المنظور الجديد لتدعيم الأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصر في ظل العولمة اصبح عبارة عن ايديولوجيا موحدة تدعو إلى عولمة التاريخ و عولمة الثقافة و السياسة الخ ، وهذه حسب الدراسات الاخيرة التي مازالت محل نقاش و انتقادات من قبل الباحثين عامة و المختصين بخاصة.

وبالرغم من ان فلسفة العولمة حديثة التسمية الا انها انتشرت و تطورت بسرعة ووجدت استجابة من قبل البشرية في انحاء العالم و حققت قوة مادية معلوماتية و قوة صناعية تكنولوجية وهي تحاول الآن ان تحقق قوة دينية روحية ثقافية. وهذا التغير الجذري والتطور السريع والتطبيع الثقافي أدى بالمجتمع العالمي ان يستفيد من هذه الامكانيات العلمية و الطاقات البشرية الـــمؤهلة ، الآن نتساءل عن مصير المجتمعات التي لم تحدث فيها ثورة معلوماتية ، هل ستتأثر او تؤثر بأسلوبها الثقافي ؟ وفي ظل هذه التحولات حاولنا قدر الإمكان التطرق إلى بعض الجوانب الفلسفية والأخلاقية والحضارية والتربوية الموجهة التي دفعت الإنسانية إلى الأحادية وجعلتنا نقترح بعض التصورات الفكرية بمناهج تتماشى مع العقلنة و العلمنة والعصرنة التي أصبحت معولمة مع بداية هذه الألفية .ترى كيف تكون حقيقتنا الواقعية إذا استسلمنا لحقيقتهم ؟

وكيف تكون واقعيتهم إذا تأثروا بواقعيتنا التاريخية الأخلاقية الحضارية ؟ وهل الكونية مكسب للبشرية؟ كيف يتصور الآخرين لمنظومتنا التربوية؟. وهل فعلا ستتماشى ثقافتهم المعولمة مع الثقافات

والحضارات الأخرى؟ ومع تذويب الحدود الجغرافية للدول وزوال القوميات العرقية و تغيير الذهنيات وصدام الحضارات ستنتقل البشرية حتما في تصورنا إلى العالمية الجديدة في العقود القليلة القادمة و يصبح التنافس الفكري و الإبداعي والتقني الحر قائما بطريقة منطقية وعند ذلك تتحقق مقولة هيجل التي تقول كل ما هو "عقلاني فهو واقعي وكل ما هو واقعي فهو عقلان ".

قائمة المراجع المعتمدة

1- أمين، جلال، العولمة والتنمية العربية 1798-1998 (بيروت: مركز الدراسات الوحدة العربية ، 1979) .

2- إبراهيم، حيدر، " العولمة وجدل الهوية الثقافية"، مجلة عالم الفكر، ديسمبر 1999 عدد 2 ص 95-121.

3- إبراهيم ، زكريا، المشكلة الخلقية، (القاهرة: دار مصر للطباعة،1980)

4- مبروك ، إبراهيم محمد الإسلام والعولمة (القاهرة: الدار القومية العربية، 1999).

5- اليلاد، زكي، المسألة الحضارية (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ، 1999).

6- الجميل، سيار، العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط (بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية ، 1999) .

7- السابعي، ناصر سليمان، " البعد الثقافي لمفهوم العولمة وأثره على الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية" (مقال مأخوذ من الأنترنات).

8- سلاطنية، بلقاسم، "حقيقة العولمة" مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة عدد12.

9- شوق، محمود أحمد، الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية (القاهرة: دار الفكر العربي ، 1998).

10- روفوكويف، دافيد، " في مديح الأمبريالية الثقافية " مجلة الثقافة العالمية 1997، عدد 85.

11- هانتغتون، صمويل، صدام الحضارات (ترجمة مجموعة من الأساتذة).

الـمـجـلات :

1/مجلة عالم الفكر (عدد خاص بالعولمة ظاهرة العصر. عدد 2 ديسمبر 1999). ص: 300

2/ مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة قسنطينة، 1997، عدد 12 .

3/ الهوية والعولمة (الملتقى الدولي بالرباط ، مايو 1997) .

4/ مجلة الثقافة العالمية، 1997، عدد 85 .

[2] صمويل هانتنغتون، ***صدام الحضارت*** . ترجمة مجموعة من الأساتذة ص :65

[4] سيار الجميل ، **العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط** (بيروت: مركز الدراسات الإسراتيجية والبحوث والتوثيق، 1997) ص: 27

[5] زكريا إبراهيم، **المشكلة الخلقية** (مصر : دار مصر للطباعة، 1980) ص : ....

[5] ***سورة الحجرات***، **آية 13** .

[6] زكي اليلاد ، ***المسألة الحضارية*** (الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي ،1999) ص 74

[8] بلقاسم سلاطنية ، "حقيقة العولمة " ***(مجلة العلوم الانسانية)*** عدد 121 –1999 ، ص :14 –15

[12] حيدر إبراهيم "العولمة وجدل الهوية الثقافية" **مجلة عالم الفكر ديسمير 1999** عدد 2 ، ص 95 /121

في مرتكزات المدنيَّة الحاضرة من المنظور النوريِّ

دراسة تحليليَّة

أ.د. قطب مصطفى سانو(*)

تقديم الدراسة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن والاه، وبعد،

تروم هذه الورقة المتواضعة إلقاء الضوء على الأسس التي تقوم عليها المدنية الحاضرة وذلك من خلال التحليل العلميِّ الدقيق، والتصوير الرائع الذي توصل إليه رجل القدر في حياة الأمة الإمام بديع الزمان النورسي ـــ رحمه الله ـــ في عدد من كتبه وكتاباته ورسائله. فلئن وصف الواصفون المدنية الحاضرة بمختلف الأوصاف، وقدَّم المحلِّلون قديمًا وحديثًا صنوفًا متعددةً من التحليل والتصوير للمدنية الحاضرة، فإنَّ نظرة متمعنةً في التحليل النوريِّ لمرتكزات تلك المدنيَّة، تكاد أن تكون فريدةً في نوعه، وغير مسبوق إليه على الإطلاق. ذلك لأنَّ تحليله أوفى على كلِّ ما يجب توفره في الطروحات العلميَّة الأصيلة النادرة من الموضوعيَّة، والمنهجيَّة، والعلميَّة، والواقعيَّة، والشموليَّة. فضلاً عن أنَّ ما جادت به قريحته ـــ رحمه الله ـــ تعدُّ أوفى تحليلٍ وأدقِّها لأسس المدنيَّة الحاضرة.

إنَّ التأمل في طرحه ـــ رحمه الله ـــ يجد المرء أنَّه تمكن من كشف النقاب عن حقيقة تلك المدنية، وأهدافها، ومثلها، وغاياتها، ووسائلها، كما يجد أنَّ تحليله الرائع خلا من النظرة الحماسيَّة غير المؤصَّلة إلى الأشياء، وابتعد عن المبالغة في الوصف، والتوغل في الأوهام، والاكتفاء بإلصاق التهم بالآخرين لمجرد كونهم مخالفين في الملَّة أو المعتقد. ولهذا، فإنَّ طرحه جدير ـــ أيَّما جدارةٍ ـــ بمزيدٍ من التحقيق العلميِّ، والتأصيل العميق، كما

(*) عضو مجمع الفقه الإسلاميِّ الدوليِّ، ومدير المعهد العالميِّ لوحدة المسلمين، ومدير مكتب العلاقات الخارجيَّة، وأستاذ الفقه وأصول الفقه بالجامعة الإسلاميَّة العالميَّة – ماليزيا

أنَّه حريٌّ بأن يغدو ميدانًا ومجالاً للعديد من الدراسات الأكاديميَّة الأصيلة التي تبرز ما يتميَّز هذا التحليل من موضوعيَّة في الطرح، وسداد في المنهجيَّة، وتجرد في النقد، وواقعيَّة في الطرح، وشموليَّة في المحتوى والمضمون. ومن ثمَّ، فإنَّ هذه الورقة تأتي لتسلِّط الضوء ــ بصورة علميَّة منهجيَّة ــ على هذا المنظور النوريِّ لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة، ولتبرز الأبعاد المنهجيَّة والعلميَّة والموضوعيَّة والواقعيَّة لهذا المنظور، كما تروم الورقة إلقاء الضوء على مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة من المنظور النوريِّ.

وبناءً على هذا، فإنَّ هذه الورقة تنتظم ثلاثة مباحث وخاتمة. أولهما: في مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في رسائل النور: عرض وتحليل، وأما المبحث الثاني، فيحاول بسط القول في مرتكزات المدنية الحاضرة في ضوء الواقع العالمي الراهن، وأما المبحث الثالث فيعنى بحديث مفصل عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة في رسائل النور، وأما الخاتمة، فإنَّها تتضمن خلاصةً لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، أملاً في أن يغدو هذا المنظور النوريُّ المتكامل محلَّ دراسات علميَّة متخصصة وموسَّعة في أروقة الجامعات والكليَّات والمعاهد العليا في جميع أنحاء العالم.

وختامًا، لا يسعني في نهاية هذه التقدمة إلا أن أتقدم بجزيل شكري وعميق تقديري إلى منظِّمي هذا المؤتمر على ما يولونه من عناية كريمة ورعاية عظيمة لأفكار الإمام وإشراقاته المبدعة، فعسى الله أن يكلِّل جميع أعمالهم بالنجاح والتوفيق، وأن يغفر لإمامنا، ويجزيه عن الأمَّة الإسلاميَّة خير الجزاء، فقد كان ــ بحقٍّ ــ أمَّةً وحدها، بل كان رجل القدر في حياة الأمَّة.

المبحث الأول

مرتكزات المدنية الحاضرة في رسائل النور: عرض وتحليل

أولاً: تعريف بالمدنية الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة[1]:

قديمًا عني ابن خلدون بتقديم تعريف للمدنيَّة التي كان يعبِّر عنها بالحضارة، فعرَّفها، بأنَّها تعني " نهاية العمران، وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشرِّ، والبعد عن الخير"[2] ويعني العمران في لغته مطلق الاجتماع الإنساني في المدن والأمصار.. وحاول العديد من علماء الاجتماع والسياسة في القرون الثلاثة الأخيرة تعريفها، ومن أهمِّ تعريفاتها عند بعض علماء الغرب، تعريف ول ديورانت في كتابه قصَّة الحضارة، حيث عرَّفها بأنَّها عبارة

عن" .. نظام اجتماعيٍّ يُعينُ الإنسان على الزيادة في إنتاجه الثقافي، وتتألف من عناصر أربعة: الموارد الاقتصاديَّة، والنظم السياسيَّة، والتقاليد الخلقيَّة، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنَّه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافعُ التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ، لا تنفكُّ الحوافز الطبيعيَّة تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها.."[3]

وأما الدكتور شهبندر، فقد عني في كتابه القضايا الاجتماعيَّة الكبرى في العالم العربي، بتعريف المدنيَّة بأنَّها " حالةٌ من الثقافة الاجتماعيَّة تمتاز بارتقاءٍ نسبيٍّ في الفنون والعلوم وتدبير الملك، حيث جرت عادة الكتَّاب المتأخرين أنَّهم إذا أطلقوا كلمة "المدنيَّة" أرادوا بها المدنيَّة الحاضرة في مقابل الهمجيَّة التي كان عليها البشر في الأزمنة الخالية، أو التي لا تزال بعض الأقوام المنحطَّة تعيش في كنفها"[4].. وذهب الأستاذ محمد قدري إلى تعريفها في كتابٍ له بعنوان رسالة جليلة في التمدن، فقال: "التمدن هو اجتماع الناس في المدن والأمصارٍ للأنس والتعاون، فهو أخصُّ من العمران الذي هو مطلق الاجتماع الإنساني سواء في البوادي والقفار، أو في المدن والأمصار.."[5].

لئن كانت هذه التعريفات برمتها تعريفات للمدنيَّة الحاضرة بشكلٍ أو بآخر، فإنَّ ثمَّة باحثين معاصرين حاولوا أن يقدِّموا تعريفا للمدنيَّة الإسلاميَّة تمييزًا لها عن المدنية الحاضرة، ومن أولئك الدكتور نصر عارف في كتابه الحضارة، الثقافة، المدنية، وقال ما نصُّه".. الحضارة ــ أي المدنيَّة الإسلاميَّة ــ هي الحضور والشهادة بجميع معانيها التي ينتج عنها نموذجٌ إنسانيٌّ يستبطن قيم التوحيد والربوبيَّة، وينطلق منها كبعدٍ غيبيٍّ، يتعلق بوحدانيَّة خالق هذا الكون وواضع نواميسه وسننه، والمتحكم في تسييره، ومن ثمَّ، فإنَّ دور الإنسان ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه، وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بخيراتها، وحسن التعامل مع المسخَّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنَّها مخلوقات تسبِّح بحمد الله، أو رزق لا بدَّ من حفظه وصيانته، وكذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كلِّ مكانٍ على ظهر الأرض، أساسها الأخُوَة والأُلْفة، وحبُّ الخير، والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة.." [6]

وثمَّة محاولاتٌ وتعريفاتٌ عديدة للمدنيَّة الإسلاميَّة، وقبلها للمدنيَّة الحاضرة، بَيْدَ أنَّ المقام لا يتسع لسردها، وما أوردناه من تعريف يكفي لإعطاء تصور عامٍّ عن مفهوم مصطلح المدنيَّة الحاضرة، ومصطلح المدنيَّة الإسلاميَّة في الكتابات الحديثة والقديمة.

وبطبيعة الحال، خلت التعريفات العامَّة من الإشارة إلى الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، ولم تشر إلى مرتكزات هذه المدنيَّة، كما أنَّها اكتفت بالإشارة إلى محاسنها، وكونها مخالفةً للحياة الهمجيَّة الغالبة على ساكني البوادي والقفار. وأما تعريف المدنية الإسلاميَّة التي ذكرها الدكتور نصر، فإنَّه قد اشتمل على إشارة بصورة غير مباشرة إلى قضايا يمكن اعتبارها أهمِّ مرتكزات للمدنيَّة الإسلاميَّة، غير أنَّ استرساله في الشرح والتفصيل والتوضيح أخرج التعريف من أن يكون تعريفًا علميًّا إلى كونه تصورًا عامًّا عن المدنيَّة الإسلاميَّة وغايتها، والأساس الذي تقوم عليه.

وأيًّا ما كان الأمر، فإنَّنا نودُّ أن نقرِّر القول بأنَّنا لم نحظ بالوقوف على تحديد علميٍّ دقيقٍ لكلتا المدنيَّتين في كتابات الإمام، ولكنَّ ذلك ـــ لا يعني بطبيعة الحال ـــ أنَّ رسائله وكتبه خلت من التعرض لأهم الموضوعات التي يمكن أن يتشكَّل منها تعريفٌ دقيقٌ لكلتا المدنيَّتين؛ بل إنَّ تأملاً فيما أورده الإمام من تحليلٍ لمرتكزات كلتا المدنيَّتي، يمكن تشكيل تعريفٍ لهما بصورة دقيقة. بل إنَّ نظرة متفحصةً في أسس المدنيَّة الحاضرة التي ذكرها الإمام النورسي، تمكِّننا من إعادة صياغة سائر التعريفات والتصورات التي تحدَّث عنها الأقدمون والمعاصرون عن المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّ تأملاً دقيقًا في مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة التي أصَّل فيها القول كفيلٌ بأن يقف الأمر على حقيقة هذه المدنية وغايتها، وأساسها، ودستورها. .

ثانيًا: عرض مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في رسائل النور:

في غمرة الهزائم التي توالت على الأمَّة الإسلاميَّة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلاديِّ إبَّان الحربين العالميَّتين، ومع شدَّة انبهار المنهزمين والمغلوبين من أبناء الأمَّة الإسلاميَّة بكلِّ ما تقدِّمه المدنيَّة الحاضرة من أفكار ومناهج وأساليب تنطوي على الكثير من السراب والوهم، وفي أثناء تضارب وتناقض مواقف أهل العلم من أبناء الأمَّة من المدنيَّة الحاضرة، فهم ما بين مُعْجَبين بها، ومُغْرَمين بتمجيدها وتقليدها، وبين رافضين لها جملةً وتفصيلاً، وناكرين جميع محاسنها، حاول الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ تعريف الأجيال بالوجه الحقيقيِّ لهذه المدنية منصفًا إيَّاها، ومفرِّقًا في الوقت نفسه بين محاسنها ومساوئها، كما أنَّه ألقى بظلالٍ وارفٍ من التحقيق والتوضيح على الهدف الأسمى والغاية المثلى، والدستور الأعلى، والمقصد الأعظم الذي تهدف المدنيَّة الحاضرة إلى

تحقيقه، وتسخِّر كافَّة إمكاناتها وإنجازاتها من أجل تمكين مرتكزاتها وفرضها على العالم أجمع.

وتمهيدًا لنظرة تحليليَّة في ما انتهى إليه الإمام ـــ رحمه الله ـــ من ضبط محكمٍ لأسس المدنيَّة الحاضرة، نرى أن نورد عددًا من النصوص التي أودعها بيانًا وتوضيحًا لتلك الأسس، حيث إنَّه عني ـــ رحمه الله ـــ بتأصيل القول في تلك الأسس والمرتكزات في عددٍ من مؤلَّفاته ورسائله القيِّمة، ففي كتابه الكلمات، قال ما نصُّه: ".. المدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها أنَّ ركيزة الحياة الاجتماعيَّة البشريَّة هي "القوَّة"، وهي تستهدف " المنفعة" في كلِّ شيءٍ، وتتخذُّ " الصراع" دستورًا للحياة، وتلتزم ب"العنصريَّة" والقوميَّة السلبيَّة رابطة للجماعات. وغايتها هي "لهو عابث" لإشباع رغبات الأهواء، وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس، وإثارة الهوى. ومن المعلوم أنَّ شأن "القوة" هو التجاوز، وشأن " المنفعة" هو التزاحم، إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن "الصراع" هو التصادم، وشأن "العنصريَّة" هو التجاوز حيث تكبر بابتلاع غيرها.."[7]

وأما في كتابه صيقل الإسلام، فقد زاد هذه الأسس توضيحًا وتحقيقًا وتأصيلاً، حيث قال ما نصُّه في معرض إجابته عن سبب رفضه المدنيَّة الحاضرة: ".. قال أحدهم من المجلس: لم ترفض هذه المدنيَّة؟ قلت: لأنَّها تأسَّست على خمسة أسسٍ سلبيَّة: فنقطة استنادها هي: القوة، وهذه شأنها: الاعتداء. وهدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم. ودستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا شأنه: التنازع. والرابطة التي تربط المجموعات البشريَّة هي: العنصريَّة، والقوميَّة السلبيَّة التي تنمو على حساب الآخرين. وهذه شأنها: التصادم، كما نراه. وخدمتها للبشريَّة خدمة فاتنة جذَّابة هي: تشجيع هوى المنفعة، وإثارة النفس الأمَّارة، وتطمين رغباتها، وتسهيل مطالبيها. وهذا الهوى شأنه: إسقاط الإنسان من درجة الملائكيَّة إلى درك الحيوانيَّة الكلبيَّة. وبهذا تكون سببًا لمسخ الإنسان معنويًّا. فمعظم هؤلاء المدنيِّين لو انقلب باطنهم بظاهرهم لوجد الخيال تجاه صور الذئاب، والدببة، والحيَّات، والقردة، والخنازير. ولأجل هذا، فقد دفعت المدنية الحاضرة ثمانين بالمائة من البشريَّة إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموَّهة زائفة. وظلَّت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علمًا أنَّ السعادة تكون سعادةً عندما تصبح عامَّة للكلِّ أو للأكثريَّة، بيْدَ أنَّ سعادة هذه المدنيَّة هي لأقل القليل من الناس.."[8]

فلئن أوسع الإمام ـــ رحمه الله ـــ مرتكزات المدنية الحاضرة في هذا الكتاب جانب التفصيل والتوضيح في هذا الكتاب وقبله في كتاب الكلمات، فإنَّه عني بذكر تلك الأسس بصورة مختصرة في كتابه المكتوبات، فقال ما نصُّه: ".. تأسَّست (أي المدنيَّة الحاضرة) على خمسة أسسٍ سلبيَّة: 1ـــ نقطة استنادها وركيزتها: القوة، وهذه شأنها: التجاوز والاعتداء. 2ـــ هدفها وقصدها: المنفعة، وهذه شأنها: التزاحم. 3ـــ دستورها في الحياة: الجدال والصراع، وهذا من شأنه: التنازع. 4ـــ رابطتها بين الكتل البشريَّه هي العنصريَّة، والقوميَّة السلبيَّة التي تنمو وتتوسَّع بابتلاع الآخرين، وشأنها التصادم الرهيب. 5ـــ خدمتها للبشريَّة خدمة جذَّابة: تشجيع الهوى والهوسات، وتلبية رغبات النفس الأمَّارة، ذلك الهوى الذي هو سبب لمسخ الإنسان مسخًا معنويًّا.."[9] وثَمَّة كتب ورسائل عديدة للإمام لم تخل من الإشارة إلى هذه الأسس بصورة مباشرة وغير مباشرة، كما أنَّه ـــ رحمه الله ـــ أولى كلَّ واحد من هذه الأسس جانب التحقيق والتأصيل والتفصيل، مما يعبِّر عن عميق فهمه لهذه الأسس وما يترتَّب عليها من مسائل وقضايا.

ثالثًا: في تحليل مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في رسائل النور:

بدءً بذي بدء، نودُّ أن نبادر إلى تقرير القول بأنَّ نقد الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ لأسس المدنيَّة الحاضرة، ينصرف إلى الأسس الماديَّة التي ترتد إليها جميع مساوئ هذه المدنيَّة، وأما الجوانب العلميَّة في هذه المدنيَّة، فإنَّها محلُّ ترحيب وقبول عنده، وفي هذا يقول الإمام حاثًّا على أهميَّة الاستفادة من حسنات هذه المدنيَّة، وذلك في معرض إجابته على من سؤال وجِّه إليه: " (قال له السائل).. كيف تشير إلينا بمحبة اليهود والنصارى، مع أنَّ القرآن الكريم ينهى عن ذلك بقوله تعالى (**لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ**) "المائدة:51 ".. (فأجاب الإمام قائلاً) كما يلزم أن يكون الدليل قطعي المتن، يلزم كذلك أن يكون قطعيَّ الدلالة، مع أنَّ للتأويل والاحتمال مجالاً، لأنَّ النهي القرآنيَّ ليس بعامٍّ بل مطلق. والمطلق قد يقيَّد. والزمان مفسِّر عظيم؛ فإذا ما أظهر قيده، فلا اعتراض عليه . وأيضًا، إن كان الحكم قائمًا على المشتقِّ، فإنَّه يفيد عليَّة مأخذ الاشتقاق للحكم. فإذًا، المنهي عنه في هذه الآية الكريمة، هو محبَّتهم من حيث ديانتهم اليهوديَّة والنصرانيَّة. وأيضًا لا يكون المرء محبوبًا لذاته، بل لصفته وصنعته، لذا، فكما لا يلزم أن تكون كل صفة من صفات المسلم مسلمةً، كذلك لا يلزم أن تكون كل صفات الكافر وصنعته كافرةً أيضًا. فعلى هذا، لِمَ لا يجوز اقتباس ما استحسنَّاه من صفةٍ مسلمةٍ، أو صنعةٍ

مسلمة فيه؟ فإن كانت لك زوجة كتابيَّة، لا شكَّ أنَّك تحبُّها.."[10]. ويؤكِّد المفكِّر الإسلاميُّ المعاصر الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد وهو أحد المطلِّعين على فكر الإمام النورسي على هذا الأمر، فيقول: "..وأما موقف الإمام النورسي من الجوانب العلميَّة من الحضارة الغربيَّة، فهو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام، أن يتحرَّك لاكتشاف قوانين الحياة، والاستفادة منها لإقامة الحضارة، وبناء التقدم. ولذلك، فقد دعا ــ رحمه الله ــ المسلمين للأخذ بأسباب الحضارة الصناعيَّة، لأنَّها من ضرورات إقامة الحياة القويَّة.. ويؤكِّد النورسي أنَّ تجديد المجتمعات الإسلاميَّة يحتاج إلى تبني "التقنية" الحديثة، مع المحافظة على الأصالة والقيم الذاتيَّة، فينبغي اتِّخاذ اليابان مثلاً في أخذهم الحضارة الغربيَّة، مع احتفاظهم بمقوماتهم.."[11] وبناءً على هذا، فإنَّ ما سنورده من حديث مفصَّلٍ عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة، ينصرف إلى الأسس الماديَّة التي تقوم عليها هذه المدنيَّة، ولا يمسُّ بأي حالٍ من الأحوال الجوانب العلميَّة المفيدة من المدنيَّة. وعليه، فلنعد لنقرِّر بأنَّه إذا كان الإمامُ ــ رحمه الله ــ عني بتكرار الحديث عن مرتكزات المدنيَّة في العديد من كتبه ورسائله، فإنَّه استفرغ طاقته في تفصيل القول ــ بصورة علميَّة ومنهجيَّة وموضوعيَّة ــ في جميع الأسس السلبيَّة التي عدَّها مرتكزاتٍ للمدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه بذل ما وسعه من جهدٍ في تعريف الأجيال بالآثار المؤلمة التي نجمت ــ ولا تزال ــ تنجم عن هذه المدنية لقيامها وانبثاقها من تلك المرتكزات والأسس، وفضلاً عن ذلك، فإنَّه أصَّل القول في الأسس المنطقيَّة والعلميَّة والواقعيَّة التي اعتمد عليها في صياغة مرتكزات هذه المدنيَّة الحاضرة. ولعلَّ نظرة متفحصة في تلك الأسس العلميَّة تزيدنا بيانًا وتوضيحًا للآثار السلبيَّة الناجمة عن ارتكاز المدنيَّة الحاضرة على تلك الأسس الخمسة، إذ إنَّ تلك المرتكزات تعدُّ أهمَّ الأسباب وراء إثارة الحروب، والإخلال بالأمن العالميِّ المنشود، وزعزعة السلام الدوليِّ الشامل، كما أنَّها أسهمت ولا تزال تسهم في تعميق الفجوة والجفوة بين الشعوب، وتقسيم العالم إلى عالمٍ متقدمٍ يحسب سواه لقمة عيش، وخدمٍ يجب عليهم إرضاءه، وإلى عالمٍ متخلف يجب عليه الركون إلى تبعيَّة العالم المتقدم وإرضائه بكافَّة السبل الممكنة. وفضلاً عن هذا، فإنَّ هذه الأسس السلبيَّة للمدنيَّة هي التي جعلت ثروات العالم وخيراته تنحصر في أيدي شرذمة قليلة جشعة وبشعة، غاياتها امتصاص دماء وأتعاب الأغلبيَّة الساحقة من شعوب العالم، وزيادة حياة السواد الأعظم من سكان الكوكبة الأرضيَّة شقاءً وتعاسةً وتخلفًا وتقهقرًا واضطرابًا. إنَّ نظرةً متمعنةً ومركِّزةً فيما انتهى إليه الإمام من تحليل ووصفٍ دقيقين موضوعيِّين لمرتكزات المدنيَّة

الحاضرة، تهدي المرء إلى قناعة تامَّة بأنَّ الإمام التزم في طرحه بأعلى درجات الموضوعيَّة والمنهجيَّة والواقعيَّة والتجرد في الطرح والتحليل والتأصيل. فقد راعى ـــ رحمه الله ـــ في طرحه التوقيت الزمنيَّ المناسب لصياغة هذه الأسس السلبيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه اعتدَّ بالظروف الفكريَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة التي ألَّمت بالعالم نتيجة غلبة هذه المدنيَّة وتمكينها في الأرض، فضلاً عن ذلك، فإنَّه أوسع الآثار السلبيَّة الناجمة عن المدنيَّة الحاضرة نتيجة قيامها على تلك الأسس جانب التحقيق والتحليل والتفصيل. الأمر الذي جعل طرحه طرحًا موضوعيًّا وواقعيًّا، منبثقًا عن معايشة حقيقيَّة للمدنية الحاضرة، ودراية عميقة بتاريخها، وأهدافها، وأسسها، ومآلاتها.

فبالنسبة للتوقيت الزمنيِّ الذي اختاره الإمام للبوح عن هذه المرتكزات، فإنَّه يعود إلى ما بعد الحرب العالميَّة الأولى التي كشفت النقاب عن حقيقة المدنيَّة الحاضرة، وسلَّطت الضوء على غاياتها وأهدافها وأسسها بصورة علميَّة وواقعيَّة لا تقبل مراوغة ثعلبيَّة أو جدالاً بيزنطيًّا. وفي هذا يقول الإمام النورسي مشيرًا إلى الفترة الزمنيَّة التي اختارها لتأصيل القول في أسس المدنيَّة الحاضرة: "..كنت في أيلول سنة 1919م أتقلَّب في اضطراب شديد من جرَّاء اليأس البالغ الذي ولَّدته حوادث الدهر. كنت أبحث عن نور بين هذه الظلمات المتكاثفة القاتمة.. لم أستطع أن أجده في يقظة هي رؤيا في منام. بل وجدته في رؤيا صادقة هي يقظة في الحقيقة. سأسجِّل هنا تلك النقاط التي اُستُنطِقَتها، وأُجْرِيَت على لساني من كلام دون الخوض في التفاصيل. وهي كالآتي: دخلت عالم المثال في ليلة من ليالي الجمعة. جاءني أحدهم، وقال: يدعوك مجلس موقر مهيب منعقد لبحث مصير العالم الإسلاميِّ، وما آلت إليه حاله. فذهبت، ورأيت مجلسًا منوَّرًا قد حضره السلف الصالحون، وممثَّلون من العصور، من كلِّ عصرٍ ممثَّلٌ.. لم أر مثيلهم في الدنيا.. فتهيَّبت، ووقفت في الباب تأدبًا وإجلالاً.. قال أحدهم من المجلس: لم ترفض الشريعة هذه المدنيَّة؟ قلت: لأنَّها تأسَّست على خمسة أسسٍ سلبيَّة.."[12].

إنَّ النظر العلميَّ المنصف في هذا التوقيت الدقيق لهذا الحوار الإيمانيِّ بين الإمام ونفسه، نجد أنَّه كان موضوعيًّا وواقعيًّا في اختيار هذه الفترة الزمنيَّة المحرجة والمؤكِّدة أيَّما تأكيد الأسس السلبيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، والتي أكَّدتها تلك الحرب المشؤومة التي أتت على الأخضر واليابس، وزادت البشريَّة تعاسةً وشقاءً. وليس من شكٍّ في أنَّه ما كان من الممكن علميًّا قبول أيِّ حديث علميٍّ واقعيٍّ عن سلبيَّة تلك المدنيَّة قبل الآثار والحوادث الجسام التي نتجت عن الحرب العالميَّة الأولى، بل كان يوصف كلُّ الأحاديث

عن سلبيَّة تلك المدنيَّة بأنَّه حديثٌ خياليٌّ ليس له واقعٌ ملموسٌ يمكن الاحتكام إليه، ومن المحال أن يتقبَّل السواد الأعظم من سكان العالم نقد تلك المدنيَّة والتبرؤ منها جملةً وتفصيلاً. وبناءً على هذا، فإنَّه يمكننا الخلوص إلى القول بأنَّ التوقيت الزمنيَّ لصياغة أسس المدنيَّة الحاضرة كان تقريرًا وتأكيدًا لموضوعيَّة الإمام وواقعيَّته في طرحه.

وأما بالنسبة للظروف الفكريَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة العويصة التي عرفها العالم إبَّان الحرب العالميَّة الأولى، فكانت هي الأخرى بمثابة تقريرٍ لموضوعيَّة الإمام ومنهجيَّته في الطرح، ذلك أنَّه انجلى للعالم ـــ بصورة لا تقبل النقاش ـــ الركيزة الاجتماعيَّة التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة، كما مثلت أمام البشريَّة الغاية القصوى والهدف القريب والبعيد لتلك المدنيَّة، وزاد العالم معرفةً بمنهج تلك المدنية في فرض توجهاتها ومنطلقاتها وقناعاتها، وفضلاً عن ذلك، فإنَّ العالم أدرك البعد العنصريَّ وحبَّ السيطرة الذي يحرِّك تلك المدنيَّة ويوجِّه مسارها، ويحدِّد منهجها في التعامل مع المخالفين والمعارضين لها. وفي هذا يقول الإمام النورسي مشيرًا إلى تلك الظروف والأحوال والأهوال الكئيبة التي عرفتها البشريَّة بعد الحرب العالميَّة الأولى: ".. ولأجل هذا، فقد دفعت هذه المدنيَّة الحاضرة ثمانين بالمئة من البشريَّة إلى أحضان الشقاء، وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادةٍ مموَّهة زائفة. وظلَّت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك.. ثم إنَّه بتحول الهوى الطليق من عقاله، تحوَّلت الحاجات غير الضروريَّة إلى ما يشبه الضروريَّة، إذ بينما كان الإنسان محتاجًا إلى أربعة أشياء (يقصد السكن، والمأكل والمشرب، والملبس) في حياة البداوة والبساطة، إذا به في هذه المدنيَّة يحتاج إلى مئة حاجة، وهكذا أَرْدَتْه المدنيَّة فقرًا مدقعًا.. ثمَّ لأنَّ السعي والعمل لا يكفيان لمواجهة المصاريف المتزايدة، انساق الإنسان إلى مزالة الخداع والحيلة وأكل الحرام. وهكذا فسد أساس الأخلاق.. ولقد قاءت هذه المدنيَّة وحشيَّةً فاقت جميع القرون السابقة.."[13].

إنَّ هذه الأهوال المدمِّرة الناتجة عن الحرب العالميَّة الأولى، تمثِّل تقريرًا صادقًا وتأكيدًا أمينًا لما طرحه الإمام، ذلك أنَّ منطق القوة غدا عشية انتصار المدنيَّة الحاضرة هو المنطق الأعلى والأعظم، كما أنَّ منطق المنفعيَّة والمصلحيَّة أصبح هو المنطق الذي يجب المآل إليه والاعتماد إليه، وأما منطق العنصريَّة والتعصب المقيت لمن آمن بهذه المدنية، غدا هو المنطق الأوحد الذي لا يقبل سواه في تحديد الصديق من العدو، وتوثيق عرى التعاون والترابط والتساند بين الشعوب. وبالنسبة لتشجيع الهوى وتقنين صنوف الممارسات الخلقيَّة المنحلَّة والفساد الاجتماعيِّ، أمسى أسلوب حياة تدعو المدنية الحاضرة إلى

التمسك به والعمل بمقتضاه، فليس عيبًا أن يتزوج رجل برجلٍ، أو امرأة بامرأة مادام ذلك عن تراضٍ بين الأطراف، كما أنَّه أضحى من العار والشنار أن يعلي أحدٌ من شأن الفضيلة والكرامة الإنسانيَّة، ويحول دون سائر سبل إشباع الرغبات الجنسيَّة مادام ذلك يتم من خلال موافقة الأطراف المشاركة!

صحيحٌ أنَّ المدنيَّة الحاضرة كانت ولا تزال تؤمن بهذه الأسس، غير أنَّ الظروف العالميَّة التي كانت سائدةً قبل الحرب العالميَّة الأولى، ما كانت تسمح لإبراز هذه الأسس بالصورة التي برزت بها إبَّان حرب الإبادة للبقية الباقية من المدنيَّة الإسلاميَّة وغيرها من المدنيَّات المناكفة للمدنيَّة الحاضرة في ذلك العصر. وعليه، فإنَّ طرح الإمام يعدُّ من هذا المنطلق طرحًا موضوعيًّا وواقعيًّا ومنهجيًّا في الوقت نفسه، كما أنَّه يعتبر إدراكًا عميقًا بالأبعاد الفكريَّة والاجتماعيَّة والخلقيَّة التي تؤمن بها المدنيَّة الحاضرة، وتسعى إلى فرضها على كافَّة الشعوب المغلوب على أمرها بعد انتصارها الساحق عليها.

على أنَّ الموضوعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة والواقعيَّة في طرح الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ لا يؤكِّدها التحليل العلميُّ الدقيق لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة، وإنَّما يؤكِّدها ويقرِّرها سعيُ المدنيَّة الحاضرة إلى تبني سياسة فرض المبادئ والمقررات على كافَّة شعوب العالم بالقوة والقهر. ولهذا، لم يكن عجيبًا أن يشهد العالم موجات الاعتداء الصارخ على سيادة الدول والأمم، واستعلاء منطق القوَّة على منطق الحكمة، فاستعمرت دول كثيرة من دول العالم، وغدت تجمعات بشريَّة كبيرة تابعةً في فكرها واقتصادها وسياستها لدول المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه لم يكن غريبًا أن ينقسم العالم بعدُ إلى معسكرين متنافسين، معسكر يدافع عن المدنيَّة الحاضرة بكلِّ ما أوتي من قوة فكريَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة، ومعسكر آخر (=المعسكر الشيوعي= الاشتراكي) يحاول تقديم نموذجه الفاشل المفلس أخلاقيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا. وبناءً على هذا، فإنَّنا نخلص إلى تقرير القول بأنَّ مراعاة الإمام الموضوعيَّة والواقعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة في صياغة أسس المدنيَّة الحاضرة، هو الذي جعل ما طرحه نموذجًا فريدًا، ينبغي للباحثين في السياسة والتاريخ والمعارف بشكل عامٍّ أن يولوه جانب التفصيل والتوضيح، كما ينبغي تعميق الأبحاث والدراسات في تعريف العالم في العصر الراهن بهذا الطرح العلميِّ المتكامل منهجًا ومضمونًا وواقعًا، ذلك لأنَّه يكاد أن يكون أوفى الطروحات المعاصرة ضبطًا للهدف الأسمى للمدنية، وتحديدًا محكمًا لمنهجها، ودستورها، ورابطتها، وركيزتها التي تستند إليها المدنيَّة الحاضرة. وفضلاً عن هذا كلِّه، فإنَّ طرحه اشتمل على تجانس بين مفرداتها، فالقوة، والصراع، والتزاحم،

والمصلحيَّة، والعنصريَّة، تعدُّ كل أولئك قضايا متجانسة ومتداخلة ومتقاربة، يقود بعضها إلى بعضٍ.

المبحث الثاني:

مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في ضوء الواقع العالميِّ الراهن:

لئن كان ما سبق تحليلاً للأبعاد المنهجيَّة والموضوعيَّة والعلميَّة في طرح الإمام، فإنَّنا نركن إلى اختتام هذا المبحث بنظرة عجلى في الأسس التي عدَّها الإمام ـــ رحمه الله ـــ مرتكزات للمدنيَّة الحاضرة، وذلك من خلال تحرير القول في حقائق تلك الأسس في ضوء واقعنا المعاصر. فبالنسبة للأساس الأول (القوة) الذي عدَّها الإمام ركيزة الحياة الاجتماعيَّة للأمم التي تعتنق هذه المدنيَّة في العصر الراهن، فإنَّ هذا الأساس كان ولا يزال أهمَّ مظهرٍ واقعيٍّ واضحٍ للمدنيَّة الحاضرة التي تؤمن بأنَّ منطق القوة يجب أن يكون حاضرًا في كافَّة الأحوال، كما تؤمن بأنَّه يجب التلويح باستخدام القوة في حالة وجود معارضة لمقرراتها ومبادئها ومناهجها في الفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد. ولهذا، فلا غروَ أن تعدَّ المدنيَّة الحاضرة التوسع في صنع الأسلحة البيولوجيَّة والكيماويَّة، وآلات الدمار الشامل أمرًا ضروريًّا لا تقبل فيه المساومة أو التنازل، بل يجب أن تكون ميزانية الدفاع أكبر ميزانية سواء أعلن عنها أم لم يعلن عنها، إذ إنَّه ليس من الوارد تمكين المدينة الحاضرة من فرض مقرراتها ومبادئها إذا لم تكن ثمة قوة تساندها وتدعمها، ويؤكِّد هذا الأمر أحد رؤساء الولايات المتحدَّة بقوله ".. لكي تمارس الولايات المتحدَّة دورًا قياديًّا، عليها أن تكون قويَّةً، قيادتنا الدوليَّة، وقوتنا الوطنيَّة متكاملتان.."[14]، فهذا الخطاب يوحي بجلاءٍ أنَّ الولايات المتحدَّة وحلفاءها في تبني وحراسة مبادئ المدنية الحاضرة سيكونون عصا غليظةً لمعاقبة كلِّ من يعارض منطلقات هذه المدنيَّة، أو يقف حجر عثرة في طريق ما ترنو إليه من أخلقيَّات ومناهج وأساليب حياة، بل إنَّهم لن يتوانوا عن التلويح باستخدام القوة والعنف في حالة وجود تهديد صاريخ لمرتكزات هذه المدنيَّة بحذافيرها.

وتحقيقًا لهذا الأمر، فإنَّ على الولايات المتحدَّة بوصفها الحامية العظمى الحالية لهذه المدنيَّة، وحلفائها في جميع أنحاء العالم رسم السياسات التي تقوم على الحفاظ على هذه المرتكزات وتقويتها وصيانتها. بل يجب تقوية الآلات والأدوات التي تحقِّق مزيدًا من الاستقرار والقوَّة لهذه المدنيَّة، ومن ثمَّ، فإنَّه يجب الرفع من شأن وكالة الاستخبارات

الأمريكيَّة، وجيش البحريَّة الأمريكيَّة، وحلف ناتو، ووزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة، ومنظمة جيش السلام، والوكالة الأمريكيَّة للاتصال العالميِّ، وحلف ناتو، بوصفها كلِّها منظَّمات ومؤسَّسات ضروريَّة لاستمراريَّة هذه المدنيَّة في استعلائها واستكبارها وطغيانها في الأرض.[15].

إنَّ الأحداث الأخيرة التي مرَّ بها العالم في العقد الأخير من القرن المنصرم، تمثِّل تطبيقًا حيًّا لهذا الأساس، ذلك أنَّ المدنيَّة الحاضرة، لم تتوان في استخدام قوتها في القضاء المبرم على بعض القوى المعارضة لمبادئها في أوروبا الشرقيَّة، كما أنَّها دفعت بجيوشها وجحافلها إلى منطقة الخليج للقضاء على قوة عسكريَّة ناشئة متمردة كانت ترنو إلى منافستها في السيطرة والاستعلاء والاستكبار، ولا يزال منطق القوَّة منطقًا حيًّا حاضرًا في كافَّة سياسات المدنيَّة الحاضرة، ولعلَّ الأحداث الأخيرة في أفغانستان وسواها تصبُّ في هذا الإطار، وتؤكِّد أنَّ القوَّة كلَّ القوَّة ركيزة للمدنيَّة الحاضرة.

وأما الأساس الثاني للمدنيَّة الحاضرة، فإنَّه يقوم على تقديم المنفعة والمصلحة على كلِّ شيء، كما أنَّها تبني علاقتها على المصالح دون سواها، ولذلك، فلا عجب أن تتبدَّل مبادئها وتوجهاتها وعلاقاتها بتبدل المصالح وتغيرها، بل لا عجب أن يتحوَّل صديق اليوم إلى عدو الغد، وعدو الغد إلى صديق حميم بمجرد تغير المصالح وتبدلها، وفضلاً عن ذلك، فإنَّ الحفاظ على المصالح والمنافع، هو الذي يدفع بهذه المدنية إلى إثارة البغضاء والكراهيَّة بين الأغنياء والفقراء، وتعميق مشاعر الحقد والحسد والشحناء والشنعاء بين مختلف الطبقات، ولا تزال حماية المنافع والمصالح أهمَّ محور يعتمد عليه في معرفة الصديق والعدو في المدنية الحاضرة، وفي هذا يقول الدكتور الجابري في كتابه قضايا في الفكر المعاصر: ".. الغرب (يقصد المدنيَّة الحاضرة) مصالح، ولا شيء غير المصالح. وكلُّ حوارٍ معه، أو تفكير ضدَّه لا ينطلق من المعادلة التالية (الغرب= المصالح) إنَّما هو انـــزلاقٌ وسقوطٌ في شباك الخطاب المغالطي التمويهيِّ السائد في الغرب، والهادف إلى صرف الأنظار عن "المصالح" وتوجيهها إلى الانشغال بما يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العامِّ، مثل "الحضارة" و"الثقافة" و"الدين" و"الأصوليَّة"..."[16].

إنَّ التعرف على هذا الأساس في ضوء الواقع الراهن لا يحتاج إلى تكلف، ذلك أنَّ العالم يشهد يومًا بعد يومٍ تحولا في سياسات مهندسي المدنية الحاضرة تجاه الشعوب والدول، فبالأمس القريب كانت روسيا عدوًّا لدودًا، وكانت ثمة حرب وهميَّة قائمة

تسمَّى بالحرب الباردة.. وأما اليوم، فقد أصبح ذلك العدو والخصم العنيد اللدود صديقًا مقرَّبًا يغازل معتنقي المدنيَّة الحاضرة، ويتقرَّب ويتودَّد إليهم. وأما أعداء المدنيَّة الحاضرة في البلقان بالأمس، فقد أضحوا جميعًا أصدقاءَ مقرَّبين، يسعون جاهدين إلى تمثل سائر القيم والمبادئ التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة. والأيام حبلى بمزيد من علاقات التقارب والتفاهم والتواصل بين المدنية الحاضرة والعدد القليل المتبقي من أعدائها التقليديين في الصين وكوريا الشماليَّة وسواهما.

إنَّ هذا التحول برمَّته يعود إلى تبدل المصالح والمنافع وتغيرها، كما يعود إلى تمكن المدنيَّة الحاضرة من تدويل مبادئها وفرضها بالقوة على الشعوب والأمم، فضلاً عن عجز سائر المدنيَّات المنافسة من توفير ما توفِّره من إمكانات ماديَّة هائلةٍ، ومن قوَّة عسكريَّة مهولةٍ، لا قبل لأحدٍ بها !

وأما بالنسبة للأساس الثالث، وهو الصراع والتصادم، فإنَّه يكاد أن يكون نتيجة حتميَّة للأساسين الأول والثاني، ذلك أنَّ القوة تغري صاحبها في الاعتداء، فالاصطدام مع الآخر، كما أنَّ االحرص التامِّ على المنفعة وتقديمها على التكامل والتعاون، يقود إلى محاربة سائر الأمم والحضارات والشعوب التي تعترض سبيل المدنيَّة، وتقف عثرة في طريق مصالحها ومنافعها. فالمدنية الحاضرة لا تقبل ـــ بأيِّ حالٍ من الأحوال ـــ بوجود أيَّة مدنيَّة أخرى بجانبها، كما أنَّها لا تؤمن بشيء اسمه الحوار بين المدنيَّات أو ما يطلق عليه اليوم بحوار الحضارات والأديان.. بل إنَّ المدنيَّة الحاضرة كانت ولا تزال ترى في سائر المدنيَّات شؤمًا ووبالاً عليها، لذلك، تبذل الغالي والرخيص من أجل القضاء على كافَّة المدنيَّات، أو بقية الباقية من المدنيَّات التي كانت قائمة ذات يوم، حفاظًا على وجودها وبقائها، وتحقيقًا لمزيد من المكاسب والمنافع.. وإنَّه ليس بخافٍ أنَّ هذا الأساس كان ولا يزال يقف أحد الأسباب الرئيسة وراء العديد من الحروبٍ والصراعات والنـــزاعات العالميَّة، وما حرب أولى القرون أعني حرب أفغانستان وقبلها حرب الخليج عنَّا ببعيد. فلئن وضعت الحرب الباردة أوزارها بين المدنيَّة الحاضرة والمعسكر الاشتراكي والشيوعيِّ، وذلك نتيجة الإفلاس الخلقيِّ والماديِّ والفكريِّ للمعسكر الاشتراكي والشيوعيِّ المنافس القديم، فإنَّ حربًا بل حروبًا قامت وستقوم بين هذه المدنيَّة الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة الآخذة في النمو والتي توشك أن تحلَّ محلَّ المعسكر الاشتراكيِّ المفلس في معظم الأقطار. وبطبيعة الحال، لن تتوانى المدنيَّة الحاضرة من استخدام كافة قواها

وإمكاناتها الماديَّة والفكريَّة والاقتصاديَّة في الحيلولة دون قيام مدنيَّة أخرى منافسة وخاصَّة إذا كانت تلك المدنيَّة تحمل الأقوم والأرشد من المبادئ والأفكار والمناهج التي عرفتها البشريَّة، كما تقوم على نقيض الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة. وعليه، فإنَّني لعلى يقينٍ تامٍّ بأنَّ واقعنا المعاصر سيشهد مزيدًا منن المناورات والتهديدات والتدميرات للعديد منً الشعوب والأمم التي ترنو إلى الالتجاء بالمدنيَّة الإسلاميَّة وإحيائها، والتبرؤ من المدنيَّة الحاضرة التي جلبت ولا تزال تجلب للعالم المزيد من الشقاء والتعاسة والفقر والحروب.

وأما بالنسبة للأساس الرابع، وهو العنصريَّة، فإنَّه يشكِّل أحد أهمِّ المحاور والأسس والمنطلقات التي تقوم عليها المدنية الحاضرة، وتحاول مراعاتها في سائر سياساتها وبرامجها وإستراتيجياتها، فالجنس الأبيض المتمدن بهذه المدنيَّة هو الذي ينبغي تقديمه على جميع الأجناس غير البيضاء وغير المتمدنة بهذه المدنيَّة، كما أنَّ الحظوة والمكانة العليَّة في كافَّة الأمور والأشياء يجب أن تكون لذلك الجنس، وأما بقية الأجناس ومن لا يؤمن بهذه المدنيَّة، فإنَّه لا بدَّ من تحويلهم أو القضاء عليهم في حالة تعذر إمكانيَّة تغييرهم وتحويلهم. وتحقيقًا لهذا، فإنَّ العالم عاش ولا يزال يعيش مزيدًا من الصراع الطبقيِّ، وفي هذا يقول الإمام النورسي ".. إنَّه بسبب التعصب العنصريِّ والأنانيَّة التي نشأت في هذا العصر العاصف من المدنيَّة الغادرة، والدكتاتوريَّة العسكريَّة التي أعقبت الحرب العالميَّة، وما أفرزته الضلالة من القسوة، وعدم الرحمة، ساد أشد أنواع الظلم، وأشدَّ أنواع الاستبداد.."[17].

إنَّ العالم كان ولا يزال يعايش توسعًا واضحًا في تغليب العنصريَّة على روح الأخوة، ولا يزال الجنس الأبيض هو المسؤول الأول عن رسم سياسات الأمم والشعوب، وهو المتحكم في مصائر الشعوب ومقدَّراتها وإمكاناتها.. وكلُّ ما عدا هذا الجنس الأبيض، فإنَّه لا قيمة له في المدنية الحاضرة..وإنَّ حركات الاستعمار والاستعباد التي طالت جميع شعوب العالم وخاصَّة الشعوب المعارضة للمدنيَّة الحاضرة في القرن التاسع عشر الميلاديِّ وما بعده، استهدفت تأصيل هذا المرتكز وتعميقه، حيث إنَّ الجنس الأبيض جال وصال في جميع أرجاء المعمورة، واستعبد الناس، واستولى على ممتلكاتهم وخيراتهم، وتحكَّم في مصائرهم ومقدَّراتها، واعتدى على الكرامة الإنسانيَّة لغير الجنس الأبيض.. ولا تزال العنصريَّة كل العنصريَّة تشكِّل عمودًا فقريًّا للمدنية الحاضرة حيث إنَّها تسعى بكل

وسائلها وأجهزتها إلى إرساء قيم الجنس الأبيض، والقضاء على قيم بقية الشعوب والأمم.

وبالنسبة للأساس الخامس، وهو تشجيع الهوى واللهو العابث إلهاءً للشعوب تمهيدًا لتسهيل السيطرة عليها والتحكم فيها، فهذا الأساس يراه كلُّ ذي عينين في السياسات التي تدعو إليها هذه المدنيَّة على مستوى نشر الرذائل، وتشجيع الإباحيَّة، وإسقاط الإنسان إلى درك الحيوانيَّة، وحثِّ الفساد والانحلال الخلقيِّ على كافَّة الأصعدة، وتقنين جميع الممارسات التي تشجِّع الهوى، وتزيد الشعوب المغلوب على أمرها غفلةً وتقهقرًا وتأخرًا. وليس ببعيد عنَّا قرارات تقنين حالات الشذوذ الجنسيِّ والخلقيِّ التي توشك أن تجتاح جميع أنحاء الدول التي تتحكم فيها هذه المدنيَّة الحاضرة. بل إنَّ الدول والحكومات التي تعترض سبيل الانحلال الخلقيِّ، والفساد الاجتماعيِّ، والشذوذ الجنسيِّ، تعدُّ ـــ في نظر المدنيَّة الحاضرة ـــ حكومات دكتاتوريَّةً فاسدةً يجب التخلص منها، وإبدالها بحكومات موالية تقاسم ذات المبادئ والاتجاهات!

وبطبيعة الحال، لا يخفى على أحد الواقع العالميِّ المرير والمتأزم للأخلاق والقيم في ظلِّ سيطرة المدنيَّة الحاضرة، كما أنَّه غدا من الواضح للعيان تفنن تلك المدنيَّة في صنع الأدوات والآلات التي تزيد من الانحلال الخلقيِّ، وتجعله جزءً لا يتجزأ من حياة كافَّة الشعوب، ولم يعد ثَمَّة سياجٌ للحيلولة دون بسط هذا التوجه الخلقيِّ لهذه المدنيَّة على كافَّة الأصعدة. وإنَّ السياج الأوحد والحصن الحصين للبشريَّة اليوم هو قيم المدنيَّة البديلة، إنَّها المدنيَّة الإسلاميَّة التي تسمو بالروح، وتهذِّب النفس، وترفع بالإنسان من دركات الحيوانيَّة إلى درجات الكمال الإنسانيِّ والترقي الروحيِّ والاجتماعيِّ والفكريِّ.

هذه هي أهمُّ الأبعاد التي اشتمل عليها الطرح النوريُّ لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة، وقد رأينا جليًّا أنَّه توفر على الموضوعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة والواقعيَّة، مما يجعل طرحه طرحًا فريدًا في منهجه، وعميقًا في مضامينه، وفذًّا في أبعاده وغاياته. وعسى الله أن يمنَّ علينا بفيض رحمته، فنعود عودةً حميدةً إلى مزيد من التحليل والتحقيق العلميِّين لهذا الطرح النوريِّ الشامل المتكامل. وبما أنَّ الحديث عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة في المنظور النوريِّ، لا يمكن له أن يكون متكاملا ما لم يتمُّ كشف الغطاء عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة من منظوره، ولذلك، فإنَّنا نرى أن نودع في المبحث التالي عرضًا وتحليلاً لمرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة التي يعبَّر عنها اليوم في أروقة الباحثين المعاصرين بمرتكزات

الحضارة الإسلاميَّة، وهذا عرض موجز لتلك المرتكزات وتحليل مختصر لمحتوياتها علمًا بأنَّ غاية هذه الورقة تتمركز حول مرتكزات المدنية الحاضرة.

المبحث الثالث

مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة في رسائل النور: عرض وتحليل موجزين

لئن أوسع الإمام النورسي أسس المدنيَّة الحاضرة جانب التأصيل والتحقيق بصورة علميَّة ومنهجيَّة وواقعيَّة فذَّة، فإنَّه حرص أن يعقب عرضه وتحليله لتلك الأسس بعرض وتحليل مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة أو مدنيَّة القرآن الكريم، بوصفها المدنيَّة الأساس والأمَّ من جهة، وبوصفها المدنيَّة التي ينبغي للبشريَّة الالتجاء إليها والاحتماء بها في ظل الظروف العالميَّة الراهنة من جهة أخرى. وكأنِّي بالإمام يحاول أن يعقب نقده العلميَّ الرصين للمدنيَّة الحاضرة بتقديم أسس المدنيَّة البديل الأكمل والأشمل روحًا، ومنهجًا، ومضمونًا، ومآلاً.

أولاً: في عرض أسس المدنيَّة الإسلاميَّة من المنظور النوري:

تعرض الإمام النورسي ـــ رحمه الله ـــ بالإشارة إلى أهمِّ الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الإسلاميَّة، وذلك في عدد من كتبه ورسائله. ففي كتابه الكلمات، ذكر أهم هذه الأسس بقوله ".. إنَّه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة. إنَّها رحمة مهداة نـــزلت من سماء القرآن العظيم.. أما أسس مدنيَّة القرآن الكريم، فهي إيجابيَّة، تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابيَّة. نقطة استنادها: الحق بدل القوَّة، ومن شأن الحقِّ دائمًا: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء. وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبَّة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة، وتزول العداوة. دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات. وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق بع مع تنوير الروح، ومدِّها بما يلزم. رابطتها بين المجموعات البشريَّة: رابطة الدين والانتساب الوطني، وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة: أخوة خالصة، وطرد العنصريَّة، والقوميَّة السلبيَّة. وبهذه المدنيَّة يعم السلام الشامل، إذ هو موقف الدفاع ضدَّ أي عدوان خارجيٍّ.."[18]

وفي كتاب صيقل الإسلام، تناول أسس المدنيَّة الإسلاميَّة بصورة أكثر تفصيلاً وتوضيحًا، فقال ما نصُّه: ".. أما المدنيَّة التي تأمرنا بها الشريعة الغرَّاء، وتتضمنها، فهي

التي ستنكشف بانقشاع هذه المدنيَّة الحاضرة، وتضع أسسًا إيجابيَّة بنَّاءَةً مكان تلك الأسس النخِرَة الفاسدة السلبيَّة. نعم. إنَّ نقطة استنادها هي الحق بدلاً من القوَّة. والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المحبَّة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها والرابطة التي تربط بها المجموعات البشريَّة: الرابطة الدينيَّة، والوطنيَّة، والمهنيَّة بدلاً من العنصريَّة. وهذه شأنها: الأخوَة الخالصة، والسلام، والوئام، والذود عن البلاء عند اعتداء الأجانب. ودستورها في الحياة: التعاون بدل الصراع والجدال، والتعاون من شأنه: التساند والاتحاد. وتضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكمًا على الخدمات التي تقدَّم للبشر، وشأن الهدى: رفع الإنسانيَّة إلى مراقي الكمالات، فهي ـــ إذًا ـــ تحدِّد الهوى، وتحدُّ من النـــزعات النفسانيَّة، تطمئن الروح، وتشوِّقها إلى المعالي.."[19].

وأما كتاب المكتوبات، فقد أوجز فيه الإمام هذه الأسس بصورة مركَّزة، فقال ما نصُّه: "..أما المدنيَّة التي تتضمنها الشريعة الأحمديَّة، وتأمر بها: فإنَّ نقطة استنادها: الحق بدلاً من القوَّة، والحق من شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المودَّة والتجاذب. جهة الوحدة فيها: الرابطة الدينيَّة، والوطنيَّة، والصنفيَّة، بدلاً من العنصريَّة والقوميَّة، وهذه الرابطة من شأنها: الأخوة المخلصة، والمسالمة الجادَّة، والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. دستورها في الحياة: التعاون بدلاً من الجدال والصراع، والتعاون من شأنه: الاتِّحاد والتساند. وتضع الهدى بدلاً من الهوى، والهدى من شأنه: رفع الإنسان روحيًّا إلى مراقي الكمالات.."[20]. هذه هي أهمُّ النصوص التي أودعها الإمام أسس المدنيَّة التي تدعو إليها الشريعة الإسلاميَّة، وتحثُّ عليها، وقد عني في معظم كتبه ورسائله بتفصيل القول في هذه الأسس بصورة علميَّة مركَّزة.

ثانيًا: في تحليل مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة من المنظور النوريِّ:

لئن سبق أن أبدينا الأبعاد العلميَّة والمنهجيَّة والموضوعيَّة في حديث الإمام عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة، فإنَّنا نرى أنَّ ذات الأبعاد تنطبق على حديثه عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة، فالتوقيت الزمني لتناول هذا الموضوع في غاية من الأهميَّة، وخاصَّة أنَّ بقية الباقية من الخلافة الإسلاميَّة كانت على حافة الانهيار التامِّ، وعاجلت أحداث الحرب العالميَّة الأولى بزوالها، وتدميرها من قبل القوى التي كانت تتربص بها الدوائر،

وتنخر في عظامها، وتكيد المكائد من أجل القضاء المبرم عليها.. وفعلاً تمكنت تلك القوى من أن تنال مبتغاها، ويشير الإمام النورسي ـــ رحمه الله تعالى ـــ إلى هذا البعد في مقدِّمة حديثه عن أسس المدنيَّة الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة، فيقول ما نصُّه: ".. قال أحدهم ـــ يقصد محاوره في رؤياه ـــ: ماذا ترى في عاقبة هذه الهزيمة التي آلت إليها الدولة العثمانيَّة، وماذا كنت تتوقع أن يؤول إليه أمر الدولة العثمانيَّة لو قدِّر لها الانتصار؟ قلت: إنَّ المصيبة ليست شرًّا محضًّا، فقد تنشأ السعادة من النكبة والبلاء، مثلما، قد تفضي السعادة إلى بلاء.. فهذه الدولة الإسلاميَّة التي أخذت على عاتقها ـــ سابقًا ـــ القيام بفريضة الجهاد ـــ فرضًا كفائيًّا ـــ حفاظًا على العالم الإسلاميِّ، وهو كالجسد الواحد، ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء لأجله، وحملت راية الخلافة إعلاءً لكلمة الله، وذودًا عن استقلال العالم الإسلاميِّ.. ستعوِّض عما أصابتها من مصيبة، وستزيلها السعادة التي سوف يرفل بها عالم الإسلام؛ إذ عجَّلت هذه المصيبة بعث الأخوة الإسلاميَّة ونماءها في أرجاء العالم الإسلاميِّ، تلك الأخوة التي هي جوهر حياتنا وروحنا.."[21].

في خضم تكالب الأعداء، وتطلع المغلوبين إلى تقليد الغالبين ومحاكاتهم في معتقداتهم ومناهجهم وأساليب حياتهم، لا بدَّ من حديثٍ علميٍّ مفصَّل عن البديل الإسلاميِّ للواقع الذي أقبل على العالم الإسلامي بجحافله وجيوشه وأخلاقه، ولا بدَّ لهذا الحديث من أن يكون حديثًا علميًّا قائمًا على مقارعة الحجَّة بالحجَّة، وربط الأسباب بمسبباتها، بعيدًا عن المثاليَّة والعواطف والحماسة. وعليه، فإنَّ توقيت الإمام هذه الفترة الزمنيَّة للحديث عن مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة بجانب حديثه عن مرتكزات المدنيَّة الحاضرة، لا يعدو أن يكون تأكيدًا وتقريرًا للالتزام بالواقعيَّة والعلميَّة والمنهجيَّة في الطرح والتحليل والتحقيق.

على أنَّ واقعيَّة الإمام في طرحه، وموضوعيَّته في تحليله لم تتوقف على مراعاة التوقيت الزمنيِّ المناسب، وإنَّما تجاوزت لتشمل واقعيَّةً وموضوعيَّةً في ضبط مضامين الأسس التي لخَّص فيها مرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة، إذْ إنَّه لم يكتف بالإشارة إلى تلك الأسس، وإنَّما أصَّل القول في آثار تلك الأسس على المدنيَّة هدفًا ودستورًا وغايةً ومنهجًا وركيزةً.

فبالنسبة للأساس الأول" الحق" بدلاً من القوَّة، فإنَّه يبعد عن المدنيَّة الإسلاميَّة الظلم والاعتداء على الآخرين، ويجعلها مدنيَّة قائمةً على العدالة التي تعني توفِّر الأمن والسلام للضعفاء، وتأخذ حقَّهم من المظلومين المعتدين، بل إنَّها تكسو المدنيَّة توازنًا وانضباطًا

وترابطًا، إذْ إنَّه ما اختلت العدالة في مجتمع إلا انتعش فيه الظلم، واختل توازنهم، واضطربت أمورهم، مما يعجِّل بزواله.

وأما بالنسبة للأساس الثاني، وهو حراسة الفضيلة وحمايتها ضدَّ النفعيَّة والمصلحيَّة، فإنَّ هذا الأساس يعدُّ هو الآخر أهمَّ ركنٍ خلقيٍّ في المدنيَّة، لأنَّه تقود إلى إشاعة المحبَّة والتواصل والإيثار، كما ينتج عنها زوال الحقد والطبقيَّة والبغضاء والكراهيَّة بين أفراد المجتمع.. مما يعني أنَّ ما نراه اليوم من تقاتل وتزاحم وتدافع، وارتفاع في الجرائم، يعود كلُّ ذلك إلى غياب الفضيلة والنـــزاهة، وغلبة الجشع والطمع وحب المال على النفوس.

وأما بالنسبة للأساس الثالث، وهو الرابطة الدينيَّة والوطنيَّة والمهنيَّة، فإنَّه يشكِّل ركنًا أساسيًّا في بقاء المدنيَّات ودوامها واستمرارها، ذلك أنَّ المدنية التي تقوم على العنصريَّة والتعصب، مآلها الزوال، والاندثار، لأنَّها تتناقض مع السنة الكونيَّة المتمثلة في جعله الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ويتعاونوا ويتكاملوا مصداقًا لقوله تعالى (**يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنَّ الله عليم خبير**) الحجرات: 13، كما أنَّها تناهض الإرادة الإلهيَّة في أنَّه ـــ جلَّ جلاله ـــ جعل من آياته اختلاف الألسنة والألوان مصداقًا لقوله تبارك وتعالى (**وَمِنْ آيَاته خَلْقُ السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَاخْتلَافُ أَلْسنَتكُمْ وَأَلْوَانكُمْ إنَّ في ذَلكَ لآيَات للْعَالمينَ**) الروم: 22. وانطلاقًا من هذه الإرادة الإلهيَّة الخالدة، فإنَّ المدنيَّة الإسلاميَّة تقرُّ بالروابط الدينيَّة، كما تحافظ على الروابط المهنيَّة، والروابط الوطنيَّة، ولا ترى في هذه الروابط نوازع للاعتداء على الآخرين، وإجبارهم على الانصياع لأوامرها، وبدلاً من ذلك، فإنَّها تعتبر تلك الروابط عوامل قوة، وتساند، وتعاون، وتكافلٍ لمصلحة الإنسانيَّة برمَّتها. والتاريخ خير شاهد على التسامح والتواصل الذي تميَّزت بها المدنيَّة الإسلاميَّة يوم أن كان لها حضورٌ في الأندلس، وفي تركيا، والعراق والشام، فقد آمن في ظلِّها النصراني على نصرانيَّته، واليهودي على يهوديَّته، كما شاعت المحبة والتواد والإيثار بين مختلف الشعوب وأصحاب الأديان الذين كانوا يعيشون في ظلِّها.

وبالنسبة للأساس الرابع، وهو تقديم التعاون والتساند على الصراع والجدال والخصام، فهذا الأساس سمَّة أساسيَّة لعقيدة الإسلام، ذلك أنَّ الأصل في العلاقة بين المسلم وغيره هو السلم، وأنَّ الدماء والأعراض والأموال حرامٌ في الأصل، ولا ترتفع الحرمة عنها إلا لأسباب شرعيَّة معتبرة ومعروفة، فالإسلام لا يبيح للمسلم أن يقتل غيره لكونه مخالفًا له في العقيدة، كما أنَّه يحرم على المسلم الاعتداء على غير المسلم في ماله

ودمه وعرضه لمجرد مخالفته إيَّاه.. وبدلاً من ذلك، فإنَّه يأمر بالتعاون والإنصاف مع الجميع، وأن لا يلجأ إلى العنف أو القتل تحت طائلة الجهاد، فالجهاد المسلَّح في الإسلام دفاعيٌّ، وليس هجوميًّا، ولا يحتاج إثبات هذا الأمر إلى مزيد بيان لجلائه في كافَّة النصوص القرآنيَّة الآمرة بالجهاد. وعليه، خلافًا لما تزعمه المدنية الحاضرة من كونها مدنيَّة تؤمن بحوار الأديان، والحضارات، في الوقت الذي تنكل فيه بالمخالفين نكالاً، وتسعى إلى إبادتهم بشتى الطرق والوسائل. وأما المدنيَّة الإسلاميَّة، فإنَّ دستورها في الحياة ومنهجها في التعامل، هو التعاون والتساند والترابط بين البشر، والابتعاد عن الصراع وجميع أسبابه.

وأما بالنسبة للأساس الخامس، وهو جعل الهدى نبراسًا يهتدى به في ظلمات الحياة، ويلاذ به أمام جميع مغريات الدنيا ومتعها الفانية، فإنَّ هذا الأساس يمثِّل في حقيقته سياجًا ضروريًّا، وحصنًا حصينًا لكافَّة الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الإسلاميَّة، ذلك لأنَّه يعدُّ بمثابة مصدر إشعاع وإرشاد للمدنيَّة، وليس من مرية في أنَّ افتقار المدنيَّة الحاضرة إلى مصدر إشعاع وإرشاد هو الذي دفع بها إلى التورط في كافَّة صور الانحلال الخلقيِّ، والانحطاط القيميِّ، ذلك لأنَّها ـــ كما قررنا سابقًا ـــ لا توجد لها مرجعيَّةٌ تحدِّد لها صالح الأخلاق والقيم من فاسدها، ولأنَّها تفتقر افتقارًا واضحًا إلى مصدرٍ يضبط لها حركة النفس الأمَّارة، ويحدُّ من رغباتها وغلوائها، وميلها الجارف إلى الانحلال والتفسخ والتناحر والتبذل. وأما المدنيَّة الإسلاميَّة التي تقوم على الالتزام التامِّ بمقررات المرجعيَّة التي ترتدُّ إلى الهدي الإلهيِّ، فإنَّها تنبذ جميع صور الانحلال الخلقيِّ، وترفض كافَّة أشكال الانحطاط الفكريِّ أو الأخلاقيِّ، مما جعلها مدنيَّة واقعيَّةً متكاملةً ومتوافقة مع الفطرة السليمة التي فطر الله عليها الناس.

ومهما يكن من شيء، فإنَّنا نخلص ـــ مما سبق ـــ إلى تقرير القول بأنَّ طرح الإمام لمرتكزات المدنيَّة الإسلاميَّة، توفَّرت فيه ـــ هو الآخر ـــ الموضوعيَّة والمنهجيَّة والعلميَّة والواقعيَّة، مما يجعله طرحًا علميًّا جديرًا بأن يعتنى به من لدن المهتمين بالدراسات العلميَّة المتخصِّصة عن الحضارة الإسلاميَّة. وبهذا نصل إلى نهاية هذه الورقة، وأملنا أن نكون قد وفِّقنا في عرض أهمِّ أفكار الإمام وتحليلاته. .

نتائج الدراسة:

جرت العادة الأكاديميَّة أن يختتم الباحث بحثه بتلخيص أهمِّ النتائج التي توصل إليها، والتزامًا بهذه العادة، أُراني ملخِّصًا أهمَّ نتائج هذه الدراسة:

أولاً: عنيت الدراسة بعرض عددٍ من تعريفات المدنيَّة الحاضرة، والمدنيَّة الإسلاميَّة، وتوصلت الدراسة إلى تعذر وجود تعريفٍ علميٍّ دقيقٍ متفق عليه للمدنيَّة الحاضرة، أو المدنيَّة الإسلاميَّة، ومالت الدراسة إلى اعتبار ما ذكره الدكتور نصر عارف في كتابه تصورًا عامًّا عن أهمِّ الأهداف التي ترنو إليها المدنيَّة الإسلاميَّة، ولكنَّه لا يعتبر بأي حالٍ من الأحوال تعريفًا للمدنيَّة الإسلاميَّة التي يعبِّر عنها معظم الكتَّاب المعاصرين بالحضارة الإسلاميَّة.

ثانيًا: عرضت الدراسة أهمَّ الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة الحاضرة من المنظور النوريِّ، وتتلخص تلك الأسس في خمسةٍ، وهي: القوة بوصفها ركيزة الحياة الاجتماعيَّة، والنفعيَّة بوصفها الهدف الأعظم للمدنيَّة، والصراع بوصفه الدستور الذي يحرِّك المدنيَّة الحاضرة، والعنصريَّة باعتبارها المحور الذي يستند إليه في توجيه العلاقات والروابط، وأما الأساس الخامس، فهو تشجيع الرذيلة وتلبية رغبات النفس الأمَّارة. وقد بذلت الدراسة ما وسعها من جهدٍ في تتبع هذه الأسس في كتابات الإمام النورسي المختلفة، وانتهت إلى قناعة بأنَّ الإمام النورسي نذر جزءً كبيرًا من رسائله وكتبه ومؤلفاته لتأصيل القول في هذه الأسس، وتعريف الأجيال القادمة بها وبدورها في سائر تحركات المدنيَّة الحاضرة.

ثالثًا: قامت الدراسة بتحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ منهجيٍّ لأسس المدنيَّة الحاضرة كما طرحها الإمام النورسي في مؤلَّفاته ورسائله وكتبه، وتوصلت الدراسة إلى القول بأنَّ طريقة الإمام في طرح هذه الأسس، توفرت فيها الموضوعيَّة، والواقعيَّة، والعلميَّة، فضلاً عن الالتزام التامِّ بالمنهج المتواتر عليه عند دارسي تاريخ الأفكار والأحداث والوقائع. مما جعل طرحه طرحًا علميًّا ثريًّا في مبناه، وغنيًّا في محتوياته، وفذًّا في أسلوبه، وفريدًا في منهجيته. وبيَّنت الدراسة أنَّ واقعيَّة الإمام في طرحه لا تتوقف على دقَّة اختياره التوقيت الزمنيَّ الأليق بمثل هذه الطروحات، وإنَّما تتجلَّى في تحليلاته العلميَّة الموفَّقة لغايات وأهداف المدنيَّة الحاضرة، الأمر الذي ينبغي أن يوليه الباحثون في الفكر الحضاريِّ المعاصر جانب الاهتمام والتحقيق والدراسة الجادَّة القادرة على الكشف عن الأبعاد المنهجيَّة الكامنة في هذا الطرح الثرِّ.

رابعًا: أوضحت الدراسة أنَّ نقد الإمام للمدنيَّة الحاضرة لم يكن نقدًا جزافًا تعسفيًّا، ولم يكن رفضًا مطلقًا لجميع جوانب هذه المدنيَّة، وإنَّما كان نقده إيَّاها نقدًا مركَّزًا للأسس السلبيَّة الغالبة التي تحرِّك هذه المدنيَّة، وتؤثِّر فيها أيَّما تأثير، ويعني هذا أنَّ الإمام لم يكن ممن ينكر وجود محاسن لهذه المدنيَّة، بل كان كثير الحثِّ على الاستفادة من محاسنها وإيجابيَّاتها المختلفة، وقد أكَّد في أكثر من موضع على أهميَّة الاستفادة من الجوانب العلميَّة في هذه المدنيَّة، أسوةً باليابانيين الذين أخذوا بأسباب الترقي في هذه المدنيَّة مع الحفاظ التامِّ على مقوِّماتهم وثقافتهم دون تمييع أو انحراف. وبناءً على ذلك، أكَّدت الدراسة القول بأنَّ نقد الإمام لأسس هذه المدنيَّة بصورة عامَّة ومكرَّرة، يعود إلى ما لاحظه من غلبة مساوئها على محاسنها. مما يعني أنَّ حديثه كلَّ حديثه عن أسس المدنيَّة يتمركز حول أسسها السلبيَّة النكدة، ولا يطال المحاسن والإيجابيّات التي تتوفَّر في هذه المدنيَّة.

خامسًا: بذلت الدراسة جهدها في تقديم تحليل علميٍّ متكاملٍ للواقع الراهن لأسس المدنيَّة الحاضرة من خلال المنظور النوريِّ الذي انتهى إليه قبل قرنٍ من الزمن تقريبًا، وترجَّحت للدراسة أنَّ تلك الأسس لا تزال هي هي، بل تكاد الأحداث العالميَّة المتلاحقة والمتعاقبة تؤكِّد يومًا بعد يومٍ صدق ما ذكره الإمام من وصفٍ دقيقٍ، وتحليلٍ علميٍّ رشيدٍ لهذه المدنيَّة ركيزةً، وهدفًا، ودستورًا، ومنهج حياة. الأمر الذي يجعل طرحه جديرًا كل الجدارة بالدراسات العلميَّة المركَّزة المعمَّقة بوصفه طرحًا ثرًّا وفذًّا وفريدًا.

سادسًا: اعتبارًا بأنَّ الاكتفاء بنقد أسس المدنيَّة الحاضرة دون تقديم البديل لها، لا يعدو أن يكون هدمًا لا من أجل البناء، وإنَّما من أجل العبث، ولهذا، فقد بذلت الدراسة جهدها في إلقاء الضوء على أهمِّ الأسس التي تقوم عليها المدنيَّة التي يباركها القرآن الكريم من المنظور النوريِّ، وعنيت الدراسة بتتبع طرح الإمام لأسس هذه المدنيَّة الإسلاميَّة، والتي تتلخص في الحقِّ، والفضيلة، والرابطة الدينيَّة والمهنيَّة، والتعاون، والاحتكام إلى الهدي الإلهيِّ في ضبط الأخلاق والقيم. وفضلاً عن ذلك، فقد استفرغت الدراسة طاقتها في تحليل تلك الأسس التي ذكرها الإمام، وبيَّنت توفر الموضوعيَّة والمنهجيَّة والواقعيَّة في طرح الإمام. وتجاوزت الدراسة ـــ عن قصد ـــ عقد مقارنة بين المدنيَّة الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة انطلاقًا من كون الهمِّ الأساس لها، تقديم تحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ لمرتكزات المدنيّة الحاضرة، ولا تهدف إلى عقد مقارنة بين مرتكزات المدنية

الحاضرة والمدنيَّة الإسلاميَّة، فتلك غاية أخرى، يمكن التصدِّي لها في وقتٍ لاحقٍ بإذن المولى الكريم.

هذه بعض النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، ويمكن للقارئ أن يقف على سواها أثناء قراءته إيَّاها، وبهذا نصل إلى نهاية عرضنا وتحليلنا لمرتكزات المدنيَّة الحاضرة من المنظور النوريِّ، وأملنا أن نكون قد وفِّقنا في العرض وفي التحليل، وعسى الله أن يغفر لإمامنا، ويكتب لتراثه وأفكاره وإشراقاته الدوام والانتشار ليعم فائدتها، ولتسهم في حلّ كثيرٍ من الأزمات الحضاريَّة والاجتماعيَّة والتربويَّة، وليستعان بها في مواجهة كافَّة النوازل الفكريَّة والسياسيَّة التي تجتاح الأمَّة الإسلاميَّة شرقًا وغربًا. وشكر الله للإخوة القائمين على هذا المؤتمر على كريم دعوتهم، وحسن ضيافتهم، والله المسؤول أن يوفِّقكم لمزيد من المؤتمرات واللقاءات العلميَّة حول أفكار الإمام.

هوامش الدراسة وأهم مراجعها:

1 يفضّل عدد غير قليلٍ من الباحثين في الفكر الحضاريِّ، مصطلح الحضارة على مصطلح المدنيَّة، وتكاد الكتابات الحديثة تكتفي باستخدام مصطلح الحضارة.. غير أنَّنا فضَّلنا استخدام مصطلح المدنيَّة على مصطلح الحضارة باعتبار أنَّ الإمام النورسي آثر مصطلح المدنيَّة على مصطلح الحضارة، ولذلك، فإنَّنا سنتجاوز استخدام مصطلح الحضارة.. مع إيماننا بكون المصطلحين مترادفين نوعًا ما مع وجود بعض الفوارق غير ذات بالٍ بينهما عند بعض المعاصرين.. ولمزيد من المعلومات حول سيرة مصطلح المدنيَّة، والحضارة، والثقافة، يراجع الكتاب القيِّم للدكتور محمد نصر عارف الذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلاميِّ بواشنطن.

2 انظر: ابن خلدون: المقدِّمة ــ تحقيق وافي ــ (القاهرة، دار نهضة مصر، عام 1981م) ص578ــ579.

3 انظر: ول ديورانت: قصَّة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمود (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثانية، عام 1956م) ص3.

4 انظر: عبد الرحمن شهبندر: القضايا الاجتماعيَّة الكبرى في العالم العربي (القاهرة، مطبعة المقتطف، عام 1963م) ص35

5 انظر: محمد قدري: رسالة جليلة في التمدن (القاهرة.. طبعة عام 1287هـ)

6 انظر: نصر محمد عارف: الحضارة، الثقافة، المدنية: دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم (واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة أولى، عام 1994م) ص59.

7 انظر: بديع الزمان النورسي: الكلمات ــ ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، دار سوزلر، طبعة أولى عام 1992م) ص472.

8 انظر: بديع الزمان النورسي: صيقل الإسلام ــ ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، دار سوزلر، طبعة أولى عام 1995م) ص357

9 انظر: بديع الزمان النورسي: المكتوبات ــ ترجمة إحسان قاسم الصالحي (أستانبول، دار سوزلر، طبعة أولى عام 1992م) ص607.

10 انظر: صيقل الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص399–400 باختصار.

11 انظر: محسن عبد الحميد: النورسي متكلم العصر الحديث (القاهرة، سوزلر للنشر، مدينة نصر) ص200–201 باختصار.

12 انظر: صيقل الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص355–357 بتصرف واختصار.

13 انظر: صيقل الإسلام ــ مرجع سابق ــ ص358–359 بتصرف واختصار.

14 انظر: باتريك هرمان: العالم حسب بوش، ميلاد نظام عالميٍّ جديد في القانون الدوليِّ وسياسة المكياليين ــ تعريب أنور مغيث (الجماهيرية العربيَّة الليبيَّة، الدار الجماهيريَّة، طبعة عام 1995م) ص33 وما بعدها.

15 انظر: عبد الحميد حمودة: أهم الأدوات الأمريكيَّة لغزو العقل العربيِّ، مجلة الثقافة العربيَّة، عدد 6، يونيو عام 1997م.

16 انظر: الجابري: قضايا في الفكر المعاصر (بيروت، مركز دراسات المستقبل العربي، طبعة أولى عام 1997م) ص128.

17 انظر: النورسي: الشعاعات (...) ص346.

18 انظر: الكلمات. ص855–856 باختصار.

19 انظر: صيقل الإسلام. ص359

20 انظر: المكتوبات. ص607.

21 انظر: صيقل الإسلام. ص355–356 باختصار وتصرف.

المنظومة الأخلاقية عند النورسي

أ.د. أبوبكر العزاوي(*)

المدخل :

يهدف هذا البحث إلى دراسة الأخلاق عند النورسي من خلال بحوثه ومصنفاته، ومن خلال سلوكه وأفعاله. وفي هذا الإطار نود أن نطرح مجموعة من الأسئلة المهمة من قبيل: ما هي الأخلاق ؟ وما هي أهميتها ؟ كيف عالجها النورسي ؟ هل قدم منظومة أخلاقية من خلال كتبه ومؤلفاته ؟ وما هي مصادره المعتمدة؟ ما هي المبادئ التي تقوم عليها هذه المنظومة؟ هل أخلاق النورسي أخلاق قرآنية ؟ هل تتوافق الأخلاق الدينية والعولمة ؟ هذه الأسئلة – وهي غيض من فيض- هي ما سيحاول هذا البحث أن يجيب عنها أو عن بعضها ولو بشكل جزئي ونسبي، مع التركيز على مسألة الصدق والكذب.

لقد قدم سعيد النورسي منظومة أخلاقية قرآنية متكاملة تتسم بالعموم والكلية والشمولية والنسقية والأصالة والترابط والانسجام، ثم إنها تقوم على مجموعة من المبادئ العلمية والقوانين الكلية الفطرية من أهمها الفطرة والإيمان والشمول والتدريج والنسبية والواقعية والتناسب والانسجام. وإذا كان النورسي رجلا قرآنيا وكان منهجه بالتالي هو منهج القرآن، فلا بد أن تكون أخلاقه أخلاقا قرآنية، ولا بد أن تكون نظريته الأخلاقية كذلك. وكيف لا تكون نظريته كذلك وهي تعتمد مصدرين اثنين :

أ- القرآن الكريم باعتباره حقيقة وعقيدة وشريعة، وباعتباره دستورا ومنظومة أخلاقية (الأخلاق النظرية).

ب- سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام باعتبارها تجليا وتطبيقا للأخلاق القرآنية (الأخلاق العلمية).

(*) رئيس الجمعية المغربية لتكامل العلوم وأستاذ التعليم العالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة القاضي عياض – المغرب

وهذان المصدران مترابطان، فلا يمكن الفصل بينهما في مجال التنظير أو الممارسة الأخلاقية كما لا يجوز الفصل بين القرآن والسنة في مجال الفقه والتشريع، وهما متكاملان أيضا، فلا يمكن الاكتفاء بأحدهما إنهما وجهان مختلفان لعملة واحدة.

لقد بنى النورسي منظومته الأخلاقية على جملة مبادئ منها :

1- مبدأ الفطرة :

الفطرة ما يخص طبيعة الكائن ويصاحبه منذ نشأته، ومنه الأفكار الفطرية، وهي التي لم تستمد من التجربة، ويقابل المكتسب،[1] والفطرة بعبارة أخرى هي الخلقة بدليل قوله تعالى :"فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" [2] ويذهب الأستاذ النورسي إلى أن الأخلاق فطرية في الإنسان أي أنها مركوزة في بنيته وخلقته، وأنها مقوم أساسي من مقومات ذاتيته وهويته "ما دام الميل نحو الكمال قانونا فطريا في الكون وقد أدرج في فطرة البشرية" [3] والأخلاق هي التي تمكن الإنسان من السير نحو الكمال ونحو الأحسن والأفضل.

إن الإنسان مفطور على التدين والخير والصدق والسعي نحو الكمال، وكل الأخلاق الحميدة، إنه كما يقول النورسي، "مفطور على أن يفضح الكذب، ويقول للكذب هذا كذب" [4] وهو أيضا "مفطور على الارتباط بأبناء جنسه من الناس لعدم تمكنه من العيش بمفرده وهو مضطر إلى أن يعطي لهم ثمنا معنويا لدفع احتياجاته، لذا فهو مدني فطرة ".[5] إن الصدق باعتباره محور الأخلاق وأساسها المكين ليس مغروزا في فطرة الإنسان وحده، إنه مغروز في فطرة جميع المخلوقات والكائنات، أي في الفطرة الكونية بجميع أنواعها ومكوناتها، وهو ما عبر عنه النورسي بشكل بليغ بقوله :"إن الفطرة لا تكذب، ففي النواة ميلان للنمو، إذا قال سأنبت وأثمر فهو صادق، وفي البيضة ميلان للحياة، إذا قال سأفرخ، فيكون بإذن الله وهو صادق، وإن ميلان التجمد في غرفة من الماء إذا قال سأحتل مكانا أوسع فلا يستطيع الحديد لصلابته أن يكذبه. إن صدق قوله يدمر الحديد، وما هذه الميول سوى تجليات وتظاهرات لأوامر التكوين الصادق عن الإرادة" [6].

ولنا أن نتساءل: إذا كانت الأخلاق الحميدة والفضائل الرفيعة فطرية في الإنسان فهل الأخلاق الذميمة كذلك ؟ وهل هذان النوعان فطريان في الإنسان بنفس الدرجة وبنفس

المقدار؟ وما العلاقة القائمة بينهما؟ هل هي علاقة تماثل وتكافؤ أم علاقة تخالف وتباين؟ وأيهما الغالب ؟ وما الحكمة في ذلك؟

يذهب النورسي إلى أن بين هذين النمطين من الأخلاق ترابط وتفاعل، وبينهما في الوقت نفسه اختلاف كبير في الدرجة والنسبة والأهمية والوظيفة، يقول :" لقد ثبت بالبحث والتحري الدقيق والاستقراء والتجارب العديدة للعلوم أن : الخير والحسن والجمال والإتقان والكمال هو السائد المطلق في نظام الكون وهو المقصود لذاته، أي هو المقاصد الحقيقية للصانع الجليل، بدليل أن كل علم من العلوم المتعلقة بالكون يطلعنا بقواعده الكلية على أن في كل نوع وفي كل طائفة انتظاما وإبداعا بحيث لا يمكن للعقل أن يتصور أبدع وأكمل منه (...) فتبين جميعها حقيقة الآية الكريمة : (الذي أحسن كل شيء خلقه)" [7] وبخصوص أضداد الصفات السابقة فإن النورسي يثبت أن "الشر والقبح والباطل والسيئات جزئي وتبعي وثانوي في خلقة الكون. فالقبح مثلا في الكون والمخلوقات ليس هدفا لذاته وإنما هو وحدة قياسية، لتنقلب حقيقة واحدة للجمال إلى حقائق كثيرة، والشر كذلك، بل حتى الشيطان نفسه إنما خلق وسلط على البشرية ليكون وسيلة لترقيات البشر غير المحدودة نحو الكمال التي لا تنال إلا بالتسابق والمجاهدة. وأمثال هذه الشرور والقبائـــح الجزئية خلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين".[8] فالأخلاق الحميدة هي القاعدة، والأخلاق الرديئة المذمومة هي الاستثناء، والأخلاق الأولى هي غاية في حد ذاتها وهي السائدة الغالبة في نظام الكون ونظام الكائنات، أما الأخلاق الفاسدة، وإن كانت مركوزة هي الأخرى في الفطرة، فهي جزئية وثانوية، ووجودها إنما كان بقصد التعرف على تجليات الحق والخير والجمال والكمال، وقديما قيل: "بضدها تتبين الأشياء". والدليل على فطرية الأخلاق أن كلمتي الخلق والخلق في اللغة العربية مشتقتان من مادة لغوية واحدة، أي أنهما تنتميان إلى نفس الجذر اللغوي "خ.ل.ق" ومن مشتقات هذا الجذر نذكر : الخلق والخالق والمخلوق والخليقة والخلق والأخلاق...إلخ. وفي اللغة الخلق: الفطرة، والخليقة: الطبيعة، قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ثم إن الطابع الفطري للأخلاق قد أكده عدد كبير من العلماء والباحثين. فمحمد عبد الله دراز في كتابه (دستور الأخلاق في القرآن) يؤكد أن الحاسة الخلقية انبعاث

داخلي فطري، وان القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الإنسانية منذ نشأتها "ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها".[9]

2- مبدأ التدين :

اتخذت العلاقة بين الدين والأخلاق أشكالا ثلاثة، تضمنتها الفلسفات الأخلاقية الغربية على الخصوص وهي : [10]

تبعية الأخلاق للدين: ونجد هذا عند القديس أوغسطين والقديس توماس الأكويني مثلا.

تبعية الدين للأخلاق : والقائل به الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط.

ج- استقلال الأخلاق عن الدين، صاحب هذا الموقف هو الفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم. والحقيقة أن الأخلاق والدين شيء واحد، فلا دين بغير أخلاق ولا أخلاق بغير دين. [11] لقد دعت الأديان السماوية كلها إلى ضرورة التحلي بالأخلاق الحميدة، إذ الدين شريعة وحقيقة، عبادات ومعاملات، وكل عبادة أو معاملة لها وجهان : وجه فقهي ووجه خلقي، ثم إن العلوم الإسلامية كلها تقوم على الأخلاق من حيث مرجعيتها وفلسفتها ومبادؤها المنظمة لها، ومن حيث غاياتها العلمية والعملية. ويتجلى لنا هذا الربط بين الأخلاق والدين في هذا النص الذي يقول فيه النورسي: "إن إصابة الأمة في قلبها إنما هو من ضعف الدين، ولن تنعم بالصحة إلا بتقوية الدين، إن مشربنا : محبة المحبة ومخاصمة المخاصمة (...) أما مسلكنا فهو التخلق بالأخلاق المحمدية صلى الله عليه وسلم وإحياء السنة النبوية، ومرشدنا في الحياة : الشريعة الغراء" [12] ويقول في مكان آخر: "إن الإيمان يقيم دائما في القلب والعقل حارسا معنويا أمينا لذا كلما صدرت ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية (...) يطردها ويهزمها"[13] وإذا كانت الأخلاق فطرة فطر عليها الإنسان، فإن دور الدين يتمثل في تثبيت هذه الفطرة وتكميلها وتهذيبها. فقد قال ابن تيمية :"إن الرسل إنما بعثت بتكميل الفطرة، لا بتغيير الفطرة" [14] وقال عبد الله دراز: "لن يكون دور هذه الشريعة الجديدة – بلا ريب – أن تبطل قانون الفطرة، لأنهما حقيقتان، ما كان لهما أن تتعارضا، ولكن دور الشريعة الإلهية أن تثبت قانون الفطرة، وان تمنحه سندا متينا، وذلك بعد أن تستخلصه بكل نقائه وطهارته". [15] وقال نبينا عليه الصلاة والسلام :"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وإذا عدنا إلى مسألة الصدق والكذب، فإننا نجد النورسي يقول :"الكذب لا يسمح به قطعا"[16] ويقول أيضا :" إن الكفر بجميع أنواعه كذب، والإيمان إنما هو صدق وحقيقة" [17] وما قاله هذا العالم هو تأكيد لما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم)، في أحد الأحاديث النبوية لما سئل : هل يزني المؤمن؟ فقال نعم، وهل يسرق أو يقتل ؟ فقال: نعم، وعندما سئل : هل يكذب ؟ قال : لا. فالنورسي هنا يتمثل الحديث النبوي ويعمل بمقتضاه، وكلامه عن الصدق والكذب تفسير لهذا الحديث يتضمن تفصيلات وتوضيحات قيمة. إن المرجعية القرآنية والحديثية حاضرة في كل أقواله وأفكاره ومؤلفاته، ولا عجب في ذلك، لأن "رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البحر، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنـــز علم الحقيقة".[18] هذا بخصوص القرآن الكريم، أما فيما يتعلق بالسنة النبوية، فإننا نجد "في ثنايا كثير من الرسائل أسئلة وأجوبة حول بعض الأحاديث الشريفة التي قد يظن أول وهلة أنه – أي الحديث – بعيد عن الواقع أو لا يسلم به العقل، إلا أن الرسالة تشرح الأبعاد الشاسعة لذلك الحديث وأسراره وحكمه الكثيرة" [19].

3– مبدأ الشمولية :

إن المنظومة الأخلاقية التي اشتملت عليها رسائل النور تتسم بالشمولية والعموم، فقد شملت علاقة الإنسان بخالقه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، بل شملت علاقة الإنسان بكل عناصر الكون ومكوناته. إنها عالجت مجمل الأخلاق الحميدة والسجايا الرفيعة بشكل مفصل مسهب تارة، وبشكل مجمل مقتضب تارة أخرى. وهكذا وجدنا النورسي يتحدث عن إيجابيات الصدق والشورى والعدل والتعاون والأخوة والأمل والتواضع والاجتهاد والوفاء والعفة والمحبة والشكر وغيرها، وخصص لبعضها رسائل مستقلة، كما أنه نبه على خطورة الأخلاق الذميمة مثل الكذب والرياء والنفاق والظلم والتفرق والتعصب والتكبر والأنانية واليأس والاستبداد والتكاسل والعداوة والشر والخيانة.

وهو يربط الأخلاق بالرقي والحضارة والمدنية فيقول :"لما كانت مدنية أوربا لم تتأسس على الفضيلة والهدى بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت هيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن. وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات

الثورية الإرهابية، وهذا دليل قوي ومؤشر على قرب انهيارها وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدينة آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب".[20] إن المدنية الغربية بنيت على أساس الأخلاق الذميمة، ولذا فإنها لا تكفل سعادة البشرية. إنها بنيت على خمسة مبادئ سلبية :

إنها مبنية على القوة : وهذا يؤدي إلى الاعتداء والظلم.

ب- هدفها وقصدها المنفعة : وهذا من شأنه التدافع والتزاحم.

ج- دستورها في الحياة هو الجدل : وهذا يؤدي إلى التنازع والخصام.

د- رابطتها فيها بين الكتل هي العنصرية والقومية السلبية : وهذا يؤدي إلى تصادم رهيب.

ه- خدمتها الجذابة هي تطمين وتشجيع الهوى والهوس : وهذا يمسخ الإنسان روحيا.

أما المدنية التي بنيت على أساس التشريع الإسلامي والأخلاق المحمدية الرفيعة، فإنها مبنية على الحق والفضيلة والرابطة الدينية والتعاون والهدى، وهذا ما يؤدي إلى العدالة والتوازن والمودة والاخوة والمسالمة والاتحاد وترقي الإنسان.[21]

إن المنظومة الأخلاقية التي وضع أسسها النورسي، تستوحي الأخلاق القرآنية والأخلاق المحمدية، ولذلك اتسمت بالعموم والكلية والشمول. أما الفلسفات والمذاهب الأخلاقية الغربية فقد اتسمت بالجزئية، فأخذ بعضها بمبدأ الفطرة أو الطبيعة (الأخلاق الطبيعية)، واقتصر بعضها الآخر على مبدأ العلم أو العقل (الأخلاق العلمية)، ودعا آخرون إلى الأخلاق الواقعية أو الأخلاق العلمانية [22]. كل فيلسوف له مذهب، وكل نظرية أخلاقية اعتمدت مفهوما واحدا. فهل نتبع فلسفة اللذة التي نادى بها أريستيب وأبيقور؟ أم نظرية السعادة التي نظر لها سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيون ؟ أم فلسفة القوة التي نادى بها نيتشه ؟ أم نظرية الواجب عند إيمانويل كانط ؟ أم نظرية المنفعة التي دافع عنها بنتام وجون استيوارت مل، وكل الذين تبنوا الفلسفة الذرائعية؟ إن الأخلاق القرآنية، وأيضا المنظومة الأخلاقية النورسية بما هي تفسير للأولى، جاءت شاملة لكل المبادئ، أو لكل الجوانب الإيجابية والمفيدة فيها، ومن ثم شمولها وشموليتها وإحاطتها بكل جوانب الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية. إن المنظومة الأخلاقية عند النورسي لا يمكن أن تبنى على المنفعة الشخصية والأنانية مثلا، وهو الذي يقول :"لو أمعنت النظر في صحيفة العالم نظرا تاريخيا وتأملت في مساوي جمعية البشر لرأيت أس أساس جميع

اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق الرذيلة في الهيئة الاجتماعية كلمتين فقط : إحداهما: (إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع) والثانية : (اكتسب أنت لآكل أنا، واتعب أنت لأستريح أنا)".[23] والدواء لهاتين الخصلتين الفاسدتين هو الزكاة وحرمة الربا. ويقول أيضا :إن السياسة المبنية على المنافع وحش رهيب".[24]

ولا يمكن أن يبني منظومته الأخلاقية على فلسفة اللذة أو نظرية الواجب أو أي مفهوم جزئي آخر.

4- مبدأ العلمية :

إن تناول النورسي للأخلاق تناول قرآني ديني وتناول علمي في وقت واحد، والدين والعلم لا يتعارضان. ولقد أشارت رسالة (المعجزات القرآنية) إلى : "كل آية من الآيات التي تعرض لها أهل العلم الحديث، وأظهرت أن في كل منها لمعة رائعة من لمعات إعجاز القرآن، وبينت ما ظنه أهل العلم مدار نقد في جمل القرآن وكلماته : أن في كل منها الحقائق السامية الرفيعة ما لا تطاوله يد العلم" [25] ويضيف النورسي قائلا :"نحن معاشر المسلمين خدام القرآن نتبع البرهان ونقبل بعقلنا وفكرنا وقلبنا حقائق الإيمان، لسنا كمن ترك التقلد بالبرهان تقليدا للرهبان كما هو دأب أتباع سائر الأديان".[26]

هذا الموقف من العلاقة القائمة بين الدين والعلم، وكذا الإيمان بأهمية الدليل والبرهان هو الذي جعل النورسي يعتمد المنطق والرياضيات وغيرهما من العلوم الحديثة في أبحاثه ودراساته. لقد وجدناه يصوغ بعض الحقائق المتعلقة بالصدق والكذب، صياغة منطقية رياضية معتمدا مفاهيم من قبيل اللزوم أو الاستلزام (Implication) والتناسب والمقايسة والتمثيل والقياس والبرهان وغيرهما[27].

ونمثل لهذا بالنص التالي :"لا يلزم من لزوم صدق كل قول، قول كل صدق"[28].
وتتضمن هذه المعادلة المنطقية شقين هما :

صدق الأقوال التي قيلت أمر لازم.

ب- التلفظ بجميع الأقوال الصادقة أمر غير لازم.

فالأمر الثاني لا يلزم عن الأمر الأول، ولذا فهو غير لازم. ونادرا ما يلزم عن اللازم لازم آخر في الخطاب أو المنطق الطبيعي، والعلاقة بين هذين الشقين ليست تناظرية (Relation bijective). فاللاتناظر هو الذي يحكم جل الظواهر اللغوية والطبيعية والفكرية والمادية في الخطاب والواقع الذي نعيش فيه، بل في الكون برمته. إن التناظر لا نجده إلا

في اللغات الرمزية الاصطناعية من منطق ورياضيات وإعلاميات. فهذه الحقيقة المتعلقة بالصدق عبر عنها النورسي بهذا التعبير البليغ الموجز، وصاغها هذه الصياغة المنطقية اللزومية.

وننتقل إلى مسألة أخرى، يقول النورسي :"إن الكفر بجميع أنواعه كذب. والإيمان إنما هو صدق". [29] ويقول أيضا :"أما الكذب فلا يسمح به قطعا" [30] وكلامه هذا تفسير وبيان لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (المؤمن لا يكذب). فلما كان الإيمان هو الصدق والكفر هو الكذب، فلا يمكن للمؤمن أن يكون كاذبا، أي أن يكون كافرا، وبعبارة أخرى، فلا يمكن أن يكون مؤمنا وغير مؤمن في وقت واحد، فهذا هو التناقض (contradiction) بعينه وذاته. ومعلوم أن من بين القوانين المنطقية العـــامة، قانون عدم التناقض (loi de non - contradiction) الذي يصاغ صوريا على الشكل التالي :

¬ (أ ∧ ¬ أ)، ومضمونه أن الشيء الواحد لا يمكن أن يتصف بالصفة ونقيضها. ويقول النورسي في نص آخر :"وعلى هذا فالطريق اثنان لا ثالث لهما :"إما الصدق وإما السكوت" وليس الصدق أو الكذب أو السكوت قطعا". [31] وكأني به يوظف هنا قانونا منطقيا آخر هو قانون الثالث المرفوع (loi du tiers-exclu) الذي يمكن صياغته صوريا كما يلي: (أ ∨ ¬ أ). ونجده في أماكن أخرى يستخدم آليات منطقية واستدلالية أخرى كما في تحليله لقوله تعالى: (إن كنتم صادقين) [32] إذ يقول: "فاعلم أن (إن كنتم صادقين) احتجاج القرآن عليهم بقياس استثنائي استثنى نقيض التالي لإنتاج نقيض المقدم، تلخيصه : إن كنتم صادقين تفعلوا المعارضة وتأتوا بسورة لكن ما تفعلون ولن تفعلوا، فأنتج فلم تكونوا صادقين فكان خصمكم وهو النبي عليه السلام صادقا فالقرآن معجز، فوجب عليكم الإيمان به لتتقوا العذاب.. انظر كيف أوجز التنـــزيل فأعجز، ثم إنه ذكر موضع استثناء نقيض التالي وهو (لكن ما تفعلون) لفظ (إن لم تفعلوا) مشيرا بتشكيك "إن" إلى مجاراة ظنهم، وبالشرطية إلى استلزام نقيض التالي لنقيض المقدم، ثم ذكر موضع النتيجة وهي نقيض المقدم أعني فلم تكونوا صادقين علة لازم لازمها وهي قوله (فاتقوا النار) لتهويل الترهيب والتهديد".[33] لقد وظف هنا القياس الاستثنائي أو ما يسميه المناطقة المحدثون بالقياس الحملي الشرطي، وبالضبط النمط الذي يدعى بالرفع Modus tollens والذي يصـــاغ صـــوريا على الشكل التالي:
((أ ← ب) ∧ ب) ← أ

لقد بينا لحد الآن كيف أن النورسي وظف الآليات والأدوات المنطقية والرياضية في مجالات البحث والتفسير والبرهنة والاستدلال.

5- مبدأ النسبية

يتجلى توظيفه لهذا المبدأ في أماكن عديدة ومتفرقة من رسائل النور، ووجدناه يعتمده أيضا في دراسة الأخلاق، ولذلك اعتبرناه مبدأ من المبادئ التي تقوم عليها منظومته الأخلاقية. يقول النورسي :"إن الفضائل والأخلاق، وكذا الحسن والخير، أغلبها أمور نسبية، تتغير كلما عبرت من نوع إلى آخر، وتتباين كلما نـــزلت من صنف إلى صنف، وتختلف كلما بدلت مكانا بمكان، وتتبدل باختلاف الجهات، وتتفاوت ماهيتها كلما علت من الفرد إلى الجماعة، ومن الشخص إلى الأمة. فمثلا : الشجاعة والكرم في الرجل تدفعانه إلى النخوة والتعاون، بينما تسوقان المرأة إلى النشوز والوقاحة وخرق حقوق الزوج. ومثلا : إن عزة النفس التي يشعر بها الضعيف تجاه القوي، لو كانت في القوي لكانت تكبرا، وكذا التواضع الذي يشعر به القوي تجاه الضعيف، لو كان في الضعيف لكان تذللا. ومثلا إن جدية ولي الأمر في مقامه وقار، بينما لينه ذلة، كما أن جديته في بيته دليل على التكبر، ولينه دليل على التواضع..." [34] ويضيف :"وحيث أن الحسن النسبي والخير النسبي كثير جدا" [35]. ومعلوم أن النسبية من المبادئ العلمية التي اصبح الآن مسلما بها من قبل الجميع، ومأخوذ بها في جميع المجالات العلمية والفكرية والثقافية. فالإبستمولوجيا المعاصرة وفلسفة العلوم تقوم على مفاهيم ومبادئ مثل النسبية والنسقية والتدريج والانسجام والانتظام، بل إن ظواهر الكون برمتها تخضع لهذه المبادئ والقوانين.

6- مبدأ الواقعية

يوظف النورسي هذا المبدأ، مثلا، في معالجته لعدد كبير من القضايا الفكرية والأخلاقية، ويمكن أن ندعوه أيضا بمبدأ السياق، ومفاده أنه ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف والسياقات وتنوعها، فلكل سياق حكم ولكل مقام مقال. ويمكن أن نستشهد هنا بالنص الذي يقول فيه النورسي :"عليك أن تصدق في كل ما تتكلمه ولكن ليس صوابا أن تقول كل صدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت، أما الكذب فلا يسمح به قطعا، عليك أن تقول الحق في كل ما تقول ولكن لا يحق لك

أن تقول كل حق، لأنه إن لم يكن الحق خالصا فقد يؤثر تأثيرا سيئا فتضع الحق في غير محله".[36] ونجده يأخذ بهذا المبدأ عندما يجعل الخيار قائما بين الصدق والسكوت فقط، ويرفض أن يكون هناك حل ثالث، والذي هو الكذب ولو كان الكذب للمصلحة، يقول :"لا نجاة إلا بالصدق، فالصدق هو العروة الوثقى. أما الكذب للمصلحة فقد نسخه الزمان، ولقد أفتى به بعض العلماء مؤقتا للضرورة والمصلحة، إلا أن في هذا الزمان لا يعمل بتلك الفتوى، إذ أسيء استعماله إلى حد لم يعد فيه نفع واحد إلا بين مائة من المفاسد"،[37] وكأني بالنورسي يعتمد هنا القاعدة الأصولية المعروفة التي تقول: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح".

7- مبدأ الانتظام والانسجام

تندرج تحت هذا المبدأ عدة مفاهيم ومصطلحات من قبيل التناسب والترابط والتسلسل والوفاق والانتظام والنظام وغيرها. وهذا ما دفعنا إلى افتراض وجود منظومة أخلاقية في رسائل النور تتسم بالشمول والنسقية والانسجام. وقد اعتمد النورسي هذا المبدأ في دراسته للأخلاق، فهو يقول :" إن آثار محمد عليه الصلاة والسلام وسيرته وتاريخ حياته تشهد – مع تسليم أعدائه – بأنه لعلى خلق عظيم، وبأنه قد اجتمع فيه الخصائل العالية كافة. ومن شأن امتزاج تلك الأخلاق توليد عزة للنفس وحيثية وشرف ووقار لا تساعد التنـــزل للسفاسف. فكما أن علو الملائكة لا تساعد لاختلاط الشياطين بينهم، كذلك تلك الأخلاق العالية بجمعها لا تساعد أصلا لتداخل الحيلة والكذب بينها، ألا ترى أن الشخص المشتهر بالشجاعة فقط لا يتنـــزل للكذب إلا بعسر، فكيف بالمجموع ؟ فثبت أن ذاته عليه السلام كالشمس دليل لنفسه". [38]. فالأخلاق الرفيعة تنسجم مع بعضها البعض، وتشكل كلا منسجما موحدا. وما قاله النورسي عن الأخلاق هنا، هو ما قدمه على شكل مبدأ عام في النص التالي: "كما يوجد الميل والجذب في الأمور المتناسبة ، كذلك يوجد الدفع والتنافر في الأمور المتضادة". [39] فلما كان الصدق إيمانا والكذب كفرا، أي كانا متضادين ومتناقضين تباعدا وتدافعا : "وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب بعد ما بين المشرق والمغرب. ولا ينبغي أن يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار (...) إن الصدق والكذب بعيدان أحدهما عن الآخر بعد الكفر عن الإيمان". [40] ولكن لما ابتعد الناس عن الفطرة والأخلاق الحميدة، اختلط الصدق والكذب، وأعطت الدعايات السياسية رواجا

كبيرا للكذب وأفسحت له المجال فبرز في الميدان، ووجدنا من ينظر للكذب ويعتبره ظاهرة لغوية ونصية، أي ظاهرة طبيعية. [41].

ثم إن الأخذ بمبدأ الانتظام جعل النورسي ينظر إلى الأخلاق باعتبارها علما وعملا، فكرا وسلوكا، يقول :"نريد أن تصدقوا قولكم بفعلكم". [42] ويقول أيضا :"لو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا".[43]

وهو يعتبر الصدق محور الأخلاق والخيط الناظم لها فيقول:"إن الأخلاق العالية إنما تتصل بأرض الحقيقة بالجدية، وإن إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هو الصدق. ولو ارتفع الصدق من بينها صارت كهشيم تذروه الرياح". [44] هناك مبادئ أخرى تقوم عليها المنظومة الأخلاقية عند النورسي مثل مبدأ التدريج ومبدأ القدوة والتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم :"لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" [45]. ولكن نكتفي بما أوردناه.

لقد ركزنا فيما سبق على دراسة النورسي للأخلاق وتنظيراته التي تضمنتها كليات رسائل النور، والتي نتج عنها منظومة أخلاقية قرآنية فريدة، ونريد أن نشير إلى أن الأخلاق القرآنية انعكست أيضا في سلوكه هو، وفي أخلاقه وأفعاله. إنه رجل صدق ما عاهد الله عليه فبورك له في عمله وجهاده وتأليفه، وكان له تأثير حميد في طلبته وأبناء قومه، وأيضا في العالم العربي والإسلامي. لقد كتب الأستاذ محسن عبد الحميد بهذا الصدد :"إن من لا يصاحب طلبة النور ولا يخالط أجيالهم الشابة في إيمانهم العميق وهدوئهم البريء، وأخلاقهم العالية البديعة، ودروسهم الإيمانية المطهرة، لا يعلم مدى عمق أثر الإمام النورسي في تربية الجيل الجديد على حب الله ورسوله، ثم حب العلم والفكر والعرفان والتغيير". [46]. والحمد لله رب العالمين.

الهـــوامـــــش

1. المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1983، ص : 136.
2. سورة الروم، الآية : 30.
3. الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم، الأحمدية للنشر، ص : 39.
4. المكتوبات، المعجزات الأحمدية ، ص : 160.
5. الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم، ص : 58.
6. نواياالحقيقة، نشر بذيل الخطبة الشامية، ترجمة عاصم الحسيني، ص:97، وانظركذلك: المكتوبات : نوى الحقائق، ترجمة إحسان قاسم، ص : 601.
7. الخطبة الشامية، طبعة إحسان قاسم، ص : 39-40.
8. المصدر السابق، ص : 40.
9. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص : ي ب.
10- طه عبد الرحمان : سؤال الأخلاق ص : 31-50.
11- المصدر السابق : ص : 52.
12- الخطبة الشامية، طبعة إحسان قاسم، ص : 85.
13- المصدر السابق، ص 73.
14- ابن تيمية : منهاج السنة : 82/1.
15- محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق في القرآن، ص : 405.
16-الخطبة الشامية، ص : 50.
17- المصدر السابق، ص : 46.
18- الملاحق – قسطموني، ص : 220.
19- إحسان قاسم الصالحي : بديع الزمان سعيد النورسي : نظرة عامة عن حياته وآثاره ص : 200.
20- الخطبة الشامية، ص : 38.
21- المكتوبات، نوى الحقائق، ص : 606-607، ونوايا الحقيقة المنشور بذيل الخطبة الشامية، ز عاصم الحسيني، ص : 110-111.
22- انظر تقسيم فرنسوا غريغوار في كتابه (المذاهب الأخلاقية الكبرى) وتصنيفات أخرى.
23- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص : 67-68.
24- الخطبة الشامية، طبعة عاصم الحسيني، ص : 103.
25- الخطبة الشامية : ص، 32.
26- المصدر السابق : ص : 30.
27- إلمام الأستاذ النورسي بعلم المنطق جعله يوظف مصطلحات منطقية كثيرة يستعصي حصرها، ثم إنه ألف كتابين في الموضوع هما : (قزل إيجاز) و (تعليقات على برهان الكلنبوي في المنطق).
28- إشارات الإعجاز، ص : 123.
29- الخطبة الشامية، ص : 46.
30- المصدر السابق، ص : 50.
31- المصدر السابق.

32- سورة البقرة، الآية : 23.
33- إشارات الإعجاز، ص : 238-239.
34- صيقل الإسلام، السانحات، ص : 333.
35- صيقل الإسلام، ص : 334.
36- الخطبة الشامية، ص : 50.
37- المصدر السابق، ص : 49.
38- إشارات الإعجاز، ص : 209.
39- المصدر السابق، ص : 208.
40- الخطبة الشامية، ص : 46-48.
41- انظر أعمال فاينرش هرالد وبلانش نويل كرونيك وهرمان باري، وخاصة كتاب (لسانيات الكذب) باللغة الألمانية لهرالد فاينرش، وانظر الحوار الذي أجراه صاحب البحث مع فاينرش.
42- صيقل الإسلام، المناظرات : ص : 427.
43- الخطبة الشامية، ص : 27.
44- إشارات الإعجاز، ص : 208.
45- سورة الأحزاب، الآية : 21.
46- نقلا عن إحسان قاسم الصالحي : (فاعلية رسائل النور في تقويم السلوك) مقال مخطوط.

المصـــــادر

1. إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي: نظرة عامة عن حياته وآثاره مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999.
2. إحسان قاسم الصالحي :"فاعلية رسائل النور في تقويم السلوك" مقال مخطوط.
3. دراز محمد عبد الله : دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، ط 10، 1998.
4. زكريا ابراهيم : المشكلة الخلقية، دار مصر للطباعة، ط3، 1980.
5. طه عبد الرحمن : سؤال الأخلاق : مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط 1، 2000.
6. العزاوي أبو بكر :"اللسانيات والأدب والذاكرة" حوار مع هرالد فاينرش (باللغة الفرنسية)، مجلة التواصل اللساني، العدد :6 فاس.
7. غريغوار فرانسوا : المذاهب الأخلاقية الكبرى، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت 1970
8. القرضاوي يوسف : الإيمان والحياة، مؤسسة الرسالة، ط 16، 1993.
9. المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1983.
10. المؤتمر العالمي لبديع الزمان سعيد النورسي (تجديد الفكر الإسلامي في القرن 20)، 1996.

11. النورسي سعيد : الخطبة الشامية، تعريب عاصم الحسيني، المطبعة البولسية، لبنان.
12. النورسي سعيد : الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الأحمدية للنشر، البيضاء 2001.
13. النورسي سعيد : صيقل الإسلام، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، استانبول.
14. النورسي سعيد : المكتوبات، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، استانبول.
15. النورسي سعيد : الملاحق، ترجمة إحسان قاسم، دار سوزلر، استانبول.
16. النورسي سعيد : إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، بغداد، دار الانبار، ط1، 1989

العولمة والقيم من خلال رسائل النور

د. أحمد المحمودي(*)

يبدو أن العولمة تعتبر حدثا تاريخيا، تعتمد على تسييد القوة بمفهومها الشامل، وتسعى لصياغة منظومة قيمية شمولية تقوم على مبادئ وأخلاقيات الليبرالية الجديدة التي تبشر بأبدية الرأسمالية الأمريكية الأوروبية، وانغلاق جميع السبل المناهضة لها. وإذا دققنا النظر في الكتابات التي تناولت العولمة والهوية الثقافية من جهة، والعولمة وتغير النسق القيمي من جهة أخرى، لوجدنا أنها تثير قضيتين أساسيتين، أولهما بتفوق الثقافة الغربية والثقافة الاستهلاكية ومحاولة تحكيم منظومة القيم السائدة في بلدان الجنوب بما فيهم الدول الإسلامية، الأمر الذي دعا هذه الأخيرة إلى استجابات محددة للتكيف مع الوضع العالمي الجديد. أما الثانية فترتكز على الخصوصية التاريخية والتفاعل بين الحضارات، وضرورة مواجهة الهجمة الغربية الهادفة إلى إرباك البنى الاجتماعية المتخلفة للاندراج في نسق التحول الرأسمالي العالمي، وهذا ما دعاني إلى تناول إشكالية العولمة وتأثيرها على القيم من خلال رسائل النور باعتبارها مفتاحاً لتحقيق الهوية والخصوصية والتفرد في مواجهة الحضارة الحيوانية الآسنة المشدودة خيوطها بمراكز القوى اليهودية والنصرانية والزندقة الحديثة والمعاصرة [1]. فقد جعل بديع الزمان سعيد النورسي من هذه الرسائل نوافذ تظهر في غاية الصفاء والتناسق والوئام، تلك المعرفة الأهلية التي تعتمد على القرآن وحده الذي هو كتاب الكون الأكبر الذي يجد الإنسان فيه حقيقة الحياة وحقيقة وجوده معها. وهذا النهج الذي يقدمه النورسي ليس منهجا ظرفيا ومرحليا مرتبط بمجال وزمن معينين، ولكن منهجا شموليا راقيا كتب لصياغة الأمة الإسلامية بكاملها بلغة العصر وحياة العصر وصراع العصر في مواجهة جاهلية العصر [2]، بأسلوب معين في إطار

(*) أستاذ بكلية الآداب – جامعة المولى إسماعيل – مكناس – المملكة المغربية

ظروف معينة "وهكذا كان من أجل أن يجدد حياة الأمة ويبين لها ركائز الإيمان من جديد" [3]. وقد أكد النورسي أن الأعمال اللاأخلاقية الدنيئة والخسيسة التي تحملها حضارة العصر (العولمة) لا قيمة لها فهذا انتصار وقتي لا قيمة له ولا أهمية له أمام بشرى قوله تعالى "والعاقبة للمتقين" [4].

فالعولمة إذن هي مخطط غربي لتنظيم ومراقبة حركة السلع ورؤوس الموال وحركة الإنسان والفكر والثقافة، ثقافة الاستهلاك في العالم. فالموضوع يخص جانب الفكر في المخطط العولمي والفكر يؤسس للمخطط الغربي المتعلق بإشاعة ثقافة الاستهلاك.

والظاهر أن القارئ لرسائل النور قراءة فاحصة وعميقة يلاحظ أن صاحبها قد تفطن إلى هذه الظاهرة منذ وقت مبكر ونبه تلاميذته من تفشي الأفكار الإباحية التي كانت تريد تحريف الإنسان المسلم عن خط سيره، فحصنهم بقاعدة إيمانية صلبة انطلقت من كتاب الله تعالى وسنة رسول صلى الله عليه وسلم ومنهج السلف الصالح رضوان الله عليهم يقول سعيد النورسي: "إذا ألقيت السمع إلى النفس والشيطان فستسقط إلى أسفل سافلين، وإذا أصغيت إلى الحق والقرآن فسترقى إلى أعلى عليين وكنت أحسن تقويم" [5].

والظاهر أن الأهداف المركزة للعولمة يمكن إجمالها في نقطتين أساسيتين:

1 – تسخير الثقافة الغربية لإضعاف مناعة الشعوب وبخصوص العالم الإسلامي، هذه المناعة التي يمكن أن تواجه هذا التوجه المتعلق بحركة التجارة في العالم.

2 – جعل دول الجنوب وعلى رأسها دول العالم الإسلامي التي تعد المركز الثالث عالميا من حيث الطاقة الاقتصادية والبشرية مستهلك أساسي لبضائع النموذج الاستهلاكي الغربي ومنتج ثانوي لهذه البضائع.

ولتحقيق هذا المسعى يتم تجريد شعوب الجنوب من خصوصياتها القيمة والثقافية والحضارية بحيث تصبح سوقا ضخمة مستلبة فكريا ومستغلة اقتصاديا وتابعة سياسيا. وفي السياق نفسه فالعولمة تعمل على إيجاد منظومة قيمية موحدة، انطلاقا من المقولة التي تقوم عليها وهي مقولة التداخل والتشابك وهيمنة أسلوب الإنتاج الرأسمالي. وهذه الهيمنة تشمل الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية والتقنية والإعلامية. وعلى أية حال فإن من أهم ملامح العولمة هي السيطرة على المعرفة والمعلومات وتجاوز الصناعات الإلكترونية الدقيقة إلى ابتكارات مكنت دول المركز من الهيمنة علميا وسلوكيا وعسكريا، وفتح المجال أمامها واسعاً لاختراق المنظومات الثقافية وتشكيل

القوالب الفكرية وصياغة نسق قيمي شمولي ينبغي الأخذ به "حتى يمكن مواكبة المارد الأمريكي" [6]. وبهذا الأسلوب أحاطت العولمة المجتمعات البشرية بهالة من الهيبة ووضعت في يد صانعيها وحماتها ثروة الناس فأصبح الفرد كما يقول سعيد النورسي فقيراً وفاقداً للأخلاق [7]، وبهذا يدعو الناس إلى عدالة القرآن التي لا تضحي بحياة برئ ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية ولا لأجل البشرية قاطبة [8].

وتعتمد العولمة على الشركات الرأسمالية الضخمة كعنصر أساسي وفعال وعددها في العالم تقريبا 200 شركة وهي منظمة تنظيما محكما في منظومة روانداتايبل فيها 134 عضواً- أغلبهم يشكلون اللوبي اليهودي- التي تحكم الانتخابات الأمريكية وبالتالي تحكم توجهات الحكومة الأمريكية ومفاوضات أمريكا مع دول أروبا في اتفاقات الكاط وفي الاتفاقات الاقتصادية وفي تسيير الأمم المتحدة وغيرها. وتجدر الإشارة أن من الوسائل المسخرة لخدمة العولمة يمكن أن تذكر المساعدات الدولية التي أغرقت دول الجنوب بالمديونية بإخضاعها لشروطها الاقتصادية والسياسية، وكذلك المؤتمرات الدولية، لأن هذه المؤتمرات تؤدي إلى توقيع هذه الدول لشروط واتفاقيات تدخل فيما يسمى بالشرعية الدولية والخروج عن هذه الاتفاقيات يسمى خروج عن الشرعية الدولية وبالتالي يخضع للضغوط وللحصار في بعض الأحيان للضرب أي للتدخل العسكري المباشر.

ثم هناك الوسائل العصرية وبشكل خاص وسائل الإعلام كالتلفاز الذي دخل كل البيوت والأقمار الصناعية التي توصل الأحداث ومحاولة بناء شبكة علائقية ما بين الاقتصاد والإعلام بحيث أصبح الإعلام يغذي الاقتصاد لخدمة العولمة ويمكن التأكيد على أن العولمة مست بالخصوص العالم العربي الذي يفقد سنويا أكثر من 200 مليار دولار نتيجة تزايد المديونية ونتيجة السياسات الحمائية للدول الغربية ويفقد أزيد من ذلك جراء شراء الأسلحة وشراء المواد الغذائية وأزيد من 50 مليار دولار سنويا. بسبب عدم الاستقرار السياسي الذي يؤدي إلى هروب الأدمغة ورؤوس الأموال التي تصل خسارتها إلى ما يناهز 500 إلى 600 مليار دولار سنويا (للسعودية والإمارات ودول الخليج وحدها 500 مليار دولار). إذن العولمة هي مراقبة حركة التجارة ومؤتمر الكاط كان من أجل التوقيع على اتفاقيات تتعلق بتحرير التجارة الخاصة بالدول الموقعة وكذلك تخفيض رسومها الجمركية وبالتالي التقليل من حماية أسواقها الداخلية وجعل الاقتصاد العالمي سوقا مفتوحة بحجة المنافسة ولكن المنافسة بين الكونغو واليابان أو بين الصومال

وألمانيا أية منافسة هذه مادام النظام لا متكافئ ومختل منذ مائتي عام تقريبا وقائم على عنـــف لا كوابحَ له ولا على نـــزعـــة احتكارية ومتحيزة، فالهدف النهائي من هذه التجارة الدولية هو تحريرها وفتح الأسواق، وهذا التحرير ستربح منه الدول الأوروبية 217 مليار دولار وما بين 50 إلى 60 مليار دولار للدول الغربية والدول الآسيوية والخاسر في الصفقة طبعا هم دول الجنوب.

والظاهر أن المخابرات الأمريكية تساهم بشكل فعال في هذه العملية، حيث تلعب دور أساسي في زعزعة الاستمرار في الكثير من بؤر التوتر في العالم، لأنه كلما كانت هناك قلائل وتوترات وعدم استقرار كلما انتقلت رؤوس الأموال إلى الغرب: رؤوس الأموال العامة لشراء الأسلحة لدرجة أن السعودية الآن تقترض من بنوكها الخاصة لأنها تعاني من عجز مالي يصل إلى 50 مليار دولار، وهذه العملية تندرج في مخطط صمـــم له منذ سنـــوات وهو نفس المخطط الذي كان وراء الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج التي كانت من أهم أهدافها تتحول رؤوس الأموال إلى الغرب.

أما النقطة الأخرى المتعلقة بالسيطرة والهيمنة على حركة الإنسان فهي تندرج في إطار مؤتمر القاهرة للسكان الذي كان يهدف من خلال توصياته إلى الحد من النمو الديموغرافي في الدول الجنوب وهو أسلوب واضح لرقابة حركة الإنسان عالميا، غير أن الباب يبقى مفتوحاً فقط في وجه نوع خاص من الهجرة وهو المتعلق بهجرة العقول والأدمغة.

أما عن رقابة الأفكار فلها طابعين: حركة العلم وحركة الثقافة وهما مرتبطان لأن كلاهما منبثق عن الحركة الفكرية.

بالنسبة للعلم تدخلت الولايات المتحدة لمراقبة البحث العلمي وذلك لمراقبة الأسلحة داخل الدول ولعل أن ضرب العراق كان خير دليل على ذلك لأنه كان يتوفر على أربعمائة ألف مهندس سخروا بشكل تلقائي للبحث في مجال العلوم العسكرية والمدينة، وضغطت أمريكا بحجة الرقابة على الأسلحة بوسائل تصل إلى الوسائل العسكرية فتوعدت وهددت وقاطعت وسخرت ما يسمى بالأمم المتحدة لفرض تلك السياسة، والهدف هو ألا تتطور هذه الشعوب علميا، وبالتالي مراقبة العلاقة العلمية بين الدول الأوروبية ودول الجنوب إلى حد مراقبة نوعية الحاسوب المصدر إلى هذه الدول لدرجة أن الولايات المتحدة أعطت بعد حرب الخليج المساعدات لبعض الدول شرطة مراقبة مختبراتها.

أما الثقافة فالمقصود بها فتح الباب أمام الثقافة الغربية الرخيصة "التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة" كما يقول النورسي [9]، وذلك عبر استعمال الأقمار الصناعية والمجلات والندوات وهي البوابة التي تستهلك من خلالها النماذج الخسيسة التي تسوق إلى جميع أقطار العالم. للإشارة فأدوات القطبية والهيمنة الأمريكية حاليا تأخذ ثلاثة مظاهر:

1 – الهيمنة الثقافية الشعبية الأمريكية ومنها جاءت بوب ميوزيك Pop Music التي سيطرت على أذواق العالم وتفشى معها استهلاك مشروبات الكوكاكولا وأفلام مادونا الدنيئة الساقطة ورامبو ...

وهذه الثقافة الرخيصة في الولايات المتحدة هي الموجودة فقط، بل هناك أدباء وفلاسفة ومفكرين وفنانين عباقرة ينتجون ثقافة رفيعة ولكن يبدو أن سوق هذه الثقافة ضيق على المستوى العالمي، ولأنه لا يخدم مصالح الشركات المتعددة الجنسيات التي تسيطر على الشركات الإعلان العالمية أي أن هناك ضغط لهذه الشركات عبر الدعاية والإشهار التي تروض وتقولب الأزياء والأذواق في العالم وبالتالي قولبة الرموز الثقافية الناشئة.

يبدو أن الولايات المتحدة لها تفوق واضح على منافسيها في إنتاج هذا النوع من الثقافة بفعل قدرتها الإنتاجية العالمية للأفلام والموسيقى والذي كان وراء هذه الثقافة هي تلك الفئات المهاجرة والمكونة أصلاً من المهمشين والأقليات الموجودة في و.م، وهم بالخصوص الزنوج والأمريكان الجنوبيين واليهود الذين عملوا على تسخير هذه الثقافة لتفكيك البنيات الاجتماعية والبنيات الأخلاقية للشعوب فضلا عن ذلك نصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الإنسان بتشجيع الأقليات داخل الشعوب والدفاع عنها لتفكيك البنيات الاجتماعية للأمم والهدف هو القضاء على الخصوصيات الشعوبية في العالم والوصول على إنسان لا انتماء له، لا مرجعة له وإنما إنسان قابل لأن يكون مستهلكا وبالتالي كان هناك سقوط لبعض المفاهيم مثل مفهوم الدولة كمؤسسة لإضعاف الدول، التي تفتح أسواقها بفعل المديونية وتمنع حمايتها وذلك بسياسة التقويم الهيكلي والنتيجة هي أن أية حكومة تصعد وتفرز تجد نفسها أمام كومة من الاتفاقيات التجارية الدولية لابد أن تخضع لها. ومن هذا الإطار فإن مفهوم الشعب كمفهوم اجتماعي يحمى مصالح الفئات الضعيفة على المستوى الاجتماعي انهار وضعف في إطار الليبرالية وكذلك أقبر مفهوم الأمة باعتباره مفهوما خلقيا. والهدف هو تغيير هذه المفاهيم بمفهوم السوق الذي

يعبر عن مجموعة من الأفراد وليس عن الأمم أو الشعوب Ils consomes et ils se consumes والغرض من وراء ذلك هو القضاء على الخصوصيات الثقافية للشعوب وفي واجهتها الإسلام، الدين العالمي المتواجد في الساحة بفعل اكتساحه وتواجده وهيمنته وتوسعه وانتشاره الديموغرافي والبشري والحضاري والتاريخي، ويؤكد النورسي في رسائله أنه رغم المغريات الدنيئة للثقافة الغربية، فالمسلمون لن يقبلوها ولن يرتموا في أحضانها لأنهم عاشوا في ثقافة تختلف في أصولها ونتائجها عن هذه الثقافة الرخيصة "فنقطة استنادها: الحق بدل القوة، ومن شأن الحق دائما: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام ويزول الشقاء، وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب، ومن هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة، ودستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال، وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات، وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم، ورابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمـــان. وشأن هذه الرابطـــة: أخوة خالصة، وطرد العنصرية والقومية السلبية" [10]. ويتوقع النورسي أن البشرية السليمة في هذه الحضارة، بعد أن أصابتها الانحرافات السلوكية والعقيدية، والحروب المدمرة، ستبحث عن حقائق القرآن الكريم لإنقاذها من أمراضها الفتاكة ومحنتها الحضارية المدمرة [11].

والظاهر أن إيديولوجية العولمة ترتكز على الحداثة la modernité المبنية على المشروع الليبيرالي وهي تنص على إلغاء الخصوصيات الشعوبية وهي تعني على حد تعبير هيغل فردية التقاليد، أي عدم وجود مرجعية ثابتة عند الإنسان وإمكانية نقد كل شيء ورفض، ومراجعة كل شيء ويتغذى هذا بمفهوم بحرية الإنسان وما يتفرع عنها من حريات فرعية تخص جوانب الإعلام والفكر والثقافة والديمقراطية أي أن الإنسان إذا أراد أن يسب دينا أو نظاما فله ذلك، والمشكل أن إنسان الجنوب يغرر بهذا المصطلح ويظن أن فيه معنى ومحمولا للديمقراطية والتكنولوجيا...الخ، والهدف هو رفض كل حدود يمكن أن تقيد الإنسان في إطار ثوابت. فالامتداد الاجتماعي والخلقي الذي يبيـــن الشعـــوب لا وجود له. فهذه الحرية الرخيصة الدنيئة، فهي حرية مهزومة وحشية بهيمية غير مستمرة وغير دائمة، يجب محاربتها وإقبارها وفي هذا الإطار دعى النورسي في رسائله الناس العقلاء أن يحتضنوا "الحرية الشرعية" التي ترشد البشرية إلى سبل التسابق والمناصفة الحقة نحو المعالي والمقاصد السامية. فهذه الحرية تعني التحلي بأسمى ما يليق

بالإنسانية من درجات الكمال والتشوق والتطلع إليها [12]. فقسما من السفهاء والمهملين يريدون أن يظلوا أذلاء أسارى النفس الأمارة بالسوء فلا يروق لهم العيش الحر في إطار الحرية الشرعية [13] فالحرية الخارجة عن دائرة الشرع إنما هي استبداد أو أسر بيد النفس الأمارة بالسوء، فليعلم جيداً هؤلاء الزنادقة والمهملون للدين أنهم لا يستطيعون أن يحببوا أنفسهم لأي أجنبي كان يملك وجدانا بالإلحاد والسفاهة، بل لا يمكنهم أن يتشبهوا بهم، لأن السفيه والذي لا يسير على هدى لا يكون محبوبا، فالثياب اللائقة بامرأة إذا ما لبسها الرجل يكون موضع هزء وسخرية [14].

أما عن تفكك الأسرة في الغرب بسبب هذا المخطط العولمي إذا أخذنا فرنسا مثلا سنة 1973 سجلت 400 ألف زواج وفي سنة 1993، 250 ألف زواج فقط، وفي إنجلترا نصف مليون الأسر تتوفر على فرد واحد، وفي السجون الأمريكية مليون و750 ألف فرد.

والجدير بالذكر أن المدينة السفيهة أطلقت النساء من أعشاشهن وامتهنت كرامتهن وجعلتهم متاعاً مبذولاً كاسحات عاريات يكشفن عن سيقانهن ويجعلنها سلاحاً قاسيا جارحا ينـــزل بطعناته على أهل الإيمان فيغلقن بذلك باب النكاح ويفتحن أبواب السفاح [15]. بينما شرع الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن رحمة بهن، فكرامتهن فيها، وراحتهن في بيوتهن، وحياتهن في دوام العائلة [16]، فرفع الحجاب وإفساح المجال أمام التبرج يحد من الزواج بل يقلل من التكاثر كثيراً، بيد أن كثرة النسل مرغوب فيها لدى الجميع، فليس هناك أمة ولا دولة لا تدعو إلى كثرة النسل، وقد قال الرسول الكريم ص " تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة" [17].

والظاهر أن السؤال المطروح الآن هو كيف نقاوم العولمة؟

التمسك بالدين الإسلامي لأنه مصدر الإشعاع الخلقي والقيمي يقول سعيد النورسي: "فلما كان هؤلاء المعاندون يعارضون الحقائق الإيمانية بغرر فرعوني وبتضليلات رهيبة، فلا مناص من أن يجابهوا بحقائق قدسية في قوة القنبلة الذرية لتحكم مبادئهم وأسسهم في الدنيا وتقف زحفهم وتجاوزهم، بل تحمل قسما منهم على التسليم والإيمان" [18]. فالإسلام وحده سيكون حاكما على قارات المستقبل حكما حقيقيا ومعنويا وأن الذي سيقود البشرية إلى السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام[19]. ففي المستقبل ستكون الهيمنة إن شاء الله للحق بدلاً من القوة، والبرهان بدلاً من التعصب والسفسطة والحمية بدلاً من الأحاسيس المادية والعقل بدلاً من الطبع، والهدى

بدلاً من الهوى كما كان الحال في القرون الأولى والثانية للإسلام [20]. فالغلبة ستكون للإسلام كما تنبه إلى ذلك بسمارك الذي يعتبر من أشهر رجال الفكر في تاريخ أوروبا الحديث وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية في القرن التاسع عشر، فالدين كما يقول سعيد النورسي لا يضحى به لأجل الحصول على الدنيا [21]. فالحقيقة التي لا غبار عليها أن الحاكم على الدهر وعلى طبائع البشر إلى يوم القيامة هو حقيقة الإسلام، فلو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكمال حقائق الإيمان لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجاً، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام [22].

وخلاصة القول نشير أن رسائل النور تعد دستوراً أساسياً ومرجعا دقيقاً لكل إنسان، حر في إطار الحرية الشرعية التي تعني التحلي بأسمى ما يليق بالإنسانية من درجات الكمال والتشوق. ولا نبالغ إذا قلنا أن قسما من الأجانب باسم العولمة والحداثة سلبوا منا أموالنا وأوطاننا بثمن بخس ودراهم مزورة ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم. والحق أن موقف النورسي من الحداثة والحضارة الغربية وما تحمله من ظواهر رديئة وخسيسة كان رد فعل واقعي" فالشريعة التي تجلت من أمي صلى الله عليه وسلم وأدارت خمس البشرية على اختلافها، منذ أربعة عشر قرنا إدارة قائمة على الحق والعدل بقوانينها الدقيقة الغزيرة، لا تقبل مثيلا أبداً " [23] فلأهل الحق قلعة شامخة وحصن منيع هي الشريعة الإسلامية وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أجل ذلك حث النورسي المسلمين على تطبيقها لأنها أفضل دواء وأنفعه للأمراض الروحية والعقلية والقلبية، ولا سيما الاجتماعية منها. ولا يمكن أن تقوم مقام حلول الشريعة أية فلسفة ولا أية مسألة حكيمة [24]. وفي هذا الإطار دعى فريقا من الشباب – ومن خلاله الشباب المسلم – أن يحيوا حياتهم بالإيمان ويزينوها بأداء الفرائض ويحافظوا عليها باجتناب المعاصي، فالسياسة الدائرة على المنفعة وحش رهيب، فالتودد إلى وحش جائع لا يدر عطفه بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره [25].

الهوامش

1 – حميد خروف: العولمة والنسق القيمي، منشورات كلية الآداب، جامعة القسنطينة، الجزائر، 2000.
2 – محسن عبد الحميد: النورسي متكلم العصر الحديث، القاهرة 1994، ص: 63.
3 – بديع الزمان سعيد النورسي: كليات رسائل النور: الكلمات ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط2، القاهرة 1992، ص: 364.
4 – الكلمات، ص: 370.
5 – نفسه.
6 – حميد خروف: العولمة والنسق القيمي، ص: 409.
7 – الكلمات، ج3، ص: 856.
8 – نفسه، ج3، ص: 862.
9 – الكلمات، ص: 855.
10 – الكلمات، ص: 855، محسن: م.س، ص: 199.
11 – الكلمات، ص: 172.
12 – سيرة ذاتية، ج9، ص: 500.
13 – نفسه، ج9، ص: 535.
14 – نفسه، ج9، ص: 535 – 536.
15 – الرسائل، ج3، ص: 305.
16 – اللوامع، ص: 874.
17 – الرسائل، ج3، ص: 303.
18 – سيرة ذاتية، ج9، ص: 487.
19 – نفسه، ج9، ص: 499.
20 – نفسه، ج9، ص: 51.
21 – نفسه، ج9، ص: 489. 531.
22 – سيرة ذاتية، ج9، ص: 496.
23 – المكتوبات، ص: 281.
24 – اللمعات، ص: 89.
25 – اللوامع، ص: 850

مفهوم العدالة الاجتماعية في رسائل النور ودوره في مواجهة العولمة

د. أسامة عبد المجيد العاني(*)

تمثل العولمة تحدياً خطيراً يستهدف الإنسان بشكل عام والمسلم بشكل خاص، هذا التيار العارم يكتسح كل شيء ويؤثر فيه. ومن جملة ما يكتسحه مفهوم العدالة الاجتماعية، إذ إنها تسعى لتقسيم العالم وفقا لنظرية (80-20) أي (20٪) هم الأسياد والبقية خدم لأولئك الأسياد.

في محاولة للحد من هذا التيار العارم، تم الخوض في رسائل النور لاستنباط الحلول التي وضعها الإسلام، لتكوين المجتمع العادل. ولأجل ذلك، فقد تم تناول الموضوع من خلال ثلاثة محاور، تطرق الأول إلى مفهوم العدالة الاجتماعية. وأشار الثاني إلى آثار العولمة المختلفة. واستعرض المحور الثالث السبل المؤشرة لمعالجة آثار المدنية الغربية في رسائل النور وإمكانية استخدامها لمعالجة آثار العولمة.

1- العدالة الاجتماعية في رسائل النور :

يختلف فهم رسائل النور للعدالة الاجتماعية عن غيرها من الفلسفات – رغم عدم ورود هـــذا المصطلح صراحة- وذلك لأنها تناولتها في ضوء كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وبذلك تجنبت الزلات المادية والاجتماعية للفلسفات الوضعية.

لم يهدف الأستاذ النورسي رحمه الله من جعل العدالة الاجتماعية موضوعاً مستقلاً – كما سعت الفلسفات الوضعية لتكريسه وعلى رأسها الماركسية ومن ثم الرأسمالية بعد

(*) الجامعة المستنصرية – بغداد – العراق

محاولاتها لاحتواء المد الاشتراكي – بل تم تناولها كفرع ضمن الأصل المتمثل بالنظام الشمولي للإسلام، ذلك النظام الذي نظم علاقة الإنسان بربه، علاقة الإنسان بالحياة، علاقته مع نفسه، علاقته بالمجتمع ومن ثم بالدولة التي تحكمه.

هذه الشمولية أخفقت النظريات الوضعية في الإحاطة بها لأنها إن ركزت على الجوانب المادية أغفلت العلاقات الإنسانية والعكس صحيح. وفوق ذلك فإنها أهملت الجانب الروحي للإنسان.

يمكن تصور خصائص العدالة الاجتماعية في رسائل النور بالآتي :

1. إن العدالة الاجتماعية، عدالة مستوعبة لكل جوانب الحياة، فلم تقتصر على الجانب الاقتصادي فهي تمثل التوازن القائم على الرحمة التوازن بين الغني والفقير، العالم والجاهل، الرئيس والمرؤوس، (فأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام واطاعة العوام واحترامهم للخواص)[1]

2. لتحقيق العدالة الاجتماعية لابد من كفالة الرزق للجميع وقد تكفل بها الباري عز وجلّ قال تعالى (**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** – هود/6) والرزق الذي تكفل به الخالق هو ما يسدّ احتياجات الإنسان الضرورية. لذا كان الرزق نوعين (حقيقي ومجازي، فالمتكفل بالآية هو الحقيقي. واما المجازي الصنعي اللازم بالتزام مالا يلزم ... فليست الحاجات الكاذبة صورة الرزق. فهذا الرزق غير متكفل بالاية)[2].

3. وتأسيساً على ما تقدم فان العدالة الاجتماعية لا تعني المساواة، فمع أن الباري عزّ وجل رازق للعباد، وتكفل في توفير رزق المخلوقات في جانبها الحقيقي، إلاّ أن الرزق في جانبه المجازي متفاوت لحكمة إلهية (فالعزة والذلة، والفقر والغنى مربوطة مباشرة بمشيئة الله وارادته تعالى. أي أن التصرف في اكثر طبقات الكثرة تشتتاً إنما هو بمشيئة الله وتقديره فلا دخل للمصادفة فيه)[3].

4. مع كـــون الأرزاق مقدرة، إلا أن ذلك لا يعفي الإنسان من السعي للحصول على ذلك الرزق (فمسألة القدر ليست للفرار مـــن التكليف والمسؤولية، بل هو لإنقاذ الإنسان من الفخر والغرور). والمسلم الحق هو العابد الساعي على رزقه (بينما الذي يقيم الصلاة دون أن ينسى نصيبه من الرزق ... لئلا يكون عالةً على الآخرين فجميلٌ عمله.. وهو ضرب من العبادة أيضاً)[5].

إن المتتبع لهذه الخصائص يمكنه أن يستنبط في أن العدالة الاجتماعية في الإسلام كما تناولتها رسائل النور إنما تشير إلى خضوع الكون كلّه بكافة مخلوقاته لله الواحد الأحد،

هذا الخضوع قائم على توازن دقيق ومنتظم تعمل جميع مفرداته في نسق موحد لغاية تجسيد توحيد الخالق. (إن الذي يدبر أمـــرَ هذا الكون هو الذي يحافظ على كل شيء فيه ضمن نظام وميزان. النظام والميزان هما مظهران من مظاهر العلم والحكمة مع الإرادة والقدرة، لأننا نشاهد أن أي مصنوع كأن لم يخلق ولا يخلق إلاّ في غاية الانتظام والميزان)[6].

لذا تأسست العدالة الاجتماعية في الإسلام على التعاون وكان لزاماً تفوقها لأنها تناجي الفطرة وتسعى إلى الألفة، فلم تنهض على الصراع الطبقي بين العمال والرأسماليين كما فعلت الماركسية و لم تؤسس على أساس المنفعة واللذة واحتدام المنافسة واتباع قانون البقاء للأصلح كما تسعى اليوم الرأسمالية.

(فدستور الحياة هو التعاون دون الجدال...، نعم، تجاوب أعضاء الكائنات بشمسها وقمرها لمنفعة الحيوانات، وتسارع النباتات المداد أرزاق الحيوانات، وتسابق مواد الأغذية لترزيق الثمرات ..... دليل قاطع ساطع على أن الدستور العام هو التعاون)[7].

وكون الإسلام دين عمل وعبادة في الوقت ذاته، فقد وضع الأسس اللازمة لتحويل العدالة الاجتماعية من مجرد هدف إلى واقع عملي وأوجد عدداً من الآليات التي من شأنها تطبيق العدالة في المجتمع المسلم. وهذه الأسس هي :

1- العبودية المطلقة لله * :

توجز الكلمة الثالثة استنتاجاً مفاده (باب العبادة تجارة عظمى وسعادة كبيرة). ومنبع السعادة نابع من عبودية الإنسان لله وتحرره من أي شيء آخر. (ذلك لان العابد يقول في صلاته (لا اله إلا الله) أ ي لا خالق ولا رازق إلاّ هو، النفع والضر بيده، وانه حكيم لا يعمل عبثا كما انه رحيم واسع الرحمة والإحسان) [8].

لن يخشى المسلم أحدا أو شيئاً، فهو يعلم أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فتتولد الشجاعة، ذلك لأنه (منبع الشجاعة ككل الحسنات الحقيقية هو الإيمان والعبودية، وان منبع الجبن ككل السيئات، هو الضلالة والسفاهة)[9].

ولكي تكون عبودية الفرد خالصة لله، لابد من بعد تحرره من عبادة العباد (شخصا وفكرة أو نظرية)، لابد له أن يَتيقنَ بان رزقه مضمون وعليه أن يسعى لتحصيله، دون أن يركن إلى الأسباب. لذا فالعبودية الحقة تتطلب منه أن ينظر إلى الأسباب كواسطة مأمورة سخرها الله سبحانه ليحصل بها على مبتغاه. لكن النفس البشرية الخطاءة طالما

تركن إلى الأسباب معتبرة إياها الغاية والوسيلة والممكنة والمتمكنة فتنثلم العبودية ويتخدش التوحيد وقد تؤدي بالعبد إلى درجة الإشراك الخفي والعياذ بالله. لذلك حذرت رسائل النور من هذا المرض والأمور الموكلة إلى الجبن والقادحة في شأن العبودية. وبسبب ذلك أخفقت الفلسفات الوضعية حين أبرزت الأسباب (ثم ان الفلسفة تمنح التأثير للأسباب وتعطي بيد الطبيعة الإيجاد والإبداع)[10].

(فإبراز أسباب ظاهرية إنما تهوين من شأن عظمة فعل الربوبيه الجليلة المفعمة بالحكمة والاختيار)[11].

ولا يراد من هذه العبارات، استغناء العبد كليا عن الأسباب، ولكن المطلوب هو الأخذ بها وعدم الركون إليها، بل إن الأستاذ رحمه الله أفرد في المقام الثاني من الكلمة العشرين الدلالات الموجودة في القرآن الكريم للبحث عن العلوم البشرية ووسائلها كسبب من الأسباب،بل إن القرآن يفتح مجالات للإنسان ويطلب منه الولوج فيها مثل (ريح سليمان، وعصا موسى، وشفاء عيسى عليهم السلام) [12].

إن من شأن توحيد العبودية للباري عز وجل وحده جعل الجميع خاضعين له فقط دون خضوعها لشخص أو أحد، وبشعورهم لضرورة التوكل والأخذ بالأسباب دون الركون إليها من شانه أن يضمن مجتمعا حراً شجاعاً يسعى ويحمي عدالة المجتمع فالكل عبيد للخالق المتكفل بضمان ارزقاهم.إن الحرية النابعة من الإيمان إنما تأمر بأساسين[13]

أن لا يذلل المسلم ولا يتذلل. من كان عبداً لله لن يكون عبدا للعباد.

أن لا يجعل بعضهم بعضا أربابا من دون الله.

2- المساواة الإنسانية :

إذا أستشعر الضمير البشري كل التحرر الوجداني، فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظا وقد استشعرها في أعماقه معنى، ووجدها في حياته واقعا، بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم إطلاقا. سيطلب حقه في المساواة وسيجاهد لتقرير هذا الحق، وسيحتفظ به حين يناله، ولن يقبل عنه بديلا، وسيصبر على تكاليف الاحتفاظ به والذياد عنه، مهما بذل في ذلك من جهد وتضحية [14].

وتشير الرسائل إلى المساواة التي وضعها الإسلام من خلال ثلاث زوايا (المساواة بين الذكر والأنثى، المساواة بين القوميات، المساواة بين الأديان)، إذ إن تحقق المساواة في

هذه المجالات من شأنه ضمان تحققها لتشمل جميع أفراد المجتمع، بل كل البشرية جمعاء. عندها سيستشعرها الفرد ويفني حياته في سبيل الذود عنها.

المساواة بين الذكر والأنثى :

تعتبر الرسائل المساواة بين الذكر والأنثى حاصلة، بل لا تدخل في مناقشتها اطلاقاً، بل تسعى إلى الرد على الشبهات التي تثيرها المدنية الحاضرة والمتمثلة في (تعدد الزوجات وميراث الأنثى).

وترد الرسائل على عدم المساواة في الميراث ما بين الذكر و الأنثى موضحة بأنه (من البديهي إن أغلب الأحكام في الحياة الاجتماعية إنما تسن حسب الأكثرية من الناس، فغالبية النساء يجدن أزواجاً يعيلونهن ويحمونهن – وهو تكليف شرعي – بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى إعالة زوجاتهم وتحمل نفقاتهن ..... فإذا اخذ الرجل حظين من أبيه فانه سينفق قسطا منه على زوجته وبذلك تحصل المساواة، ويكون الرجل مساويا لأخته. وهكذا تقتضي العدالة القرآنية) [15]

المساواة بين القوميات :

يمقت الأستاذ رحمه الله، التناحر القومي فيقول (ولقد نظرت منذ السابق إلى القومية السلبية والدعوة العنصرية نظرة السم القاتل، لأنها مرض أوربي خبيث سار ولقد ألقت أوربا بذلك المرض الوبيل بين المسلمين لميزقهم ويفرقهم)[16].

ولم يجعل الإسلام تفضيلا لعربي على عجمي إلا بالتقوى.كما أن هذه المساواة تعني العدالة بذاتها فهي أساس تترسخ بموجبه عندما يعلم الجميع بأنهم لن يضطهدوا لعرقٍ او لون.

المساواة بين الأديان :

أما المساواة ما بين الأديان فنابعة من قوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن) ذلك لأن هذا الأسلوب في المخاطبة يولد المحبة ويولد الهداية لهم، لذلك يصف الأستاذ هذا الأسلوب بأنه (الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء لأنه البناء الذي فيه نلتقي وفيه نلقى الله)[17].

3- التكافل الاجتماعي :

يبدأ التكافل الاجتماعي في ذات الفرد أولاً، بالموازنة بين الحرية الفردية والتبعة الاجتماعية، حتى لا تطغى الحرية الفردية على التبعة الاجتماعية، فيحدث الظلم ولا يتحقق العدل[18].

ضبط الإسلام هذه العلاقة أي مسؤولية الفرد تجاه المجموع من خلال فرض الزكاة.

وتفسر رسائل النور قوله تعالى (**ومما رزقناهم ينفقون**) فتأكد من خلالها على كون الزكاة عصب الحياة بين أفراد المجتمع المسلم وسر تعاونه (فكما أن الصلاة عماد الدين وبها قوامه، كذلك الزكاة قنطرة الإسلام وبها التعاون بين أهله)[19] في كونها (جسر يغيث المسلم أخاه المسلم بالعبور عليها، إذ هي الواسطة للتعاون المأمور به بل هي الصراط في نظام الهيئة الاجتماعية لنوع البشر وهي الرابطة لجريان ماء الحياة بينهم)[20]

وتعزي رسائل النور فساد المجتمعات واختلالها وشيوع الرذيلة فيها إلى سببين هما :

أ. الأنانية وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه المجموع – (إن شبعت فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع).

ب. الاستغلال (اكتسب أنت لآكل أنا واتعب أنت لاستريح أنا)[21].

فلكي تسود العدالة الاجتماعية لابد أن تتعاون الطبقات فيما بينها ولابد من وجوب الزكاة وحرمة الربا. إذ بدونهما يغدوا المجتمع متنافراً متصارعاً (وتباعدت طبقات الخواص عن العوام بدرجة لا صلة بينها، ولا يفور من الطبقة السفلى إلى العليا إلا صدى الاختلال وصياح الحسد، وانين الحقد والنفرة)[22]. ولا سبيل لإعادة التعاون وضمان العدالة الاجتماعية (إلا بجعل الزكاة دستوراً عالياً واسعاً في تدوير الهيئة الاجتماعية)[23].

2- سبل العولمة في تقسيم العالم وتهميش الدول الفقيرة :

لن يسعى هذا المبحث في هذه العجالة، إلى إيضاح مفهوم العولمة، فقد تعددت الدراسات والبحوث حوله ولكن سيتم استعراض آراء المفكرين الإسلاميين فيها لتتضح بعض ملامحها)[24].

يقول الفيلسوف المسلم رجاء جارودي عن العولمة بأنها (نظام يمكن الأقوياء من فرض الدكتاتوريات اللاإنسانية التي تسمح بافتراس المستضعفين بذريعه التبادل الحر وحرية السوق).

ويقول الدكتور مصطفى محمود بأن (العولمة مصطلح بدأ لينتهي بتفريغ الوطن من وطنيته وقوميته وانتمائه الديني والاجتماعي والسياسي، بحيث لا يبقى منه إلاّ خادم للقوى الكبرى).

ويقول الدكتور حسن حنفي (هي حضارة وتبعية الآخر، وهي مركزية وفنية في الوعي الأوربي تقوم على عنصرية عرقية، وعلى الرغبة في الهيمنة والسيطرة).

وللعولمة مظاهر اقتصادية، سياسية، ثقافية، واجتماعية، أبرزها العولمة الاقتصادية التي تتسم بإحكام السيطرة على العالم من خلال (صندوق النقد والبنك الدولي) وحرية التجارة والاستثمار من خلال (منظمة التجارة العالمية) وانتشار الشركات متعدية الجنسية وتعاظم حركة رؤوس الأموال .... الخ.

وقد لخص صاحبا كتاب فخ العولمة أهم آثار العولمة الاقتصادية بالآتي (زيادة البطالة، انخفاض الأجور، تدهور مستويات المعيشة، تقلـــص الخدمات الاجتماعية المقدمة من قبل الدول، حرية السوق، كف يد الدول عن التدخل في النشاط الاقتصادي، اتساع في التفاوت في توزيع الدخول)[25].

وسنعرض ابرز آثار **العولمة الاقتصادية** من خلال استعراض تقارير التنمية البشرية للأعوام 1998-2000 والصادرة من البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة.

يشير تقرير التنمية البشرية لعام 1999 إلى ازدياد ثروات الدول الغنية وذلك من خلال اتساع الفجوة بين الدول الغنية التي تتمتع بتكنولوجيا عالية والبلدان الفقيرة بحيث أصبحت اللامساواة اكثر تفشياً من ذي قبل. ويضيف في أن متوسط الدخل في أغنى خمس دول في العالم يبلغ 74 ضعفا لمتوسط الدخل في أفقر خمس دول في العالم، تتركز جميعها في أفريقيا والمثير في الغرابة أن ثروات اكبر ثلاثة أغنياء في العالم تفوق في قيمتها إجمالي الناتج المحلي لمجموعة الدول الأقل تقدما، التي يناهز سكانها الـــ(600) مليون نسمة. وفي حين يكلف شراء جهاز كومبيوتر إنفاق الدخل المتوسط للبنجلادشي لمدة 8 سنوات، فانه يكلف متوسط أجر الأمريكي في شهر واحد[26].

أما تقرير التنمية البشرية لعام /2000 فيشير إلى زيادة تهميش البلدان الفقيرة، إذ انخفضت حصة صادرات البلدان الأقل نمواً التي تضم 10٪ من سكان العالم من (0.6٪) سنة 1980 إلى (0.4٪) سنة 1998. ورغم أن متوسط التعريفات الجمركية أعلى في البلدان النامية منها في البلدان المتقدمة النمو، ما زالت دول فقيرة كثيرة تواجه مستويات للتعريفات الجمركية تمثل ذروة وتصعيدا في تلك التعريفات في

قطاعات حيوية مثل الزراعة والأغذية والسلع الجلدية. أما فيما يخص زيادة تدفق الاستثمار الأجنبي المباشر، فقد أشار التقرير إن أقل البلدان نموا ومجموعها (48) دولة لم تجتذب سوى 0.4٪ من مجموع الاستثمارات الأجنبية المباشرة. وأشرت أيضاً زيادة حادة في انعدام المساواة في الدخل في العالم خلال المدة 1988-1993، إذ أرتفع مؤشر جيني من (0.63٪ إلى 0.66٪) وتشير القيمة واحد إلى انعدام المساواة كلياً (27).

كما أن شأن العولمة زيادة حجم الاستهلاك. وقد أشار تقرير التنمية البشرية لعام /1998 إلى ذلك حين ذكر بان قيمة الاستهلاك العالمي من السلع والخدمات تجاوزت (24) ترليون دولار / في 1998 وهو رقم يعادل ستة أضعاف الرقم الذي كان عليه الاستهلاك العالمي في عام / 1975. من جهة أخرى فإن التفاوتات الصارخة في الاستهلاك قد استبعدت اكثر من بليون شخص بحيث يعجزون عن إشباع أبسط احتياجاتهم (28)

أما **العولمة السياسية**، فقد ظهرت في ظل انهيار الاتحاد السوفيتي وتحول المعسكر الشرقي بحيث وضعت أسس بروز نظام دولي جديد، تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية فيه القوة العظمى الوحيدة، أو القطب الواحد في هذه المرحلة وذلك على المستوى الستراتيجي والعسكري هذه الأحادية القطبية مددت دور الولايات المتحدة على الصعيد العالمي مما حدا بالبعض إلى اعتبار العولمة مرادفة للأمركة.

تبشر **العولمة السياسية** بتفاقم مشكلات العالم الثالث (وبالأخص الإسلامي منه) فيخضع للعمليات الجراحية (استئصال الأورام السرطانية المتمثلة بالإرهاب، فيضرب العراق تارة وأفغانستان تارة أخرى وتصفى فلسطين).

شاع أيضاً في ظل العولمة السياسية بروز ما يسمى بالمجتمع المدني العالمي أو المنظمات الدولية غير الحكومية التي تركز اهتمامها وأنشطتها على قضايا حقوق الإنسان وحماية البيئة وحقوق السلام.. الخ.

ومن الشواهد الملحوظة للعولمة السياسية هو انحسار دور الأمم المتحدة في القضايا السياسية وتحولها إلى أمم أمريكية في حين اتسع مجال الأمم المتحدة في مجال حماية البيئة والتنمية البشرية وغيرها من الأمور الأخرى.

وربما يكون اخطر نتائج العولمة السياسية هو الحد من سيادة الدولة على أقاليمها ومنعها من ممارسة حقها في التدخل في الشؤون الاقتصادية.

تلوح ابرز سيئات العولمة في **المجال الاجتماعي**، إذ إن الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي يعيشه الناس اليوم (في الدول) الغنية والنامية لم يكشف عجز الليبرالية الجديدة المتطرفة عن تحقيق نسب نمو عالية والقضاء على البطالة وتحسين المستوى المعيشي كما بشر دعاتها، بل كشف كذلك حيلها لتتراجع الدول عن المكاسب الاجتماعية القديمة، فتدهورت القوة الشرائية لكثير من الفئات الاجتماعية، وازدادت نسبة البطالة والفقر[29].

ولقد أشار تقرير التنمية البشرية لعام/1999 إلى أن الرعاية الاجتماعية، تواجه تهديدا في ظل اقتصاد السوق والمنافسة، ويشير في هذا الصدد إلى افتقار حياة البشر بشكل متزايد إلى الأمان وتزايد معدلات التفكك الأسرى والجريمة وفي حين يبلغ إجمالي الأرباح العالمية 1.5 ترليون دولار في العالم يرجح التقرير أن الاستغلال الجنسي للنساء والفتيات يحقق أرباحاً سنوية تصل إلى 7 مليار دولار[30].

أما **العولمة الثقافية**، فقد حفلت الأحوال السائدة بجدل واسع حول فكرة اصطدام الحضارات التي أطلقها صموئيل هانتجنتون في كتاب يحمل الاسم نفسه وتثير أطروحته عددا من الإشكاليات في علاقة العولمة بالهوية . ويبشـــر هانتجنتون بعالم تكون فيه الهويات الثقافية – العرقية والقومية والدينية والحضارية – واضحة، وتصبح (هي المركز الرئيسي) وتتشكل فيه العداوات والتحالفات وسياسات الدول طبقا لعوامل الاقتراب أو الاختلاف الثقافي. ويرى أيضاً أن الحضارات هي القبائل الإنسانية، وصدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كوني[31].

إن مفهوم صدام الحضارات يعني حمل شعوب الأمم النامية للخضوع إلى ثقافة واحدة وغرس قيم ومبادئ لنظم الحياة بين الناس وأسس لأفكارهم بما يملكه النخبة المستفيدة في كل ذلك. ولتحقيق هذا الأمر لابد للعولمة من تحطيم مبادئ ومقومات الثقافات الأخرى وتشويه حقائقها حتى لو كان ذلك عن طريق الصدام.

أما نتائج العولمة على صعيد العالم الإسلامي فالدراسات التي تتناول اثر كل من العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عليه لا زالت محدودة مع بداية الهجمة عليه (سياسياً) من خلال ما يسمى بمكافحة الإرهاب.

أما الاقتصادية منها فالطابع العام يوحي بتدني مواقع الأقطار الإسلامية وتقهقرها عما كانت عليه في تقارير التنمية البشرية. كما أن البلدان المتبعة لبرامج ما يسمى بالتصحيح

الاقتصادي أثرت تدني معدلات القوة الشرائية وتفشي ظاهرة البطالة وإعدام القطاع العام وانحسار دور الدولة في مجال الخدمات الاجتماعية[32].

3. سبل مواجهة العولمة في رسائل النور :

لا بد من الإشارة إلى أن الأستاذ النورسي رحمه الله يميز ما بين أوروبا النافعة للبشر القائمة على أساس من الدين العيسوي وما بين الثانية التي خالفت الأديان السماوية واستندت إلى الفلسفة الطبيعية المادية وغلبت سيئات المدنية حسناتها.

فيتوجه بالخطاب إلى الثانية، ويصل إلى نتائج قريبة جداً إلى ما تنوي فعله الهجمة الغربية بقيادة العولمة حيث يقول (يا أيها الأوروبا ! إنـــك قد أخذت بيمينك الفلسفة المظلة السقيمة، وبيسارك المدنية المضرة السفيهة. تدّعي أن سعادة البشر بها شلت يداك وبئست هديتك)[32] وكأنه يبشر بنتائج العولمة حين يقول (فيا أوروبا أهديت بدهائك الأعور لروح البشر هذه الحالة الجهنمية، ثم تفطنت لهذا الداء العضال دواء لأبطال الحس في الجملة، وهو الملاهي الجذابة والهوسات الجلاية)[33] وحكمت (بأن الحياة جدال)[34].

وعلى الرغم من مضى أكثر من نصف قرن على كتابة رسائل النور، إلاّ أن ما توقعته لحال المجتمعات المتبعة للفلسفات المادية، تكاد تكون متطابقة لما هو عليه الحال في الوقت الحاضر فركيزة الحياة الاجتماعية للمدينة الحاضرة هي (القوة) وهي تستهدف (المنفعة) في كل شيء. وتتخذ (الصراع) دستوراً للحياة وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات. وغاياتها هي (لهوٌ عابث) لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تعظيم جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن (القوة) هو (التجاوز) وشأن (المنفعة) هو (التزاحم) إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن (الصراع) هو (التصادم) وشأن (العنصرية) هو (التجاوز) حيث تكبر بابتلاع غيرها[35]. ولا نكون مجافين للحقيقة إذا ما ذكرنا أن نتائج العولمة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً قد لخصت في العبارة أعلاه.

ثم تصل الرسائل إلى ذروة التوقعات عندما تعلن بأن المستفيدين في الدساتير الوضعية لن يتجاوزوا العشرين بالمائة (فهذه الدساتير والأسس التي تستند إليها هذه المدنية الحاضرة هي التي جعلتها عاجزة – مع محاسنها – عن أن تمنح سوى عشرين بالمائة من البشر سعادة ظاهرية. بينما ألقت البقية إلى شقاء وتعاسة)[36] وهي النسبة نفسها التي يتوقعها كاتبا (فخ العولمة).

تقترح رسائل النور عدداً من السبل المواجهة المخاطر التي ألحقتها الدساتير والفلسفات الوضعية، تستند في حيثياتها إلى القرآن الكريم. ذلك الدين الذي كرم

الإنسان وعرف دائه ووضع له الدواء المناسب وارتقى به ليجعله سيداً للأرض وعبداً للخالق.

يدعو الأستاذ رحمه الله بالعودة للدين من خلال فهم حقيقته المستندة إلى العلم والإدراك لمعاني القرآن ومعرفة أسراره لتصل بالإنسان إلى جادة الصواب. وتبدأ الخطوة في مراجعة دراسة وتدريس هذا الدين سواء في المدارس الدينية الخاصة أو المدارس العلمية العامة، كي يتسنى إنشاء جيل فاهم لحقيقة دينه ودوره في هذا المجتمع. هذه الحقيقة نابعة من مقاصد القرآن الأصلية التي يوجزها الأستاذ بـــ (التوحيد والرسالة والحشر والعدالة مع العبودية)[37] وللسير في هذا المنهج (لا بد من تدريس العلوم الدينية في المدارس الحديثة تدريساً حقيقياً، وتحصيل بعض العلوم الحديثة في المدارس الدينية)[38] ويضع مواصفات معاصرة تطابق ما كان عليه الواعظ في صدر الإسلام حيث يقول (يجب أن يكون الواعظ محققا، دقيقاً، بليغاً، مقنعاً، وازناً للأمور بميزان الشريعة)[39]. بل، لا يكتفي بهذا الحد ويدعو إلى (فتح مدارس خاصة لتدريس الدين)[40] وفقاً للمواصفات أعلاه.

الخطوة الثانية التي تتبعها رسائل النور لمعالجة آثار المدنية الغربية (العولمة المعاصرة) هي تحصين بناء الأسرة المسلمة نواة المجتمع من خلال تدعيمها بالحب والأمان (إن الحياة العائلية هي مركز تجمع الحياة الدنيوية ولولبها وهي جنة سعادتها وقلعتها الحصينة وملجأها الأمين ... فلا سعادة لروح الحياة إلاّ بالاحترام المتبادل الجاد والوفاء الخالص بين الجميع والرأفة الصادقة التي تصل إلى حد التضحية والإيثار ولا يحصل هذا.. إلاّ بالإيمان بوجود علاقات صداقة أبدية، ورفعة دائمة، ومعية سرمدية لا نهاية له)[41].

ثم يضع الدواء على الجرح، فيقول (إن مفتاح سعادة المسلمين في حياتهم الاجتماعية إنما هو – الشورى –)[42]. ذلك لأنها الطريق إلى الحرية والعدالة والمساواة (التي كانت يترفل بها خير القرون)[43] فالمكبل الذي يشعرُ بالغبن والإحباط والظلم لن يكون قادراً على الإبداع ويكون مستعداً لقبول ما يملى عليه من خارج بيئته.

ولا سبيل للمسلمين في مواجهة المدنية الحاضرة إلاّ باستخدام أسلحتها ذاتها والمتمثلة بالعلوم، فلا بد لهم من امتلاك هذه الناصية بعد إخضاعها لميزان الشريعة أي وفقاً لما يسمى (بأسلمة العلوم) حيث يقول الأستاذ (إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة والآتي إلينا من الخارج، لا بد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة)[44]. بل إن الأستاذ رحمه الله يشدد على ضرورة الأخذ بكل أسباب العلم التي أدت إلى ازدهار الحضارة الغربية مستندا بذلك إلى الأدلة الفقهية وقد أفاض حول هذا الموضوع في رسالة المناظرات.

أما معالجة **الآثار الاقتصادية للعولمة** والتي نجم عنها تفاوت كبير في الدخل كما أشارت إليه البيانات السابقة، فيتم من خلال اتباع دستور الباري عز وجل في (**آتوا الزكاة**) البقرة/43 (**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**) البقرة/275. وذلك لأنه (لا يمكن العيش بسلام ووئام إلاّ بالمحافظة على التوازن بين الخواص والعوام أي بين الأغنياء والفقراء وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام)[45] وأساس ذلك الزكاة.

أما الربا فقد دفع (العوام إلى الحقد والحسد والصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال، ذلك الصراع التي عجزت المدنية بكل جمعياتها الخيرية وانضباطها الصارم عن أن تصلح بين تينك الطبقتين.. بينما يقلع القرآن الكريم هذا الصراع من أساسه بحرمة الربا)[46].

ولمعالجة آثار العولمة المتمثلة بازدياد أنماط الاستهلاك، تدعو رسالة الاقتصاد إلى ضرورة الترشيد لما له من آثار إيجابية تتمثل في كونه سبباً للعزة وللبركة واللذة ولا علاقة له بالخسة (الشح)، والاقتصاد يمثل كنـــز لا يفنى وذلك باتباع القناعة وفوق ذاك وذاك فإنه ينسجم مع الحكمة الإلهية وهو شكر معنوي[47].

الآثار الاجتماعية للعولمة المتمثلة في تفشي الفاحشة والزنا وزيادة عدد المصابين بالإيدز لأسباب شتى. تعتمد رسائل النور في معالجتها على الحكمة الإلهية فـــي تعدد الزوجات ذلك لأن الهدف هو الحفاظ على النوع البشري وتوفير المعيل إذ إنها بزواجها تصبح في مسؤولية زوجهـــا من حيث إعالتها، وتشير الرسائل إلى ما أصاب المدنية من هبوط عندما منعت تعدد الزوجات بحكم أنها مخالفة للحكمة فاضطرت (المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش)[48]. وتمت الإشارة إلى الأهمية المعطاة للكيان الأسري.

ولمعالجة **آثار العولمة الثقافية** فقد أشارت الرسائل إلى ضرورة منع كل ما يجرح الفطرة ويثير الغريزة فلا بد من (منع صور النساء المتكشفات لأنه يهدم الأخلاق ويفسدها كلياً)[49] وهذا ما يتمثل فعله في القنوات الفضائية حالياً.

وتعرج الرسائل فيما بعد إلى فساد الأدب المسرحي والسينمائي والروائي ودوره في تدمير النفس البشرية في ظل المدنية الحاضرة، ويرشد بالمقابل إلى ضرورة اتباع الأدب القرآني ودوره في إعطاء الطمأنينة للنفس البشرية[50].

لقد أثرت الثقافة الغربية في الإنسان فصيرته (فرعوناً)، متمرداً، جباراً، غاية همه، بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية، أو تسكين حرصه وغروره ولا يحب إلاّ نفسه، ويفدي لها كل شيء)[51] ثم يدعو إلى ضرورة مفارقة هذا المنهج والعودة إلى منهج القرآن ذلك لأن (هذا الاتباع – أوروبا – استخفاف بالملية واستهزاء بالملة)[52]

تعالج رسائل النور **آثار العولمة السياسية** على مرحلتين، تتمثل المرحلة الأولى في ضرورة إجراء الحوار في ظل الحرية الفكرية، ذلك لأنها ترى أن (المستقبل الذي لا حكم فيه إلاّ للعقل والعلم سوف يسوده حكم القرآن الذي تستند أحكامه إلى العقل والمنطق والبرهان)[53] إلاّ أنه لا مجال لقبول المذلة في الدين والتهاون في أحكامه، وهذه هي المرحلة الثانية، إذ لا بد من إظهار العداوة والجهاد ضد العدو الخارجي، هذا المفهوم من خلال عبارة ذكرت بصدد الإنكليز (الاستعمار القديم) حيث يقول الأستاذ رحمه الله (إن محبة الإسلام توجب عدائكم وخصومتكم. إن أشد العقول بلاهة يرى إمكان التوفيق والتلاؤم بين أطماع الإنكليز ومنافعهم وبين عزة الإسلام ومصلحته)[54]

لقد نجحت رسائل النور في توقع النتائج التي ستتمخض عن اتباع الفلسفات المادية المبتعدة عن الدين وذلك من خلال التحليل العميق لواقع المدنية الغربية. هذه النتائج لا تكاد تفترق، بل تطابق أحياناً مع ما يراد تمريره على عالمنا المسلم من خلال العولمة. لم تكتف الرسائل بتشخيص النتائج وتركها، بل وضعت الحلول الناجعة لها مستمدة إياها من خلال كتاب الله وسنة نبيه.

ان التعرف على رسائل النور يظهر الفكر الثاقب والأسلوب الرائع للأستاذ سعيد النورسي في الوقوف في وجه الهجمة التي تعرض لها الإسلام من داخل وخارج تركيا في ذلك العهد. والتي يمكن أن تكون دليلا للباحثين لاستلهام سبل مواجهة العولمة في هذا العصر.

رحم الله الأستاذ النورسي وكل عامل وداع ومدافع عن الإسلام إلى يوم الدين.

هوامش البحث :

1. بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، الكلمات، (1) ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص474.
2. المثنوي العربي النوري، ص162.
3. الكلمات، ص487.

4. المصدر نفسه، ص542.
5. المصدر نفسه، ص20.
6. المصدر نفسه، ص82.
7. المثنوي العربي النورسي، مصدر سبق ذكره، ص343 – 344.
8. الكلمات، ص13.
9. المصدر نفسه، ص13.
10. المصدر نفسه، ص646.
11. المصدر نفسه، ص199.
12. المصدر نفسه، ص280–282.
13. صيقل الإسلام، الخطبة الشامية، ص514.
14. سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط5، 1958، ص48.
15. الكلمات، ص475.
16. سعيد النورسي، اللمعات، ص79.
17. إشارات الإعجاز، ص269.
18. محسن عبد الحميد، العدل الاجتماعي في الإسلام، بغداد، شركة الرشد للطباعة والنشر، 2000، ص10.
19. سعيد النورسي، إشارات الإعجاز، ص66.
20. المصدر نفسه، ص67.
21. المصدر نفسه، ص68.
22. المصدر نفسه.
23. المصدر نفسه، ص69.
24. محسن عبد الحميد، العولمة من منظور إسلامي، بغداد، ص7–9.
25. هانس بيتر مارتن، هارلود شومان، فخ العولمة، عالم المعرفة، ع238، 1998، ص55.
26. البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، ملخص تقرير التنمية البشرية لعام 1999.
27. ملخص تقرير التنمية البشرية لعام 2000.
28. ملخص تقرير التنمية البشرية لعام 1998.
29. المصدر نفسه.
30. حيدر إبراهيم، العولمة وجدل الهوية الثقافية، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد (28)، العدد (2)، أكتوبر–ديسمبر/1999، ص117–118.
31. أسامة عبد الحميد العاني، الآثار الاقتصادية والاجتماعية لبرامج الإصلاح والتكييف الهيكلي في أقطار عربية مختارة، مجلة دراسات اجتماعية، السنة (3)، العدد (10)، صيف/2001، ص63–84.
32. المثنوي العربي النوري، ص268.
33. المصدر نفسه، ص269.
34. المصدر نفسه، ص27.
35. الكلمات، ص472.
36. المصدر نفسه.
37. المثنوي العربي النوري، ص75.

38. السيرة الذاتية، ص72.
39. المصدر نفسه، ص73.
40. الكلمات، ص173.
41. المصدر نفسه، ص105.
42. الخطبة الشامية، ص514.
43. صيقل الإسلام، ص471.
44. المصدر نفسه، ص530.
45. الكلمات، ص474.
46. المصدر نفسه.
47. رسالة الاقتصاد.
48. الكلمات، ص475.
49. المصدر نفسه، ص476.
50. المصدر نفسه، ص477.
51. المثنوي العربي النوري، ص271.
52. المصدر نفسه، ص272.
53. الخطبة الشامية، ص495.
54. صيقل الإسلام، ص555.

* تناول هذه الأسس كل من الشهيد سيد قطب رحمه الله في (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، والأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد أطال الله عمره في (العدل الاجتماعي في الإسلام) تحت عنوان التحرر الوجداني.

الأخـلاق وركائزها
عند الشيخ بديع الزمان النورسي

د.الحسين أيت سعيد(*)

إن إيماننا العميق، وشعورنا الأعمق بقوة تأثير رسائل النور، لناشئ عن النظر الثاقب، والتأمل الدقيق، والغوص وراء معاني كل كلمة زبرتها يد الشيخ سعيد النورسي.

ويقينا منا بأن كتابات هذا المفكر العبقري، والشخصية الإسلامية الفذة، لجديرة بالقراءات لمعانيها، وتحليل تراكيبها، واستخلاص مضامينها، وتقريبها للقراء والناشئين، حتى يتذوقوا بحق حلاوة الكلمة الحقة ، ويشهدوا تأثيرها على أنفسهم ، ونجاعتها في قلوبهم، ويعلموا أن سحر البيان، أقوى تأثيرا من أي مؤثر آخر وممدوح شرعا ومطلوب عرفا، وخاصة إذا كان في خدمة الحق والحقيقة.

وسحر البيان، نعمة وهبة من الله ، يهبها من يشاء من عبادة، لقيم بها الحجة، وتستقيم بها المحجة ففي حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن من البيان لسحرا"[1].

وهل القرآن إلا بيان يأخذ بمجامع الألباب ، ويغلق مناقد الشك والارتياب ، ويجعل المرء ينقاد للصواب، ويسعى للسداد ، وإصابة طرائق الرشاد.

وكل من تشبع بالتأملات القرآنية ، وأسرارها الربانية، وجال في كنوزها الثمينة، وعكف على اقتنائها واصطيادها بأي ثمن ، فإنه تنعكس عليه أنواره ، وتشع عليه براهينه، ويتدفق قلبه بأسراره وحكمه، وتنساب معانيه على لسانه، كما ينساب الماء الرقراق على الرمال الصافية الفضية فيزيده بهاء ، وينعكس عليها حسنا وجمالا، وبهاء وكمالا، وريادة واقتدارا.

(*) أستاذ التعليم العالي، ورئيس شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

والشيخ سعيد النورسي ، من هذه الطينة التي عاشت بالقرآن وعاشت له ، ومن الأفذاذ الذين وهبوا حياتهم له ، وجعلوها وقفا عليه مركوزا، وظلا له وارفا فسيحا ممدودا، حتى اختلط ذلك بلحمه ودمه، فكان القرآن كلمته، وسواطعُ برهانه حجته، ودقائقُ معانيه لهجته ولغته التي أشرقت عليه شموسُها، وعدّاها إلى العالمين بثقافته الفذة.

وإذا كانت رسائل النور تعبر بجدارة عن هذا التلاحم بين القرآن وصاحبها ، فإن ما يلفت الأنظار فيها ، عمق الرؤية ، وصدق النية ، ومتانة الحجة، وإصابة الحقيقة ، حتى كانت بحق مدرسة تربوية فريدة في القرن العشرين. وهذا الجانب التربوي ، له خصائصه الخاصة، ومميزاته المتميزة عند الشيخ النورسي في رسائله ، حيث أصبح ظاهرة ملحوظة في كل ما كتب ، وكان شغله الشاغل ، في كل ما دون وألف ، لتجربته الطويلة في ميدان معالجة النفوس ، وتمرسه بأساليب التربية القديمة والحديثة ، وتشرُّبِه مناهجها، وترسمه معالمها، واهتدائه بمناراتها وصُواها.

وقد كانت التربية القرآنية النبوية قد ملأت عليه جميع أقطاره، واستأثرت باهتمامه، حتى كأنه عجن من طينتها، وصنع بقالبها، وأُشربها حبا وعملا وسلوكا، وعقيدة وإيمانا، فصنعت منه أعجوبة عصره ومجدد زمانه، ومنحته قوة الأفذاذ، ونفسية العظماء، التي استطاع بها أن يجابه ما جابه من محن السجن والطرد ، والإبعاد، والمحاكمات الغاشمة التي صاغها له الظالمون ، وحاكها له المعتدون.

هذا الجانب التربوي الهام ، هو الذي نسعى في هذا العرض الموجز لاستجلاء طرائقه، وملامح رؤيته له ، من خلال محاور ثلاثة ، نصوغها صياغة خاصة، تستند في الموضوع إلى نصوص من كلامه بإيجاز ، لا يخل بالمعنى ، ولا يفيض في التفاصيل.

المحورالأول : التربية على العقيدة ، وتركيز عظمة الله في النفوس

قد أخذت قضية تقرير عقيدة الإيمان بالله تعالى وبرسله، حيزا هائلا في رسائل النور ، وكان التركيز فيها على هذه القضية، قطب الرحى، وأهم المهمات.

وقد أدرك الشيخ النورسي ـــ رحمه الله ـــ بإيمانه العميق ، أن النفوس لا يعالج ما فيها من أدواء وأمراض إلا الإيمان بالله عز وجل، وأنه لا يزيح ما تراكم عليها من ظلمات جهل الجاهلية الغابرة والمعاصرة إلا تسليط أشعة التوحيد عليها ، لأن داعي الفطرة فيها على الإيمان ـــ رغم ما أصيب به من حواجز المعاصي والهوى ـــ يغلب ذلك

كله ، ويستجيب لنداء الحق ، حينما يطل عليه بأنواره المشعة ، المبددة للظلام ، انسجاما مع الآفاق والأكوان في هذا النمط الفطري.

والمرء حينما يكون سادرا في جهالته، منهمكا في آثامه ، مقيما على فساده وإفساده، ممعنا في نـــزواته، معرضا عن خالقه، فإنما هو شاذ في الكون ، ليس معه في انحرافه وظلمه أحد ممن هو أكبر وأقوى منه ، فالسموات والأرضون، والأشجار والأحجار، وعامة الخلق من العقلاء ،خاضعون لله عز وجل ، معترفون بربوبيته ، متألهون بألوهيته، قال تعالى :" ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم ، والجبال والشجر ، والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب، ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء " [2]

فالعاصي في الكون ، كالسائر في الاتجاه المعاكس للمارة، في طريق ليس له إلا وجهة واحدة ، وماذا عساه يجني ، وهو يواجه سيلا متدفقا وعارما من الناس، يسيرون ذات اليمين ، وهو يسير ذات الشمال، لن يجني إلا ظهرا مهيضا، وفؤادا عليلا، ولهثا متواصلا، وسقوطا على حافة الطريق آخر المطاف ، كما قال تعالى :" ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق " [3]

هذا الأساس العقدي الذي ينجي من هذه المنـــزلقات الخطيرة ، قد قرره الشيخ النورسي بأدلة دامغة ، ودخل له من أوسع أبوابه ، وأعطاه من نفسه ووقته، وإيضاحه ما يستحق .

وقد كانت رسائل النور، سيالة بتقرير دلائل التوحيد، وتربية النفوس عليها ، وملء مكامن النفوس بمحبة هذا التوحيد ، وتمثله ، والقيام بمقتضياته، حتى إنك إذا قلت: رسائل النور رسائل توحيد ، لم تعد الحقيقة ، ولم تتجاوز الوصف .

وبفضل الثقافة الواسعة، والعقل الفحاص المتأمل، والهمة الجوالة في عالم الآفاق والأنفس عند الشيخ النورسي، فقد استطاع بذلك أن يسلك مسالك عديدة لإثبات هذه الحقائق، وإبرازها مشخصات، مشفوعات بدلائل ناصعة، وبأسلوب راق في فصاحته وبلاغته، يؤهله أن يعد من مصاف البلغاء الكبار، من أمثال الجرجاني، وابن الأثير وأضرابهما.

ولم يأل جهدا في تنويع العبارة ، واستعمال الإشارة ، وتدليل الصعاب فيما أراد أن يقرره، حتى أصبحت النفوس تقبله تلقائيا، وتستسيغه اشتياقا وتتبعا، وكان التقسيم

الرصين والتبويب المتين، كافلا بإشعار القارئ أنه ينتقل بين حدائق ذات بهجة، لا يشعر بالسآمة، بل يطالب بالمزيد.

وقد كان لهذا العمل ربانيته، وألطافه التي يشعر بها المؤلف دوما ، وهو يقرر ما يعجز عنه غيره من مدارك ألوهيته تعالى وربوبيته، من خلال آيه المقروءة والمنظورة .

ولذلك زكت نفوس وطهرت من رجس الجاهلية الأولى والمعاصرة بهذه الرسائل، وربي عليها جيل، لا يزال يقدم التضحيات في سبيل مبادئه الخالدة. ولتأكيد ما قلناه بحججه الناصعة ، نسوق ما يشفع لذلك من كلام صاحب رسائل النور ، لنقرن الادعاء بحجته، والقضية ببرهانها،مقتصرين على ثلاث نصوص من كلامه :

النص الأول يقول فيه : " إن الله سبحانه وتعالى بألوهيته الجليلة ، ورحمته الجميلة ، وربوبيته الكبيرة،ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة ،وحكمته اللطيفة، قد زين هذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جدا، وجمله بجوارح وأجهزة، وأعضاء مختلفة عديدة، ليشعر طبقات رحمته الواسعة ، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد ، ويعرفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها"[4].

تأمل كيف استعمل المؤلف ألفاظا تُحدث في القلوب هيبة المشهد، وجسامة القضية التي يقررها، وكيف قرن كل اسم بنظيره، مما أحدث لها جرساخاصا، ورنينا مفعما بالأشواق، يُدخل الكلمات إلى القلوب، ويغرسها فيه بدون استئذان ، فما أروع لفظ الجليل إذا وضع بإزاء الجميل، فالأول يؤذن بالعظمة والاستعلاء ، والثاني ينبئ بالعطاء والإغداق .

والكبرياءُ المشفوعة بالشفقة والرحمة ، هي من أرقى شاهد الربوبية.

وتأمل اقتران القدرة بالحكمة ، لينتابك شعور الغبطة والرضا بالله تعالى ربا وإلها، لأن قدرته تنجيك في الشدائد، وحكمته تمنعك من الظلم والاعتداء.

النص الثاني يقول فيه : " الحياة هي نتيجة الكائنات، مثلما أن نتيجة الحياة هي الشكر والعبادة، فهما سبب خلق الكائنات، وعلة غايتها ، ونتيجتها المقصودة ، نعم إن خالق الكون سبحانه " الحي القيوم " إذ يعرف نفسه لذوي الحياة، ويحببها إليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى ، يطلب منهم شكرهم تجاه تلك النعم ، ومحبتهم إزاء تلك المحبة، وثناءهم واستحسانهم مقابل بدائع صنعه، وطاعتهم وعبوديتهم تجاه أوامره الربانية، فيكون الشكر والعبادة – حسب سر الربوبية هذا – أعظم غاية لجمع أنواع الحياة،

وبدورها يكون غاية الكون بأسره ، ومن هنا نرى أن القرآن الكريم يحث بحرارة، ويسوق برفق وعذوبة إلى الشكر والعبادة ، فيكرر كثيرا ويوضح أن العبادة خاصة لله وحده ، وأن الشكر والحمد لا يليقان حقا إلا به سبحانه " [5].

فها هو الشيخ النورسي ، قد وضع يده على حقيقة خلق الموجِدات ، وبين أنها وجدت للشكر والعبادة ، كما قال تعالى :" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون [6] ولذلك يقومون بوظيفة العمل تجاه النعم التي منحها الباري ، وهي سبب محبتهم له، وقربهم منه، وإخلاصهم الود والعمل له.

ومن مشاكل التربية قديما وحديثا، التنظير دون التنجير، والانشغال بالقوة العلمية عن القوة العملية ، فكانت طريقة الأنبياء وحدها ، هي المحققة للغاية المقصودة من خلق العباد ، حينما جمعوا بين العلم والعمل، وبين النظرية وتطبيقاتها.

وهذا المنهج نفسه ، هو الذي قرره النورسي ـــ رحمه الله ـــ ودعا إليه ونشّأ عليه طلابه ، فكانت به التربية مجدية، والمعارف مؤثرة، والشخصيات متزنة وعادلة.

النص الثالث يقول فيه : " فكمال انتظام الشريعة الغراء، وجمال توازنها الدقيق، وحسن تناسب أحكامها ورصانتها، كل منها شاهد عدل لا يجرح ، وبرهان قاطع باهر، لا يدنو منه الريب أبدا على أحقية القرآن الكريم .

بمعنى أن البيانات القرآنية ، لا يمكن أن تستند إلى علم جزئي لبشر ، ولا سيما إنسان أمي، بل لا بد أن تستند إلى علم واسع محيط بكل شيء، والبصير بجميع الأشياء معا"[7]

محور التربية بتركيز محبة النبي صلى الله عليه وسلم في النفوس، وتجسيدها بالعمل النافع والاتباع الحق .

إن الطامعين في تزكية نفوسهم على غير مهيع محمد صلى الله عليه وسلم، لهم في تيه من الظلماء يضربون ، وفي أودية من الهلاك يتخبطون، وفي عمَهٍ من سفسطة القول يترددون.

وقد أبى الله أن يقبل أحدا أتاه من غير نهج محمد عليه السلام ، وأوصد الأبواب على كل تربية وتزكية لم تخضع لأحواله، ولا سارت على مقاله وفعاله ، ذلك أن الله تعالى جمع فيه وفي شرعته الكمالات الحسية والمعنوية التي لم تجتمع لنبي قبله بلهَ غيره .

وعن الكامل تصدر الكمالات، ومن الجميل يستعار الجمال ، وعن النوراني تصدر الأنوار وتقتبس ، فكمالُ الذات ، يستلزم كمال الفعال ، وجمالُ الذات، يستلزم جميل

الأفعال، وكمالُ العلم ، يقتضي كمال المعارف والعلوم والنظم والمناهج، المأخوذة عن كامل العلم .

وهذا الكمال بشموليته، لم يجتمع إلا لنبي الله صلى الله عليه وسلم ، فمن سعى لإكمال نفسه وتزكيتها أحق التزكية ، وراح لتصحيح معارفه عن الله والوجود والكون والأحياء، فليقتبس ذلك كلَّه من مشكاة النبوة ، وإلا كانت أفعاله ضربةَ لازب ، لا تنجيه ولا تُدينه، ولا تسرُّه،ولا تُعتقه من أسر عدوه العنود، وألد خصمائه في الوجود، ومن هنا ، فالنبوة ليس ضرورة ظرفية، وحاجة ملحة فقط، وإنما هي فوق الضرورة بمراحل، وبها يتحقق الوجود للموجودات، وتَعرف ذواتها بمالها وعليها ، ومصائرَها كيف تكون وكيف تصير.

هذه النبوة ودورها التربوي ـــ بهذا الثقل وهذه المركزية ـــ لم يأل الشيخ سعيد النورسي جهدا في إعطائها ما تستحق من البيان، والتركيز والإمعان، والتبجيل والإجلال، والتمجيد والإعلان .

وها نحن نقطف من رياض أنوار كلماته ، ودرر لجيه، ما ينير هذه الحقيقة ويجليها، ويجعلها في متناول العطاش لمكارم النبوة الخاتمة.

وسنورد كلامه العذب السلسبيل في إشراقات ، لأنه حقا إشراقات.

الإشراقة الأولى : يقول فيها :" ما دام ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ متصفا بأسمى مراتب محاسن الأخلاق باتفاق الأولياء والأعداء، وأنه صلى الله عليه وسلم هو المصطفى المختار من بين بني البشر ، وهو أشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع ، وما دام هو أكملَ إنسان، بل أكمل قدوة ومرشد بدلالة آلاف المعجزات، وشهادة العالم الإسلامي الذي كونه، وبكمالاته الشخصية، بتصديق حقائق ما بلغه من القرآن الحكيم، وما دام ملايينُ من أهل الكمال قد سموا في مراتب الكمالات ، وترقوا فيها بثمرات اتباعه، فوصلوا إلى سعادة الدارين، فلا بد أن سنة هذا النبي الكريم وحركاته، هي أفضل نموذج للاقتداء، وأكملُ مرشد للاتباع والسلوك، وأحكم دستور، وأعظم قانون يتخذه المسلم أساسا في تنظيم حياته.

فالسعيدُ المحظوظ ، هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة، ومن لم يتبع السنة فهو في خسران مبين، إن كان متكاسلا عنها، وفي جناية كبرى، إن كان غير مكترث بها، وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقدا لها بما يومئ للتكذيب بها" [8]

تدبر هذا النص الذي يفيض إيمانا بالسنة، وتحمسا لها، وغيرة عليها، والرفعَ من قيمتها والتذكيرَ بأهميتها، وتنـــزيلها أعلى منازل الاعتبار والادكار، وجعلها الدستور الخالد، وآيات الهداية التي لا يُعرض عنها إلا شقي، ولا يهتدي للعمل بها إلا محبوب لله، ذو مكانة عنده.

وإن تعجب ،فاعجب لرصافة جمُل هذا النص كيف اصطفت في اتساق ونظام عجيب يأخذ بالألباب، ويزيح الشك عن ذوي الارتياب، فهو ـــ والله إشادة بالسنة، ودعوة إليها ، والتحلي بأخلاقها، والفوز بمكارمها ومباهجها .

الإشراقة الثانية : يقول فيها :" لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خلق في أفضل وضع وأعدله، وفي أكمل صورة وأتمها، فحركاتُه وسكناته، قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة ، وسيرتُه الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا، وبوضوح تام بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته، متجنبا الإفراط والتفريط " (9)

اكتشف بثاقب نظرك واقعيةَ هذا الكلام، وأحقيته بالإجلال والإكبار ، لأنه تعبير رائع عن كمال الذات المحمدية التي تصدر عنها الكمالات ، وتستضاء بنورها الكائنات.

والشيخ النورسي إذ يقرر هذه الحقيقة، لم يشذ عن موكب ملايين العلماء والعقلاء الذين أقروا بذلك وقرروه ، وأذاعوه بين الأنام ونشروه ، حتى صار سيرة تتلى ، ومحجة تقتفى.

وما أروع أن تكون قافلة الإنسان في موكب له امتداد تاريخي ، وجغرافي، ونفسي وآفاقي ، لا يشعر فيه بالغربة أبدا ، ولا بهواجس الانفراد مطلقا.

الإشراقة الثالثة : يقول فيها :" إن محبة الله تستلزم اتباع السنة المطهرة وتنتجه، فطوبى لمن كان حظه وافرا من ذلك الاتباع، وويل لمن لا يقدر السنة الشريفة حق قدرها، فيخوض في البدع.....

إن السنة النبوية المطهرة في حقيقة أمرها، لهي أدب عظيم، فليس فيها مسألة إلا وتنطوي على أدب ونور عظيم ...

نعم ، فمن يمعن النظر في السيرة النبوية ، ويحيط علما بالسنة المطهرة ، يدرك يقينا أن الله سبحانة وتعالى ، قد جمع أصول الآداب وقواعدها في حبيبه صلى الله عليه وسلم، فالذي يهجر سننه المطهرة ويجافيها ، فقد هجر منابع الآداب وأصوله ، فيحرم نفسه من خير عظيم ، ويظل محروما من لطف الرب الكريم ، ويقع في سوء أدب وبيل " (10)

هذه الإشادة بالسنة النبوية، وربطُ صوابية العمل به،والحث على التحلي بها، والتخلي عما سواها مما ابتدع وانتحل، ونسب للدين زيفا وجهلا ، ما هو إلا بيان جلي وتفسير حفي من المؤلف لقوله تعالى :" **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" (11).

والسعادة الأبدية مربوطة بهذا الاتباع، ومشدودة إليه، وموصولة الحبل به، فيا ثُبور من سعى في قطع الحبال الموصولة، أو بتر الوشائج المربوطة، أو فك العلائق المشدودة، ولكَم يكون تعسا من أعرض عن الحكَم المحمدية، وجوامع كلمه التي تحويها سننه، ويبحث عنها في كلام من لا يقاس به ولا يدانيه من البشر ، إنه الغبن والخسارة بكل ضروبه وصنوفه.

الإشراقة الرابعة : يقول فيها :" أيها الناس ، أيها المسلمون، اعلموا كم هو انعدام للوجدان، وفقدان للعقل، إعراضُكم عن سنن هذا النبي الرؤوف الرحيم ، وعما بلّغ من أحكام، لحد إنكاركم شفقته البديهية، واتهام رأفته المشاهدة، وهو الذي أرشدكم برأفته الواسعة، وبذل كل ما أوتي بها ....

إن دساتير المسائل الشرعية والسنة النبوية، أفضل دواء وأنفعه للأمراض الروحية، والعقلية، والقلبية، ولا سيما الاجتماعية منها، فأنا أعلن بمشاهدتي وإحساسي هذا، وقد أشعرت الآخرين بشيء منها في الرسائل بأنه لا يمكن أن تسد مسد تلك المسائل أية حلول فلسفية، ولا أية مسألة حكيمة، فالذين يرتابون من ادعائي هذا، عليهم مراجعة أجزاء رسائل النور، فليقدر إذن مدى الربح العظيم، في السعي لا تباع سنة هذه الذات المباركة، والجد في طلبها على قدر الاستطاعة، ومدى السعادة للحياة الأبدية، ومدى النفع في الحياة الدنيا " (12)

خذ أيها الباحث عن الحقيقة من تجربة من جرب الدواء النافع ، والإكسير الناجع في شفاء القلوب والأبدان ، وإزاحة ما ران على الأفئدة من الأوزار والآثام والأدران.

عليك أن نسبح في نهر السنة النبوية لتطهر مما علق بك، وأثقل أردانك، وحال بينك وبين الوصول إلى رب العالمين ، وحجَرك عن الظفر بنعيم الجنان ، وكرام الخلان.

محور التربية بالتذكير بإنعام الله وإفضاله.

هذا المنحى من التربية ، كان جلي القسمات، واضح الدلالات في القرآن كله، وهو أوسع أبواب يدخل منه الداخل إلى معرفة تفرد الله بربوبيته وألوهيته.

والقرآن الكريم حينما يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى وشكره، فإنه يقدم لهم النعم الظاهرة والباطنة، دليلا على استحقاقه للعبادة ، وتفرده بالإعطاء والمنح.

ولا شك أن الإنسان مجبول على الاعتراف بالنعمة، والاقتراب من مُسديها ، ومحبته والشوقِ إليه، فإذا ذكر بالنعمة في غمرة نسيانه أو ذهوله، كان ذلك أدعى لقبول ما دعي له، وأسرع إثارة واستجابة لما ألقي إليه ، بطواعية ورغبة.

هذا المنهج الموجز الفعال، لم يأل الشيخ النورسي جهدا في صرف الأنظار إليه، ودعوة الناس إلى الإيمان من بابه، وإشعارِ المربين بقيمته وأهميته، ونتائجه الملموسة في نفوس المستجيبين له من طلبته ومحبيه .

إن أسعد لحظات الإنسان، أن يدعى لمقابلة جميل بجميل، وأن يحسن لمن أحسن إليه، وأن يخدم من أسدى إليه معروفا، حتى ولو كان بالكلمة الطيبة، والشعورِ الصادق، والفؤادِ المفعوم بالمحبة للمحسن، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عمر: "من أسدى إليكم معروفا فكافؤوه، فإن لم تستطيعوا أن تكافؤوه ، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه".[13]

وقال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد القلوب إحسان

وقال آخر :

و لم أر كالمعروف أما مذاقـــــه فحلو وأما وجهه فـــــجميل

وقال ابن عباس :" ما رأيت رجلا أوليتُه معروفا إلا أضاء ما بيني وبينه "

وقال :" المعروف أيمن زرع ، وأفضل كنـــز، ولا يتم إلا بثلاث خصال: بتعجيله، وتصغيره، وستره ، فإذا عجل فقد هَنى، وإذا صغر فقد عظم، وإذا سُتر فقد تمم"[14]

فإذا كان صنع الجميل بهذه المثابة عند الناس، ولا يضيع من بعضهم لبعض، فجميلُ الله وإحسانه إليهم ، أولى أن لا ينسى وأن لا يجفى .

هذا النهج الموجز الفعال، لم يأل الشيخ النورسي جهدا في صرف الأنظار إليه ودعوة الخليقة إلى الإيمان به، وإشعارِ المربين بقيمته وأهميته ونتائجه الملموسة، في نفوس المستجيبين له والراغبين فيه.

وسنقطف من رحيق كلامه ، ما يؤيد هذا المحور ، وينير دروبه ، ويجلي محياه ويصفع الباطل صفعة لا يبدئ معها ولا يعيد، وسنجعل ذلك في إلهامين :

الإلهام الأول، يقول فيه : " إن الله سبحانه وتعالى بألوهيته الجليلة ، ورحمته الجميلة، وربوبيته الكبيرة، ورأفته الكريمة، وقدرته العظيمة، وحكمته اللطيفة، قد زين هذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جدا، وجمله بجوارح وأجهزة وأعطاء مختلفة عديدة، ليشعر بطبقات رحمته الواسعة ، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تعد ، ويعرفه أقسام إحساناته التي لا تحصى، ويطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة ، على أنواع تجلياته التي لا تحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها "[15]

فانظر كيف يذكر الإنسان بنعم الله عليه في جسمه، ويدعوه للتأمل فيما فيه من عجائب الخلق التي تدعو إلى الاعتراف للمحسن بإنعامه، ومحبته والتزلف إليه، والإحسانُ يملك الإنسان ، والإنسانُ أسير النعمة ، وعبد من أسداها له، وأكرمه بها.

وإحسانُ الله تعالى لخلقه، وإنعامه عليهم ، ليس لغرض يعود إليه ، وإنما هو مصلحة محضة للعبد ، يجني ثمار إحسانه له ، بداية ونهاية .

وهذا وحده يستدعي من العبد أن يحب الله بكل جوارحه، وأن يخلص في تلك المحبة، إذا أراد أن يدخل في عداد المحسنين .

فالتربية بالنعم وبالتذكير بها ، من أسهل الطرق للوصول للقلوب ، واستمالتها إلى المحبوب المطلوب ، الذي يحتاج إليه في كل لحظة .

الإلهام الثاني ، يقول فيه: " تصور وأنت تستشعر عجزك وحاجتك الشديدة إلى من يساعدك ويعينك ، لإنقاذ من تحن عليهم، وتشفق على أوضاعهم : من الأقارب والفقراء وحتى المخلوقات الضعيفة المحتاجة، إذا بأحدهم يبرز في الميدان، ويحسن لأولئك، ويتفضل عليهم ، ويسبغ عليهم نعمه بما تريده وترغبه، فكم تطيب نفسك، وكم ترتاح إلى اسمه " المنعم " و" الكريم " ؟

وكم تنبسط أساريرك، وتنشرح من هذين الاسمين ، بل كم يأخذ ذلك الشخص من إعجابك وتقديرك ، وكم نتتوجه إليه بالحب بذينك الاسمين والعنوانين "[16]

تمعن في هذا المثل المضروب، الذي يقرب صورة الإحسان والمحسن إلى النفوس ، في صورة محسوسة ، يرى الإنسان مآت منها تقع أمام بصره ، ويشعر بوقعها من النفوس وموقعها من الوجود ، ويشاهد آثارها المنعكس على الذات الإنسانية في شكل الاعتراف اللساني، والخضوع الأعضائي ، والشوق القلبي، والسعي الدؤوب في إرضاء المحسن بشتى الصور والألوان من الإرضاء.

وختاما ، فإن أسلوب الشيخ سعيد النورسي في معالجة القضايا التربوية، أسلوب راق جدا، وطريقة جدية مستقيمة، مستقاة من استقامة القرآن وجدته، ومن عايش رسائل النور فسيدرك لا محالة، أنه في روضة يانعة الأزهار، دانية القطوف والثمار، متنوعة الرياحين والأشجار ، عذبة السلسبيل، شهية المورد، متفتحة الأقحوان، مفعمة بعطاء غير مكدر ، ونظرة غير مشوبة بالقصور، تغدق على الجوال بين ربوعها آيات الحكمة، وعظات اليقظة، وترياق الغفلة، فهي سر مكنون، وكنـــز مأمون، وتجارة لن تبور، رحم الله مؤلفها، وناشريها، ونفع بها طلابها، وجعلهم هداة مهتدين، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

1) أخرجه البخاري ــ الفتح ــ في النكاح /109/9/ وفي الطب ــ 10/ 247 من حديث ابن عمر، ومسلم في الجمعة ــ 594/2/ من حديث عمار بن ياسر
2) سورة الحج ــ 18
2) السورة نفسها ــ 31
3) الكلمات ــ 774/1
4) الاسم الأعظم ــ 84
5) الذاريات ــ 56
6) الكلمات ــ 1/ 114
7) الاسم الأعظم ــ 31
8) السنة ــ 33
9) المصدر نفسه ــ 15/ 18
10) آل عمران ــ 31
11) السنة ــ 20ــ 21 ــ22
12) أخرجه أبو داود في الزكاة ــ 128/2
13) بهجة المجالس لابن عبد البر ــ 303/302/1
15) الكلمات ــ 774/1

مركزية الأخلاق
في منهج الإصلاح عند النورسي

د. المصطفى تاج الدين(*)

مقدمة:

من أزمات الوعي العربي أن تنشد الأفكار إلى الواقع، وتخلد إلى الأرض بطريقة لو أدركها كارل ماركس نفسه لتنبأ بنجاح الفكرة الماركسية في الدول العربية والإسلامية بدلا من التنبؤ بذلك في برمنغهام. ويحاول كثير من المثقفين العضويين (أي المنتمين إلى اتجاه معين) داخل التيار الإسلامي ان يقنعوا الناس بأن الفكر سابق على الواقع وأن الإنسان هو صانع تاريخه وليس العكس، ومع ذلك تبقى أفكارهم رهينة اليومي، وضحية الاهتمام بالجزئيات المتناسلة، في غياب وعي الاستشراف، والنظر المستقبلي المتحلل من أوزار الواقع والمتنبئ بالمآل، ولقد رجعت لنفسي بعد تجربة دامت أكثر من عقد من الزمن في إطار العمل الإسلامي أفكر في مآلات الحركة الإسلامية، وأهدافها البعيدة وحاولت قدر المستطاع أن أتجرد من النسق الكلي للأفكار التي تبنيناها لمدة غير يسيرة من الزمن. إذ أصبحت مقتنعا بأن التفكير من داخل النسق لا ينتج فكرا مستقبليا لأنه فكر محكوم بالهموم اليومية وردود الأفعال، وتأكدت من خطورة انتماء العلماء إلى الأحزاب والحركات وهي بدعة جديدة جنت على الاجتهاد وجعلته مرهونا لدى المؤسسة أو التنظيم أو الجمهور ولا يغرنك اهتمام أبناء الحركات الإسلامية للعلماء بخدمتهم للسلطة، فقد أحيانا الله لنرى أنصاف العلماء ترهنهم جماهيرهم، وتوظفهم تنظيماتهم، ولا فرق عندي بين خدمة الفكر للسلطة وخدمته للجمهور أو الحزب ما دامت النتيجة واحدة: قتل حرية الفكر ووأد الإبداع. لقد نادت الحركة الإسلامية منذ

(*) قسم الدراسات العامة، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا

نشأتها بضرورة التجديد، ونجحت نجاحا كبيرا في إعادة الاهتمام بالتأصيل الديني للأفكار والنماذج المعرفية المتبعة، غير أنها لم تنتبه إلى أن المتغير الزمني داخل معادلة الإصلاح ليس متحيزا، بل هو محايد تماما وجريان أحكامه على الآخر لا يعني أن في الحركة الإسلامية مناعة خاصة تجعلها بمعزل عن تأثيره، وتفصيل هذه الفكرة ان الحركة الإسلامية اعتبرت نفسها أداة التغيير ووسيلة الإصلاح واعتبرت ما حولها من مجتمع وسلطة وأفراد موضوع التغيير وميدانه، ونسي منظروها تحت وطأة التفكير من داخل النسق أن الحركة نفسها قد تتحول إلى موضوع للتغيير، وان التجديد الذي تنادي به ينبغي أن تنـــزل مقتضياته على أفكارها ومناهجها ووسائلها. ذلك أن متغير الزمن فاعل في تغيير فعالية الأفكار، والتقليل من قدر التزام الناس بها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه السنة الكونية في قوله عن أول بشر خلقه: « **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**» (طه: 115)، وفي قوله عن أهل الكتاب: « **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**» (الحديد:16) وما زال كثير من أبناء الحركة الإسلامية بفعل الضعف الأخلاقي الإيماني لا يتصورون حدوث تغيير اجتماعي مصلح خارج تصوراتهم ومخاييلهم التي تداعبها الرومانسية المهدوية، وسمفونية الطائفة المنصورة، ولهذا السبب تجد أن عملية إنتاج الأفكار داخل الحركات الإسلامية عملية بطيئة، والأفكار التي يسمح لها بأن ترى النور محكومة بدكتاتورية النسق، بحيث يصعب أن تجد مجالا للأفكار الناقدة، والتي من شأنها أن تضخ دما جديدا في الدم الآسن ليؤدي عمله في دورة الإصلاح وإعادة النظر في المسيرة. والعجيب أن تتحول كل إحباطات العمل الإسلامي إلى نصر في أذهان الإسلاميين بضرب سمج من التأويل وهو أن المحنة دليل على صحة الطريق، والابتلاء دليل على سلامة المنهج، وهذا صحيح لو أعقب المحنة فكر جديد، وأطل علينا بعد الابتلاء نسق مختلف، أما وأن حليمة بعد كل نكسة تعود إلى العادة القديمة فإن المحنة حينها تكون عقابا، والابتلاء جزاء سنيا ينال كل من لم تسعفه حكمة، و لم يحضره عقل لتجنب العاصفة والتجانف عن المحذور. وبفعل التأويل السمج تتحول أمراض الجسد الحركي إلى مشاكل عادية، وتعفنات المؤسسة التنظيمية إلى دليل على ثراء الاختلاف:وصدق المتنبي حين قال:

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وإذا كان المثقف بفعل قدرته على التحليل، وأهليته للاستشراف، هو من يستطيع ان يسمي الأشياء بأسمائها داخل التنظيم، فإن هيمنة السياسي، والحركي على المثقف في توجيه مسيرة المؤسسات تفقد الجمهور القدرة على الاقتناع بما يقول المثقف وتسلم قيادها لقليلي البصر والبصيرة ليوردوها تهلكة لا تكون الحركة وحدها ضحيتها، بل الإسلام نفسه بأزمات الحركات قد يوضع ـــ لا قدر الله ـــ موضع التساؤل من جديد.

والحقيقة أن هذا الوعي النقدي الذي التزمنا به بعد تجربة متواضعة في ميدان العمل الحركي قد ترسخ لدينا بعد أن اطلعنا على بعض من تصورات علم من أعلام العمل الإسلامي وهو بديع الزمان النورسي.

1- العمل الإسلامي وأزمة المعيار

لعل من المعروف أن رحلة النورسي الإصلاحية تنقسم إلى قسمين :

مرحلة النورسي القديم

ومرحلة النورسي الجديد

ولقد طبعت شخصية النورسي في مرحلتها الأولى بطابع ثوري واضح، وانخراط مباشر في العمل السياسي. كان هذا التوجه منسجما مع المزاج الحاد الذي عرف به رحمه الله، فقد كان شديد الغضب[1]، ذا شمم واضح يورده موارد التحدي كلما استشعر ذلا أو أحس بغمز في الكرامة.

والحقيقة أن منهج الإصلاح عند النورسي قد تأثر تأثرا واضحا بالمرحلتين، حيث بدأ مؤمنا بالعمل السياسي وسيلة لإنقاذ الخلافة ومواجهة الاستعمار بكل أشكاله، وانتهى مقتنعا بعدم جدوائية العمل السياسي[2] إذا قورن بالعمل الإصلاحي العام والذي يبدأ من الإيمان بالفكرة في اتجاه إحداث تحول شامل في نمط التفكير عملا بمضمون قوله تعالى : **"إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"**

و لم يكن النورسي بعيدا عن التأثير والتأثر بمناهج إصلاحية كتب لها الرواج في العالم العربي والإسلامي، ولعل من السهل جدا العثور على مثل هذا التأثر ليس في كتاباته فحسب بل في منهجه الحركي والإصلاحي بصفة عامة[3]. غير أننا نود أن نستدرك بعضا مما فات الأستاذ الدغامين في مقارنته الناجحة بين النورسي ومحمد عبده. ويرتبط تصورنا هذا بمنطلق نقدي جديد للعمل الإسلامي يدور حول صلة الحركة الإسلامية في بعدها

السياسي بجهود الإصلاح التي قام بها زعماء دينيون أمثال النورسي والأفغاني ومحمد عبده، وجعفر الكتاني وابن باديس وغيرهم.

فمن المعلوم أن مناهج الإصلاح عند هؤلاء، على اختلاف ظروفها وفعاليتها، انتظمها نسق موحد في النظر إلى أسباب تخلف الأمة وسبل النهوض بها، ويمكن تلخيص هذا النسق في شكل ضروريات خمس كما يلي:

ضرورة التجديد ونبذ التقليد

ضرورة الحوار الداخلي بين المسلمين على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم

ضرورة الحوار الخارجي مع "الآخر" دون تحرج من الاستفادة منه

ضرورة إعمال العقل من جديد ونبذ الحرفية النقلية

ضرورة المعرفة في العمل الإصلاحي

غير أننا لاحظنا أن العمل الإسلامي المنظم في ثوبه الذي أعقب جهود الإصلاح تلك، قطع عموما مع هذا الإرث الإصلاحي الثر، وقلب مركب الإصلاح نحو وجهة جديدة يمكن تلخيص نسقها في ضرورات خمس مقابلة للضرورات السابقة وهي :

ضرورة اتباع السلف وهو ما يفيد خلاف ظاهره، إذ يعني ضرورة التقليد والتمسك بالقديم

ضرورة التميز والمفاصلة بدل الحوار

ضرورة التمسك بالنص (السنة خصوصا) بدل التمسك بالكليات العقلية المنصوص عليها أي مقاصد الشريعة

ضرورة التسيس بدل المعرفة

ضرورة إقامة الدولة بدلا من ضرورة الإصلاح

لقد مثلت الصحوة الدينية المعاصرة – مع استثناءات معتبرة – تراجعا واضحا عن مكتسبات الخطاب الإصلاحي النهضوي، حيث شجعت التقليد، وأوغلت في العمل السياسي اليومي، فأضحت موئلا لاستقطابات حركية لا تنتهي إلا بتفتت يقود إلى آخر، وجماعة تنسل من أخرى. وكانت النتيجة أن ضعف الرصيد الأخلاقي الذي يمثل الرأسمال الرمزي للجماعات الإسلامية حتى أضحت في عمومها لا تختلف عن الأحزاب القائمة بل إنها هي نفسها تحولت إما إلى أحزاب سياسية، أو دعمت أحزابا قائمة من أجل تيسير عملها داخل مؤسسات الدولة.

غير أن ما يميز المنهج الإصلاحي النوري هو توسطه المثمر بين منهج الإصلاح في ثوبه القديم، ومنهج التغيير في ثوبه الحركي. فلئن كانت حركة الإصلاح الديني والاجتماعي لم تؤت ثمارها بسبب غياب البعد التنظيمي، فإن الحركات الإسلامية منذ حسن البنا رحمه الله قد ضخمت من التنظيم حتى أصبح عائقا أمام الامتداد الأفقي في المجتمع، وكان سببا في ظهور المركبات غير الأخلاقية في الوسط الإسلامي من تعصب، وتنافر وتنابز بالألقاب. أما المشروع النوري فقد تجاوز سلبيات التصورين على المستوى النظري – على الأقل– في محاولة منه الإبقاء على الجاذبية الأخلاقية للمشروع الإصلاحي، وفي الوقت ذاته تأسيس حركة منظمة لا تذوب في المجتمع وإن كانت جزأ منه حتى يتسنى للعمل الإصلاحي الانفتاح على المجتمع دون حساسية تنظيمية طائفية من جهة، ومن جهة أخري حتى يتمكن هذا العمل من الاستمرار عن طريق الحفاظ على رصيده التنظيمي الداخلي.

لقد كان من الواضح أن عملية التغيير والإصلاح الاجتماعي التي قادها دعاة كثيرون منذ عصر النهضة الإسلامية الحديثة ممثلة في جهود الأفغاني وعبده، إلى ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة، كانت تعيش ولازالت أزمة في معايير العمل الحركي، ونقصد بالمعيار القياس الذي تقاس به الإحباطات والإنجازات الدعوية. وعند الفحص في هذا الموضوع يبدو لنا وبشيء من التلبس أن ثمة معيارين قد تم تطويرهما واعتمادهما من لدن أولئك المنهمكين في العمل الإسلامي وهما :

المعيار المبدئي أو الإيماني

المعيار الكمي أو السببي

ولأن لي غرضا خاصا في بسط الحديث عن المعيار الثاني فسأبدأ في تناوله شرحا وتفسيرا إلى أن يتضح بالخلف المعيار الأول والذي سنشبعه تفصيلا في المحاور القادمة.

إن الحديث حول إشكال الفعل الإنساني وصلته بالأسباب المادية حديث قديم قدم المعرفة الإنسانية، وهو في مجال التداول الإسلامي قديم قدم السؤال المعرفي والسياسي في مسألة القضاء والقدر ومشكل الجزاء الإلهي ومدى تعلقه بالإرادة الإنسانية. فلا جديد في هذا الموضوع ندعيه سوى محاولتنا هذه في تنـــزيل التصورات الفكرية على القضايا العملية وخصوصا في مجال حيوي هو العمل الإسلامي والتغيير الاجتماعي.

ويأتي إطلاقنا لصفة الكمي على المعيار السببي ليعيد الحوار حول مشكل السببية جذعا بين المفكرين المسلمين إذ عليها مدار الأمر في العمل للإسلام ما دامت الأسباب

مؤثرة في البواعث الإرادية للعمل، وفي النتائج المترتبة عليه. ذلك أننا نعتقد أن البحث في مشكل السببية كان مرتبطا بنشأة البحث الفلسفي والكلامي حول الحدود المعرفية للعقل[4]، وإذ لم تكن قضية العقلانية في مجال التداول الإسلامي بعيدة عن النـــزعات المادية في التراث الإسلامي؛ فإن مآل فكرة السببية سيعود في نهاية المطاف إلى أحضان الفكر المادي ذي النـــزوع نحو القياس الكمي لحركة الفعل الإنساني.

ومدار القياس الكمي على فكرة اللزوم المنطقي والوجودي بين الأسباب والنتائج، ويتأسس المفهوم الكمي في عيار الأسباب على مفاهيم منها :

مفهوم الضرورة ونفي الاحتمال : أي أن النتائج تصدر عن أسبابها على جهة الضرورة أو الحتم وهو ما يسقطنا في الحتمية الآلية التي هي نوع من الشرك الظاهر لأن نتيجة القول بالضرورة هي الحد من القدرة الإلهية.

مفهوم اللزوم ونفي التساوق : ومعناه أن العلاقة بين الأسباب ونتائجها علاقة لزومية بحيث يوقع هذا في الاعتقاد بأن السبب موجود وراء كل نتيجة مع أن الأسباب في مجملها تتلبس بالنتائج، وتتساوق معها حتى كأنها علل نهائية لها والحال أنها أمارات لها فقط ونستطيع في حالات كثيرة أن نغير النتائج مع وجود ما نتوهمه أسبابا لها.

مفهوم الاطراد ونفي المعجزة: إن الإيمان الآلي بالسببية يؤدي إلى الاعتقاد في الاطراد لتعليل الظواهر أي أن ما يقع أمام أعيننا ليس منفكا عن أسباب أوجدته وهكذا يصار إلى نفي المعجزات وخصوصا بعد تصرم عهد الرسالة والوحي.

مفهوم التجرد ونفي الإرادة الحرة (الإرادة الإيجادية – الله– والإرادة التغييرية – الإنسان): قلنا سابقا إننا نستطيع في حالات كثيرة أن نغير النتائج مع وجود ما نتوهمه أسبابا لها، وهذا ما يفسح المجال من جديد للإحساس بفعالية الإرادة الربانية في تغيير النتائج، وأيضا بفعالية الإرادة التغييرية للإنسان الذي يستطيع ضرب القدر بالقدر والفرار من أحدهما إلى الآخر من أجل مصلحة راجحة أو فائدة مرجوة .

ولقد لاحظنا أن فكرة السببية أو السننية قد هيمنت على العمل الإسلامي فكانت النتيجة أن ذوى البعد الإيماني والأخلاقي وأعطي مجال واسع للتفكير من داخل الأنساق التي يحكمها منطق التعليل الكمي، هكذا فقدت حرارة الإيمان مكانها لتحل محلها التفسيرات الباردة، التي تعلي من شأن الأسباب على حساب قوة الأقدار.

لم يكن موقف النورسي من قضية السببية موقفا فكريا مجردا، بل كان موقفه موقفا إيمانيا أخلاقيا أملاه عليه استشعاره لعظمة الله، وتيقنه بتفاهة ما حوله من الناس والأشياء

فكان تصوره تعبيرا عن تمكن في الإيمان ورسوخ في التواضع يقول : " أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب! اعلم أن الأسباب ليست إلاّ ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، ويقتضيان الاستقلال"[5].

2- منهج النورسي بين الأخلاق والسياسة :

من الصعب أن نـــزيل عن المشروع النوري طابعه السياسي، فهو مشروع يتغيى تحرير الإنسان عن طريق إنقاذ الإيمان، ولهذا لوازم معروفة إذ كلما أنقذ إيمان فرد تحول إلى لبنة في البناء المجتمعي المستقبلي، ويلاحظ أن فهم السياسة عند النورسي الجديد لا يخرج عن هذا الإطار. ومن تم فقد تجاوز الرؤية التقليدية للسياسة بوصفها فن إدارة الصراع من أجل الوصول إلى الحكم. ويشير طه عبد الرحمن إلى هذا المعنى العميق للتحول السياسي حينما رفض الفهم المتعارف عليه لأنه لا يمت للإسلام بصلة كما أن اعتماده يعود بالسلب على الإيمان النظيف"... وعلى حين غرة وردت خاطرة على قلبي أورثت الطمأنينة التامة والقناعة الكاملة وبقطعية تامة. فقد قيل لي: إن تأويل بشاراتك واخبارك منذ مدة برؤية نور – والتي كنت ترتبط بها بعلاقة جادة وتكررها – وتفسيرها وتعبيرها بحقكم بل بحق عالم الإسلام من حيث الإيمان هو: رسائل النور، فهي ضياء، حيث أخذت جلّ اهتمامك، بل هي نور ومقدمة وبشرى لما كنت تتخيله وتظنه في دائرة واسعة وفي عالم السياسة ولما سيأتي من حالات سعيدة متسمة بالدين. هذا النور المعجّل تصورته تلك السعادة المؤجلة فكنت تبحث عنه لدى باب السياسة."[6]

فرسائل النور إذن هي مقدمة بين يدي البشارة الكبرى وهي المجتمع المؤمن الذي يقوم على أساس الإيمان ليفي بواجب الخلافة ومقتضى الأمانة. ولذلك فليس العمل الإيماني النوري عملا فرديا كما هو في حالة العمل الصوفي، كما أنه ليس عملا جماعيا لا يراعي الفرد وحاجاته في التزكية ولكنه عمل إيماني جماعي ذو أهداف جماعية كلية تتجاوز النصر السياسي البسيط إلى نقل المجتمع من حال التيه إلى الرشاد ومن الضلالة إلى الهداية فالرسائل: " لا تسعى لإصلاح قلب خاص ووجدان معين بل تسعى أيضاً – وبيدها إعجاز القرآن – لمداواة القلب العام المجروح، وضماد الأفكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة التي هُيئت لها وركّمت منذ ألف سنة، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجّه نحو الفساد نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند

العظيم للجميع ولا سيما عوام المؤمنين. نعم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان."[7]

ويرى النورسي بعين ثاقبة خطورة حصر الاهتمام في العمل السياسي، وهو ما نشاهده الآن في الجسم الحركي من تضخم في التحليلات، وبرود في التفاعل مع حقائق الإيمان. لقد أنتج هذا التلهف على العمل السياسي قلوبا جافة، وضمائر هشة تخاف من أهل السلطة في المغارم، وتخاف على الحظوظ في المغانم، يقول النورسي " نعم إن مسائل السياسة تتعلق – إلى حد ما – بوظيفة العاملين في الشؤون الخارجية وأركان الحرب في الجيش والقادة المسؤولين. أما دفع تلك المسائل إلى رجل عامي ساذج وإثارته بها، وصرفه عما يلزمه من وظائف تجاه شؤون روحه وأمور دينه، بل حتى تجاه شؤونه الشخصية بالذات ولوازم بيته وقريته، ومن ثم جعله بهذا التلهف، والفضول سائب الروح، ثرثار العقل، فاقداً لأذواق القلب نحو الحقائق الإيمانية والإسلامية، خائر الشوق إليها.. وكذا إثارتهم بتلك الاهتمامات التافهة التي تقتل قلوبهم معنىً – بما يشبه تهيئة الجو الملائم للإلحاد – ودفعهم إلى استماع الراديو في شؤون سياسية لا تعنيهم في شئ... أقول: إن كل ذلك لضرر بالغ للحياة الاجتماعية الإسلامية بحيث إن الإنسان كلما فكر بنتائجها الوخيمة المترتبة عليها يقشعر من هولها جلده، ويقف شعره! نعم، ان كل إنسان له علاقه بوطنه وقومه وحكومته، ولكن من الخطأ الجسيم جعل منافع الأمة ومصلحة الوطن والحكومة تابعة لسياسة مؤقتة لبعض الأشخاص انجرافاً لتيارات موقتة، بل تصوّرها نفسها.. فضلاً عن أن حصة كل شخص من تلك الروح الوطنية والقومية وما تترتب عليها من وظائف إن كانت واحدة فان حصته تجاه وظائف قلبه ومهمات روحه وواجباته الشخصية والبيتية والدينية وغيرها عشرون بل مائة حصة"[8]، لاحظ ونلاحظ هنا كيف جعل النورسي العمل السياسي عمل نخبة، والتي من المفروض أن تكون قد تلقت من التربية ما يجعلها بمنأى عن الآثار الجانبية للعمل السياسي، أما الجمهور العام فمن الواجب التوجه إليه بالتربية بدل إثارته بأشجان السياسة وقضايا الصراع الأيديولوجي وهذا يعني أن وظيفة العمل السياسي عند النورسي ذات بعد أخلاقي أصيل يترقى بغرائز الناس نحو الفضائل، ويربي نوازعهم نحو طلب الكمال، ولعمري إن هذا التصور على رغم ما قد يوجه إليه من نقد بدعوى مثاليته، تصور يعيد للعمل السياسي معناه ويخرجه من كونه فن اللعب بالممكن إلى فن تخليق الحياة العامة والخاصة في اتجاه

إيجاد مجتمع الذوق العالي والأخلاق النبيلة وإذا تأتى لمجتمع ما أن يصل إلى هذا المستوى فإن السياسة ستصبح فيه مكرمة وجهادا والقعود عنها مغمزة وتخلف.

3- أولويات العمل الإصلاحي:

إن العمل التغييري الإصلاحي يحتاج في نظر النورسي إلى إعادة النظر في الأولويات المتعلقة بواقع الدعوة، أي ما الذي ينبغي أن نبدأ في إصلاحه؟ ولقد وضع النورسي ثلاث مجالات يتصورها موضوعا للتغيير وهي : الحياة والشريعة والإيمان[9]، ويراهن النورسي هنا انطلاقا من مركزية الأخلاق في مشروعه الإصلاحي على أن المهدي المنتظر نفسه، وهو هنا رمز للعمل الدعوي الصحيح، لو انبرى للإصلاح لاختار أن يبدأ بالإيمان لأنه أولى الأولويات يقول : " في هذا العصر تيارات قوية ومسيطرة إلى درجة تستحوذ على كل شئ، وتستولي عليه، و تمتلكه لنفسها، و تسخره لأجلها، فلو أتى ذلك الذي يُنتظر مجيئه حقا في هذا العصر، فإنني أرى انه يغيّر هدفه، ويجرّد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة في عالم السياسة، حفاظاً على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات.

ثم إن هناك ثلاث مسائل هي:

الحياة.. الشريعة.. الإيمان

وأن مسألة "الإيمان" هي أهم هذه المسائل الثلاث وأعظمها في نظر الحقيقة. بيد ان "الحياة" و "الشريعة" تبدوان في نظر الناس عامة و ضمن متطلبات أوضاع العالم أهم تلك المسائل. ولما كان تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها دفعة واحدة في الأرض كافة لا يوافق سنة الله الجارية في البشرية، فإن ذلك الشخص المنتظر لو كان موجوداً في الوقت الحاضر لأتخذ أعظم تلك المسائل و أهمها أساسا له دون المسائل الأخرى، وذلك لئلا تفقد خدمة الإيمان نـــزاهتها وصفاءها لدى الناس عامة، ولكي يتحقق لدى عقول عوام الناس – الذين يمكن أن يُستغفلوا ببساطة – ان تلك الخدمة ليست أداة لأي مقصد آخر."[10]

من الواضح أن المشروع التغييري عند النورسي مشروع إيماني بالأساس، يتقصد نفث الإشارات الإلهية في النفوس حتى تتحلل من أوزار الإخلاد إلى الأرض، غير أن من المهم الإشارة إلى أن الارتكاز على البعد الإيماني لا يعني أنه تبسيط للمعركة مع الباطل ورد لها إلى البعد الشخصي بل إننا نتصور أن هذا المهيع التغييري منبثق من حصافة رأي ورهافة حس بسلم الأولويات في العمل الإسلامي، ذلك أن الاستعدادات العقلية والحركية عند

الإنسان ليست كلا قابلا للتجزيء بحيث يتصور أن يرتد المجاهد إلى قاعد أو العكس بناء على ضعف في الاستعداد الذهني في الاختيار، بل إن الأمر في حقيقته اختيار قلبي وعقلي لسلوك مهيع وانتقاء طريق، وفي حالة شيخنا النورسي فإن رجلا شارك في الحروب، وانتقل من سجن إلى أسر، وبقي ثابتا على الفكرة مع البلاء ليشير إلى أن اختيار المنهج الإيماني في عملية التغيير اختيار أملته حكمة، واستلزمه نظر نافذ وليس تبسيطا للمعركة، واختيارا لغير ذات الشوكة كما قد يزعم زاعم.

يتأسس المنهج التغييري عند النورسي على :

- اقتناع بمركزية الإنسان في العملية التغييرية
- وعي بالمخططات المعادية للإسلام

بحيث استقر نظر النورسي على أن الحصون المهددة في الكيان الإسلامي ليست سوى حصون الإيمان، ومن هناك ينبغي أن ينطلق البناء. يقول : أما الآن فان هناك هجوماً عنيفاً جماعياً منظماً على أركان الإيمان وأسسه، لا تستطيع اغلب تلك الكتب والرسائل التي كانت تخاطب الأفراد وخواص المؤمنين فقط ان تصد التيار الرهيب القوي لهذا الزمان، ولا أن تقاومه.

أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان و تحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء[11].

يلاحظ هنا أن عملية ترسيخ الإيمان الحركي، والذي نميزه عن الإيمان الشخصي بميزة واحدة وهي أنه إيمان ذو بعد تبشيري رسالي يتغيى الدفاع عن الحصون المهددة، فهو خطة جماعية يقع فيها الفرد في المركز وبدونه لا تقوم لمشروع النور قائمة، قلت يلاحظ على هذا الإيمان أنه يتأسس على بعدين يريد لهما النورسي أن يكونا وجها لعملة ذهبية واحدة :

البعد القلبي الخالص

البعد البرهاني

ينبغي النظر إلى مشروع النورسي الإصلاحي بهذا المنظار الزوجي الذي يشمل الإيمان الراسخ بالعمل، والعقيدة الثابتة بالفكر، فيكون المشروع التغييري إذن في أساسه مشروعا إيمانيا وفكريا متوازنا توازن الحامل لهذا المشروع والذي لا يتصور له نجاح بدون قلب

خفاق وفكر لماح، يقول الشيخ في بيان هذا التوازن: " إن الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته.. وإنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معا و امتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الأخرى، فتحلّق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل إليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن أقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة"[12].

من الواضح أن منهج النورسي في البناء التربوي يختلف نوعا ما عن الخطاب الإسلامي السائد والذي يعيش انفصاما نكدا بين العقل والقلب، التربية والفكر، حيث ينظر إلى التربية الروحية للعاملين في حقل الدعوة بصفتها مجموعة من التوجيهات الإيمانية الخالية من أي بعد فكراني يثبت الإيمان في العقول والقلوب ولعل التيار الصوفي في بعده الطرقي والحركي أظهر من يمثل هذا المنهج الأحادي مع استثناءات معتبرة، كما أن منهج النورسي يختلف بوضوح عن التوجهات الدينية التي تجعل المبدأ الإيماني خاضعا لتصور كلامي بارد، تحتل فيه المجادلات العقدية مركز الاهتمام. فالنورسي يرى أن رحلة الإيمان يجب أن تستمر، فهو- صدقا منه وتواضعا- لا يدعي أن فكره أو منهجه مبتدأ المرحلة، بل إنه يقيم تصوره على استصحاب الكسب الإيماني الأصلي الذي يمثل رأسمال الأمة، وعلى هذا الكسب المجترح سلفا يقام الإيمان في صفته النورية القرآنية، ولهذا فالمعركة في نظر النورسي ليست في إقناع الناس بالإيمان بل هي في تثبيت هذا الإيمان وترسيخه. هذا التصور الرصين قاد النورسي إلى الاستفادة من التراث، والتوسل بكل الآليات التراثية أو قل السلفية التي ابتليت كفايتها الإجرائية في خدمة العقيدة وترسيخ الإيمان. فلم يخاصم النورسي تراثه بل استثمره انطلاقا من منهجه الاستصحابي يقول : " أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان و تحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء"[13].

هذا الشمول في اعتبار العقل والقلب وسيلة ناجعة في الوصول إلى الإيمان التحقيقي وهو مقام يتحول فيه الإيمان إلى ما يشبه الأمور البدهية في البرهان يقول : " هذا النوع من الإيمان التحقيقي، فلا يتوقف في حدود العقل فحسب بل يسرى إلى القلب والى

الروح والى السر والى لطائف أخرى فيترسخ فيها رسوخاً قوياً بحيث لا تصل يد الشيطان إليها أبداً. فإيمان أمثال هؤلاء مصون من الزوال بإذن الله.

إن إحدى طرق الوصول إلى هذا الإيمان التحقيقي هو بلوغ الحقيقة بالولاية الكاملة بالكشف والشهود، وهذا الطريق إيمان شهودي يخص أخص الخواص.

أما الطريق الثاني فهو تصديق الحقائق الإيمانية بعلم اليقين البالغ درجة البداهة والضرورة، وبقوة تبلغ درجة حق اليقين، وذلك بفيض سر من أسرار الوحي الإلهي من جهة الإيمان بالغيب وبطراز برهاني وقرآني يمتزج فيه العقل والقلب معاً"[14].

4- أخلاقية العمل الإسلامي ونفي البعد الشخصاني:

من القوانين المتحكمة في العمل السياسي مركزية الزعامة، وهي تقابل قانونا آخر متحكما في الممارسة العرفانية وهي مركزية المشيخة، المنهج الأول يقوم على استثمار الرأسمال الرمزي للزعيم في عملية الاستقطاب اليومي للجماهير التي يراد بدورها استثمارها في التدافع السياسي، ولا يخفى أن العمل الإسلامي المعاصر دخل بطريقة شعورية في شرنقة هذا القانون، وتحول إلى أحد "ما صدقاته"، بحيث إن الزعامات الإسلامية السياسية التقليدية لا زالت تهيمن على العمل السياسي في الوقت الذي تطالب فيه الأنظمة بضرورة التغيير ومراعاة سنة التداول على السلطة[15]. وفي مجال العمل الصوفي أو العرفاني يحتل الشيخ ذات المرتبة التي يحتلها الزعيم السياسي وربما أكثر مع الخلاف المعتبر في طبيعة الدلالات الرمزية التي يمثلها الشيخ الصوفي، والذي تستثمر سلطته الروحية في توسيع قاعدة المريدين. في المجال النوري يلاحظ أن ثمة تركيزا على البعد الرمزي للأفكار التي تمثلها رسائل النور، مع حرص متواضع ولكنه بناء على الضرورة التربوية في استبعاد الشخص ولو كان النورسي نفسه، هنا يظهر أننا أمام دعوة صريحة للأتباع حتى يدوروا في فلك الفكرة بدل الدوران في فلك الشخص، يقول:" انه لا يمكن قبول حسن الظن المفرط نحوي ومنحي مقاماً وأهمية تفوق حدي ألف درجة، الاّ إذا كان باسم رسائل النور وخدمتها، وكونها داعية ودلاّلة إلى جواهر القرآن الكريم.

نعم ليس لي حق قط قبول مثل هذا الظن الحسن باعتباري الشخصي الذي لا أهمية له إطلاقاً"[16].

لكن كيف يتم لهذا الرجل الألمعي أن يوفق بين واجب التبشير برسائل النور ودعوى التفاخر وتضخم الذات؟ لقد كان التوفيق هنا منبعثا لا من استراتيجية حركية تحاول

إبعاد التهمة خوفا من خسران حركي، ولن الجواب كان أخلاقيا في بعده، إيمانيا في مصدره، حضاريا في وعيه بطائع الصراع وخصائصه. فلكي يدار العمل الإسلامي على مركزية أخلاقية لا بد من تحقيق مطلبين:

نـــزع الصفة الشخصية عن الذات العاملة:

بحيث تتحول الذات الداعية إلى أداة في يد الأقدار[17]، تجتهد، وتعمل وتستفرغ الوسع فلا تنسب الإنجاز إلى نفسها بل إلى الألطاف الإلهية، والتقديرات الربانية، وحينها يتحقق بهذا النكران للذات رصيد من الصدق يجعل كل نتائج العمل الإسلامي عملا قدريا، لا في النظر إليه من الآخرين بل في تقييمه من قبل الذات التي أنتجته وأخرجته إلى الوجود. هذا الصدق مع الله يفك الإنسان من الارتباط الآلي بالأسباب المادية بل وحتى بسنن التغيير ذاتها والتي تضخمت في أذهان كثير من العاملين للإسلام حتى أضحت إلها من دون الله مع أنه خالق هذه السنن ومبدعها وهو القادر إن شاء أن يحولها حيث شاء بقدره ومشيئته. لقد تحولت الذات عند النورسي إلى شخص اعتباري وبعبارة الرسائل إلى شخص معنوي، تحدده الفكرة لا الشخص والمبدأ لا الفرد، فهذا "هذا الزمان، زمان الجماعة، فالأهمية والقيمة تكونان حسب الشخصية المعنوية للجماعة. ولا ينبغي أن تؤخذ بنظر الاعتبار ماهية الفرد المادية الفردية الفانية، ولا سيما شخص ضعيف مثلي الذي لا حول له ولا قوة، فان منحه أهمية تفوق قيمته ألف درجة وتحميل كاهله ألوف الأرطال وهو الذي لا يتحمل رطلاً واحداً لا شك انه ينسحق تحت الحمل هذا"[18]. فالذي يتحرك للإسلام في نظر النورسي ليس هو الشخص، وإنما هو شخص اعتباري معنوي تمثله أفكار الرسائل وتصوراتها، يقول: " أما الآن فقد بعث المولى الكريم "رسائل النور" التي هي بحكم شخص معنوى، وبعث طلابها الذين هم – بسر التساند والترابط – بحكم الفرد الفريد، إلى هذا العصر، عصر الجماعة، المحاط بالظروف المعقدة والأوضاع الرهيبة، لأجل القيام بتلك المهمة الجليلة.

وبناء على هذا السر الدقيق فان جندياً مثلي، لا وظيفة له الاّ وظيفة الطليعة لدى مقام المشيرية المثقلة بالمهام الجسيمة"[19] ...

نـــزع الصفة الشخصية عن موضوع الدعوة:

لا شك أن العمل الإسلامي حين يتصور الواقع المنحرف بصفته موضوعا للدعوة عبارة عن أشخاص يكيدون للدعوة، ويبحثون عن وسائل إفشالها، فإنه يكون تحت رحمة تصور بسيط لطبيعة المعركة، حيث تصبح صراعا بين أشخاص يريدون الإصلاح،

وآخرين يحاربونه، وهذا ما جعل الخطاب الإسلامي ضعيفا من الناحية الأخلاقية، مليئا بالسب والتفسيق لأشخاص بأعيانهم وخصوصا في مرحلة الفتنة والابتلاء، ولقد أثبت هذا الخطاب فشله وخضع لمسار من التعديل اقترب فيه كثيرا مما توصل إليه النورسي، فمؤسسة الباطل شخص اعتباري أيضا، إنه عبارة عن نسق من العلاقات والرموز الثقافية التي شكلت المنظور الفكري والوجداني لهؤلاء الذين يواجهون رسالة النور " ثم إن رسائل النور تحاول أولاً إقناع نفس مؤلفها ثم تخاطب الآخرين؛ لذا فالدرس الذي اقنع نفس المؤلف الأمارة بالسوء إقناعاً كافياً و تمكّن من إزالة وساوسها وشبهاتها إزالة تامة لهو درس قوي بل اشك، وخالص أيضا بحيث يتمكن وحده من أن يصد تيار الضلالة الحاضرة التي اتخذت شخصية معنوية رهيبة – بتشكيلاتها الجماعية المنظمة – بل أن يجابهها و يتغلب عليها"[20]

ولعل المتمعن في مسيرة العمل السياسي الإسلامي يلاحظ أن التربية الحزبية القائمة على مفاهيم الولاء التنظيمي، والطاعة الواجبة للقيادة، والتنفيذ للأوامر هيمنت على الجماعات المعاصرة، وخلقت جوا من الجمود الإيماني والفكري نتج عنه انحسار في المد الإسلامي، وتباطؤ لخطابه عن مسايرة المتغيرات الحالية، ولقد أدى هذا النوع من التربية إلى أمراض أخلاقية تفت في عضد الحركات وتحولها إلى أتون من الصراعات والتقاطبات التي تفشل وتذهب الريح، ومن الأعراض البارزة لهذا السرطان الأخلاقي أي التحزب فرح كل بائع ببضاعته، ورغبة في قصر الخير على ذاته، وكلهم يتغنى بالتوحيد ونبذ الخلاف وحال لسانه يقول لا تتحدوا إلا على ما أقول " إن أريكم إلا ما أرى" وهذا مرض في سيكولوجيا الأحزاب قديم، ولابن تيميه رضي الله عنه نص نفيس أحفظه له بنصه يشير إلى هذا الواقع إشارة جلية فقد ورد في الرسائل والمسائل أن رجلا سأله عن الأحزاب فقال: " كلهم مؤمنون، فإن كانوا زادوا في ذلك أو نقصوا مثل التحزب لمن دخل في حزبهم بالحق أو الباطل أو الإعراض عمن لم يدخل في حزبهم بالحق أو الباطل فهذا من التفرق الذي ذمه الله ورسوله"[21]

ولقد حاول النورسي معالجة هذا الوضع، ونستطيع مطمئنين أن نقول إن قوة أفكاره وخطورتها على الباطل أنها مبنية على بعد أخلاقي أصيل، فالرجل ليس طالب حكم، لا ولا ناصر فكرة يجادل من أجل إظهارها، ولكنه مصلح بكل ما في هذه الكلمة من جمال وبراءة، فهو منـــزه عن كل حظ يعتور العامل في حقل الإصلاح الاجتماعي، ولا يضيره لهذا أن يجري الله الحق على لسان غيره، ولهذا لم نجد النورسي يذكر جماعة بسوء، بل إنه

يأخذ نفسه بالقسطاس المستقيم فيرجع بعض المحامد إليهم ولولا هذا العمق الأخلاقي في بنائه التربوي، لضاقت نفسه عن ذكرهم بخير، ولتاقت إلى أن تنسب لها مجمل ما اجترح من عمل في سبيل الله، وهنا يكون الإصلاح النوري إصلاحا شاملا تطلبه الأمة ولا ترفع شعاره جماعة بذاتها، إذ كلما تحيز المشروع الإصلاحي في إطار محدد، فقد امتداده وجاذبيته لما يورثه في نفوس الحاملين له من التعصب والتحيز، ولما يدخله في قلوب المناوئين له من العداء والتربص فيضيع المشروع وتنتهي فعاليته.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الهوامش

1 محمد زاهد الملازكردي، **عجالة مقتطفة من أقلام أفاضل العلماء والدكاترة في حياة الإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسي.** (د،ط،ت) دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص50

2 نتعامل هنا مع السياسة بمفهومها الممارس والواقعي وهو ما تتكر له النورسي وابتعد عنه، أما السياسة في بعدها النبيل والشرعي والتي تعني سياسة أمور الناس بما يجلب مصلحة ويرد مفسدة فلا إخال أن في كتابات النورسي ما يشير إلى الغض منها، بل يمكننا مطمئنين أن ندرج المشروع النوري في إطار العمل السياسي بالمفهوم الحضاري للكلمة والذي ينطلق بلا تكتيك أو حسابات من تغيير النفس ونمط التفكير في اتجاه إحداث انقلاب حضاري سلمي في المجتمع.

3 لقد أبرز الدكتور خليل زياد الدغامين موفقا جهات الالتقاء والاختلاف بين النورسي ومحمد عبده، راجع : **إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي** ، ط1، دار النيل، أزمير، 1998

4 لقد شاع في الفكر الإسلامي المفهوم التجريدي للعقل، حيث نظر إليه باعتباره جوهرا أو ذات يحدث بها التعقل كأي عضو آخر في تكوين الإنسان، وهذا هو المفهوم اليوناني للعقل. بيد أننا لا نريد أن نعمم هذا الحكم إذ ارتفعت أصوات قوية في التراث نادت بضرورة إعادة هذا المصطلح الفعال إلى مجال التداول الإسلامي الأصيل والذي شكله القرآن الكريم، ومعهود العرب في الخطاب، ومن هذه الأصوات شيخ الإسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم حيث لاحظا أن العقل ليس جوهرا ثابتا وليس ذاتا يحل بها الإدراك، بل العقل فعل من الأفعال وعرض من الأعراض غير المتحيزة، وهذا يؤدي حتما إلى تثوير النظر في مفهوم العقلانية، فعلى أساس التعريف القرآني فإنه يجوز لنا أن نتحدث عن أصناف متعددة من العقلانيات (المنهج) ونماذج متعددة من من المعقولات (المعرفة) ولقد بسط القول في هذا أستاذنا الجليل الدكتور طه عبد الرحمن ولمن أراد التزيد فعليه بالرجوع إلى :

طه عبد الرحمن : **العمل الديني وتجديد العقل**، ط2، المركز الثقافي العربي، 1997، بيروت، لبنان والدار البيضاء، المغرب، ص17-21

تجديد المنهج في تقويم التراث، ط2، المركز الثقافي العربي، (د،ت) بيروت والدار البيضاء، ص357-358

سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ط1، 2000، بيروت والدار البيضاء، ص62-63

5 النورسي، **الكلمات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص 326

6 النورسي، **ملحق قسطموني**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص117

7 نفسه، ص118

8 **ملحق قسطموني** 119-120
9 نفسه، ص136
10 **ملحق قسطموني**، ص136
11 **ملحق قسطموني**، ص 105
12 نفسه، ص: 105
13 **ملحق قسطموني**، ص 105
14 نفسه، ص 111
15 يمكن هنا استثناء بعض التجارب الإسلامية التي حاولت التقليل من البعد الشخصاني في العمل الحركي لكن خطابها العام بقي خطابا تحكمه الموازنات السياسية بدل المبدئية الأخلاقية.
16 **ملحق قسطموني**، ص 108
17 يشار هنا إلى القاعدة الذهبية للنورسي في القدر : من آمن بالقدر سلم من الكدر
18 **قسطموني**، ص 100 وراجع في هذا أيضا : **قسطموني**، ص 108، وأيضا محاورته الجميلة مع أخيه عبد الله حول المشيخة الصوفية **قسطموني**، ص 133-134
19 **قسطموني**، ص 101 ولعل من أدل كلمات النورسي على هذا قوله لأحد طلاب النور : " يا سعيد! كن صعيداً، في نكران تام للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضع مطلق، كالتراب. لئلا تعكر صفو رسائل النور وتقلل من تأثيرها في النفوس. **قسطموني**، ص 110
20 نفسه 105
21 هذا النص موجود في الرسائل والمسائل، وهو كتاب قضت صوارف الاغتراب ألا نعثر عليه، فعسانا أن نفعل فيما يستقبل من أيام.

أخلاقيات العولمة وسبيل مواجهتها في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور زياد خليل الدغامين(*)

مقدمة:

إنّه من المؤكد أنّ مصطلح العولمة (Globlization) من المصطلحات حديثة الظهور، وإن كان مضمونها حاضرا على صفحات التاريخ البشري، بل قبل تاريخ البشر! إذ في مقولات إبليس كما وصف القرآن على لسانه: "**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**" (ص: 82) وقوله: "**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**" (الحجر: 39) وقوله: "**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**" (الأعراف: 16) وقوله: "**لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ**" (النساء: 119) أقول: في هذه المقولات كلّها تأكيد على أهداف حرب حزب الشيطان التي يشنّها على الحقّ وأهله، فالنمط الذي يدعو إليه هو نمط الغواية والضلال والانحراف الخلقي والسلوكي والعقائدي، هذا النمط هو الذي يجب أن يفرض – في نظر هذا الحزب – على الناس كلهم، وهذا منطق القوّة العمياء المتمثل في "المدنية الحديثة" كما يرى الأستاذ بديع الزمان، فهي صاحبة مشروع العولمة والمسؤول المباشر عنه.

والقارئ في رسائل النور التي ألفّها الأستاذ بديع الزمان يجدها في أهدافها قد صيغت لتنطق بالثبات في وجه العولمة، بل لتجابه هذه العولمة مبينة أخطارها وعوارها، فـــ"المدنية الحديثة هدفها ومقصدها منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة التزاحم والتخاصم،

(*) أستاذ التفسير المشارك، وعميد كلية الدراسات الفقهية والقانونية، جامعة آل البيت – الأردن.

ومن هنا تنشأ الجناية... وخدمتها الجذابة تشجيع الأهواء والنوازع وتذليل العقبات أمامهما، وإشباع الشهوات والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائما: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا"[1].

إذن، العولمة إملاء لثقافة القويّ السريع الغالب على الضعيف البطيء المغلوب، والنورسي بدوره لّما رأى هذه الهجمة التي ترتكز على منطق القوّة الأعمى على الإسلام وأهله قام برسائل النور يحفظ إيمان العوام من الذهاب أو الانحراف في مستنقع الرذيلة هذا، وتناول الموضوع من أكثر من زاوية، وتحدّث عن الأخلاق من اكثر من ناحية، بل بيّن أخطر الميادين الأخلاقية التي تسعى المدنية الحديثة لتدميرها لدى المسلم، وإحلال ثقافة التبعية مكانها، وذلك إمعانا في طمس الهوية الحضارية – الإسلامية- لهذه الأمّة، وبعد التطواف في رسائل النور، وتتبع أفكار بديع الزمان في هذه السياق، وجدت أنّه يمكن تصنيفه ليشمل ثلاثة ميادين، سنجعلها في ثلاثة مباحث، ونضيف في البداية مبحثا نعرّف فيه بأخلاقيات المدنية الحديثة صاحبة مشروع العولمة كما يراها النورسي، لتقع الدراسة في أربعة مباحث، هي:

المبحث الأول: أخلاقيات المدنية الحديثة وموقفه منها.

المبحث الثاني: أخلاقيات العولمة في ميدان السياسة.

المبحث الثالث: أخلاقيات العولمة في ميدان الاقتصاد.

المبحث الرابع: أخلاقيات العولمة في ميدان حقوق المرأة.

وننهي بخاتمة نذكر فيها أهم نتائج هذه الدارسة، وبالله التوفيق والهداية.

المبحث الأول

أخلاقيات المدنية الحديثة وموقفه منها

يوجّه النورسي دعوة إلى علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق ليروا الفرق الهائل بين أخلاقيات الشريعة المعتمدة على الإيمان وأخلاقيات المدنية الحديثة، مدنية أوروبا، فيقرر أنّ مبدأ الإيمان أساس ترتكز عليه كليات الأخلاق، وحين تفتقر المدنية الحديثة إلى هذا الأساس فسيستولي الحقد والمنافع الشخصية والاحتيال والأنانية والتكلف والرياء والرشوة والخداع بدلا من أسس الأخلاق الحميدة التي هي الإخلاص والمروءة والفضيلة والمحبّة والتضحية ورضى الله والثواب الأخروي، وكانت معاني الإرهاب والفوضى والوحشية حاكمة ومسيطرة تحت اسم النظام والأمن والإنسانية التي يظهرونها، وحينئذ تتسم الحياة بوقاحة وإهمال أطفالها، وسكر وعربدة شبابها، وظلم وتجاوز أقويائها، وبكاء وأنين

شيوخها... فلترن آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان لتعرف الحقّ والحقيقة.[2]

وهو ما أكده الأستاذ محمد فتح الله كولن من أنّ النورسي رأى أن أهم مشكلة يجب تناولها هي مشكلة الفوضى النابعة من الفكر والإلحاد، لذا قضى حياته كله وهو يؤكد لإنسان عصرنا ضرورة معالجة هذا الداء... لقد عاش في الوقت الذي أصبح فيه العلم والفلسفة أداة لدفع الناس نحو الإلحاد، وفي الوقت الذي تمّ فيه غسل الأدمغة بالشيوعية، والذي كان ينفى فيه ويهجّر من يرفع صوته ضدّ هذه السلبيات من مدينة لمدينة، ومن بلدة إلى أخرى، والأغرب من هذا أن كل هذه العمليات كانت تحدث باسم المدنية والمعاصرة التي انقلبت فيها المفاهيم حتى أصبحت الحركة الفوضوية حركة واسعة منتشرة تحمل سحرا وجاذبية .[3]

ومن ثم تناول رحمه الله أزمة المفاهيم التي تطلقها المدنية الحديثة حتى بات على يقين أنّها مفاهيم معكوسة برّاقة، فيقول: "إنّ ما تراه المدنية ترقيا ما هو إلا سقوط، واقتدارا ما هو إلا ابتذال، وانتباها ما هو إلا انغماس في نوم الغفلة، ونـــزاكة ما هي إلا رياء نفاقي، وذكاوة ما هي إلا دسائس شيطانية، وإنسانية ما هي إلا قلب الإنسانية حيوانية[4]. وليست هذه المفاهيم فحسب، بل كل المفاهيم المتصلة بالسياسة والاقتصاد وقضايا المرأة كلها مفاهيم مغلوطة عند النورسي: لأنّها لا ترتكز على قاعدة الإيمان بالله تعالى، وسيأتي بيانه.

من هنا – كذلك – توجّه نقد النورسي وذمّه للمدنية المعاصرة مروّجة شعار العولمة من حيث كونها تنشر الكفر، وتعمل على خواء الروح وفقرها، فكيف لمن أصيب في قلبه وعقله ووجدانه وروحه بمصائب هائلة أن يسعد بكونه في ذروة الرفاه والزينة بجسمه؟ هذه الحالة الجهنمية هي التي أهدتها المدنية أو العولمة للبشر، ثم تفطنت لهذا الداء العضال دواء يبطل الحسّ بالجملة، وهو الملاهي الجذّابة، والهوسات الجلابة، فتعسا لها ولدوائها [5] .

لقد خاطب النورسي بقسوة شديدة تناسب شدّة استخفاف أوروبا بالإنسان وأخلاقه، مبيّنا أنّ أوروبا قد أفسدت البشرية بتعاليمها وهوت بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، ولا علاج ولا دواء لها إزاء هذا الوضع إلا ملاهيها الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحسّ وتخدير الشعور[6].

إنّ المدنية الزائفة – في فكر النورسي – مسؤولة عن تشتت الأفكار، وتدني الأخلاق[7] ومن هنا رفض النورسي دعوة تلاميذ المدنية السفيهة الضالة وطلبة الفلسفة السقيمة المضلّة الذين سكروا باحتراصات عجيبة، وتفرعنات غريبة، رفض دعواهم إلى اتباع عادات الأجانب، وترك شعائر فيها شعور وإشعار بأنوار الإسلام[8] مشيرا إلى شعائر الإسلام وقيمه العليا ذات الأثر النيّر على قلوب بني البشر.

لقد أصبحت المدنية بما توصلّت إليه من معجزات في عالم الاتصال، ووسائل الإعلام أشدّ خطر وفتكا بالإنسانية، يتنبّه النورسي إلى هذا الملحظ، فيقول: إعلم أنّ المدنية السفيهة المصيّرة للأرض كبلدة واحدة يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم، وبما لا يعني بالجرائد صباحا ومساء، غلظ بسببها، وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يُخرق إلا بصرف همّة عظيمة، وكذا فتحت لروح البشر منافذ غير محدودة نظّارة إلى الدنيا يتعذّر سدّها إلاّ لمن خصّه الله بلطفه [9].

ولا شك أنّ الإعلام مظهر خطير من مظاهر العولمة تذلّله المدنية الحديثة من أجل زعزعة الأخلاق الإسلامية، ونشر ما يوهن العزّة والإقدام حتى أهلكوا الأفكار العامّة السائدة بما يُبثّ في الصحف والمجلات، ولذلك قام يتصدّى لهذه الحملة، ويهاجم أرباب الصحف والمحرّرين، ودعا في مواجهة ذلك إلى [10]:

- التأدّب بالآداب الإسلامية الفاضلة.
- تنظيم برنامج المطبوعات بما في الوجدان من شعور ديني ونيّة خالصة
- ضرورة التميز عن أوروبا وفلسفتها وأخلاقها، فالثورة الفرنسية ليست دستورا لنا، واستانبول ليست أوروبا، والأولى التفكر بمتطلبات الوقت الحاضر بدل إشغال الناس بتطبيق نظريات أوروبا وفلسفتها.

ولا ينبغي أن ينصرف الذهن إلى أنّ النورسي يعارض المدنية والتحضّر والرقيّ فلطالما بيّن في رسائله قيمة هذا التحضر والرقيّ، وما له من أثر في سعادة الإنسانية، إنّه مع انتقاده سيئات المدنية الحاضرة وبيانه نواقصها وما جنته على البشرية من دمار — لم يعارض إنتاجها المادي كالراديو وركوب القطار والطائرة... [11]

ويبيّن أنّ "الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها ولا يسعها ذلك" [12].

ولذلك يتعامل مع المدنية الغربية على أساس دستور: خذ ما صفا، دع ما كدر" وفي ضوء هذا الدستور سيأخذ من الأجانب كل ما يعين على الرقّي من علوم وصناعات أما العادات والأخلاق السيئة فهي ذنوب المدنية ومساوئها التي لا يتبيّن قبحها كثيرا لكونها محاطة بمحاسن المدنية الكثيرة [13].

وحين سئل النورسي – صراحة – عن سبب ترك ما كان يدعو إليه من ضرورة التحضّر والتمدن والرقي، ثم عاد ليصف المدنية بأنّها دنية فأجاب: "أنّ المدنية الحاضرة الغربية لسلوكها طريقا مناقضا لأسس دساتير السماء وقيامها بمناهضتها، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها، فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، واقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها، حيث قد حلّت بسببها نوازع الإسراف والسفاهة محل بوادر الاقتصاد والقناعة، واستمرأت ميولّ الكسل والدّعة وهجرت مرعى السعي والعمل، ولقد ألبست هذه المدنية البشرية المضطربة لباس الفقر المدقع، وكستها أثواب الكسل والتقاعس الرهيب[14] وهذا كلام مستمد من حكمة القرآن الكريم وآدابه، ومن هنا يقرر النورسي أن المدنية الإسلامية ستسبق مدنية أوروبا، وذلك بتكامل الوسائل التي يتوقف عليها العلم، وسنركب مباشرة المنطاد والقطار فنسبقهم بفراسخ وفراسخ، وذلك بما تسهل لنا هضم تلك الوسائل حقيقة الإسلام الجامعة للأخلاق الإسلامية والاستعداد الفطري الكامن فينا، وفيض الإيمان الذي نحمله [15].

المبحث الثاني

أخلاقيات العولمة في ميدان السياسة

إنّ مجموعة رسائل الشعاعات والملاحق الثلاثة التي تصوّر دفاعات النورسي أمام ما عقد له من محاكمات في مدن شتى لهو أقوى مظهر على تغلغل العولمة بكل صورها ومظاهرها وميادينها في المجتمع التركي ونظام حكمه بعد سقوط الخلافة العثمانية، وقد أبرزت بكل وضوح موقفه من العولمة – المدنية الحديثة – بقوانينها ودساتيرها وأخلاقياتها التي انطبعت فيمن جروّه إلى مثل هذه المحاكمات. إنني أفهم هذه المحاكمات على أنها محاولات شجاعة من النورسي للتصدي للعولمة ومفاهيمها من أجل الحفاظ على شخصية الأمّة من الذوبان في بوتقتها، إنّها محاولة للثبات في وجه العولمة بكل قيمها وأخلاقها، بل لو أردتّ أن تقرأ رسائل النور على أنها ألّفت لتواجه هذا التحدّي الجديد

الذي يواجه الأمّة، وهذا الخطر العظيم الذي يحدق بها لكنت محقّا في هذه القراءة، مع أنّ العولمة قد تجلّى خطرها وأثرها بعد وفاته رحمه الله.

فعلى صعيد السياسة يبيّن النورسي ما سادها من أخلاقيات كالتعصب والعنصرية والدكتاتورية والاستبداد، فيبيّن أنّه قد ظهر بظهور المدنية الحديثة مفاسد أخلاقية كثيرة فالتعصب العنصري، والأنانية، والدكتاتورية العسكرية التي أعقبت الحرب العالمية، وما أفرزته الضلالة من القسوة وعدم الرحمة ساد أشدّ أنواع الظلم وأشدّ أنواع الاستبداد بحيث لو قام أهل الحقّ بالدفاع عن حقوقهم بالقوّة لأصاب الكثير من الأبرياء والضعفاء أشدّ الظلم نتيجة الحيدة عن العدل، هذا هو السبب والحكمة من تهربنا الشديد ونفورنا من التعرض للسياسة وللحكم وذلك بأمر القرآن [16].

ولما كانت أخلاقيات السياسة كما تقدّمها المدنية الحديثة تسمح بأن يعاقب مائة بجريرة واحد، بل قد يُباد شعب ويُهجّر لأجل ظنَ وتهمة * يصف النورسي العولمة التي هي مدنية الكافرين — من هذه الناحية – بأنّها وحشة مستحالة، ظاهرها مزيّن، باطنها مشوّه، صورتها مأنوسة، سيرتها موحشة [17].

لقد سعى الأستاذ بديع الزمان إلى بيان خطر السياسة حين تتجرد من الأخلاق والقيم والفضائل، فذكر أنّ السياسة الحاضرة الدائرة رحاها على المنافع وحش رهيب، فالتودّد إلى وحش جائع لا يدّر عطفه، بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره [18]. وكأنّ النورسي بهذه العبارات يصف واقع السياسة العالمية اليوم، وتجلّي هذا الوحش المعروف بالنظام العالمي الجديد — أحادي القطب – الذي تقوده الولايات المتحدة.

لقد وصف السياسة أنّها ألاعيب وكذب وأوحال ملوثة منتنة، ووصل إلى قناعة أنّ السياسة مستنقع عفن، هكذا هي في الواقع، وهكذا تقدمّها المدنية الحديثة: لأنّ طرف حبالها بأيديها [19]. وهذا يوحي بهيمنة الغرب على سياسات الدول الضعيفة وخاصة بلدان العالم الثالث.

يقول: إنّ السياسة الحاضرة بكثرة الكذب والحيلة والشيطنة فيها صارت كأنّها وسوسة الشياطين، فلا حق لهذه الوسوسة السياسية أن ترتقي إلى مقام تبليغ الوحي[20]. وذلك حين سئل عن عدم تعرضه للسياسة في دروسه.

إنّ السياسة التي لا ترتكز على الخلق الفاضل والأمانة والصدق شرّ حقيق بأنّ يستعاذ بالله منه، ولذلك كان النورسي محقا حينما استعاذ بالله من شرّ الشيطان وشرّ السياسة:

لأنّ لما رأى أحدهم يطعن في رجل فاضل ذي أمانة وخلق لأنه ليس من حزبه، في الوقت الذي يثني فيه على رجل فاسق لأنّه من حزبه عندها يظهر أن السياسة بهذا المنطق تسبطن شرورا وآفات لا حصر لها [21].

بل إنّه فضل حياة البداوة على المدنية الحديثة الممزوجة بالاستبداد والسفاهة والذلّ التي تجعل من الأشخاص فقراء وسفهاء وسيئي الأخلاق [22].

ويتعرض النورسي لمفهوم "الحرية" حيث حاولت المدنية الحديثة العبث به فأخرجته عن حدّ الاعتدال، يبيّن النورسي المعنى الحق للحرية، فيقول: إنّ الحرية الحسناء ما هي إلا تلك المتأدّبة بآداب الشريعة والمتزينة بفضائلها، وليست تلك التعي في السفاهة والرذائل، بل تلك حيوانية وبهيمية وتسلّط شيطاني، ووقوع في أسر النفس الأمّارة بالسوء، وحليّ الفضيلة والتربية الإسلامية، وليست هي مسلك البلشفية أو مذهب الإباحية [23].

وعن مفهوم "العدالة" التي تعظم الحاجة إليها في ميدان السياسة، يبيّن النورسي كم عبثت المدنية الحديثة بهذا المصطلح، فوصف المدنية بأنّها مضللة للعدالة في سبيل إرضاء الزندقة والإلحاد فتراها تلاحق من ينطق بالحقّ، ويدعو الناس إلى نور القرآن [24]. أقول: وما الشعاع الرابع عشر إلا بيان لعوار سياسة المدنية الحديثة التي تضطهد الرأي الآخر ولا تسمح له بالبقاء والوجود.

يجب أن تتحقّق العدالة والحرية على المستوى الشخصي فيعبّر كل إنسان عن رأيه دون كبت أو اضطهاد، لكن المدنية الحديثة لم تسمح حتى بأبسط هذه الحقوق، ويعبّر النورسي عن هذه الحقيقة بأجلى بيان حين يذكر ردّا على ما اتخذته محكمة التحقيقات وقرار مجلس الوزراء من منع نشر رسالة المعجزات القرآنية لورود شرح ثلاث آيات قرآنية، هذا الشرح يعارض القانون المدني الحالي ويصادم المدنية، وهي آية الحجاب وآية "**فلأمّه السدس**"، وآية "**فللذكر مثل حظ الأنثيين**" [25]. فالتساؤل هنا قائم على مدى قبول أخلاقيات سياسة العولمة للرأي الآخر!!

لقد أعلن النورسي رحمه الله أمام محكمة آفيون وحذّر كل التحذير من الانقياد لقوانين ودساتير غير أخلاقية للمدنية السفيهة، إنّها قوانين جائرة وحشية كما هي في البلشفية، وحذّر من الانحياز إليها تحت ضغوط أعدائنا ودسائسهم، فليس هناك قانون في العالم كلّه ولا إنسان يملك ذرّة من الإنصاف يُكره الآخرين على قبول ما عندهم بترك ما عندنا [26].

إنّ من شأن اتباع دساتير الغرب وقوانينه أن يؤدّي إلى إنكار جوهر الحياة الاجتماعية الإنسانية لا سيما للأمّة الإسلامية الذي يقوم على المحبّة الخالصة بين الأقرباء، والرابطة القوية بين القبائل والطوائف، والأخوّة المعنوية التعاونية تجاه اخوته المؤمنين، ووجود علاقة فداء نحو قومه وجنسه، ووجود رابطة قوية لا تمتز مع الحقائق القرآنية، إنّ إنكار كل هذا يؤدّي إلى قبول الخطر الأحمر الذي يتربص بنا في الشمال الذي يبذر بذور الفوضى، ويحاول القضاء على الأجيال وعلى القومية، ويحاول إزالة شعور القرابة وشعور القومية، وإفساد المدنية البشرية والحياة الاجتماعية إفسادا تاما[27].

إنّ الحلّ في نظر النورسي يكمن في نبذ تقليد أوروبا، ونبذ التمسك بأذيال قيمهم ورقيّهم، ونبذ الاستبداد، لأنّه لا يأتي بالأمن ولا بالاستقرار، ويخاطب من يدعو إلى تلقف عولمة المدنية الحديثة في شتى المجالات بقوله: إن كانت غايتكم من سوق المؤمنين قسرا إلى المدنية تسهيلا لإدارة دفة النظام وبسط الأمن في ربوع المملكة، فاعلموا جيدا أنّكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد، لأن إدارة فئة من الفاسقين الفاسدين أخلاقيا، والمرتابين في اعتقادهم وإيمانهم، وجعل الأمن والنظام يسود فيما بينهم لهو أصعب بكثير من إدارة ألوف الصالحين المتقين، ونشر الأمن فيما بينهم[28].

ويوضح أكثر أن الأمن السياسي لن يتحقق باتباع مفاهيم العولمة، ويقرر بكل صراحة أن المسلمين ليسوا بحاجة إلى من يحثهم على حب الدنيا والحرص عليها كما تسعى إلى ذلك العولمة، ولا يحصل الرقي والتقدم ولا ينشر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا الأسلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبث الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم، ولا تتم هذه الأمور إلا باتباع الأوامر المقدّسة في الدين والثبات عليها من التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته [29].

إنّ العودة إلى الذات والانطلاق من مقومات التصوّر الإسلامي والتخلّق بأخلاقيات القرآن الكريم كفيل بأن يرقى الأمة إلى خير مما عليه مدنية الغرب ويرى أنّ القوى الخمس التي تؤهل الإسلام للرقي المادي تتمثل في قوّة الحقيقة الإسلامية والحاجة الملحة، والحرية الشرعية، والشهامة الإيمانية، والعزّة الإسلامية [30].

ويرى النورسي — كذلك - أن المسلمين لو أظهروا بأفعالهم وسلوكهم مكارم أخلاق الإسلام، وكمال حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان في الإسلام جماعات وأفواجا، بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام، إن البشرية التي أخذت تصحو وتتيقظ بنتائج العلوم والفنون الحديثة، أدركت كنه الإنسانية وماهيتها، وتيقنت أنه لا

يمكنها أن تعيش هملا بغير دين، بل حتى أشد الناس إلحادا وتنكرا للدين مضطر إلى أن يلجأ إلى الدين في آخر المطاف... وما لم يوجد في صدفة القلب جوهر الدين الحق، فسوف تقوم قيامات مادية ومعنوية على رأس البشر، وسيكون أشقى الحيوانات وأذلّها[31].

بل يذهب النورسي – وفق معطيات الوحي – إلى أبعد من ذلك، ويتنبأ بظهور المدنية الإسلامية بقوله: لما كانت مدنية أوروبا لم تتأسس على الفضيلة والهدى، بل على الهوس والهوى، وعلى الحسد والتحكم، تغلبت سيئات هذه المدنية على حسناتها إلى الآن، وأصبحت كشجرة منخورة بديدان المنظمات الثورية الإرهابية، وهذا دليل ومؤشر قوي على قرب انهيارها، وسبب مهم لحاجة العالم إلى مدنية آسيا الإسلامية التي ستكون لها الغلبة عن قريب [32].

إنّ العولمة في صورتها المعاصرة عند النورسي تسير باتجاه بعيد جدا عن حكمة الخلق وغايته، فيقول: يامن يدعو المسلمين إلى الدنيا أخطأت، أتحسب أيّها الغافل أن المطلوب بالذات من الإنسان عمارة الدنيا، واختراع الصنايع وتحصيل الرزق، وغير ذلك مما يعود على الدنيا؟ والحال أن صاحب الملك الذي أمره بين الكاف والنون يقول بقول يصدقه الوجود والكون والواقع وتجهيزات الفطرة الإنسانية "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" [33].

إنّ التصور الصحيح للسياسة في فكر النورسي هو ان تكون السياسة عاشقة لنور حقائق القرآن الكريم [34].

المبحث الثالث

أخلاقيات العولمة في ميدان الاقتصاد

إنّ الميدان الاقتصادي هو من أخطر ميادين العولمة إن لم يكن أخطرها على الإطلاق، لما له من أثر على مختلف ميادين الحياة الإنسانية، لأنه يعني بكل وضوح هيمنة النمط الاقتصادي الغربي بكل نظرياته وسلوكياته على شعوب الأرض وأممها وهو ما عبّر عنه بعض منظري فكر العولمة بقوله: نحن أمام معارك سياسية وحضارية فظيعة، العولمة هي الأمركة، والولايات المتحدة قوة مجنونة، نحن قوة ثورية خطيرة، وأولئك الذين يخشوننا على حق، إنّ صندوق النقد قطة أليفة بالمقارنة مع العولمة، في الماضي كان الكبير يأكل الصغير، أما الآن فالسريع يأكل البطيء [35].

على الرغم مما يبدو من رفاهية ورغد عيش تنعم بها المدنية الحديثة صاحبة مشروع العولمة إلا أن العالم الإسلامي معرض عنها كل الإعراض – كما يقول النورسي – والسبب أنها كبّلت المسلمين بالأغلال، بل صارت سمّا زعافا للإنسانية بدلا من أن تكون لها ترياقا شافيا، إذ ألقت ثمانين بالمائة من البشر في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة في سعادة مزيفة، وتعيش العشرة الباقية في حيرة بين هؤلاء وهؤلاء، وتتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة [36]. لأن مبدأ العدالة منتف تماما من نظمها الاقتصادية، ومن أخلاقياتها تجاه بني الإنسان، فتجمع الأرباح في أيدي ثلة من الناس بسبب الربا الذي يمثل "إيدز" الاقتصاد لهو دليل قاطع على تجرّد العولمة عن أي أساس أخلاقي.

وكما أن دعاة العولمة هم في ميدان السياسة وحوش ضارية، وذئاب جائعة، وكلاب مسعورة، كذلك هم في ميدان الاقتصاد على حدّ تعبير النورسي الذي يقول إن معظم هؤلاء المدنيين لو قلبت باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدبّ والخنـــزير [37] بسبب فقدان العولمة بوصلة الاتجاه الذي يدلّها على الإيمان، ويكسبها ثوب العفة والفضيلة والرحمة والشفقة تجاه بني جنسهم.

إنّ المدنية الحديثة قد أطلقت العنان لشهوات النفس وحظوظها غير آبهة بما يعرف بالاقتصاد الذي هو العزّة والكرم بعينه، بينما الخسّة والذلّة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون المبذرون من سخاء ظاهري، يبيّن النورسي هذا ويقرر أن بعد الحرب العالمية الثانية اضطرت البشرية إلى التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوة [38].

إنّ الإسراف وعدم القناعة وأكل الحرام تتنافى مع الحكمة الإلهية، وأن الاقتصاد والقناعة تنسجم مع الحكمة الإلهية، وعليه ترتكز أخلاقيات النظام الاقتصادي كما يصوّرها النورسي في رسالة الاقتصاد ويبيّن أن اليهود يحصلون على أرزاقهم كفافا بطرق غير مشروعة ممزوجا بالذل والمسكنة بسبب حصرهم وتعاملهم بالربا وإتباعهم أساليب المكر والخداع [39].

لقد انطلق النورسي إلى الاقتصاد في معناه الضيق الذي يعني حدّ الاعتدال في الإنفاق بلا إسراف ولا تقتير: لأن حدّ الاعتدال هذا يؤدي إلى الاعتدال في استثمار المال وتحصيله وإنفاقه، إنه اعتدال يتكئ على جملة من الحقائق القرآنية المتعلقة بالمال والمستندة إلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

أما الاقتصاد في معناه الواسع فقد وضع الأستاذ بديع الزمان قانونا مفاده أن انتعاش الاضطرابات يكون بموت الزكاة وحياة الربا، وذلك أن محرك جميع أنواع السيئات والأخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان:

الأولى: إن شبعت أنا فما لي إن مات غيري من الجوع.

الثانية: تحمّل أنت المشاق لأجل راحتي، اعمل أنت لآكل أنا لك المشقة وعليّ الأكل.

إنّ الكلمة الأولى الغدارة النهمة الشنعاء هي التي زلزلت العالم الإنساني. فأشرف على الخراب، والكلمة الثانية الظالمة الحريصة الشوهاء هي التي هارت بترقيات البشر فأوشك أن تنهار بها في نار الهرج والمرج[40].

ولذلك يقرر أنّ على البشرية قتل جميع أنواع الربا، إن كانت تريد الحياة، ويعالج من خلال الزكاة الإشكالية القائمة بين الخواص والعوام، أو طبقة الأغنياء والفقراء، حينما تنقطع صلة الرحم بين طبقة الخواص والعوام ينطلق من العوام أصداء الاضطرابات، وصرخات الانتقام، ونفثات الحسد والحقد، وتنـــزل من الخواص على العوام نار الحقد والتحكم، ورعد التحقير، هذا كله بسبب إهمال وجوب الزكاة وحرمة الربا المؤديّن إلى انفراج المسافة بين الطبقات [41].

ويقرر النورسي بما هو ثابت بالتجربة وبالرجوع إلى وقائع الأحداث أن دفع الزكاة والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة، بينما الإسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة [42].

المبحث الرابع

أخلاقيات العولمة في ميدان حقوق المرأة

تعنى المدنية الحديثة اليوم بالمرأة وقضاياها، وتوليها اهتماما وعناية فائقة، وتطرح مفاهيم حول حقوقها، ويجب أن ينظر البشر إلى حقوق المرأة من خلال ما تراه المدنية الحديثة، والنورسي ذلك الجبل الشامخ في وجه رياح العولمة يقف على هذا الصعيد مبيّنا عجز هذه المدنية إزاء إعجاز القرآن الذي يتحدّى به كل مفاهيم العولمة في شؤون المرأة وحقوقها.

ومن الأمثلة على ذلك أن المدنية الغربية اليوم تدعو إلى المساواة في الميراث بين الرجل والمرأة، وتستكبر أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين هذا أولا، وأما ثانيا فهي تحرم الأم من الميراث، ومن خلال هذين المثالين يبين النورسي مدى الظلم والإجحاف في الحقوق

المدنية للحضارة الحديثة التي تخالف أحكام القرآن الكريم، ففي قوله تعالى :"**وللذكر مثل حظ الأنثيين**" (النساء: 76) تتجلّى الحكمة والعدالة وعين الرحمة، وذلك أن نفقة المرأة على زوجها واجبة، لهذا نقص نصيبها في الإرث هذا جانب العدل، أما جانب الرحمة فيه، فهو أن الأب لا ينظر إلى ابنته بتلك التي ستذهب بنصف ثروته إلى الأجانب، ولا الأخ يرى فيها منافسة له يمكن أن تبدّد نصف ثروة أبيهما بوضعها في يد الأجانب، وعليه فلا يعكر صفو تلك الرحمة والحماية حقد ولا كدر، ومع أنها تفقد في ظاهر الأمر شيئا قليلا — من المال – إلا أنها تكسب بدلا منه ثروة لا تفنى من شفقة الأقارب وعطفهم عليها ورحمتهم بها" [43].

ويؤكد أن المدنية قد ظلمت المرأة بإعطائها إن كانت بنتا أكثر من حقّها، واقترفت ظلما أدهى وأنكى بحق الوالدات، وذلك بحرمانهن من حقوقهن، وهذا ظلم مريع وعمل إجرامي وإهانة بحقّهن، فان لم يدرك هذا وحوش البشرية الذين يدّعون خدمتها، فإنّ حكم القرآن: "**فلأمّه السدس**" (النساء: 11) هو عين الحقّ ومحض العدل [44]. هذه الكلمات هي التي زجّت برسائل النور مع صاحبها في غياهب السجون!!

ومن الأمثلة الأخرى التي حاولت المدنية الحديثة تعميمها على البشرية قضية التبرج وترك الحجاب بزعم أنه من حقوق المرأة ومن دواعي حريتها التي يجب أن تتمتع بها، وإزاء هذا الوضع يطرح النورسي شعارا يقول: إذا تأنث الرجال بالتهوّس! ترجّل النساء بالتوقّح! ليبين به آفات العولمة على صعيد هذا الحق من حقوق المرأة! لأن في تكشف النساء تكشف عن الأخلاق السيئة في الإنسان المتحضر [45].

إن العولمة — المدنية الزائفة – في فكر النورسي لا ترى في الحجاب أمرا فطريا للنساء، بل تعدّه أسرا وقيدا لهنّ، لذلك قام يبرهن على أن الحجاب مما تقتضيه فطرة النساء، وذلك أن رقّة الطبع وسرعة التأثر في المرأة ترغبهن فطرة في الحجاب حذرا من التعرض والتجاوز عليهن لئلا يكنّ موضع تهمة من قبل أزواجهن فإفساح المدنية السفيهة المجال للتبرج يناقض الفطرة الإنسانية، وذلك للأسباب الآتية:

- إنّ رفقة الزوج للزوجة لا يكون في الحياة الدنيوية فقط، بل هو رفيق لها في حياة أبدية خالدة، فإزاء هذا لا بدّ للمرأة أن تخص زوجها وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها به، والمطلوب شرعا أن يكون الزوجان متكافئين في الدين الذي هو أهم مظاهر الكفاءة، وما دام المصير الذي يربطهما مصير أبدي فتقليد أحدهما للآخر في التديّن أمر

ضروري: لئلا يفقد أحدهما الآخر فالويل والثبور لزوجين يقلّد أحدهما الآخر في الفسق والفجور فيتسابقان في دفع بعضهما في النار.

- إنّ التبرج مخلّ بالثقة بين الزوجين ويؤدّي إلى انبعاث إحساس دنئ وشعور سافل قبيح في النفس، فضلا عما تسببه من زوال ذلك الحبّ الخالص والنظر المحرّم – الذي تتيحه المدنية – إلى مواضع الفتنة في المرأة سقوط مريع للإنسانية تقشعر من بشاعته الجلود.

- إنّ التبرج يحدّ من الزواج، ويقلّل من التكاثر، ويطلق الشهوات من عقالها، وهذا يؤدّي حتما إلى الإفراط وتجاوز الحدود، والى ضعف النسل، وانهيار القوى وانتشار الفاحشة، ولذلك كان من العدل أن تصبح تلك السيقان المدججة بسلاح الفتنة الجارح حطب جهنم يوم القيامة [46].

لقد تفطن النورسي إلى تلك المنظمات السرّية التي تسعى لإضلال الشباب وتعكير صفو الحياة الأسرية، بتذليل سبل الشهوات أمامهم وسوقهم إلى السفاهة والغواية لإفساد المجتمع الإسلامي كذلك، والإضرار بالدين الإسلامي، كما أحسّ بوجود منظمات تعمل في الخفاء، وتسعى سعيا حثيثا لدفع الغافلات من النساء إلى طرق آثمة، وأدرك أن ضربة قاصمة على هذه الأمة الإسلامية تأتي من تلك الجهة في مقابل هذا كله يطرح النورسي التربية الدينية بوصفها علاجا فعّالا لمقاومة أخلاقيات العولمة على صعيد ما تطرحه العولمة للمرأة من حقوق، فيدعو إلى التأدب بالآداب الإسلامية هذا أولا، وأما ثانيا: فأن تسعى الزوجة لإكمال نقص زوجها إن رأت منه انحرافا لا أن تقابل انحرافه بانحراف آخر من جهتها [47].

وحاربت المدنية الحديثة تعدّد الزوجات بوصفه مظهرا يدلّ على التخلّف وأنّه ينافي حقوق المرأة، فيذكر النورسي أن هذا الموضوع لم ترّ فيه المدنية مسايرة لما تدعو إليه، ويبيّن إنّ هذا الأمر يتعذر رفعه، لأنّه مستأصل في الطبيعة البشرية، ولو رفع لاقتضى قلب الطبيعة البشرية رأسا على عقب، لأنّ تعدّد الزوجات إلى أربع موافق لطبيعة الإنسان والعقل والحكمة، لقد عدّلت الشريعة ما كان سائدا أيام الجاهلية، فلم تشرّع التعدّد من الواحدة إلى الأربعة ابتداء، بل نـــزلّتها ونقّصتها من الزوجات الثمانية والتسعة إلى الأربعة، ووضعت شرائطها في التعدّد بحيث لا تؤدّي مراعاتها إلى ضرر ما، وحتى ما حصل في بعض النقاط شرّ، فهو شرّ أهون، وأهون الشرّ عدالة نسبية، إذ الخير المحض لا يمكن أن يحصل في جميع أحوال العالم .[48]

إنّ هؤلاء الأجانب قد سلبوا منّا أموالنا الثمينة وأوطاننا بثمن بخس دراهم معدودة مزوّرة، كذلك فقد سلبوا منا قسما من أخلاقنا الرفيعة وسجايانا الحميدة التي بها يترابط مجتمعنا، وجعلوا تلك الخصال الحميدة محورا لرقيّهم وتقدّمهم ودفعوا إلينا نظير ذلك رذائل طباعهم وسفاهة أخلاقهم [49].

الخاتمة

وبعد، فأحمد الله تعالى على إعداد هذا البحث، الذي أتاح لي فرصة التعرّف أكثر فأكثر على شخصية واحد من أهم المصلحين الإسلاميين في العصر الحديث، لنصل إلى جملة من النتائج الهامة في موضوع تصدّيه لخطر العولمة التي تفطن لها في وقت مبكر جدّا، ومن أهمّ هذه النتائج:

أولا: إنّ التكتل في نظر النورسي هو الجدير بأن يقف في وجه العولمة، وقد تبيّن من خلال كلامه أن الإسلام وشريعته الغرّاء هي التي تظهر ثباتنا وكمالنا وتحقّق وجودنا أمامنا الأجانب، وتنقذنا من تبعات الدنيا والآخرة، وتؤسس الاتحاد العام الشامل، وتحول دون دخول مفاسد المدنية إلى حدود حريتنا ومدنيتنا، وتنجينا من ذل التسّول من أوروبا، وتطوي لنا المسافة الشاسعة التي تخلفنا فيها عن الرقي في زمان قصير بناء على سرّ الإعجاز وترفع من شأننا في زمن قصير بتوحيد العرب والطوران وإيران والساميين، وتظهر الشخصية المعنوية للدولة بمظهر الإسلام [50].

ثانيا: إنّ الاستفادة من العولمة أمر ممكن ولكن تحت شعار "خذ ما صفا دع ما كدر" الذي طرحه النورسي متنبها إلى بعض إيجابيات المدنية الحديثة.

ثالثا: إمكانية النهضة وفق حقائق الإسلام ومظاهر القوة المتعدّدة فيه يجعل من المدنية الإسلامية أثبت وأرسخ من المدنية الغربية التي تنبأ النورسي بسقوطها وتلاشيها.

رابعا: رفض كل ما تقدّمه العولمة على صعيد السياسة، بل رفض السياسة من المنظور الغربي، والبديل لذلك سياسة تعشق حقائق القرآن، وتفيض على الناس بالحرية والكرامة والشورى والأمن.

خامسا: على صعيد الاقتصاد حارب النورسي العولمة التي تقوم على الربا، ودعا إلى دفع الزكاة لتجنب ويلات اجتماعية خطيرة.

سادسا: إنّ ما حدّدته الشريعة من حقوق للمرأة في الميراث والحجاب وتعدّد الزوجات هو الحق وهو الكمال الملائم للفطرة وللطبيعة الإنسانية، ورفض رؤية العولمة الغربية في هذا المضمار.

سابعا: تلاعبت العولمة كثيرا بالمصطلحات والمفاهيم الحضارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، فوقف النورسي يصحّح هذه المفاهيم على أسس القرآن الكريم وهدايته، وكشف عوار العولمة وتزييفها وخداعها الناس بما تطرحه من شعارات ومصطلحات ومفاهيم مغلوطة.

الهوامش

1 بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، ترجمة إحسان الصالحي (1992)، سوزلر للنشر. استانبول. ص: 855

2 انظر النورسي: الشعاعات، ترجمة إحسان الصالحي (1993)، سوزلر للنشر، استانبول، ص: 283-284

3 انظر : تقديم الأستاذ فتح الله كولن للمثنوي العربي النوري (1994)، تحقيق إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، ص، ت

4 انظر: النورسي، المثنوي العربي النوري، ص: 191

5 انظر: المثنوي، ص: 268-269، 9،361،338،3

6 بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، ترجمة إحسان الصالحي (1993)، سوزلر للنشر، استانبول، ص: 178

7 بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، تحقيق إحسان الصالحي (1995) سوزلر للنشر، استانبول، ص: 352

8 انظر: المثنوي، ص: 360 وانظر: النورسي: الملاحق، ترجمة إحسان الصالحي، سوزلر للنشر، استانبول، ص: 352

9 النورسي: المثنوي، ص: 226

10 انظر: صيقل الإسلام، ص: 444

11 انظر: النورسي، الشعاعات، ص: 431

12 انظر: النورسي، الملاحق، ص: 286

13 انظر: النورسي، صيقل الإسلام، ص: 468، 530

14 النورسي، الملاحق، ص: 377-378

15 النورسي، صيقل الإسلام، ص: 467

16 انظر: النورسي، الشعاعات، ص: 346،347

* كما حصل مع شعب الأفغان مؤخرا من قتل وتشريد وتدمير مدن وقرى ومساجد ومدارس ومستشفيات.

17 النورسي: المثنوي، ص: 181

18 انظر النورسي، الكلمات، ص: 85

19 انظر النورسي: المكتوبات، ترجمة إحسان الصالحي (1992) سوزلر للنشر، استانبول ص: 58-59،70

20 النورسي، المثنوي، ص: 183
21 النورسي، الملاحق، ص: 317
22 النورسي، صيقل الإسلام، ص: 462
23 المرجع السابق نفسه، انظر: ص: 392-394
24 انظر: الشعاعات، ص: 433-436
25 المرجع السابق نفسه، انظر، ص: 461-465
26 نفسه، ص: 467
27 نفسه، ص: 465
28 انظر: النورسي، اللمعات، ص: 186-188
29 المرجع السابق، نفسه، ص: 188
30 النورسي، صيقل الإسلام، ص: 499-500
31 المرجع السابق نفسه، ص: 494
32 نفسه، ص: 501
33 النورسي، المثنوي، ص: 276
34 النورسي، المكتوبات، ص: 61
35 أحمد درويش: تحديات الهوية العربية بين ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، مجلة المسلم المعاصر، العدد 98/ 2000،ص: 7
36 انظر: النورسي، الكلمات، ص: 856
37 المرجع السابق نفسه، ص: 855
38 انظر: النورسي، اللمعات، ص: 217،224
39 المرجع السابق نفسه، ص: 221
40 انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، تحقيق إحسان الصالحي (1994) سوزلر للنشر، استانبول، ص: 54
41 المرجع السابق نفسه، ص: 54-55 وانظر الكلمات، ص: 851
42 النورسي، اللمعات، ص: 223
43 انظر: النورسي، المكتوبات، ص: 48-49
44 المرجع السابق نفسه، ص: 49
45 نفسه، ص: 612
46 انظر: النورسي، اللمعات، ص: 299-304
47 المرجع السابق نفسه، ص: 310-311
48 انظر: صيقل الإسلام، ص: 425-426
49 المرجع السابق نفسه، ص: 513
50 نفسه، انظر: ص: 525

نظرة سعيد النورسى
إلى عصر النهضة وعلم الكلام

د . عادل محمود بدر(*)

مدخـــل :

إن ولوج العالم الروحي للنورسى، إنما هو دخول إلى محيط متلاطم الأمواج، عميق الأغوار، بلغ شأوه العالي انطلاقاً من روح القرآن الكريم، واستبطاناً لآياته البينات، بعد أن عايشها النورسى روحياً وفكرياً، فأفرزت معايشته طاقات من الأنوار الإلهية استغرقت الدنيا شرقاً وغرباً، ثم انسابت عزبة رقراقة حتى تجسدت على الأوراق في صورتها المعروفة "برسائل النور". وهى رسائل تعبر عن الحقائق الكونية كما هي في طبيعتها التي جُبلت عليها، وتنظر إلى الوحي كما أراده من نـــزل عليه صلى الله عليه وسلم، معبرة بذلك عن شمولية الروح التي كانت أصلاً لها. وهى من هذا المنطلق الثرى تحيل العقيدة وما يرتبط بها من علوم وأفكار من دائرة الآلية والسكون، إلى دائرة الحيوية والحركية، ومن ربقة القيود والصمت والجمود، إلى فضاء الحرية والإعلان والفاعلية، وتلك لعمري هي علامات الفكر الحي، ودلالات التجربة الحية التي يُعد الفكر ترجمة لها. وأحسب أن هذه الروح التي ترتبط بفكر النورسى، إنما هي روح الفلسفة التي ترتكز على التجاوز والتعدي والقفز، في مقابل علم الكلام بتقليديته التي تقوم على اللاتجاوز واللاتعدي والجمود، لمحدودية هذا العلم داخل دائرة الحجاج الجدلي للعقل التجريدي من ناحية، وانحصاره داخل الإطار التبريري للعقائد من ناحية، وقيامه على منهج سكوني جامد في كلامه عن مسائل الوحي الحيوية كالله والنبوة وغيرها من ناحية ثالثة، وهو أمر

(*) أستاذ الفلسفة المساعد، جامعة طنطا – مصر

لم يفلت منه النورسى نفسه في بعض الأحيان، رغم معايشته الحية للقرآن الكريم ومنهجه. لهذا السبب لم يقنع علم الكلام القديم روح النورسى المتأججة بنار الإصلاح والتجديد، لأن علماء الكلام رغم اعتمادهم على الوحي الإلهي إلا أنهم عجزوا عن الفهم الحقيقي لآياته بما يتكشف عنه من روح القناعة والاطمئنان، فانغلق علمهم عليهم، وصار علم الكلام علماً دجماطيقياً مغلقاً يعتمد اصطلاحياً على قواعد خاصة بأصحابها ترتد في جوهرها إلى صراع عصور ماضية. ولذا تتصف فلسفة النورسى بالتجاوز لأنها تتعدى أفق الحدود المرسومة والدوائر الاصطلاحية المغلقة، إلى فضاء علمي مفتوح تتناغم جزئياته، وتتفاعل ظواهره، وتشعر فيه الذات الإنسانية بالأنس الحقيقي مع الكائنات جميعاً، فترهف السمع إلى حركاتها وسكناتها وأناتها، وينشأ لدى الذات المتناغمة مع الكون كله، ما يسمى "بالوعي الكونى" الذي تجد فيه الذات نفسها، في انسجامها مع ذرات الوجود، بعد أن كانت تشعر بالحيرة والضياع في بيداء ظلمات المادية والكفر والانحراف والمحدودية المادية. ومن ثم فهي تنشب بأظفارها في لحمة الوجود الحي الذي يعبر عنه الوحي في بكارته ونضارته، وهى تبحر نحو الأعماق، وتحلق نحو الأعالي لتتلمس روح العقيدة في بساطتها، وتترجم عن مكنون الوحي في رهافته، وتعانق آياته الكريمات التي تشبه كل واحدة منها عصا موسى التي تفجر الماء متى وأينما ضربت، وتفتح من كل شئ نافذة تدل على الصانع الجليل وتعرّفه، كما عبر النورسى نفسه في كلماته[1]، بما يشبه التعريف الصوفي عن الحدس والبصيرة. وذلك هو السبب في تخطى النورسى للحد الفاصل بين المحدود واللامحدود، تاركاً خلفه القوالب التقليدية لعلم الكلام التجريدي التبريري محطماً لها، ليبنى فوق قوالبها الجامدة المنهج الحيوي القرآني لتثوير العقيدة في داخل الروح الإنساني فرداً وجماعة على المستويين النظري والعملي التطبيقي، في انطلاق من روح القرآن الكريم التي رفضت بشكل مطلق الفصل المقيت بين النظر والعمل.

لهذا كان النورسى واعياً بأن إصلاح الداخل أو الفرد أو النفس الإنسانية أو القلب هو الأساس الذي ينطلق منه البناء، لأن الخراب بدأ في القلب، ولهذا لزم البدء بإصلاحه، ومن ثم فشل كل من يحاول البناء دون أن ينطلق من الداخل، من الذاتية، لهذا بدأ الرجل بإصلاح ذاته، فمن لا يصلح نفسه لا يمكنه إصلاح الغير، وإرشاد الغير ينطلق من رشاد أنفسنا أولاً، ولذا كانت الأنا أو الذات الإنسانية هي محور الرؤية الأخلاقية عند النورسى

أو هي القاعدة التي ينطلق منها البناء الأخلاقي لديه. ومن ثم كانت نظرتي لفكر النورسى تابعة لكونه لم يهدف إلى تحديد علم بذاته، وإنما كان يهدف إلى تحديد حيوية العقيدة في القلوب، في الداخل، في الشعور، وعندئذ تنبثق العلوم في منظومة حيوية تنطق بما تحمله العقيدة الصحيحة من حيوية و قدرة على إحداث الانطلاق والتغير. ومن ثم كان نقده لنهضة أوروبا الحديثة مواكباً لنقده لعلم الكلام التقليدي، لأنه رأى فيهما معاً تجسيداً لخواء التجربة الروحية الناتج من الإنحلالية على المستوى الحياتي في الأول، والجمود العقلي التجريدي على المستوى النظري في الثاني. فرؤية النورسى تنطلق من جانب نقدي يقوم على السلب والإيجاب كانت مهمته تشييد قاعدة البناء التي تعبر عن التجربة النورانية الحية مع آيات القرآن الكريم. وبعد، فلما كان للفكر جدل باطني يسير به إلى الإمام، حيث يقف كل مفكر من رؤى سابقيه موقف المحاور من زاويته الخاصة، فيرفض منها ما لا يراه من خلالها، ويثبت ما يراه هو في نفس المسائل المطروحة، ولما كان تاريخ الفكر يمثل منبعاً هاماً من منابعه، إذ لا ينفصل الفكر عن تاريخه، فهو دائم الاطراد بأفكار روافده، وإذا كان القفز إلى الأمام غير مجدٍ إلا إذا سبقه تراجع إلى الوراء، فحاضر الفكر يتجدد بمدى الجدوى التي حصلناها من ارتدادنا إلى ماضيه، وإذا كان تاريخ الفكر من ناحية أخرى ليس إلا رمزاً يعاد فهمه، أعني رمزاً يسّمح بتعدد الرؤى، أو بتعدد زوايا الرؤية لثرائه بالدلالات، وإذا كانت الحقيقة، أيا كانت لا يمكن أن تفض في صورة واحدة، لأنها ليست أحادية الجانب، وإنما تعبر عن تعددية الاتجاهات إلى ما لانهاية، وإذا كان الرمز يولد الحرية، حرية الوعي في إبداعه للمعنى وإعادة البناء، وإذا كانت القراءة هي إعادة تجديد لروح الفكر، حيث يتجدد ما هو قديم بإعادة فهمه ورؤيته من جديد، وإذا كان الفكر في نهاية الأمر إمكاناً يعاد خلقه، وإذا كان فهماً للفهم، فليس هناك ما يمنعنا اليوم من تناول ما تناوله السابقون بالبحث والدراسة، وفق رؤية نقدية، فهذا ما يثرى الفكر ويسمح بحياته واستمراريته. وأحسب أن هذا هو الطريق الأمثل لإثراء رؤيتنا لفكر الإمام النورسى ولعالمه الروحي المديد.

أولا : رؤية النورسى للنهضة الأوروبية الحديثة

يقف الإمام النورسى من النهضة الحديثة موقفاً نقدياً يقوم على السلب والإيجاب. ويجسد في البداية الأسباب الحقيقية وراء نهضة أوروبا وتقدمها مجملاً إياها في ضيق المكان وكثرة السكان ولطافة المناخ، وتواجد الحديد في أراضيها، مع ازدياد الحاجة التي هي أم الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع والميل إلى المعرفة[2]. ويربط الإمام ربطاً محكماً بين التعارف التجاري الذي ولده ضيق المكان في أوروبا، والتعاون المشترك في الأعمال، وبالتالي في الأفكار، لأن التماس يولد تلاحق الأفكار والمنافسة والتسابق[3]، وبالجملة ينتج عنه الإبداع ثم يرى أن الدول الأوروبية تشكلت بفعل العلم، الذي حقق نوعاً من التوازن بينها مما أدى إلى نمو استعدادات الأوروبيين وتفجرت لديهم المزايا والفكر القومى، والنورسى يطبع كل أسباب النهضة الأوروبية بالطابع الفطرى، ثم يحدد نقطة استناد هذه النهضة، فيرى أن الأوروبي يجد وراءه نقطة استناد قوية تعزز قوته المعنوية وتبعث فيها الحياة، حيث يجد في نفسه من القوة ما يمكنه من اقتحام عظيم الأعمال وأصعبها، وهى مدنية أوروبا التي يردها إلى الكنيسة مرة وإلى النصرانية مرة، فيرى" أنها معسكر كتلة مسلحة وكنيستها العظيمة، وهى مستعدة في كل آن أن تنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديها من كل صوب..."[4] والنورسى هنا يقدم حكماً قيمياً لا يصدق بالدرجة الأولى على حقيقة المدنية الأوروبية التي هي صنيعة الرأسمالية والمذاهب النفعية والبراجماتية والداروينية، فبدايات هذه النهضة كانت ثورة على كل ما هو كنسي وما هو نصراني. وهذا الحكم ربما تولد في ذهن النورسى من رؤيته لمدنية أوروبا على أنها موجهة، من حيث كونها كتلة مسلحة – نحو قطع" الشريان النابض للمسلمين "، وذلك لأنها – أي هذه المدنية –" قد عجنت بتعصب محاكم التفتيش المدنية الماكرة، والإلحاد النابع من الفكر المادي"،[5] ولأن ذلك موجه إلى مسلمين، فلابد وأن يكون صادراً عما هو مناف في جوهره للعقائد الإسلامية، وهى الكنيسة أو النصرانية، وربما يصير هذا صادقاً، إذا كانت دول أوروبا دينية وليست علمانية كما هي منذ بزوغ نهضتها العلمية.

ويبين الإمام النورسى في الجانب السلبي مثالب الحضارة الغربية حاصراً إياها في دائرة مركزها النـــزعة الإلحادية أو الموقف السلبي من الأديان، وهو ما نتج عنه مضاعفة

عيوبها، لأنها ناقضت دساتير السماء، بل حاربتها، مما أدى إلى إيقاع البشرية في فقر مدقع، الأمر الذي ضاعف من حاجاتها، مع تماديها في الحرص والإسراف والطمع، فانتشرت الرذائل وانحطت الإنسانية إلى أسفل سافلين بعد أن كانت في عليين[6] ويخلط النورسى بين الكسل والخواء الروحي الذي أحدثته المدنية الأوروبية، نتيجة السقوط في هاوية الترف والدعة والانحلالية، وبين الكسل الذي يقعد عن العمل ويؤدى إلى التقاعس الرهيب، ذلك أن النهضة لا يمكن أن تتوافر ظروف تحققها إلا بالعمل الدؤوب في كل المجالات... ولعل الإمام كان يقصد بشيوع الكسل ما ينتج عن النـــزعة الاستهلاكية من كسل في فهم حقائق ظواهر الكون، التي تنطق بمعنى الألوهية، وتنافى الإلحاد الذي صاحب المدنية[7].

وبرغم ما أنجزته المدنية الأوروبية من نعم ربانية في ساحة العلم، إلا أن هذه النعم قد استغلت بشكل عكسي فأدت إلى الكسل والسفاهة، إذ ذكت نار الأهواء النفسية وأثارت كوامن الشهوات وأدت للذي أشرت إليه آنفا من قعود الإنسان عن الكد والسعي والشوق إلى العمل، ثم تسوقه بعدم القناعة إلى الظلم وارتكاب المحرمات وإلى السفاهة والإسراف[8] .

ومن ناحية أخرى فربما ظهر الخلط واضحا عند الإمام النورسى في اعتباره الإلحاد كنتيجة من نتائج تطور العلم التجريبي في أوروبا، إذا الثابت تاريخيا أن النـــزعة الإلحادية قد تولدت عن ثورة العقل على الأفكار الكنسية التي أسقطت أوروبا في تخلف وجهالة العصور الوسطى لأنها تناقض روح المنهجين العقلي والتجريبي معاً، فوقفت حجر عثرة أمام تطور العلم،مما أدى إلى فقدان الثقة الكامل في جدوى هذه الأفكار.ومن ثم كان الإلحاد تابعا بالدرجة الأولى لفقدان هذه الثقة في تعاليم الدين المسيحي وأفكاره ممثلة في الكنيسة، وما تابع ذلك ودعمه من شيوع الترف والرفاهية التي صاحبت النهضة، حتى أزاح الإنسان الدين ظناً منه أنه قد أصبح سيد الكون دون الله تعالى[9] . ولا ينسى النورسى – في دائرة نقده للنهضة الحديثة وما صاحبها من مدنية ارتبطت بنـــزعة الإلحاد سواء بالثورة على الكنيسة كما أشرت، أو بشيوع الترف والدعة التي أدت إلى ذات النتيجة – أن يقسم أوروبا ذات النهضة إلى قسمين: فهي من جانب أوروبا المسيحية التي تدين بالدين المسيحي، وأوروبا العلمانية التي أفرزت، كما أشرت آنفا،

التيارات الوضعية والعقلانية، وما واكبها من تفريعات برجماتية و داروينية وماركسية وغيرها ...الخ تميزت بالأفكار المادية البحتة. فالإمام في صورته الجديدة، صورة "سعيد الجديد" عندما أراد أن يضع عن كاهلة صورته القديمة المثقلة بأعباء الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة، رأى في حواره مع الشخصية المعنوية لأوروبا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس منحازه لصالحها، أن أوروبا اثنتان " إحداها هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، وبما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، وثانيها أوروبا التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها وتوهمت مساوءها فضائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة"[10]

فالرجل يؤطر الحضارة الأوروبية ما بين إطار نافع خادم للبشرية، وهو إطار الفنون والعلوم التي استمدتها من المسيحية، وإطار فاسد أفقد الإنسان سعادته وأورثه لباس الشقاوة، وهو الإطار المادي العلماني الذي أسقط البشرية في أوحال الإلحاد وترك الإنسان معذباً رغم ما قد يملكه من ثروات هائلة، وترفله في زينة خارقة ظاهرة، فهو المصاب في روحه وفى وجدانه وعقله وقلبه بمصائب هائلة[11] والإمام يضع يده على حقيقة صارت جوهرية بالنسبة للروح الأوروبي، وهى أن الإنسان الأوروبي يفتقر للسعادة رغم كل ما تقدم، وشقوته ترتد إلى ما وصلت إليه حضارته من مدنية وآلية أفقدتها نضارتها فدب الوهن فيها فشاخت لبعدها عن إطارها الروحي وعبوديتها لنـــزعات الإلحاد والعلمانية، فثقافة الفلسفة الأوروبية، في طور المدنية التي قننها اشبنجلر فيلسوف الحضارة، أبعدت الإنسان عن صفاته الحقيقية. والواقع أنه لما سادت فلسفة أوروبا، ولما عم الفكر الغربي وجدنا الإنسانية تسقط في حمأة هذه النتائج السلبية. وأدى شيوع هذه النتائج في مداها الأعلى، إلى تهديد سلام العالم، بعد أن صارت الأفراد والحكومات تجرى وراء رغباتها الجامحة، ونتج عنها أعلى صورة من صور الوحشية التي تعادل في قسوتها جميع الآثام والشرور في العصور الماضية، والإمام يعبر ببلاغة عن هذه الصورة في قوله في السنوحات " لقد قاءت هذه المدنية وحشية فاقت جميع القرون السابقة" [12] ويواصل الرجل تحليله لنتائج المدنية الغربية، فيرى أنه إذا كانت الحروب الطاحنة التي عانت منها البشرية تولدت عن العقلية الغربية المتخمة بفلسفتها العقلية المادية، فإن هذه المدنية أورثت نتائج أوسع أفسدت الهدف منها هي ذاتها" فالمدنية

الحاضرة الغربية، لسلوكها طريقاً مناقضاً لأسس دساتير السماء وقيامها بمناهضتها، فقد طفح كيل سيئاتها على حسناتها وثقلت كفة أضرارها على فوائدها. فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، وأقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها. حيث قد حلت بسببها نوازع الإسراف والسفاهة محل بوادر الاقتصاد والقناعة..."[13] وبفقدان المدنية الحديثة لقوانين السماء اضطربت حياة الإنسان وبدأت في الظهور دعاوى الهيمنة والتسلط والاستغلال وانتشر الاستعمار سحقاً للضعفاء من البشر واستغلت ثرواتهم ومواردهم، وانشطر العالم بين مستعمر مسرف في شره مفرط في ترفه، ومُستعمَر شديد الفقر يعيش على الكفاف، وبين مستبد ظالم، وفاقد لحريته مظلوم، مما أدى إلى غياب الحق والعدل من أرجاء المعمورة البشرية، وحل الحقد مع زوال المحبة والاحترام المتبادل بين الأمم إنسانياً واجتماعياً، كما اختل توازن الثروة والدخل بين مجتمعات غنية وأخرى فقيرة، بسيادة العقلية الغربية التي أفسدت السعادة الدنيوية التي أمل فيها البشر لتحقيق مدنيتها الحقيقية.

ويتابع النورسى نقده للنهضة الحديثة، فيرى أن ما تولد عنها من فقدان الإنسان لسعادته واطمئنانه، ثم انسحاقه تحت وطأة عنفوانها المادي، إنما يرتد إلى الأسس التي تقوم عليها هذه النهضة، ويحصرها الإمام في خمسة أسس تتناقض في جوهرها مع الأسس الحقيقية التي تأمرنا بها المدنية المتولدة عن الشريعة الإسلامية، وهى:[14]

1- الإيمان بالقوة والكفر بالحق الذي تنطلق منه مدنية الشريعة، مما أدى إلى الاعتداء والتجاوز على الأمم الأخرى، والخيانة للموازين العادلة والمعاهدات الصادقة والتصرفات المستقيمة، وبالجملة غياب العدالة والتوازن التي تنادى بهما مدنية الشريعة.

2- الإيمان بالمنفعة التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة التي تنادى بها مدنية الشريعة، وتؤمن بنسبية الأخلاق التابعة لفلسفة المنفعة التي أدت إلى التزاحم والتخاصم الذي جنى على حقوق الأفراد والجماعات في مقابل ما تؤديه الفضيلة في مدنية الشريعة من محبة وتجاذب.

3- تقوم المدنية الحديثة على الجدال والصراع الذي يؤدى إلى التنازع دون التعاون فهي تقوم على الصدام الحيواني في المنافسة والمدافعة، مقابل التعاون والتساند والاتحاد في مدنية الشريعة.

4- الإيمان بالرابطة القومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين وتؤدى إلى سيادة العنصرية والتصادم.

5- الانحلالية المواكبة لإزكاء الأهواء والشهوات، التي أسقطت الإنسان في عبوديته لأنانيته وتحوله إلى مسخ، بتبدل فطرته، وهبوطه إلى مرتبة أدنى من الحيوانية، لأنه صار عبداً لتشجيع المدنية الحديثة لهوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها وتسهيل مطالبها، فسقط الإنسان" من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية، وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً" حسب التعبير الحرفي للإمام، وهذا ضد مدنية الشريعة التي تضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على خدمات البشر، إذ الهدى يرفع الإنسان إلى مراقي الكمال، لأنها بتحديدها للهوى تطمئن الروح وتشوقها للمعالي. وإذا كانت نـــزعة الانحلالية الحديثة قد امتهنت مكانة المرأة وكرامتها، باعتبارها مجرد متاع مبذول، وما تابع ذلك من تبذل وإباحية مدمرة لكيان المجتمع، فإن مدنية الشريعة قد رسخت مكانة المرأة وكرامتها باعتبارها عاملاً فعالاً وأساسياً في تماسك المجتمع ورقيه.

وهكذا وضع النورسى الحضارة الغربية بمدنيتها العقلية المادية الآلية في مقابلة مع المدنية التي تأمر بها الشريعة الإسلامية، حيث نطقت الأولى بالمسخ البين لأواصر الحياة المستقيمة، وعبرت الثانية عن صورة الحياة الحقيقية وليدة التعاون والمحبة والإخاء. وهذه المقابلة توضح بجلاء أن الإمام قد وضع يديه على الداء الذي أصاب البشرية الحديثة، ووضع لها الدواء الناجع في دعوته للأخذ بمدنية الشريعة الإسلامية، ففيها وحدها علاج اختلال تلك التوازنات المعنوية والمادية، منطلقاً في ذلك من القرآن الكريم الذي أكد بوضوح قيمة العمل والجهد الإنساني وعدم الإسراف والاعتدال في الإنفاق والاستهلاك، فهذه المبادئ عند النورسى تزيل الفوارق بين المجتمعات واختلال التوازنات بينها، كقوله تعالى " **وَأَنْ لَيْسَ للإنسَان إلاّ مَا سَعَى** ..."[النجم :39]،" **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا** " [الأعراف :31][15].

ويرتبط بنظرة النورسى السالفة للنهضة الأوروبية نظرته للفلسفة المادية القائمة على الإلحاد، فيراها سفسطة لا حقيقة لها، إذ تحقر الكون بجهلها لحقيقة نظامه، فتنظر إلى الظواهر دون البواطن والأسرار، مما فقدت معه العقول النيرة ضالتها في هذه الفلسفة[16]. ويتبع ذلك تحول النظر إلى " الأنا" على اعتبار أنه حقيقة قائمة بذاتها، لا موهومة لها،

ومادامت الأنا تقوم بذاتها، فهي لا تعكس حقائق الوجود الثابتة ولا تتلقى الفيض الإلهي، لأنها تحولت وفق هذه النظرة السطحية إلى إله. فالأنا ينكر المعنى الذي يعكسه مادام يدّعى لذاته أنه معنى بذاته، لا يوصفه مرآة عاكسة لمنابع الخير الإلهي وحسب. وعندئذ يظهر جانب الشر الذي تتجسد فيه أفعال الإنسان بحق. وطغيان الشر على الخير في الأنا، إنما تولد من تحول الوهم إلى حقيقة في جانب الخير، فانتقل الأنا من النقيض إلى النقيض، فبدل أن يفهم بربوبيته الموهومة التي يتصورها في دائرة ملكه ربوبية خالقه تعالى في دائرة الممكنات، أنكر ربوبية الخالق، وبدل أن يعرف بملكيته الظاهرية مالكية خالقه الحقيقية أعدمها، وبدلاً أن يدرك بعلمه الجزئي علم الله المطلق، لم يعترف بوجوده أصلاً، فظن نفسه إلها معبوداً، كما ظن في الحضارة معبوداً كذلك[17] وهذا ما يناقض الوجه الحقيقي للانا الذي تنطق به النبوة، باعتبار الأنا مرآة عاكسة للحقائق الإلهية، لكونها عبدة لله من ناحية، ولأنها وجود اعتباري لا يقوم بذاته بل بغيره،كما أشار إلى ذلك ابن عربي حيث اعتبر في كتابه" فصوص الحكم" أن الخلق شبح، لأنه قائم بغيره، ولذا كانت ملكيته للأشياء ملكية موهومة[18] وأمام هذا الضلال ألهت الأنا ذاتها، ونسبت الخالقية للطبيعة والأسباب والمصادفة. والملاحظ أن هذه الصفات تنسحب فقط على الفلسفة المادية الإلحادية التي ترفض مبادئ الوحي الإلهي، وليس الفلسفة المؤمنة التي لا تحقر العقل كمصدر للمعرفة، ولا تحرف مساره كما فعلت الأولى، فغدت وسيلة للتردي في الضلالة. ويربط النورسى بين هذا المعنى وفلسفة الفارابى وابن سينا لتأثرهما بالفلسفة اليونانية، التي لم ينالوا بها إلا أدنى درجات الإيمان[19].

وهكذا فرؤية النورسى للمدنية الحديثة إنما تنبع من معايير دينية أخلاقية، وهو ما يتسق مع طبيعته كرجل دين ومصلح في تقييمه للحضارة، ولا أدل على ذلك من كونه لا يجد الحل الأمثل إلا في مدنية تكفلها شريعتنا الإسلامية، ففيها النموذج الأمثل للمجتمع الحقيقي الذي يؤكد رقابة القيم المعنوية للدين التي غابت عن دائرة الوعي الأوروبي الذي أحال الدنيا إلى ميدان صراع وانسحاق للإنسان الباحث عن حاجات لا يملك الحصول عليها بكده وسعيه، فصار لاهثاً خلفها بأى طريقة حتى ولو كانت ضد موازين الحلال والحرام، ولأن الوعي الأوروبي لم يستند إلا إلى نوع من الفلسفة المادية الإلحادية في إقامة مدنيته، فإنه لم يستطع تشييد هذا التوازن بين حاجات الإنسان

وكفاحه من أجل الحصول عليها، ولهذا هيجت مشاعره وأهوائه، وتحولت الحياة الاجتماعية من التوازن إلى الخلل، وظهر صراع الطبقات داخل المجتمع الواحد، ونشأ العداء بين الأمم، وظهرت الحروب إلى الأفق. ولهذا دعى النورسى المسلمين إلى عدم قبول هذا النموذج المختل للمدنية، لأن آثامه وشروره وسلبياته تطغى على ما فيه من خير وجمال، فهو نموذج صارخ للشقاء الإنساني الذي كشفت عنه بوضوح الحرب الأولى والثانية كما أشرنا أنفا. ومن ثم كان النموذج الإسلامي وحده هو الضامن لتحقيق بيئة نقية تبدو فيها وجوه جمال المدنية الإنسانية الحقة بوضوح وجلاء، ويصل فيها الإنسان إلى السلام العام في كل مكان، والنورسى يقول "إن كفة حسنات الحضارة النابعة من القرآن الكريم ستتغلب حتماً على سيئات المدنية الحاضرة، بل يجعل المدنية سائرة في ركاب تلك القوانين السماوية، تخدمها وتعينها بدلاً مما يحدث إلى الآن من تنازل قسم من الدين لقسم من المدنية ومن دفع أحكام الدين رشوة في سبيل المدنية ... إن القرآن بما بضمه من قوانين مقدسة سماوية ... مستعد لتضميد تلك الجراحات الغائرة بقوانينه الأساسية السامية فضلاً عن أنه الكفيل بتحقيق سعادة دنيوية وأخروية للبشرية (20)"

ثانيا : رؤية النورسى لعلم الكلام

1- بؤرة الانطلاق (التجربة النورانية مع القرآن الكريم):

ترتبط رؤية النورسى لعلم الكلام بقضية الإصلاح التي اشترك فيها مع زعماء الإصلاح المحدثين في العالم الإسلامي مثل محمد عبده، وابن باديس، ومالك ابن نبي، ومحمد إقبال وغيرهم. وتنطلق هذه الرؤية عند النورسى من معايشة القرآن الكريم، وفهم آياته البينات، واستبطان حقائقها في عالم الأفاق والأنفس ليحقق نوعاً من التوازن في فكر الإنسان المسلم.

والواقع أن النورسى لم يهتم فقط بإصلاح علم الكلام، ولكن اهتمامه كان منصباً على تغيير ذاتية الفرد والمجتمع، وتثوير عقيدة كل منهما، من أجل خلق ذاتية الأمة، وبعدها يمكن إصلاح أي علم مهما كان أسمه، وإذا كان تجديد علم الكلام مرتبط بتجديد العقائد الإيمانية، فالأولى من تجديد العلم ذاته هو تجديد العقائد التي يعبر عنها

هذا العلم، أي الذي سيكون العلم خادما لها، والسؤال الآن كيف تتجدد العقائد الإيمانية، مع أن العقائد ذاتها بوصفها معبرة عن نصوص نطق بها الوحي أو عبرت عنها السنة الشريفة ثابتة، فكيف نجددها إذن ؟ – أن المقصود هو تجديد هذه العقائد داخل النفوس، بإصلاح بواطنها عملاً بقوله تعالى" **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**.." وهذا هو المبدأ الذي رسخه الوحي القرآني، وأعني به أن البداية من الداخل وليست من الخارج، البداية من الذات الحاملة لعقائد الإيمان، فإذا لم تتجدد ذوات الدعاة والمجددين، فلا حاجة للمجتمع بتجديد علوم يضيع هدفها سدى، لأنها لم تصدر عن الذات، فالذي يخرج من القلب يؤثر في القلوب، وما يخرج من اللسان لا يتعدى الآذان . ومن هنا سقط الفكر الإسلامي في دائرة التقليد لأن العقائد تحولت إلى رسوم دون أن تدق أبواب الجوارح الداخلية للإنسان فتجعل منه خليفة لله ظاهراً وباطناً، ومن حيث كونه مرآة عاكسة للصفات الربانية.

ومما سبق أستطيع القول أن المنبع والمصدر الذي نبعت منه أفكار النورسى إنما هو التجربة النورانية مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. إن الرجل كان يبحث في منهج السماء وعن وقوده لإيقاظ المجتمع من سباته ومده بالقوة والترابط. ورؤيته هنا ترتبط بأنه لا وجود لقوة في الأرض تملك قدرة التغيير إلا القوة التي تؤثر في قلب الإنسان وروحه وتربطهما ربطاً محكماً بالحقائق، وتثير فيهما نوازع الشوق والوجد إلا قوة الدين التي تنساب قدسيتها إلى أعماق القلب فتحدث فيه تأثيراً جذرياً وعميقاً ودائما، وعندئذ تتحول بذاتها إلى شئ كلى عام، وإلى قانون يفرض أحكامه على الناس ككل، وهو يحدد هذا المعنى في المكتوبات بقوله" إن قدسية المصدر تظهر تأثير براهين عديدة، وبهذه القدسية تفرض أحكامها على الناس" ومن هنا نبعت أفكاره في رسائل النور من قدسية القرآن الكريم، فهي معزوفة روحية تترنم بقدسية الآيات الكريمات، وهو يقول في المكتوبات" بما أننا نملك في أيدينا معجزة باقية مثل القرآن، فإن البحث عن برهان أخر يبدو لعقلي شيئا زائداً، بما أننا نملك برهاناً للحقيقة مثل القرآن ..." [21] لهذا اهتم النورسى في رسائله النورانية بالتركيز على إصلاح البنية الداخلية للإنسان لأجل تشكيل الروح على نحو حيوي وجذري يخلق في الإنسان هويته الحقيقة خلقاً، ويزرع في داخله شعوراً فياضاً علوياً يتزين بطلب رضاء الله والصفاء والإخلاص والفداء، فهي

المشاعر الإيمانية التي تضرب بجذورها في لحمة الحياة والتي لا تعرفها أي مدنية مادية، لأنها ليست متاعا ماديا ولا مظهرا لنظريات خادعة. ولهذا ربط النورسى كل ذلك بالعمل الحيوي، لأن ميدان أفكاره هو الحياة ذاتها، ومن ثم تظهر في الأفعال وتنبض بها سيماء الوجوه .

ومن هذا المنطلق الأسمى لبناء الذاتية من الداخل، تدعو رسائل النور إلي بناء المجتمع بناء صحيحاً، فتدعو إلي تأمين الراحة العامة والهدوء الاجتماعي، رافضة جميع حركات الهدم والتمزيق، لأنها تؤصل الحركية الإيجابية الفعالة، مناهضة جميع الحركات السلبية بتقوية أواصر المحبة والأخوة والترابط والتراحم في بنية المجتمع، وتدعو بقوة إلي الاتحاد والامتزاج. ومن ثم تحارب بضراوة كل دعاوى وأفكار الفرقة التي حاولت إخماد روح الأخوة التي هي أخص خصائص الدعوة القرآنية، ومن ثم فهي تضع قواعد لبناء الأمة في مقابل دعاوى القبلية والقومية والعنصرية والمِلّية السلبية والشعوبية.[22]

ومن ثم ارتكزت . أفكار النورسي في رسائله علي خدمة الإيمان لأجل نيل الحياة الباقية الأبدية. ولهذا كانت أفكاره سعياً مضنياً دؤوباً لأجل إنقاذ الإنسان من مستنقع الكفر والفسق والضلالة، وإعمار ذاته بالإيمان، بل وإعادة خلقه إنساناً جديداً حتى يصل إلي درجة الوجد والعشق وهي الدرجة التي تمثل المحور الحقيقي للفكر النورسى كله، وهي لعمري مسحة صوفية غلفت أفكار الأمام ولعلها تعود إلي تأثره بالفكر الصوفي المتدفق عند مولانا جلال الدين الرومي، فالإنسان ليس بدنا، ولهذا فالفلسفة الحقة لا تخدم بدنه فقط، فلابد من غذاء القلب والعقل والروح حتى يترعرع الجسد الذي يموت عندما تنطفئ في خلاياه أنوار الروح، لهذا كانت دعوة رسائل النور دعوة أخروية، تدعو للآخرة وهي تعمر مزرعتها، أعني تعمر مسار الحياة الدنيا، حتى تصلح الآخرة بصلاح أمر الدنيا، أنظر للإمام وهو يصفع الإنسان على وجه قلبه منبهاً إياه إلي حقيقته التي ربما غابت عنها في تلفعه ببردة الآلية الدنيوية "أعلم أيها الغافل ! أنه لا يليق بك أن تربط قلبك وتعلقه بما لا يرافقك بعد فناء هذا العالم، بل يفارقك بخراب الدنيا، فليس من العقل في شئ ربط القلب بأشياء فانية ! ولما كان باب القبر لا يغلق فأجل مسألة لديك لابد وأن تكون قلقك علي ما وراء القبر. ألا تري أن فيك لطيفة لا ترضي إلا بالأبد والأبدي ولا تتوجه إلا إلي ذلك الخالد ولا تتنـــزل لما سواه ؟..."[23]

وبناء عليه فقد وضع النورسي الأسس التي تقوم عليها رسائل النور، والتي تحقق إصلاح البنية الداخلية للفرد والجماعة علي السواء فيرى أن :

أ- الأساس الأول هو الإيمان، فقد كان هدف النورسى في رسائله أيضا حقائق الإيمان وإثباتها وتفصيلها واستخدم في هذا الإثبات العلم والعقل والإيمان، فلما كان عصره هو عصر الضعف الإيماني ونشر الضلالة القادمة من ثقافة المدنية الغربية، فقد أضر ذلك المسلمين وصار الجهاد المعنوي لهذا المرض أمراً حتمياً، فدافع النورسي عن الإيمان ضد هجمات الأفكار الضالة بتوضيح الحقائق الإيمانية وفقا لمدي الفهم الذي بلغه عصره، لأن الرقي والتقدم الاجتماعي كانا مرهونين عنده بالإيمان . وللإيمان صورتان أراد أن يبدل أحدهما بالأخرى أعني أن يبدل الإيمان التقليدي بالإيمان التحقيقي وتقويته وإنقاذه، وفي إنقاذ الإيمان إنقاذاً لبناء الإنسان نفسه الذي يقوم علي أركان الإيمان وهي الإيمان بالله تعالي والنبوة والحشر. ولهذا كانت العلوم الإيمانية أهم الأشياء للإنسان، فهي سلطان العلوم جميعا. فالإيمان هو أساس رسائل النور، ومن ثم فهو المبدأ الجوهري الذي تقوم علية صلاح البنية الداخلية للإنسان، وبالتالي بناء العلم الجديد. ومن ثم كانت إنطلاقاته النورانية تفسيراً لجوهر الإيمان في القرآن الكريم .

ب- الأساس الثاني هو ارتباط العلم بالإيمان وفيه ينهج النورسى نهجاً قرآنياً خالصاً، إذ يتحدث عن الكون بشكل كلي إجمالي، يوضح حقائق العلم ببساطة ودون تعقيد. وهو هنا لا يري فرقا بين العلم والدين فهما متحدان، لأن الإسلام كما يقول أستاذ للعلم وأب له، لأنه لاوجود لتعارض بين الإسلام والعلم.

لأن ترسيخ هذا التعارض يضر بالإسلام ويمنع انتشاره، ومن ثم وجب تقديم العلم ممتزجا بحقائق الإيمان، لأنه في الفصام النكد بينهما يربي جيلا غافلا عن الإيمان، مما يضر ببنية المجتمع ضرراً بالغا، وفي هذا الصدد أشار إلي وراثة العلم عن أبينا آدم الذي فضله ربه على الملائكة بالعلم (البقرة 31) وكانت معجزته هي تعلم الأسماء، وهو منتهى الكمال البشري وذروة رقيه وكأن الله تعالي كان يحض ورثة آدم عليه السلام علي طلب علم الأسماء، لأنه علم الأمانة الكبرى التي تفض معها مغاليق الطبيعة وتسخرها للإنسان، والتي يرفع التأمل فيها إلي أعلي سماوات العلم والحكمة والكمال، والنورسى يشير هنا إلي الكمال المعنوي والمادي معاً، ومعجزات الأنبياء جميعا لتشير

بجلاء إلي تحصيل هذا الكمال المادي والمعنوي، كما تشير إلي أستاذية القرآن للحضارات ومنبع الرقي والتقدم العلميين[24]

جـــ- الإيجابية وهي ظاهرة في رسائل النور، وهدفها كما أشرت آنفاً هو إصلاح الفرد أولا، ولما كان التخريب قد بدأ في القلب فبدأ بإصلاح القلب، وكل من يبدأ بالإصلاح لابد وأن يبدأ بالقلب وإلاّ فشلت محاولته. ولهذا بدأ بإصلاح نفسه، ونادي بالتمسك بالأخلاق الإسلامية في الخطبة الشامية قائلا " لو تمسكنا بالأخلاق الإسلامية وأظهرنا بأفعالنا هذه الكمالات لدخل أتباع سائر الديانات في الإسلام أفواجا..."[25] ولهذا دعي إلى إقناع المتمدينين والإقناع هو طريق الغلبة عليهم.[26] فالإقناع والإثبات هما منهج الإسلام، لأن الإسلام لا يقبل عداوة أو نفورا أو هجوما لأنه نور، وانتشاره يجب أن يكون نورانيا كذلك. لهذا آمن النورسي بأن الإصلاح يتحقق بالحركة المعنوية وإرشاد أفراد المجتمع وتنويرهم، لأن الحركات الثورية التي تقوم علي القوة المادية تضر الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ، ولهذا كان ديدنه دائما الانطلاق من العجز تجاه الله تعالي وفقره أمامه وبهما يرقي المؤمن ويسمو بقدر إدراكه لذلك، ولذا فإن عجزه بالعبادة يوصله إلي اسم المحبوب ويوصله الفقر لأسم الرحيم وبسلوكه بهما معا يصبح مرآة لتجلي الصمدانية. ولهذا كان ديدنه الشفقة علي الأبرياء باسم القرآن والسعي لإنقاذهم والعمل من أجلهم، فطريق الشفقة هو طريق الرحمة، وأنها دستور الحياة الحقيقي.[27]

د- الإخلاص. وهو لا يعني إلا طلب رضاء الله تعالي، وفي رسالته عن الإخلاص دعي إلي ضرورة ترسيخ سره في الذات، لأن فقدانه ضياع لخدمة أسرار القرآن، وفقدان للسعادة الأبدية لأجل مطامع دنيوية زائلة كالرياء والإعجاب بالنفس، فنجاة الإنسان في إخلاصه لله تعالي، فهو الشفرة المعنوية لخدمة آيات الله تعالي والظفر بأسرارها وكسب الإخلاص يأتي برابطة الموت التي تنفر من الرياء وتربط الإنسان بالإخلاص، كما أن الإخلاص يعطى النفس حضورا وسكينة . وفى الإخلاص تدعيم لرابطة الأخوة التي تطورت عند النورسي فصارت" فناء في الأخوان" بما يعني أن يفني كل منا في الأخر، فينسى كل منا حسياته لأجل الآخرين، أنه منطق الأخوة في الله.[28]

2- تجديد العلم

أحقا كان هدف النورسي هو تجديد علم الكلام بعينه أم أن هدفه كان تجديدا لعلم العقيدة ؟ إن معايشة رسائل النور من الداخل لتومئ إلي أن النورسي لم يهدف منها إلا تفصيل الأهداف القرآنية، وشرح حقائق الإيمان ومعرفة الخالق الصانع، وهي تعبر عن مدرسة حياتية إيمانية ترتبط ارتباطا وثيقا بعصر النبوة، حيث كان الوحي في بؤرة الشعور، وكانت الحياة ترجمة له دون مذهبية علمية . ولأن ذلك هو رؤية الرسائل، فان الهدف الإصلاحي ينصب علي كل ما هو إسلامي، ولهذا لم تكتف بشرح حقائق القرآن حسب إدراك العصر وفهمه، بل إنها بشرح القرآن علي ضوء العلوم بضرب الأمثلة علي ذلك، وبإيضاح أن كتاب الكون، الذي يكون القرآن ترجمته الأزلية يتعلق بمنظومة العلوم جميعا الذي يعد الإسلام جوهرها. ورسائل النور بهذا أثبتت أن الحقائق القرآنية تتطابق مع الحقائق الكونية الأولى بظهورها للوجود بصفة الكلام والثانية بصفة القدرة، وبظهور هذا جلياً، ظهر تميز الإسلام وامتيازه علي سائر الأديان التي يختلط فيها الحق بالباطل والنور بالظلمة. ومن ثم فقد حثت الرسائل علي قراءة كتاب الكون عندما أشارت إلي أن حروف كتاب الكون وآيات تشكل منابع الحقائق القرآنية.[29] وهكذا فإن أفكار النورسى في رسائل النور "ليست تصورا، بل تصديقا، وليست إسلاما وإنما إيمانا، ولا معرفة بل شهادة وشهود، ولا تقليدا بل تحقيقا، ولا التزاما بل إذعانا، ولا تصوفا بل حقيقة، ولا إدعاء بل برهانا في ثنايا الدعوى". وبالنسبة لعلم الكلام، كما أشرت آنفا، فإن النورسى ينفي التجريد العقلي الذي يقوم علي الإيجاز الشديد، ويعمد إلي الأسلوب المفصل الذي ينتهي به إلي جذور القضايا التي يبحثها، فيقدم تخطيطا كونيا، تبدو عليه الموجودات حتى الخلايا البعيدة . فهو لا يقنع بالمعرفة الجزئية لأنها عنده من نواقص العقل البشري. فالمعرفة الشمولية بالكون لا تتحقق لمن قنع بجانب جزئي حتى ولو كان غوصا لسر من أسرار النفس، أو معرفة حقيقة من حقائق الكون، فكل ذلك يفقد الإتساق في النظر إلى الكون في جملته. والنورسى لا يؤسس علما للكلام بل هو يضع الرؤية الشاملة للوجود ككل، وهي رؤية فلسفية بالدرجة الأولي. ومن ثم كان فهم القرآن في كله وبمقدمات أولية ونتائجها ومعارفها جميعا، ثم بالإطلاع علي حقائق عالم

الأنفس والآفاق هو الذي يرسم بوضوح صورة الموازنة الكاملة عند العالم والعارف المسلم. وخاصية الموازنة والجمع هذه لاوجود لها في آثار البشر، لا عند المفكرين ولا الأولياء النافذين إلي حقائق الكون ... بل كل منها أمسك بغصن أو أثنين من شجرة الحقيقة العظمي فانشغل مع ثمرة ذلك الغصن كليا دون الالتفات إلي بقية الأغصان.[30]

فالنورسى باعتماده الكامل علي القرآن الكريم، قد عمد إلى البساطة والشمول، فخلص علم الكلام من تجريده النظري المعقد الذي لا يفهمه إلا الخواص، فحوله من علم مغلق إلي علم مفتوح كما أشرت آنفا. ومن هنا عبر عن حقائق التوحيد ودقائق العقيدة الإسلامية بشكل لا يفهمه المسلم وحسب، بل يعانيه قلبا وجدانا، لأنها صارت حاضرة فوق صفحة الكون، فهو منهج قرآني شامل يبدد الغفلة والظلمة، ويظهر أنوار التوحيد باستخدام العلم. فهو يبدد ظلمة المذهب الطبيعي الكاذب ببراهينه التي استقاها من نظام الوجود الدقيق في عالم الطبيعة، فهو شاهد علي وجود الله تعالي ووحدانيته [31] ويقول النورسى عن رسائله" صارت مسائل هذه الرسائل... كأنها مبرهنة استدلالية فيمكن لمن ضل من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ما ينجيه من مزالق الأفكار الفلسفية، وبالتهذيب والإيضاح يستخرج عقائد إيمانية وعلم كلام جديد... [32] "ومن الأمثلة التي يضربها النورسي علي ذلك، ليزيل بها الشكوك في معاني بعض النصوص بمعاني معاصرة لا تصطدم بطبيعة النص، فهي تعبر عن استدلالات علمية توصل إلي برد اليقين، ففي تعبيره عن قوله تعالى" **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ**" [الإسراء:44] يقول : "إن لأضخم الموجودات وأكثرها سعة وشمولا تسبيحا خاصا منسجما مع عظمته وكليته، والأمر واضح ومشاهد، إذ السموات الشاسعة مسبحة لله وكلماتها التسبيحية هي الشموس والأقمار والنجوم، كما أن الأرض الطائرة في جو السماء مسبحة حامدة لله وألفاظها التحميدية هي الحيوانات والنباتات والأشجار، بمعنى أن لكل شجرة ولكل نجم تسبيحاته الخاصة به، مثلما للأرض برمتها تسبيحاتها الخاصة بها، فهي كلية تضم تسبيحات كل جزء منها وهكذا ..."[33] فالنورسي هنا يدرك الطبيعة المادية لعصره، وهو عصر انتهي مع مادية أوروبا إلي التشكيك في الغيب، لأنه عصر لا يؤمن ألا بالمحسوس، مما تمخض عنه تخريبا حضاريا هائلاً في المدينة الحديثة وطبع بدوره علي العالم الإسلامي نتيجة تبني بعض العقول فيه لمناهج المدنية الوضعية، فبدأت

موجه الشك، تجتاح العالم الإسلامي في دوائره السياسية والثقافية والإعلامية، في كل ما هو غيبي لا يرتبط بالمحسوس البشري كاليوم الآخر وأسرار الروح والملائكة، فكانت صدمة النورسي الذي أخذ علي عاتقه مهمة التفصيل العقلي الشامل لحقائق الكون وخالقه ويوم الحساب والنبي الداعي، باعتماده علي الأسلوب الشامل في الحديث المترابط مع الكون بما يتضمن من استدلالات برهانيه واضحة. فوجود الله يستدعي بالضرورة وجود الكون، وظهور كماله يستدعي ضرورة اليوم الآخر، ولا يمكن فهم ذلك في الدنيا إلا بالأنبياء والمرسلون وخاتمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، لأنهم وسيلة الإنسان لفهم ذلك.

و يرفض النورسي أن يبدأ الاتجاه الإصلاحي من السياسة بسبب الاضطهاد والمعاناة التي يمكن التعرض لها من السياسة رغم أنه دخل السجن وتعرض للنفي، فألح علي أن الإصلاح يبدأ من الفرد باعتبار نواة المجتمع، وينطلق في حركته الإصلاحية من تربية الأفراد علي القيم والمعتقدات الدينية حتى يمكن مواجهة المبادئ العلمانية التي تفشت في المجتمع. فالفرد هو المخاطب للصانع الجليل، إن كان له نظر عام وشعور كلي، لأنه يصرف كل نظره العام وعموم شعوره الكلي للتعبد لصانعه، وإلي استحسان صنعته، فمن البديهي اتجاه الإصلاح في ذلك الفرد الفريد والحبيب المحبوب. [34] ولم يهتم النورسي بإصلاح عقائد الفرد المسلم وقيمه وحسب، ولكن اهتمامه انصب علي الفرد داخل سياقه الاجتماعي لأن الفرد ليس جزيرة منعزلة، كما أنه ليس في مقدوره مواجهة المد الإلحادي وحده، كما لم يستطع هو نفسه أن يفعل ذلك، وقيمة الفرد بما يحمله من القيم المعنوية للجماعة، لذا ركز النورسي علي الجماعة من حيث أن عليها مد الفرد بقوته المعنوية. وهو الأمر الذي دعا النورسي إلي ضرورة اندماج الفرد داخل الشخصية المعنوية للجماعة، وينبغي حماية فرديته الداخلية.[35] وهو ما سعي إليه هو نفسه بالفعل بتوحيد صفوف تلاميذه، وإرساء قيم الإخلاص بينهم وسحق الأنانية فيهم.[36] ويؤكد الرجل ضرورة اتحاد الجماعة التي تدين بالإسلام، ويسميها أهل الحق لأن أهل الضلالة يحاولون الاتفاق علي الإسلام، ومن ثم سعي الرجل إلي وضع أسس وحدة الجماعة الإسلامية ككل، وبشتى المذاهب الإسلامية، سعيا وراء درء الاختلاف بينها، وأجملها فيما يلي : –

1- العمل الإيجابي البناء وهو بمقتضى محبته لمسلكه دون أن يرد لتفكيره عداء الآخرين.

2- العمل علي تحري روابط الوحدة الكثيرة الرابطة للمشارب المعروضة في ساحة الإسلام، والتي ستكون منابع محبة، ووسائل أخوة واتفاق فيما بينهم فيتفق معها .

3- العلم أن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي، وأحد منابع العزة الإسلامية.

4- ترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسية التافهة، وترك ما يتصور خطأ انه من العزة والكرامة.

5- اتخاذ دستور الإنصاف دليلا مرشدا، وهو أن صاحب كل مسلك يستطيع القول بأن مسلكي حق وهو افضل وأجمل، من دون أن يتدخل في مسالك الآخرين.

6- ترك غرور النفس وحظوظها[37]

ولهذا سعي النورسي علي المستوي النظري إلي إصلاح علم أصول الدين أو علم الكلام لارتباطه الوثيق بالعقيدة علي المستويين الفردي والجماعي، ولذا أكد أن تجديد علم الكلام لابد وأن يتولد من عرض أهمية الدين ودوره في حياة الشعوب الإنسانية بعامة والإسلامية منها بخاصة، فالدين هو السبيل الحقيقي لارتقاء الأمة ورقيها، فالدين إذا قام علي قواعد الأمر الإلهي الحق و لم يختلط بالأباطيل، ففيه السعادة التامة لمعتقديه. ومن ثم لا يستطيع شعب أن يبقي بلا دين، ومن هنا رأي الرجل أن أبعد الأمم عن الدين، سوف تعود إليه، وهنا يري أن الإسلام هو الإنسانية الكبرى وشريعته هي المدنية الفضلى، و لذا لا يرقى ألا برقى الإسلام ولا رفعة إلا بتجلي حقائق شريعته.[38] ولأهمية الدين في حياة الشعوب الإسلامية كان من الضروري تجديد علم الكلام الذي يحدد فهمنا للمعتقدات الدينية، فتجديد الفهم يؤدي بدوره إلى استمرار دور الدين بفاعلية في حياة الشعوب، و يتركز هذا التجديد علي تحديد الفهم الذي يتجدد بتطور الواقع وتغيره. ومن الأسس التي تفرض علنيا تجديد هذا العلم سوء حاله الدعوة الدينية، حيث تناسي القائمون علي الوعظ الفرق بين الحاضر والماضي، فبالغوا في تصوير دعاويهم وتزويقها دون أدلة كافية يحتاجها الزمن الحاضر، لذا يرتد سوء الدعوة الدينية لافتقادها للأساس النظري الجيد لعلم أصول الدين.[39] إلي جانب هذا انتشار آفة التقليد التي

ذهبت بروعة الدين، وأفسدت روحه الحقة.[40] والواقع أن تجديد علم الكلام عند النورسي يبدأ من تجديد الإيمان كما أشرنا آنفاً، لأن تجديد الإيمان وتعميقه يؤدي إلي تغيير وجه الحياة في المجتمع الإسلامي، والرجل هنا يرصد حاجة المسلمين إلي تجديد إيمانهم بالقرآن الكريم تجديدا ينقلهم من الإيمان التقليدي إلي الإيمان اليقيني الذي لا تنال منه الشبهات، الذي يملأ القلوب ويملك النفوس.[41] ولهذا السبب رفض النورسي علم الكلام في صورته القديمة التي تبتعد عن طريقة أهل السنة باعتبارها الطريقة المثلي للولاية.[42]

وخلاصة بحوث النورسي في تجديد علم الكلام تتمحور حول ما يلي :

1- انتقد النورسي منهج المتكلمين (قياس الغائب علي الشاهد) لأن هذا المنهج يري واجب الوجود من خلال الممكنات، فهو قياس خادع لا يورث المعرفة المطمئنة للقلب، علي حين أن معرفة القرآن الكريم وحدها هي التي تحقق الاطمئنان القلبي.[43] وبالرغم من هذا فقد استخدم هذا المنهج في مواضع عديدة، بالإضافة إلي تبنيه منهجية خاصة به في علاقة الإنسان بالله تعالي، وهي منهجية صوفية رأى فيها أن الإنسان مرآة عاكسة لإثبات الصفات والأسماء الإلهية، فالإنسان عاجز، والله هو القوي، والإنسان فقير والله هو الغني، وهي منهجية تعبر عن روح صوفية في فكر النورسي ربما انحدرت من تأثره بابن عربي.[44]

2- اعتمد النورسي في بناء منهجه الفكري في علم الكلام علي الأدلة النقلية كالكتاب والسنة والإجماع ثم الحجة العقلية التي تدور في فلك الكتاب والسنة، فهو يعطي الأولوية للدليل النقلي علي الأدلة العقلية.[45]

3- يؤسس النورسي منهجيته الفكرية علي الاستدلال القرآني لقضايا علم الكلام من خلال طريقتين : الأولي هي طريقة التأمل الآفاقى والنفسى في الكون للوصول إلي وجود الله واثبات قضايا العقيدة.[46] والثانية هي طريقة ضرب الأمثال لتوصيل قضايا العقيدة للعوام من المسلمين، وهي طريقة يري أنه استمدها من القرآن الكريم [47] غير أن هذه الطريقة ضرب آخر من ضروب قياس الغائب علي الشاهد الذي انتقده النورسي من قبل.

4- حاول النورسي كذلك أن يبني منهجه علي جميع اللطائف، والجوارح الإنسانية، فمزج في رؤيته الفكرية بين العقل والقلب، وهو قد أعطي للقلب والذوق والحدس مساحة كبيرة، ولذا ألح علي أنها فيوضات ربانية.

ورغم تأكيده علي أهمية العقل في رسائله إلا أنه رأى أن للعقل حدودا لا يمكن تجاوزها فمزج بين العقل والقلب حتى يكمل كل منهما الآخر، واعتماد الرجل علي القلب أثر من أثار الصوفية[48] .

5- إن منهجية النورسي النورية تخاطب جوارح الإنسان وملكاته العقلية والقلبية، وهو الأمر الذي ساهم في قيام تصور الموضوعات العقائدية علي نوع من الحركية الإنسانية التي لا تستند إلي جمود العقل وسكونه، وإنما تخاطب المشاعر الإنسانية، وتمس القلب والجوارح، وتركيزه علي ذلك قد ساهم في تحريك الإنسان إلي الفعل والسلوك بناء علي ما يعتقده، وليس الوقوف عند حدود الإيمان النظري المجرد كما يستند علم الكلام القديم . فمنهجه يقوم علي الاستدلال القرآني المحرك نحو العمل والفعل ولا يقف به عند حدود الاعتقاد النظري المجرد، وهو أهم ما يميزه من مناهج المتكلمين التي تعتمد علي الاعتقاد النظري، كما يتميز عن بعض مناهج الصوفية التي أدت إلي الشطح.

6- أن أهم ما يميز رسائل النور أن الروح الصوفية هي الروح المسيطرة علي منهج النورسي، وعلى الرغم من تأكيده علي أنه يعتمد علي الكتاب والسنة، وعلي الاستدلال القرآني، فهي يتعاطف مع الصوفية رغم نقده لهم، بدليل أنه في نقده للمنهج الكلامي اعتمد علي منهج الصوفية في علاقة الإنسان بالله، مما جعله يعطي أهمية كبرى للقلب والإشراق، بل أنه رفع القلب علي العقل.

وخاتمة الأمر كله أن الإمام النورسي قد كتب رسائل النور في قضايا العقيدة وعلم الكلام بروح المتصوف علي الرغم من أنه اعتمد علي الأدلة العقلية البرهانية.

المصادر والمراجع

أشير هنا إلي أنني اعتمدت بصورة كاملة على كليات رسائل النور للنورسي التي ترجمها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ونشرت في القاهرة بدار سوزلر للنشر من 1992 – 1998م-

الهوامش

1- سعيد النورسي : الكلمات، ص 514 وما بعدها
2- النورسي : صيقل الإسلام، السنوحات، ص 368
3- المصدر السابق : نفس الموضع
4- المصدر السابق : نفس الوضع وما بعده
5- المصدر السابق : نفس الموضع ما بعده
6- النورسي : اللمعات (لمعة 17) ص 178
7- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 377، ص 380
8- المصدر السابق : ص 379
9- النورسي : اللمعات (لمعة 17) ص 180
10- المصدر السابق : ص 176 وما بعدها
11- المصدر السابق : ص 177
12- النورسي : السنوحات (صيقل الإسلام)، ص 358
13- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 377 وما بعدها
14- النورسي : السنوحات، ص ص 357 – 359
15- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 378
16- النورسي : اللمعات، ص 367، الكلمات ص 369
17- النورسي : الكلمات : ص 636، ص 638
18- المصدر السابق : ص 640 –641
19- المصدر السابق : ص 648
20- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 380 وما بعدها
21- النورسي : المكتوبات : ص 111
22- النورسي : كليات رسائل النور، مواضع متفرقة في المكتوبات والملاحق والكلمات واللمعات
23- النورسي : اللمعات ص 174، ص 401
24- راجع تفصيل ذلك في كتاب الكلمات (المقام الثاني من الكلمة العشرين) ص ص 289 – 293، قارن الملاحق : (أميرداع 1) ص 314
25- النورسي : الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، لبنان 1974، ص 35
26- المصدر السابق : نفس الموضع
27- راجع النورسي : الملاحق (أميرداغ 1)
28- النورسي : اللمعات (لمعة 21) ص ص 245 –251

29- راجع النورسي : الكلمات (زهرة اميرداغ) ص 526 وما بعدها
30- النورسي :الكلمات : 2ص ص 512 – 515
31- راجع المصدر السابق : ص 81 – ص 82، الشعاعات ص 8 وما بعدها
32- النورسي : الكلمات ص 187 .
33- النورسي : الكلمات، الكلمة الثانية عشرة، ص 252
34- النورسي : المكتوبات التاسع والعشرين ص 567
35- النورسي : الشعاعات، الشعاع الثالث عشر ص 376 .
36- النورسي : المصدر السابق ص 299 .
37- النورسي : صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية العرفية ص 457 .
38- النورسي : المصدر السابق، ص 473، راجع أيضا : اللمعات، ص 139 .
39- سيد أمير علي : روح الإسلام، ج^{2}، ص 55 .
40- النورسي : الملاحق، ملحق قسطموني، ص 196 .
41- النورسي : المصدر السابق، ص 208 .
42- النورسي : صيقل الإسلام، ص 130، الشعاعات والشعاع الرابع ص 83 المكتوبات، المكتوب السادس والعشرون، ص 424 وما بعدها.
43- النورسي : المثنوي العربي، شعلة من نور شمس القرآن، ص 401 .
44- راجع النورسي : المكتوبات، ص 477، اللمعات، رسالة مرقاة السنة وترياق البدعة، ص 80 وما بعدها.
45- النورسي : المكتوبات، رسالة التلويحات التسعة، ص 575
46- إحسان قاسم : النورسى حياته وأثاره 178 وما بعدها، سيرة ذاتية، ص 243 .
47- النورسي : الملاحق، ملحق قسطموني، ص 205 .
48- النورسي : المكتوبات ص 482 .

مفهوم العولمة والرد عليها
في ضوء الفلسفة الأخلاقية لرسائل النور

د. عبد العزيز برغوث(*)

مقدمة

تعالج هذه الورقة المتواضعة جدا قضية مهمة للغاية ليس فحسب على المستوى الإسلامي ولكن بصورة ملحة على المستوى الإنساني وهي "قضية العولمة" ومخاطرها المتعددة والمتنوعة. فالبشرية بأكملها تعيش اليوم أوضاعا محرجة، ومنذرة بكثير من المخاطر، ومؤذنة بمستقبل غامض في كثير من جوانبه إن لم يُتدارك الأمر بسرعة وحكمة. وهذه المخاطر المحدقة بالإنسانية جميعا، وهذا المستقبل الغامض غير نابع في أصله من عدم وجود المنظور الكوني القادر على توجيه خطى الإنسان، ولكنه أساسا متأتي من بعض التحكمات الإنسانية المتعسفة التي تحاول فرض مقولاتها وإيديولوجياتها على باقي الإنسانية، وسائر الثقافات البشرية وخاصة المغلوبة على أمرها مثل عالمنا الإسلامي المعاصر. وقد عبر الإمام النورسي على هذا المنطق مشيرا إلى مخاطر المدنية الغربية غير المتوازنة بقوله: "إن دهائك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلا، ذلك الليل البهيم بالجور المظلم، ثم تريدين أن تنوري ذلك الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة...هذه المصابيح لا تبتسم لوجه الإنسان، بل تستهزى به، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في أوحال أوضاع مؤلمة مُبكية"[1]. فهذا التعامل غير المتوازن مع الإنسانية، ومع البشرية عموما أدى إلى فوضى كبيرة انعكست على حياتنا المعاصرة وعلى واقعنا وحاضرنا وستنعكس على مستقبلنا.

(*) الجامعة الإسلامية العالمية- ماليزيا

والعولمة هذه الظاهرة الجديدة القديمة تحاول اليوم أن تضع أسئلة محرجة ومهمة وخطيرة على مصير الحضارة الإنسانية عامة، ومصير حضارة الإسلام بصورة خاصة. فالصراع الحضاري القائم اليوم على خطوط التماس والالتقاء بين المجتمعات، والحضارات، والثقافات يوحي لنا في كثير من الأحيان بالفوضى العارمة التي تنتشر في الدوائر المركزية الحضارية الكبرى التي تسعى إلى تحقيق هيمنتها وسيطرتها التامة على باقي النماذج الحضارية الأخرى. والعولمة في بعض جوانبها، وأبعادها تبدو وكأنها تجسيد لمنطق التفرق، والقوة، والصراع، والتصادم، والهيمنة على حساب منطق التوحد، والتعاون، والتلاقي، والتحاور، والمشاركة في تسيير شؤون الحضارة الإنسانية.

ومما لاشك فيه أن المقولات حول العولمة متعددة، ومتنوعة، ومتغايرة، ومتمايزة بصورة كبيرة. فمن الموالين والذائدين عنها إلى الرافضين والمعارضين لها، ومن الإيجابيين حولها إلى السلبيين، ومن الموضوعيين في تصورها إلى الذاتيين في معالجتها، ومن المركزين على جوانبها المتعددة إلى الحاصرين لها في جانب واحد، ومن النابهين والمستفيدين من خيرها والتاركين لشرها إلى الغافلين والتائهين بين شرها وخيرها، ومن أهل الخبرة فيها إلى المتحدثين فيها بغير علم ولا وعي ولا منهج ولا نظام، ومن العارفين بمفهومها وحقائقها وآلياتها إلى الخالطين لها بين المفاهيم..فالحقيقة أن العولمة قد أصبحت موضوع الساعة الذي يتكرر في كل مجال وتقريبا في كل مكان.

ومؤتمرنا هذا كذلك يعد مثالا أخر للنقاش والحوار الجاري حول موضوع العولمة وتشابكاتها. إلا أن ما يميز هذا المؤتمر عن الكثير من المؤتمرات أمرين أساسيين هما:

مسألة الأخلاق والعولمة

مسألة رسائل النور والأخلاق والعولمة. فقبل كتابتي لأفكار هذا البحث جرى بيني وبين بعض الباحثين حوار مطول دار حول مسائل يمكن تلخيصها في سؤالين:

ما علاقة العولمة بالأخلاق وكيف تقحم الأخلاق في موضوع لا قرار له ونواياه معروفة وهي ضد الأخلاق؟.

ما علاقة الأستاذ النورسي ورسائل النور بموضوع العولمة؟ فلا النورسي ولا رسائل النور تحدثت عن موضوع العولمة؟ فلماذا إذن تقحمون الأستاذ النورسي في كل موضوع؟ وما عساه أن يقوله في موضوع جديد لم يُعهد بهذا المصطلح والمعنى في زمانه؟

فإذن كما قلت إن هذا المؤتمر يحاول أن يُدخل في أذهاننا مسألتين مهمتين، الأولى متصلة بموضوع الأخلاق وصلته بالعولمة، والثانية متصلة برسائل النور والعولمة. ولكي نتمكن من الإجابة المناسبة لابد لنا قبل أي شئ أن نرجع إلى رسائل النور ونطرح عليها السؤالين المحيرين وهما:

ما حقيقة العولمة في رسائل النور وما مخاطرها على عالم الإسلام المعاصر؟

ما حقيقة الأخلاق وصلتها بالعولمة في رسائل النور؟ ولكن قبل القيام بهذا التحليل ينبغي أن نجيب عن سؤال مبدئي أولي وهو: ما هو مفهوم العولمة في الأدبيات القائمة حاليا وما مخاطرها على العالم الإسلامي؟ حتى يتسنى لنا تمييز موقف ورأي ومقولة رسائل النور في الموضوع. فيتحصل من هذا الكلام أن نركز في موضوعات ثلاث هي:

أولا: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي المعاصر؟

ثانيا: كيف ينبغي أن نفهم العولمة في رسائل النور؟

ثالثا: الرد النوري على مخاطر العولمة والقيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور.

ومما تجدر الإشارة إليه قبل البدء بتحليل هذه النقاط الثلاثة فكرة مهمة جدا أوردها الإمام النورسي في رسائل النور عندما كان يتحدث عن القيم الحضارية والتاريخية والكونية العامة لرسائل النور. حيث يبدو وكأنه يتوقع دورا حضاريا ضخما وفعالا لرسائل النور في مستقبل الأيام، ويعتقد أن رسائل النور ستتحول إلى بؤرة تركيز عالمي تجذب العلماء والمفكرين والحكماء في زمن تعيش فيه الإنسانية أخطر مراحل تطورها وأعقد مشكلاتها. فيقول الإمام النورسي رحمه الله: "إن أجزاء رسائل النور قد حلّت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضحتها وكشفتها وألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيداً عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني، أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان، فرسائل هذا شأنها لابد أن العالم – وما حوله – بأجمعه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جل اهتمامه، وأنها سيف الماسيّ بتار في قبضة أهل الإيمان.."[2] إن هذا الكلام يبين لنا بما لا يدع مجالا للشك الدور

الحاسم الذي ستؤديه رسائل النور في النقاش العالمي الذي يدور حول حاضر البشرية ومستقبلها، ويبين لنا كيف أن هذه الرسائل لها استيعاب خاص لواقعنا الحضاري المركب والمعقد. وستحاول الورقة إبراز بعض ما تستطيع أن تقدمه الرسائل لإنقاذ إيمان الأمة في عصر العولمة التي يعبر عنها النورسي بقوله: "أما الآن فقد تطورت وسائل النقل إلى درجة كبيرة بحيث أصبح العالم كالمدينة الواحدة، وغدا أهله في مداولتهم الأمور كأنهم في مجلس واحد."[3]

أولا: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي

ينبغي لنا أولا وقبل كل شيء أن نحدد ولو بصورة عامة مفهوم العولمة، لكي نتبين حقيقتها، وأبعادها، ومخاطرها[4] على الفرد والمجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية والإنسانية بصورة عامة. ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن تعاريف العولمة متعددة جدا، ومتنوعة بصورة تكاد لا تحصر. ويمكن أن تعرف العولمة بصورة عامة على أنها تلك الظاهرة التي برزت مع الأفكار الأساسية التي يبشر بها النظام العالمي الليبرالي الجديد، وتعني رفع الحواجز الجغرافية والثقافية والاجتماعية، وانفتاح الثقافات والحضارات الإنسانية على بعضها البعض بسبب تأثير الثورة التقنية، والتكنولوجية، والاتصالية والمعلوماتية؛ بحيث تزداد كثافة وسرعة وحجم الاتصالات، والتعاملات، والنشاطات الإنسانية بصورة تؤدي إلى عولمة الواقع البشري، وجعل البشرية كلها تعيش في ظروف نفسية، وثقافية، واجتماعية، وحضارية توحد مصيرها وتعولم مشكلاتها. ففي ظل هذا التعريف العام للعولمة ذات الأبعاد السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والبيئية، والجغرافية، والعمرانية يصبح المجتمع الإنساني وحدة واحدة أو كما يسمونه بقرية الكرة الأرضية. ويقول أحد الضالعين في خبايا العولمة: "ربما تكون أحسن مقاربة لمفهوم العولمة هي تلك التي تحاول أن تحدد إلى أين تتوجه العولمة وما هي نهاياتها. وماذا سيكون حقا تصورنا للمجتمع المعولم. أو كيف سيبدو العالم عندما يصبح معولما. في العالم المعولم سيكون هنالك مجتمع إنساني واحد، وثقافة إنسانية واحدة تشغل العالم كله. هذا المجتمع وهذه الثقافة الإنسانية لن تكون بالضرورة متناغمة ومتكاملة بشكل تام، رغم أننا نستطيع أن نتصور ذلك. وبالأحرى سيتوجه هذا المجتمع وهذه الثقافة إلى

مستويات عالية من التمايز، والتعددية المركزية والفوضى. لن يكون هناك حكومة عالمية مركزية تنظيمية، ولن يكون هناك نسق متماسك من الوصفات والتفاضلات الثقافية. ومهما يكن التوحيد الثقافي، فإن هذه الثقافة الموحدة ستبقى مجردة، وتعبر عن التسامح من أجل التنوع والاختيار الفردي. ومن الأهمية أن الجغرافية والحدود ستختفي باعتبارها مبدأ تنظيميا أساسيا للحياة الثقافية والاجتماعية، وسيكون هذا المجتمع الإنساني بدون حدود. في العالم المعولم سوف نكون غير قادرين على توقع الممارسات والتفاضلات الاجتماعية على أساس مواقع جغرافية. وبنفس الحد يمكن أن نتوقع العلاقات بين المناطق النائية تقع كما هو الحال بالنسبة للأفراد المتقاربين أو المتجاورين."[5] وفي تحديد أخر للعولمة هناك تركيز على عرضها بأنها ضرورة لا مناص منها في التطور العام للوعي البشري وللحضارة الإنسانية. فإذن عندما نتحدث عن العولمة فإننا نتحدث عن تلك "العملية الاجتماعية التي بها تختفي تدريجا أو تقل أثار الحدود الجغرافية على الممارسات الثقافية والاجتماعية، والتي بها كذلك يصبح الناس أكثر وعيا أنهم يتلاقون ويتفاعلون بصورة متزايدة."[6] فإذا كان هذا التحديد للعولمة سليما بصورة عامة، فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا بعض الأبعاد والآفاق التوسعية الفوضوية الخطيرة التي كثيرا ما لا تأخذ بعين الاعتبار مصالح وهموم الإنسان غير الغربي. وهذا الأمر يجعلنا نـــزيد في توضيح بعد مهم من أبعاد العولمة وهو الذي يمكن نعته بالبعد الإيديولوجي الاستراتيجي التوسعي الذي يخدم مصالح دعاة العولمة بصورة خاصة. ويمكننا أن نلاحظ هذا البعد في التحديدين الآتيين. أولا يقول أهم متخصصين في شؤون العولمة في كتابيهما "فخ العولمة": "ولا ريب في أن بيرر وغيره من رافعي راية العولمة، إنما يحاولون بما يختارون من عبارات وصور، الإيحاء بأن الأمر–العولمة– يتعلق بحدث شبيه بالأحداث الطبيعية التي لا قدرة لنا على ردها والوقوف بوجهها، أي أنها نتيجة حتمية لتطور تكنولوجي واقتصادي ليس بوسعنا إلا الإذعان له. والواقع أن هذا ليس إلا ثرثرة. فالتشابكات الاقتصادية ذات الطابع العالمي ليست حدثا طبيعيا بأي حال من الأحوال، إنما هي نتيجة حتمية خلقتها سياسة معينة بوعي وإرادة. فالحكومات والبرلمانات هي التي وقعت الاتفاقيات وسنت القوانين التي ألغت الحدود والحواجز، التي كانت تحد من تنقل رؤوس الأموال والسلع من دولة إلى أخرى. فرجالات الحكم في الدول الصناعية الغربية هم الذين خلقوا، ابتداء

من تحريرهم المتاجرة بالعملات الصعبة الأجنبية وعبر السوق الأوربية المشتركة، وانتهاء بالتوسع المستمر لاتفاقية التجارة العالمية المسماة (الجات) بانتظام الحالة التي يعجزون الآن عن معالجتها."[7] فإذا كان دعاة العولمة الحقيقيين يسعون جاهدين لتصويرها باعتبارها حدثا كونيا، وقدرا تاريخيا لا مناص منه، فإنه من غير المنهجي ولا الموضوعي أن نغفل الأبعاد الأيديولوجية لها. والنص الآتي يقدم لنا صورة عميقة لهذا البعد الخطير في منطق العولمة. ثانيا: يقول مالكولم: "إنه من الواضح أن مفهوم العولمة موضوع للممارسة الإيديولوجية لأنها مثل الحداثة- المفهوم السابق المرتبط بها- تظهر وكأنها تبرر نشر الثقافة الغربية، وكذلك المجتمع الرأسمالي من خلال اقتراح أن هناك قوى قاهرة تعمل خلف نطاق التحكم الإنساني، والتي تقوم بتغيير العالم وتحويله. هذا الكتاب لا يحاول أن ينفي أو يخفي تلك الحقيقة التي تقول أن المرحلة الحالية للعولمة هي بدقة متصلة بالتصورات السابقة. إن العولمة هي النتيجة المباشرة لتوسع وهيمنة الثقافة الأوربية عبر العالم عن طريق الأقمار الصناعية، والاستعمار والغزو الثقافي. إنها كذلك متصلة ذاتيا وأصليا بنموذج التطور الرأسمالي كما هي مشمولة في المجالات السياسية والثقافية. مع هذا فإن هذا لا يعني أن كل زاوية في العالم يجب أن تصبح غربية ورأسمالية، ولكن كل نسق من الأنساق الاجتماعية أو توجه من التوجهات يجب أن يشكل موقعه في صلته مع الغرب الرأسمالي. وباستخدام عبارة روبرتسن يجب أن تتنازل وتصبح نسبية قابلة للمرونة والتنازل عن قيمها الكبرى."[8]

فإذا ما أخذنا هذه التحديدات بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نرى الصورة الحقيقية للعولمة، ونستطيع أن نميز بين ما هو لا إنساني وسلبي فيها، وبين ما هو إنساني وإيجابي. ولكن يبقى الأمر الهام والذي ينبغي أن نؤكد عليه جيدا وهو أن العولمة في عمقها المعرفي والتاريخي والسوسيولوجي والأخلاقي والمادي هي بلا شك فعل حضاري ثقافي غربي يحاول إعادة صياغة الكيان الحضاري للبشرية جميعا وصبغه بالصبغة الغربية، وجعل النموذج الحضاري الثقافي الاجتماعي الغربي قانونا يحكم حياة الإنسان، ويصوغ له أقداره ومصائره وتوجهاته، ويعيد ترتيب نظام القيم والعلاقات والمعرفة والسلوك على وفق الرؤية الكونية الغربية. ويستخدم الغرب في عملية عولمة الإنسان والحضارة والعالم الأدوات والوسائل السياسية والاقتصادية والمالية والمعرفية والتربوية والإعلامية

والتكنولوجية والعسكرية وغيرها. ويتغي الغرب من خلال عملية العولمة العالمية الكونية الشمولية إعادة تنظيم العالم بأشخاصه وأفكاره وأشيائه لينسجم في سيره مع المشروع الحضاري الغربي؛ بحيث تتمحور حركة البشرية ووعيها الحضاري حول النموذج الرأسمالي الغربي الحر، وذلك لكي يتحقق امتداد واستمرار المركزية الغربية على الزمان والمكان والأشخاص والأفكار، وتتحقق هيمنته على وقائع التاريخ والحضارة والثقافة والتكنولوجيا والعلاقات البشرية في القرن الواحد والعشرين.

إن هذه المداخل التحليلية تستطيع أن توضح لنا خطورة العولمة في منطقها وإطارها الحالي على العالم الإسلامي بصورة خاصة، وعلى العالم بصورة عامة. إن الغرض الأساسي من التحليل السابق هو أولا رسم صورة واقعية لواقع العولمة، وثانيا التعرف على مخاطرها الكبرى على العالم كله، وثالثا أن نعيد قراءة النص النوري باعتباره نصا حيا حيويا متصلا مباشرة بمشكلات الإنسانية الراهنة، مستوعبا تماما وبالصورة الكافية أطروحات العولمة، وعارفا بجوهرها وأسبابها وأبعادها ومخاطرها. فمن هذا المدخل يحاول هذا البحث أن يعيد اكتشاف المقولات النورية فيما يتعلق بالعولمة ومخاطرها والحلول المطلوبة لتوجيهها وترشيدها. وستحاول الورقة فيما يأتي من المباحث التركيز على أمرين: أولهما: كيف تطرح رسائل النور مسألة العولمة وما شابهها من الظواهر المادية والوضعية. وثانيهما هو الحل الذي تقدم رسائل النور لمسألة العولمة ومخاطرها.

ثانيا: المدخل النوري لفهم العولمة وإدراك مخاطرها

من الأهمية أن نكتشف مفهوم العولمة وحقيقتها ليس عن طريق البحث في صفحات رسائل النور عن هذه اللفظة أو المصطلح، ولكن عبر التحليل للوحدة المنهجية والعضوية للنص النوري في كليته. وعلى هذا الأساس ستحاول الورقة كشف أهم مدخل من مداخل فهم العولمة وأبعادها وأسبابها، وأثارها، ومخاطرها على الإنسان المعاصر عامة. ويمكن أن نختصر هذا المدخل في ما يسميه عالمنا الجليل النورسي "المعنى الحرفي والمعنى الاسمي". وبعد التعرف على هذا المفهوم يمكن تقديم صورة للعولمة كما تعبر عنها رسائل النور.

أ- مدخل المعنى الحرفي والمعنى الاسمي في فهم العولمة

يتحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن مسألة المعنى الاسمي والمعنى الحرفي ويجعلهما من أهم الأفكار في رسائل النور. ونحن نستطيع أن نستخدم مفهومي المعنى الاسمي والحرفي للدلالة على أهم وأخطر بعد من أبعاد العولمة باعتبارها منتوجا إنسانيا نابعا عن تطور الذهنية الإنسانية وتوجهها وجهة معينة أوصلتها إلى الوضع الحالي من التأزم والفوضى والاختلال العام. وقبل أن نربط بين مفهوم المعنى الحرفي والاسمي ومفهوم العولمة نحاول ذكر تعريف النورسي لهما. فالمعنى الحرفي يعني النظر إلى الكون والأسباب، والمعجزات، والحوادث، والوقائع، والسنن، والآيات الإلهية الآفاقية والأنفسية "والموجودات التي-كل منها حرف ذو مغزى – بالمعنى الحرفي، أي من حيث دلالتها على الصانع. فيقول ما أحسن خلقه! ما أعظم دلالته على جمال المبدع. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات."[9] ويزيد النورسي في بيان حقيقة المعنى الحرفي بقوله: "فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى كأنها مرايا تعكس تلك التجليات أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي ويعزلها عن المعنى الاسمي من أن تكون خادمة ومسخرة بنفسها."[10] فالمعنى الحرفي إذن دال على غيره وليس على ذاته، وإنما ذاته ونفسه ما هي إلا مرآة عاكسة لشيء أعظم من النفس وأعظم من الوجود وأعظم من الدنيا "أي أن (أنا) لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره؛ كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف."[11] فالإنسان والمجتمع الذي ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الحضارة بالمعنى الحرفي فإنه سيرى الأشياء والأمور على حقيقتها وبالتالي تنسجم خطاه مع مراد الله، وتتناغم أعماله وأقواله مع سنن الله وقوانينه لأنه ينظر إلى الوجود على أنه دليل على خالقه عز وجل. يقول النورسي: "فإذا تأملت في (أنا) بالمعنى الحرفي، صار لك عينا تفهمت ورأيت به كل ما في الكون، لأنه إذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفت في الأنا ما يصدقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفة أنا وربوبيته ومالكيته المفروضة."[12]

وأما إذا نظرنا إلى الأمور وعالجنا المشكلات الإنسانية بمنظور ونسق المعنى الاسمي، فإننا نكون أمام وضع مختلف تماما عن وضع المعنى الحرفي. ففي المعنى الاسمي نؤله

الأسباب، ونخلد إلى الدنيا، ونتثاقل إلى الأرض، ونعتبر أن الحياة الدنيا هي خلاصة كل شيء وأن التطور المادي والترقي العمراني هو غاية الوجود كله. وبهذا ننظر إلى أنفسنا (أنا) على أنها كل شيء ومصدر كل خير، ونجعل من العقل إلها نحكمه ومن الفلسفة معارف عليا كلية توصلنا إلى كل ما نريد معرفته. فلا نرى وراء العقل ووراء الفلسفة شيئا مفيدا. يقول النورسي: "وأما إذا نظرت إلى (أنا) بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكا، وخنت في الأمانة دخلت تحت {وقد خاب من دساها}(الشمس: 10) إذ الأمانة التي تدهشت من حملها السموات والأرض والجبال هي (أنا) من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك والشرور والضلالات، إذ إذا تستر (أنا) عنك غلظ، حتى صار بلع وجودك فصار كلك أنا. ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد به فيصير شيطانا يبارز أمر صانعه ثم يقيس الناس، ثم الأسباب على نفسه فيقع في شرك عظيم."[13]فإذا ما نظر الإنسان إلى الحياة والكون والوجود بالمعنى الاسمي فإن نظرته، وأفقه ينحصر في ذاته، ويدور حول أناه مهما حققت من الرقي المادي، ومهما تفجرت أمامه من عيون الحضارة وخيراتها، فإنه يبقى دائما مسلوب الوعي الصحيح، فاقد الرشادة والهداية غارقا في الملذات والشهوات لا يكاد يرى وراءها شيئا. " إن " أنا " الذي ليس له في ذاته إلاّ ماهية ضعيفة كأنه هواء أو بخار، لكن بشؤم نظر الفلسفة، ورؤيتها الأشياء بالمعنى الاسمي، يتميع. ثم بسبب الأُلفة والتوغل في الماديات والشهوات كأنه يتصلب، ثم تعتريه الغفلة والإنكار فتتجمد تلك " الأنانية " . ثم بالعصيان ـــ لأوامر الله ـــ يتكدر " أنا " ويفقد شفافيته ويصبح قاتماً. ثم يستغلظ شيئاً فشيئاً حتى يبتلع صاحبه. بل لا يقف " أنا " عند هذا الحد وإنما ينتفخ ويتوسع بأفكار الإنسان ويبدأ بقياس الناس، وحتى الأسباب، على نفسه، فيمنحها فرعونية طاغية ـــ رغم رفضها واستعاذتها منها ـــ وعند ذلك يأخذ طور الخصم للأوامر الإلهية."[14]وبهذه الكيفية يجعل المعنى الاسمي الإنسان تائها في نفسه لا يكاد يدرك حقيقته وحقيقة رسالته الوجودية.

ب- العولمة كنتاج للمعنى الاسمي وجذور أزمة المدنية الغربية

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار فكرة المعنى الحرفي والمعنى الاسمي وأردنا تطبيقها على مسألة العولمة فإننا سندرك حقيقتها وجوهرها بصورة جالية. فالعولمة في جوانبها السلبية

ما هي إلا تجلي لاستحكام المعنى الاسمي والفلسفة الاسمية والرؤية الكونية الاسمية في الثقافة، والنفسية، والعقلية الغربية التي تقود الحضارة المعاصرة. فعملية الاستبدال للمعنى الحرفي بالمعنى الاسمي في الواقع الإنساني هو الذي أدى إلى خلق هذه الثقافة والنفسية والشخصية التي تحمل راية العولمة وتتبنى مشروعها ونهجها في الهيمنة على البشرية. فعندما تبنت المدنية الغربية هذا المنظور تشكلت ثقافتها، واصطبغت نفسيتها بعدة خصائص جعلت منها منبتا ومنشئا خصبا للفوضى والاختلال والظلم الذي تعانيه البشرية اليوم من جراء أفكار العولمة ومخاطرها. يقول الأستاذ النورسي واصفا حقيقة المنظور الاسمي الذي تبنته الحضارة الغربية المعاصرة: "إن أسس المدنية الحاضرة[15] سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها. فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الخيانة. دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، واشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائما: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنيا."[16] فبهذا الوصف الدقيق للرؤية الكونية الغربية وخصائصها الثقافية نجد الأستاذ النورسي قد حدد المدخل الأصيل والصحيح كذلك لإدراك حقيقة العولمة باعتبارها منتوج لهذه الثقافة والرؤية والحضارة. ومن هذه التحديدات يقدم لنا النورسي صورة عميقة ومعبرة عن حقيقة العولمة وطبيعة العقل الذي أنتاجها ونوعية الثقافة التي تقف وراءها، كما يقدم لنا أمثلة واقعية لما تفرزه هذه الظاهرة وما تتركه في واقع الناس. يقول الأستاذ النورسي: "إن المدنية الغربية الحاضرة لا تلقي السمع كليا إلى الأديان السماوية لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات. زد على ذلك فقد ألقت —بذلك – الإنسان المحتاج المسكين

في أحضان الكسل والتعطيل المدمر، بعد أن شجعته على وسائل السفاهة. وهكذا بددت الشوق لديه إلى السعي والعمل، فأضاع الإنسان عمره الثمين سدى باتباعه هوى المدنية الحاضرة وبسيره وراء سفاهتها ولهوها. زد على ذلك فقد ولدت المدنية في ذلك الإنسان المعوز العاطل أمراضا وأسقاما وعللا، إذ أصبحت وسيلة، إلى انتشار مئات من الأوبئة والأمراض في أرجاء المعمورة بثتها في الأوساط بسوء الاستعمال والإسراف. فضلا عن هذه العلل الثلاثة التي ولدتها المدنية وهي الحاجة الماسة والميل إلى السفاهة، وكثرة الأمراض المذكرة بالموت، فإنه بتفشي الإلحاد وتوغله فيها استيقظت البشرية من غفوتها، وإذا بالمدنية تهددها باستمرار، بإظهار الموت تجاهها إعداما أبديا، فجرعتها نوعا من عذاب جهنم في الدنيا."[17] وبعد هذا التوصيف الدقيق العميق يورد لنا الأستاذ النورسي تصويرا دقيقا عن واقع العولمة وكيف أنها تحولت إلى مصدر للهم والغم إذا لم نتداركها بالتوجيه والترشيد المطلوب. يقول الأستاذ النورسي: "كان البشر في عهد البداوة تعوزهم ثلاثة أو أربعة أشياء، وكان إثنان من كل عشرة أشخاص يعجزان عن تدارك تلك الأشياء الثلاثة أو الأربعة. بينما في الوقت الحاضر تحت سطوة المدنية الغربية المستبدة، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال، والدفع إلى الإسراف، وتهييج الشهوات، وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية؛ فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد والإدمان مفتقرا إلى عشرين حاجة بدلا من أربع منها ضرورية. وقد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخص أن يلبوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بشكل مباح. ويبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء. فهذه المدنية الحاضرة إذا تجعل الإنسان فقيرا جدا ومعوزا دائما، ولقد ساقت البشرية- من جهة تلك الحاجة- إلى مزيد من الكسب الحرام، وإلى ارتكاب أنواع من الظلم والغبن، وشجعت طبقة العوام المساكين على الصراع والتخاصم المستمر مع الخواص، ذلك بهجرها القانون الأساس الذي سنه القرآن الكريم القاضي بوجوب الزكاة وتحريم الربا والذي يحقق بواسطتهما توقير العامة للخاصة، ويوفر بهما شفقة الخاصة على العامة. فبهجرها ذلك القانون الأساس أرغمت البرجوازيين على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم، وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرد في معاملتهم معهم. فدمرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها واطمئنانها وجعلتها أثرا بعد عين."[18] كما يقدم

لنا الأستاذ مثالا واحدا من الوسائل البسيطة التي تروج لمشروع العولمة ويبين لنا كيف أن هذه الوسيلة على الرغم من بساطتها وقدمها فإنها في عصر العولمة تؤدي إلى دفع الناس لارتكاب ملايين الأثام ناهيك عن الوسائل الجديدة التي أنتجتها الحضارة الغربية. يقول الأستاذ النورسي: " فمثلا: لقد فُهم من وجوهها المتعددة، بجهاز الراديو الموجود لدي. حيث أن شخصا واحدا يرتكب مليونا من الكبائر دفعة واحدة بكلمة واحدة، يتفوه بها في الراديو، فيقحم ملايين المستمعين له في الذنوب. نعم، إن جهاز الراديو ينطق بلسان واحد، إلا أنه يدفع مئات الألوف من الكلمات في الهواء دفعة واحدة. فبينما ينبغي أن يملأ هذا الجهاز – الذي هو نعمة إلهية عظمى- ذرات الهواء قاطبة، بالحمد والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى، إلا أن سفاهة البشر المتولدة من الضلالة تستعمل هذا الجهاز بما يخالف الشكر والحمد لله. فلا جرم أنه سيعاقب عليها."[19]

إن الحضارة الغربية المعاصرة التي تبشر بالعولمة وتعمل على نشرها بسرعة في العالم قد أسهمت في خلق واقع اجتماعي وثقافي واقتصادي وسياسي يُقسم فيه العالم إلى الفقراء والأغنياء وإلى الأثرياء والمعدومين وإلى الأقوياء والضعفاء أو المتجبرين والمستضعفين. يقول النورسي رحمه الله: "ولأجل هذا فقد دفعت هذه المدنية الحاضرة ثمانين بالمئة من البشرية إلى أحضان الشقاء وأخرجت عشرة بالمئة منها إلى سعادة مموهة وزائفة. وظلت العشرة الباقية بين هؤلاء وأولئك، علما أن السعادة تكون عندما تصبح عامة للكل أو للأكثرية؛ بيد أن سعادة هذه المدنية لأقل القليل من الناس."[20] إن ما يذكره الأستاذ النورسي وصف دقيق وعميق وصحيح لما آلت إليه البشرية تحت أوضاع العولمة ومصداقا لهذا الكلام الذي ذكره الأستاذ قبل نصف قرن أو يزيد نورد هذا النص الذي يتضمن حقائق مرعبة عن العولمة. يقول خبرين من خبراء العولمة واصفين لحقيقتها: "يتزامن التكامل العالمي مع انتشار نظرية اقتصادية ينصح بها عدد كبير من الخبراء والاستشاريين الاقتصاديين، ويقدمونها دونما كلل أو ملل للمسؤولين عن إدارة دفة السياسة الاقتصادية على أنها النهج الصحيح: إنها الليبرالية الجديدة. والمقولة الأساسية لهذه النظرية الجديدة هي ببساطة: (ما يفرزه السوق صالح، أما تدخل الدولة فهو طالح). وانطلاقا من أفكار أهم ممثل لهذه المدرسة الاقتصادية، الاقتصادي الأمريكي ملتون مريدمان، اتخذت في الثمانينيات الغالبية العظمى من الحكومات الغربية هذه الليبرالية النظرية منارا تهتدي به في

سياساتها. وهكذا صار عدم تدخل الدولة إلى جانب تحرير التجارة وحرية تنقل رؤوس الأموال، وخصخصة المشروعات والشركات الحكومية، أسلحة استراتيجية في ترسانة الحكومات المؤمنة بأداء السوق، وفي ترسانة المؤسسات والمنظمات الدولية المسيرة من قبل هذه الحكومات، والمتمثلة في البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. فقد غدت هذه المؤسسات الوسائل التي تحارب بها هذه الحكومات في معركتها الدائرة رحاها حتى الآن من أجل تحرير رأس المال. فسواء تعلق الأمر بالملاحة الجوية أو الاتصالات ذات التقنية العالية أو بالمصارف وشركات التأمين، أو بصناعة البناء وتطوير برامج الكمبيوتر، لا بل حتى بالقوة العاملة، فإن هذه كلها وكل شيء أو شخص سواها لابد أن يخضع لقانون العرض والطلب... وهكذا أخذت البلدان التي تعتبر حتى الآن بلدان الرفاهية تستهلك رأسمالها الاجتماعي، الذي ضمن لها حتى الآن الوحدة والتماسك، بخطى سريعة جدا تفوق حتى الخطى التي تُدمر بها البيئة. ويدعو الاقتصاديون والسياسيون الليبراليون الجدد العالم للاقتداء ب "النموذج الأمريكي"، إلا أن واقع هذه الدعوة مريب وشبيه بالدعاية التي كانت تطلقها حكومة ألمانيا الشرقية، حينما كانت تقول عن نفسها إنها ستبقى تتعلم الانتصار من الاتحاد السوفيتي دائما وأبدا. فليس هناك مكان آخر يبدو فيه التدهور بينا للعيان كما هو بين في الموطن الأصلي للثورة الرأسمالية المضادة: الولايات المتحدة الأمريكية. فالجريمة اتخذت هناك أبعادا بحيث صارت وباء واسع الانتشار. ففي ولاية كاليفورنيا —التي تحتل بمفردها المرتبة السابعة في قائمة القوى الاقتصادية العالمية– فاق الإنفاق على السجون المجموع الكلي لميزانية التعليم. وهناك 28 مليون مواطن أمريكي، أي ما يزيد عن عُشر السكان، قد حصنوا أنفسهم في أبنية وأحياء سكنية محروسة. ومن هنا فليس بالأمر الغريب أن ينفق المواطنون الأمريكيون على حراسهم المسلحين ضعف من تنفق الدولة على الشرطة.. ولكن أوربا واليابان، وكذلك الصين والهند، هي الأخرى تتفتت وتنقسم إلى قلة قليلة من الرابحين وأغلبية ساحقة من الخاسرين. فما تفرزه العولمة من تقدم ليس، من منظور مئات الملايين، تقدما. ولا مراء في أن الأمر قد بدا لهم مدعاة للسخرية عندما لاحظوا أن رؤساء حكومات مجموعة الدول الاقتصادية الكبرى السبع، قد جعلوا شعار: "لتكن العولمة انتصارا لمنفعة الجميع" المنار الذي يهتدون به في اجتماعهم في نهاية شهر يونيو من 1996م. وهكذا

ينصب استنكار الخاسرين على الحكومات، والسياسيين الذين تتآكل باستمرار سلطتهم وقابليتهم على إحداث التغيرات المطلوبة. فسواء تعلق الأمر بتحقيق العدالة الاجتماعية أو بحماية البيئة، أو الحد من سلطة وسائل الإعلام أو بمكافحة الجريمة العابرة للحدود، صارت الدولة، إذا ما أرادت تحقيق هذا أو ذاك بمفردها مرهقة مثقلة الكاهل، وإن أرادت تحقيقه بمشاركة وتعاون دوليين فإن حصيلة ذلك هو الفشل والإخفاق دائما. وهكذا نلاحظ أن هناك ملايين من أبناء الطبقة الوسطى الخائفة قد صاروا منذ أمد ليس بالقصير، يعتقدون أن خلاصهم يكمن في كراهية الغرباء وفي الانكفاء على الذات والعزلة عن السوق العالمية. وبالتالي فقد صار رد فعل المعزولين يتجسد في عزل الآخرين... ولا مراء من أن مجتمع الـ(20) إلى (80)، أي مجتمع الخمس الثري الذي تتخيله النخبة المجتمعة في فندق فيرمونت، ينسجم مع المنطق التكنولوجي والاقتصادي الذي باسمه يعمق قادة المؤسسات الصناعية والحكومات العولمة... فبواسطة الصور الموحدة على شاشات مليار من أجهزة التلفزيون تتشابه الأحلام والأماني، على ضفاف الآمور ويانغ تسه والأمازون والغانج والنيل. لقد اقتلعت الأطباق المستقبلة لما ترسله الأقمار الصناعية وكذلك مولدات الكهرباء العاملة بالقوة الشمسية في المناطق النائية غير المربوطة حتى الآن بالشبكة الكهربائية، كما هو الحال في النيجر في غرب أفريقيا، ملايين من البشر من حياتها القروية رامية بهم في خضم أبعاد فلكية كما قال برتراند شنايدر الأمين العام لنادي روما. وبهذا فإن المعركة الدفاعية التي يشنها الحاكمون في الصين ضد رسائل الفاكس والبريد الالكتروني، ومحطات البث التلفزيوني لم يعد القصد منها الوقاية من نسق اجتماعي مختلف، بل هي تهدف إلى المحافظة على ما يتمتعون به من سلطان... ولأول مرة في التاريخ صارت البشرية وحدة واحدة في تخيلها للوجود... ولكن لم استطاع أسلوب الحياة السائد في كاليفورنيا أن يغزو العالم ولم انتصر دزني على كل شيء آخر؟ ...إن سبب نجاح "استعمار والت دزني للثقافة العالمية"، حسب ما يعتقد بابير، في ظاهرة قديمة قدم الحضارة: إنها المنافسة بين الشاق والسهل، بين البطيء والسريع، بين المعقد والبسيط. فكل أول من هذه الأزواج يرتبط بنتاج ثقافي يدعو للإعجاب والإكبار، أما كل ثان من هذه الأزواج فإنه يتلاءم مع لهونا وتعبنا وخمولنا. إن دزني ومكدونالدز وMTV تروج لما هو سهل وسريع وبسيط. وسواء أكان آيزنر أو

بابير على صواب في تفسير أسباب انتصار هوليود فإن حصيلة هذا النجاح بينة واضحة يراها المرء في كل أرجاء المعمورة... ولكن ومع هذا كله، يظل هذا التنقل مؤشرا للمستقبل الذي سيكون عليه العالم. فكل المؤشرات تؤكد أنه ستكون هناك شبكة إلكترونية كثيفة وأجهزة تليفون تبث عبر الأقمار الصناعية، ومطارات رائعة الإنجاز وطابور من عربات النقل لدى المصانع والمؤسسات تربط، في مطلع القرن القادم، ما يقرب من ثلاثين مدينة مبعثرة في أرجاء المعمورة –وتفضل بينها مسافات شاسعة، وتضم ما بين ملايين ثمانية ملايين وخمسة وعشرين مليون ساكن... والواقع أن هذا هو ما تحقق الآن، فالمراكز الاقتصادية في آسيا في سباق دائم. ومعنى هذا هو أن الشبيبة قد صارت تعيش، في كل القارات بمدن ذات طبيعة مختلفة كلية مقارنة بما عاشه الآباء."[21]

هذا وصف بسيط لصورة المعقدة للعولمة وآفاقها المقبلة. فما لم ندرك مسألة العولمة في إطار ما أسماه الأستاذ النورسي بالمعنى الاسمي فإننا سنبقى دائما ننظر إلى المسألة بصورة سطحية لا نرى من خلالها عمق الأزمة وعمق المشكلة الخطيرة التي تواجهها البشرية. فكل المآسي المشار إليها في النص السابق ما هي إلا نتاج مباشر للشخصية والعقلية التي تتبنى النظرة الاسمية للحياة والدنيا والعالم والحضارة. ويزيد الأستاذ النورسي في بيان جوانب أخرى لهذه الشخصية الاسمية التي أنتجت العولمة وأوصلت الإنسانية إلى هذا الوضع وذلك بإعطائنا أسباب أخرى لما آلت إليه الإنسانية من أمراض يقول النورسي: " أن أس أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة، كما أن منبع جميع الأخلاق الرذيلة كلمة واحدة أيضاً. كما أُثبت ذلك في (إشارات الإعجاز). الكلمة الأولى: (إن شبعتُ، فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع).

الكلمة الثانية: (اكتسبْ أنتَ، لآكل أنا، واتعبْ أنت لأستريح أنا).

نعم، انه لا يمكن العيش بسلام ووئام في مجتمع إلاّ بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام، أي بين الأغنياء والفقراء، وأساس هذا التوازن هو رحمة الخواص وشفقتهم على العوام، وإطاعة العوام واحترامهم للخواص. فالآن، أن الكلمة الأولى قد ساقت الخواص إلى الظلم والفساد، ودفعت الكلمة الثانية العوام إلى الحقد والحسد والصراع. فسُلبت البشرية الراحة والأمان لعصور خلت كما هو في هذا العصر، حيث ظهرت حوادث أوربا الجسام بالصراع القائم بين العاملين وأصحاب رأس المال كما لا

يخفى على أحد. فالمدنية بكل جمعياتها الخيرية ومؤسساتها الأخلاقية وبكل وسائل نظامها وانضباطها الصارم عجزت عن أن تصلح بين تينك الطبقتين من البشر كما عجزت عن أن تضمد جرحي الحياة البشرية الغائرَين. أما القرآن الكريم فانه يقلع الكلمة الأولى من جذورها، ويداويها بوجوب الزكاة. ويقلع الكلمة الثانية من أساسها ويداويها بحرمة الربا."[22]فهذا مثال واحد يبين لنا كيف أن المدنية المعاصرة قد تاهت عندما تبنت المعنى الاسمي بدلا من المعنى الحرفي وكيف نشرت كل أنواع الرعب والإرهاب والخوف، فتحولت الحياة معها إلى جحيم. وفي هذا السياق نجد النورسي ينعى على هذا التوجه ويتوقع نهاياته وفساده لأنه لا ينسجم مع سنن الله ولا مع نواميس الكون. ويحاول أن يقدم لنا توصيفا للخطأ الذي وقعت في هذه المدنية التي أنتجت العولمة وأنتجت هذا الواقع البشري المتأزم. يقول النورسي: "فلا أخاطب في هذه المحاورة – هذا القسم من أوربا. وإنما أخاطب أوربا الثانية تلك التي تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحَسِبتْ سيئات الحضارة حسناتٍ لها، وتوهّمت مساوءها فضائل. فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة. ولقد خاطبتُ في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثنيت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجّهت خطابي الى تلك الشخصية التي أخذت بيدها الفلسفة المضرّة التافهة والحضارة الفاسدة السفيهة.. وخاطبتها قائلاً: يا أوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنك قد أخذت بيمينكِ الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة، ثم تدّعين أن سعادة الإنسانَ بهما. ألا شُلّت يداكِ، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليكِ، وستكون. أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود! تُرى هل يمكن أن يسعد إنسانٌ بمجرد تملّكه ثروة طائلة، وترفّله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟! ألا ترين أنّ مَن يَئِس من أمرٍ جزئي، وانقطع رجاؤه من أملٍ وهمي، وخاب ظنُّه من عملٍ تافه، كيف يتحول خيالُه العذبُ مُراً علقماً، وكيف يتعذّب مما حوله من أوضاع لطيفة، فتضيق عليه الدنيا كالسجن بما رحُبت!. فكيف بمن أُصيب بشؤمك بضربات الضلالة في اعمق أعماق قلبه، وفي أغوار روحه، حتى انقطعت – بتلك الضلالة – جميعُ آماله، فانشقت عنها جميعُ آلامه، فأيُّ سعادةٍ يمكنك أن تضمَني لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل

يمكن أن يُطلَق لمن روحه وقلبُه يُعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنةٍ كاذبة زائلة.. أنه سعيد؟..لقد أفسدتِ – أيتها الروح الخبيثة – البشريةَ حتى طاشت بتعاليمك، فتقاسي منك العذاب المرير، باذاقتك أياها عذابَ الجحيم في نعيم جنة كاذبة."[23]هكذا يبين لنا النورسي الأزمة الروحية والأزمة الأخلاقية التي آلت إليها الحضارة الغربية المعاصرة، وبالتالي فليس من العجب ولا المستبعد أن تنتج لنا العولمة التوسعية والاستعمارية التي تريد أن تركز هيمنة النموذج الليبرالي الغربي وتكرسه في حياة المجتمع كلها. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أن تحليل النورسي لأزمة الحضارة الإنسانية والمدنية الغربية بصورة خاصة إنما تتم ضمن ما أسماه بالنظرة الاسمية أو المعنى الاسمي للوجود. وبيانا لهذا التوجه في رسائل النور يقول النورسي رحمه الله:

"فيا أوروبا! ما ورطكِ في هذا الخطأ المشين إلاّ دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا ربَّ كل شئ وخالقه، إذ أسندتِ آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة! وقسّمتِ مُلك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تُعبَد من دون الله.. فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها دهاؤك الأعور يضطر كلُّ ذي حياة وكل إنسان أن يصارع وحده ما لا يعد من الأعداء، ويحصل بنفسه على ما لا يحد من الحاجات، بما يملك من اقتدار كذرة، واختيارٍ كشعرة، وشعورٍ كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفي، وعمرٍ كدقيقة تنقضي، مع أنه لا يكفي كلُ ما في يده لواحدٍ من مطالبه. فعندما يصاب – مثلاً – بمصيبة لا يرجو الدواء لدائه إلاّ من أسباب صم، حتى يكون مصداق الآية الكريمة {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} (الرعد: 14)."[24]

فبهذا العمق والنظرة إذن تقدم لنا رسائل النور المدخل الأصيل والصحيح ليس فقط لفهم العولمة ولكن كذلك لفهم مشكلات الإنسانية عموما. وبعد أن بينا بصورة مختصرة مدخل رسائل النور في النظر إلى مسألة العولمة، وأوضحنا ما لفكرة المعنى الاسمي والحرفي من فائدة في إدراك حقيقة المشكلة الإنسانية والأزمة الحضارية التي تواجهها البشرية في عصر العولمة يبقى لنا أن نبين ما هو المدخل الأساسي لعلاج هذه الأزمة والرد على تحدي العولمة الذي يكاد يطبق على البشرية جميعا بتياره المتعاظم. والذي يقرأ جيدا رسائل النور ويتعمق فيها ويكتشف منهجها العام يستطيع أن يدرك أن أي مدخل لمواجهة مسألة العولمة أو غيرها من المشكلات التي تواجه الإنسانية ينبغي أن يدور حول

"المسألة الأخلاقية". فسؤال الأخلاق في نسق رسائل النور ووجهتها العامة هو المدخل الأساسي لمعالجة أدواء وأسقام الإنسان المعاصر. ولكن حين نتحدث عن المسألة الأخلاقية عند النورسي فإننا لا نتحدث عنها وفق منطق الفلسفة الوضعية أو المادية أو الطبيعية. ولكن نتحدث عن الأخلاق وفق ما اسماه النورسي بالمعنى الحرفي. وحين ننظر إلى المسألة الأخلاقية على وفق المعنى الحرفي فإننا نجدها وبدون منازع هي المدخل الصحيح لمعالجة المشكلات الإنسانية. وفيما يأتي بيان لمفهوم ودور المسألة الأخلاقية في مواجهة تحدي العولمة والرد على تيارها السلبي المتعاظم الذي حاول حياة الملايين إلى يأس، وأصبح الكثير من الناس لا يشعرون بالأمان أمام هذه الأوضاع المتردية. وقد عبر النورسي على مثل هذه النتيجة الأخلاقية المؤسفة بقوله: "فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية بمجموعه إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح..وفوق هذا تمضي حياتنا رتيبة مملة يائسة خاوية المعنى."[25]

ثالثا: القيمة الحضارية للنسق الأخلاقي النوري والرد على العولمة

لا شك بأن الذي يطلع على رسائل النور بقلب مخلص، وعقل منفتح، وبصيرة نافذة سيصل إلى حقيقة أساسية وجوهرية هي أن رسائل النور في مجملها وكليتها وشموليتها وجامعيتها درس أخلاقي إيماني كوني استخلافي إنساني عميق. وعندما يلج هذا القارئ المخلص والواعي مسالك رسائل النور، ومداخلها النورانية القرآنية المعنوية سيتأكد تماما أن المسألة الأخلاقية تمثل المحور المركزي والمركز المحوري للدرس النوري وخطابه بصورة عامة. يقول الإمام النورسي رحمه الله:"فكيف إذن يعد جرما أو ذنبا قراءة رسائل النور وهي مؤلفات تعد في الذروة من ناحية تدريسها وتلقينها للأخلاق الفاضلة والحقائق الإيمانية."[26]

وليس من قبيل المصادفة أو الرجم بالغيب أو الارتجال الفوضوي أن تتموقع المسألة الأخلاقية في هذا الموضع الخطير والمتميز ضمن اهتمامات الخطاب النوري، ولكن طبيعة الدرس النوري، وصلته الوثيقة بالقرآن الكريم، وبالنموذج النبوي الأخلاقي العظيم قد فرضا على رسائل النور أن تتجه هذه الوجهة الأخلاقية، وأن ترفع بقوة ثقل المسألة

الأخلاقية مبينة دورها في البناء الحضاري للبشرية، وفي الصيرورة العامة للحضارة الإنسانية. فقد أكدت لنا الخبرة الإنسانية، والمعارف الحضارية البشرية أن المسألة الأخلاقية هي أس أساسات الأفعال الحضارية، والتاريخية المتوازنة في المسيرة الإنسانية، التي كان قادتها الحقيقيون هم الأنبياء والمرسلون من أول نبي عليه الصلاة والسلام إلى أخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي كانت أعظم معجزاته المشهودة على المستوى التاريخي والحضاري والاجتماعي هو أخلاقه التي جعلت منه رحمة لعالمين. يقول الإمام النورسي: "أما طريق أهل الهداية والمسلك السامي للأنبياء (عليهم السلام) وفي المقدمة حبيب رب العالمين، الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فهي: وجودية وإيجابية وتعمير، كما أنها حركة واستقامة على الطريق والحدود، وهي تفكر بالعقبى، وعبودية خالصة لله."[27] والذين يسيرون في مسار النبوة وأخلاقها، ويتبنون المعنى الحرفي في حياتهم إنما يرون أن للحياة غايات أخلاقية عظيمة، وأن الأخلاق هي أساس الحياة الصالحة. أو كما يقول النورسي: "بينما الذين هم في مسار النبوة: فقد حكموا حكما ملؤه العبودية لله وحده، وقضوا: أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة- التي يأمر بها الله سبحانه."[28]

فإذن ليس من العبث أن تشغل المسألة الأخلاقية هذا الحيز والموقع في الدرس النوري. فالقيمة الخلقية، والبناء الأخلاقي، والتوجيه الأخلاقي أصبح مع رسائل النور لازمة جوهرية من لوازم الإنقاذ الحضاري لإيمان البشرية، ولخدمة الإيمان والدين والحقيقة القرآنية.[29] ومن هذا المنطلق نلفي رسائل النور ترسم لنا صورة أخاذة وعميقة وصادقة عن الحقيقة الأخلاقية للعالم الإسلامي، وعن العمق الأخلاقي للأمة الإسلامية. حيث تشير رسائل النور إلى تلك الفضائل، والقيم، والأخلاق العالية للفرد، والأسرة، والجماعة، والمجتمع، والأمة الإسلامية في ذاتها وفي صلاتها مع الآخرين، ومع الآفاق الكونية المحيطة بنا، ومع كل المخلوقات الأخرى، فتبرز لنا رسائل النور البعد الإيماني الإحساني للأخلاق الإسلامية ليس باعتبارها أخلاقا نظرية فلسفية مادية وضعية، ولكنها أخلاق إيمانية شرعية عملية اجتماعية مؤثرة في الصلة بين العبد وربه، وبين العبد وأخيه، وبين العبد والكون المحيط به. فمصدر الأخلاق الإسلامية هبي الحقائق القرآنية ذاتها

مجسدة في الواقع، ولهذا السبب نجد النورسي يقول: "وكذا فإن أيسر الطرق في الأخلاق الإنسانية وأنفعها وأقصرها وأسلمها هي في الصراط المستقيم."[30] ورسائل النور حين ترسم لنا الصورة الآخذة للجانب الأخلاقي في حياة الأمة والعالم الإسلامي لا تنـــزع منـــزعا فلسفيا نظريا، ولكنها تتوجه نحو القلب، والبصيرة، والوعي، والسلوك، والنفس لتحرك الوجدان كله، والوعي كله لتلقى الحقيقة القرآنية الإيمانية النورانية كما هي في الخطاب القرآني المهمين والمعجز. فالأمة الإسلامية الحقة أمة أخلاقية لأنها تتبنى النظرة الحرفية في الحياة والاعتقاد والفكر والسلوك والعمل، وعلى هذا الأساس فإن الحضارة والمدنية التي تشكلها الشريعة المحمدية الحرفية هي مدنية متوازنة ومتناغمة مع طبائع الفطرة ومنسجمة مع سنن التاريخ. وفي هذا السياق يصف لنا النورسي طبيعة المدنية التي تنشأ عن النظرة الحرفية الأخلاقية فيقول: "أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها: فإن نقطة استنادها: الحق بدلا من القوة، والحق شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة شأنها: المودة والتجاذب. جهة الوحدة فيها: الرابطة الدينية والوطنية والصنفية بدلا من العنصرية والقومية، وهذه الرابطة شأنها: الأخوة المخلصة والمسالمة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. دستورها في الحياة: التعاون بدلا من الجدال والصراع، والتعاون شأنه: الاتحاد والتساند. وتضع الهدى بدلا من الهوى، والهدى شأنه: رفع الإنسان روحيا إلى مراقي الكمالات."[31] والأمة الإسلامية والعالم الإسلامي في عمقه الأخلاقي ينبغي أن يكون هو التجسيد العملي لهذا الدرس الأخلاقي الذي لخصته رسائل النور تلخيصا عميقا مستنبطا من الدرس الأخلاقي القرآني والدرس الأخلاقي التطبيقي النبوي. ونظرا لأهمية المنهج النوري في النظر إلى المسألة الأخلاقية فإنه من الأهمية أن نبين الأسس التي استندت إليها رسائل النور في تصور المسألة الأخلاقية. ويمكن تلخيص هذه الأسس في:

الأساس الإيماني والتوحيدي للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن عزل المسألة الأخلاقية عن موضوع الإيمان وحقائقه والتوحيد وقيمه. فالأخلاق في المنظور الإسلامي تنبع من الإيمان ومن التوحيد الخالص الذي يربط الصلة الأخلاقية المتوازنة بين العبد وربه. فالإيمان الصحيح هو الذي ينظم ويوجه نظام الأخلاق ويرشده بصورة متوازنة وفعالة.

الأساس الشرعي والتكليفي للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن عزل الأخلاق عن الشريعة الإسلامية ومقاصدها التكليفية العملية. حيث تعتبر الشريعة ومقاصدها أعظم نظام أخلاقي تنـــزل على البشرية. ولا يمكن فهم الأخلاق الإسلامية العالية إلا ضمن إطار الشريعة ومقاصدها؛ حيث تتحول الأخلاق إلى قيم عملية، وإلى معاني إنسانية مضبوطة وموزونة بميزان الشريعة.

الأساس الاستخلافي التسخيري للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن فهم الأخلاق وممارستها إلا في إطار ممارسة الاستخلاف في الأرض، وربطها بالعمل الصالح، وبالنفع والعمران البشري والإنساني. فالأخلاق في الإسلام تدور حول مسألة الاستخلاف والخلافة في الأرض، ولا تدور حول التأمل والتجريد والتفلسف والظلم والاستعباد والتعصب، والابتعاد عن الممارسة العملية الفعلية للخليفة في الأرض. ولهذا نجد النورسي ينصح المسلمين بالتحلي العملي بأخلاق الإسلامي بدل الترديد الكلامي لها. فيقول: "ولو أننا أظهرنا بأفعالنا وسلوكنا مكارم أخلاق الإسلام وكما حقائق الإيمان، لدخل أتباع الأديان الأخرى في الإسلام جماعات وأفواجا. بل لربما رضخت دول العالم وقاراته للإسلام."[32]

الأساس الكوني للمسألة الأخلاقية، فرسائل النور تربط بين القيم الأخلاقية، والمعاني الأخلاقية وبين تجليات أسماء الله الحسنى وآياته الكبرى في الوجود الكوني عامة. ففي رسائل النور نرى أن الكون كله بما فيه من المخلوقات تحمل معاني أخلاقية، وتدل على جواهر أخلاقية تزخر بالحكمة. ومن هنا فإن الأستاذ النورسي يقترح علينا أن ننظر إلى المسألة الأخلاقية في إطارها الكوني حين يصبح كل شيء في الكون دليلا ومعلما هاديا إلى الحقائق الأخلاقية الإلهية المودعة في الكون لتكون دالة على الإتقان، والحكمة، والإبداع، والتناسق، والانسجام في النسيج الكوني العام، وبهذا يتحول الكون إلى كتاب معجز ينبغي قراءته والاهتداء بدلائله وآياته إلى خالقه سبحانه وتعالى، وإدراك المغازي الأخلاقية والتوجيهات القيمية المتفجرة من هذه المعرفة الكونية.

الأساس الإنساني للمسألة الأخلاقية، فلا يمكن إدراك وتشوف، وشهود المعاني والآثار والوظائف والأدوار الأساسية للأخلاق في الحياة إلا بارتقاء الإنسان إلى المستوى الذي يجعله إنسانا حقا يكتشف عمقه الإنساني، ويدرك غاياته الإنسانية، ويحلق بوعيه

وقبله ونفسه وروحه إلى عالم الأخلاق والقيم لا ليتأملها أو يجردها، ولكن ليفهمها، ويعيها، ويعمل بها، ويعيشها، ويبلغها، وينقذ بها الإنسانية. فهنا تصبح المسألة الأخلاقية متصلة تماما بالإنسان وجوهره ورسالته التاريخية. فلا يمكن أن تعرف المسألة الأخلاقية وتقدر حق قدرها في الوجود البشري إلا إذا تجسدت في حياة الإنسان. ولهذا نجد الأستاذ النورسي يرى أن أعظم معجزة من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بعد القرآن هو تحقيقه لمعنى قوله تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم}. فبهذا التوجه تبين لنا رسائل النور أن المسألة الأخلاقية لا تأخذ حيزها، وموقعها، وموضعها ضمن الحياة الإنسانية إلا إذا عشناها، وطبقناها، وتذوقنا أثارها وثمراتها، حين تتحول الأخلاق إلى الطاقة والقوة التي تبني الإنسان والمجتمع والأمة والإنسانية التي تتصف بصفتي: الإحسان والاستقامة باعتبارهما من أهم معايير الصلاح الإنساني.

فنحن إذن لا نستطيع أن نفهم ونعالج المسألة الأخلاقية ضمن نسق رسائل النور إلا إذا خلصنا مناهج دراسة الأخلاق من الأطروحات الفلسفية، والوضعية، والمادية وربطناها بما يسميه الأستاذ النورسي بالمنظور الحرفي التوحيدي. إذ بهذا المنظور تصبح المسألة الأخلاقية جوهرية لارتباطها بالإيمان، والتوحيد، والشريعة، والاستخلاف، والكون، والإنسان من جهة، وتجسدها في شخص النبي عليه الصلاة والسلام وظهورها في عمق معانيها في حياته، وأعماله، وأفعاله، وأقواله، ومنهجه، وسنته، وسائر أحواله. وبهذا ينقذ المنهج النوري قضية دراسة الأخلاق من التجريد والفوضى المعرفية إلى العمل الصالح والارتقاء بالوعي والعقل إلى حقائق الإيمان وتجلياتها النفسية والكونية. وبهذا كذلك يقدم لنا النورسي الأخلاق باعتبارها الحل السليم والعميق لما تعانيه الإنسانية من مشكلات.

خلاصة

من هذا الاستعراض الموجز لموضوع العولمة ومخاطرها والرد عليها على ضوء رسائل النور نستخلص أهمية استخدام مدخل المعنى الحرفي والمعنى الاسمي لفهم العولمة، وبيان مخاطرها والرد عليها بصورة منهجية منظمة. كما بينا موقع الأخلاق في رسائل النور ودورها الفاعل في الرد على العولمة وترشيدها بصورة سليمة. وقد تبين لنا من التحليل

كذلك أن رسائل النور تقدم لنا تصورا منهجيا للنظر في الموضوع ومعالجته ويمكن اختصار هذا التصور في النقاط الآتية:

ينبغي أولا أن نفهم أنفسنا ورسالتنا وواجبنا المتصل أساسا بخدمة الإيمان.

ينبغي أن نفهم أن هذه الأمة تستند في تصورها ورؤيتها للحياة على المعنى الحرفي والرؤية التوحيدية الكونية.

أن المدنية الغربية وما أنتجته من عولمة إنما مردها إلى المعنى الاسمي أو الرؤية الوضعية المادية للحياة.

أن نفرق في نظرتنا إلى المدنية الغربية بين ما هو إيجابي وما هو سلبي وان نمارس عملية الانقاذ للآخرين على وفق المعنى الحرفي الإسلامي.

أن نعمل على إخراج الإنسان المسلم النموذجي الذي يطبق الأخلاق الإسلامية ويعيشها في الواقع ويقدمها كنموذج حضاري للأخرين.

أن نُخضع أفكارنا وأعمالنا وسلوكاتنا ونشاطاتنا للسنن الإلهية ولطبائع الفطرة ولقوانين الكون.

أن نحمل للعالم كله الرسالة الأخلاقية العميقة الإسلام، وأن نجعل الأخلاق الحرفية الإسلامية هي أساس حياتنا.

---

1 بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور، اللمعات، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، (القاهرة: شركة سوزلر للنشر، 1993)، ص 181.

2 بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق (7)، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، (استانبول: دار سوزلر للنشر، 1995)، ص 248.

3 بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور، صيقل الإسلام (8)، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، (استانبول: دار سوزلر للنشر، 1995)، ص 57.

4 هذا لا يعني أبدا أننا ننكر أو نستنقص من الجوانب الإيجابية التي يمكن للعولمة الحالية أن تقدمها للإنسانية. وهذا كذلك هو موقف النورسي عندما تحدث عن المدنية الغربية والحضارة الغربية والحضارة المسيحية؛ حيث نجده يفرق بصورة واضحة جدا بين ما هو خير وما هو شر وبين ما هو سلبي وما هو إيجابي فيها.

5Malcolm Waters, Globalization, First Edition, (London and New York: Routledge, 1995). P. 3.

6Malcolm, Globalization, p. 3.

7 مارتن هانس وهارالد شومان، فخ العولمة: الإعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة: عدنان عباس علي ورمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، العدد: 238، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1990، ص 33.

8Malcolm, Globalization, p. 3.

9 بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: الكلمات (7)، ترجمة: احسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار سوزلر للنشر، 1992)، ص 143.

10 النورسي الكلمات، ص 561.

11 النورسي، الكلمات، ص 637.

12 بديع الزمان النورسي، كليات رسائل النور: المثنوي العربي النوري (6)، الطبعة الرابعة، (استانبول: دار سوزلر للنشلر، 1999)، ص 328.

13 النورسي، المثنوي العربي النوري، 328.

14 النورسي، الكلمات، ص 646.

15 أنظر: النورسي، الكلمات، ص 144.

16 النورسي، الكلمات، ص 855.

17 بديع الزمان سعيد النورسي، كليات رسائل النور: الملاحق، ص 380.

18 بديع الزمان سعيد النورسي، الملاحق، ص ص 378–379.

19 النورسي، الملاحق، ص 122.

20 النورسي، صيقل الإسلام، ص 157.

21 هانس مارتن، فخ العولمة، ص 34–54، بتصرف خفيف.

22 النورسي، المكتوبات، ص 474.

23 النورسي، اللمعات، ص 177.

24 النورسي، اللمعات، ص 180.

25 النورسي، الشعاعات، ص 242.

26 النورسي، الشعاعات، ص 600.

27 النورسي، اللمعات، ص 124.

28 النورسي، الكلمات، ص 624.

29 فلا يكاد المطلع على رسائل النور يفتقد إشارة أو معنى أو توجيه أخلاقي في كل صفحة من صفحات رسائل النور؛ حتى تلك العبارات والكلمات الخاصة بالمحاكمات التي أجريت للأستاذ بديع الزمان النورسي ولطلبة رسائل النور في زمانه وبعده مليئة بالتوجيهات الأخلاقية؛ حيث نرى المسألة الأخلاقية حاضرة بقوة ومشهودة بكثافة غير معتدة. أنظر إلى على سبيل المثال: كتاب "الشعاعات".

30 النورسي، الشعاعات، ص 694.

31 النورسي، المكتوبات، ص 606.

32 النورسي، صيقل الإسلام، ص 494.

العولمة وأمراض الأمم
دراسات في فكر بديع الزمان النورسي

الدكتور عمار جيدل(*)

تعيش البشرية في الوقت الراهن تبشيرا جديدا يطمح إلى غرس حب أنموذج واحد موحّد للثقافة والتصور الحضاري وما يترتّب عليهما من أخلاق شخصية واجتماعية، فما موقف النورسي من الأحادية التي يراد فرضها على الإنسانية على تنوّع دياناتها وخلفيتها الفكرية؟

رام هذا الأسلوب عبر التاريخ تهيئة النفوس لقبول الأنموذج (المطلق) والنهائي في الفكر (الإنساني)، حسب رأي أصحابه، إذ لا يمكن أن ينتج الفكر البشري أحسن منه في حاضر الأيام ومستقبلها (نهاية التاريخ)[1] وفق ما يراد تسويقه من رؤى ومعارف، وإذا قبلت النفوس هذه الأفكار الخطيرة، فلا شك أنها ستبعد العقل عن التفكير في تجاوز هذه المعضلة لأنها لا تقدر على تجاوزه، والموقف الأوفق حسب تقديرهم العمل على التأقلم مع المعطى الجديد.

إنّ التسليم بالقضية من الناحية النفسية والفكرية، معناه زوال التنوّع كظاهرة إنسانية متجلية في عالم الأفكار والسياسة والاقتصاد، بل قد يطال حتى الاجتماع ومتطلباته، وهذا أهم ما ترمي إليه كل فلسفة إقصائية.

وتعد مواجهة الإقصائية القديمة مؤسسة لمواجهة كل إقصائية، ولعل أهم الأفكار الإقصائية في العصر الراهن، العولمة، المساهمة في تهيئة نفوس وعقول المغزوين لقبول ذلك الأنموذج، وبذلك يحققون تجنيدا مجانيا لجنود ثقافيين غير رسميين يدافعون عنهم في بلدان المغزوين وبين بني جلدتهم ودينهم.[2]

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية –جامعة الجزائر

ومنتهى ما تطمح إلى تحقيقه أن يتولى تنشيط همم المغزوين للتعلّق بالغازي أبناء تلك البيئة، وخاصة من أولي الحظوة، يتولون في ذات الوقت مهمة تثبيط عزائم بني جلدتهم، فيصبح مجرّد التفكير في نقد هذا الأنموذج في الرؤية الحضارية جريمة لا تغتفر، بل يعد ضربا من الجنون والتخلّف والهمجية، أما العمل على المقاومة الفكرية على الأقل، فسيعرّض صاحبه للتصنيف في قائمة المصابين بالطاعون الذي يجب تطهير العالم منه ومن أفكاره (الخبيثة)[3].

وضع العلامة النورسي وصفة طبية استقاها من صيدلية القرآن الكريم، شخّص من خلالها مرتكزات هذا المسلك، فقد بيّن أنّ مبنى تلك الطريقة تثمين أمراض فتّاكة حلت بالأمة الإسلامية و غيرها من الأمم على تنوّع مشاربها الثقافية والدينية، فقد أصبح اليأس قانون حياة، ومات الصدق في الحياة الاجتماعية والسياسية، وشاع حب العداوة، واضمحلت المعرفة بالروابط النورانية، وسرى الاستبداد في المجتمع سريان النار في الهشيم، وحصرت الهمم في المنفعة الشخصية[4]. وتلك هي رأس ما تستثمره العولمة فينا تمكينا لمشروعها من المجتمع، فمن التيئيس في المقاومة القول"ليس أمامكم و لا لديكم أي خيار آخر"وهي كلمة تلخّص بأمانة ماذا يراد من كلمة عولمة...

والقائلون بذلك – كما يقول أحد الباحثين–[5] قد استقالوا لأسباب عديدة، بل إنهم عملوا على عولمة الاستسلام كأسلوب للحياة"

ويؤكد في موضع آخر صحة تشخيص النورسي، فيبيّن أن العولمة "تتغذى من العجرفة الثقافية التي تستمد أصلها من الجهل واللامبالاة تجاه أنساق قيم أخرى وتجاه حقها في الوجود، هذا يؤدي بشكل تدريجي وفعلي إلى نـــزعة ثقافية تسلطية عالمية" مؤداه افعل مثلي إن كنت تتشبّث بحقك في الوجود"[6]

و لعل أهم ما يقرر صحة التشخيص الآنف الذكر، أن نجاح التيئيس والتجهيل مرتبط عضويا بضياع الصدق المرتبط أساسا بالأنانية، والتي سماها النورسي بالحرص على المنفعة الشخصية، المولّدة للاستبداد.

يرى هذا التحليل في فكر رافض العولمة ومتبنيها، فترى المتبني يسعى جاهدا من غير شعور منه أحيانا إلى زرع اليأس والتجهيل بثقافة الأمة وتمكين الاستبداد والأنانية بوصفها أهم عناصره[7]

تلك هي أمراض الأمم، وذلك ما تطمح إلى استغلاله العولمة في العصر الحاضر، فما السبيل إلى معالجتها في فكر النورسي؟، وما مسلك تجاوز الأفكار التي تريد العولمة تسويقها في بلاد المسلمين؟وما موارد تثمين مضامين العولمة في أيامنا الحالية؟

من منطلق ما سبق تقريره يتّضح أنّ مواجهة العولمة في فكر النورسي، مواجهة لنوع الفكر الإقصائي عبر التاريخ، وبالتالي فالمواجهة ليست إلا من قبيل أفكار النورسي المحيّنة أو المؤوّنة (من تأوينها أو تحيينها)، وخاصة تلك التي نبّه فيها إلى أهم الأمراض الفتّاكة التي يستثمرها الإقصاء عبر التاريخ.

يذكر العلامة النورسي في مجموع رسائله ما يستشف منه كيفية مواجهة الأمراض الفتاّكة المسلّطة علينا، وتتلخّص تلك الأمراض وفق تعبيره في النقاط الآتية:

أولا:حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

ثانياً: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

ثالثاً: حبّ العداوة.

رابعاً: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

خامساً: سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة..

سادساً: حصر الهمة في المنفعة الشخصية.

مردّ كل ذلك على قول النورسي محاكم التفتيش المدنية لهذا العصر، ومحاكم التفتيش المدنية في هذا العصر، العولمة، تلك التي أنجبت كسابقتها لقطاءها – غير الشرعيين – باستعمالها وسائل رهيبة في تلقيح بعض الأذهان، وتجري بهم حقدها الدفين على الإسلام للثأر منه، محاولةً فتح الباب أمام ما يصرف المسلمين عن الدين، أو جعلهم في الأقل مهملين له، أو بإمالتهم نحوها، أو التخلي عن الإسلام بإلقاء الشبهات والشكوك في العقول، وتشيع بهذا مكراً سيئاً هو الآتي:

أيها المسلم! تأمل أينما وجد مسلم فهو فقير، غافل، جاهل إلى حد ما، بينما مدني هذا الوقت — العولمي– أينما حلّ فهو متحضر، يقظ، ، صاحب ثروة... الخ..

بتحيين[8] نص نصيحة النورسي، وجعلها موافقة لمقتضى الحال من الناحية الفكرية، نلاحظ أنّه يحذّر من كل فكر غالب متدثّر بالثقافة والحكمة والعلم، وإن تسمى في السابق نصرانية أو ما تلبس بها، فهو في زماننا متّصف بصفاتها ومتحل بأساليبها في قهر الآخرين، فقد أقام مثلها محاكم التفتيش الجديدة التي ترمي إلى إبعاد المسلمين عن دينهم،

لهذا فتأوين نصيحته ميسّر بحذف النصرانية وأوروبا وتعويضها بالعولمة، فتصبح على النحو الآتي:

أيها المسلم لا ترخِ يدك عن الإسلام الذي هو حامي وجودنا وكياننا تجاه الدمار الذي تولّده هذه النتيجة المخيفة لتقدم فكر كل غالب وهو في وقتنا العولمة، بل عض عليه بالنواجذ واستعصم به بقوة، وإلا فمصيرك الهلاك. لا تفرّط فيه إنّه نقطة استنادنا تجاه المصائب والدواهي، التي ألقت بثقلها العظيم، عِظم الأرض، على العالم الإسلامي، هي الإسلام الذي يأمر بالاتحاد النابع من المحبة، وبامتزاج الأفكار الناشئ من المعرفة، وبالتعاون الذي تولده الاخوة. إنّه نقطة استناد قوية تحرّك الأرض بموجبه[9]، وتحقق الوحدة بجميع عناصرها في ظله، يشير إلى هذا المعنى في سياق عرض أهمية الوحدة والتجمع في قضاء الحاجات، فيقول رحمه الله:ثابت حكمة: أن اجتماع الأفراد الكثيرين يولّد الحاجات، فلا يستوعب إنتاج الأرض تلك الحاجات التي تتزايد بأسباب كثيرة – كالتقليد وغيره – ومن هنا تصبح الحاجة أم الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع معلّم العلم، والضيق الروحي مولد السفاهة.[10] كما التوجّه نحو الصناعة والميل إلى المعرفة ينشأ مع الكثرة، والتعرف ينتج التجارة، والتعاون الاشتراك في الأعمال، مثلما يولّد التماس تلاحق الأفكار والمنافسة والتسابق[11]

ننتقل بعد هذه الفرشة إلى البيان التفصيلي لطرق العلاج:

أولا:حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه.

تتأسس العولمة كغيرها من الأفكار الشمولية الإقصائية على استغلال اليأس المهيمن على عقولنا وقلوبنا، بفعل الزلزلة المعنوية العظيمة التي أصابت المسلمين، ذلك أنّ العولمة لا تختلف عن الزلزال الذي أصاب المسلمين في أفكارهم وعاداتهم بل ومعنوياتهم في الأيام السالفة.

يؤكد هذه المعاني موقف كثير من الخلق من العولمة نفسها، فقد هيّئت نفوس المغزويين لقبول الأنموذج الواحد، وبذلك يحققون تجنيدا مجانيا لصالح الفكر الغالب[12]، خاصة وقد تولّى بعضنا تنشيط الهمم للتعلّق بالأفكار العولمية، ومرد كل ذلك الزلزال لذي أصاب العقول والقلوب–كما سبق أن ألمحنا– جرّاء اليأس المهيمن، وقد صوّر العلامة هذا الزلزال فقال: "لقد أذاقت هذه الزلزلة العظيمة الناس مصيبةً معنوية أدهى من مصيبتها المادية الفجيعة، تلك هي الخوف والهلع و اليأس والقنوط التي استولت على

النفوس، حيث أنها استمرت ودامت حتى سلبت راحة اغلب الناس ليلاً.وعمّ القلق والاضطراب أغلب مناطق البلاد.. تُرى ما منشأ هذا العذاب الأليم وما سببه؟[13]

إنها على قول النورسي أدهى من المصيبة المادية التي يترنّح فيها مجتمعنا الإسلامي، أليست العولمة مؤسسة لمجموعة من الأمراض المعنوية ؟بفعل الزلزال الذي أحدثته فينا- كسابقتها-، يصوّر النورسي أسباب الداء ويلخّصها في اليأس المهيمن، ذلك اليأس الذي يجعلنا مهيّئين لقبول المركوبية والاستعمار، فما هو دور اليأس حسب رأي النورسي؟

1 - خطورة اليأس و دوره التدميري:

يظهر أن لليأس دورا خطيرا لا تجدي المعرفة في علاجه، يقول النورسي:" تُرى هل يُجدي أعظم علومكم، وأعلى صروح حضارتكم وأرقى مراتب نبوغكم وأنفذ خطط دهائكم شيئاً أمام هذا السقوط المخيف المريع للإنسان؟ وهل يستطيع الصمود حيال هذا اليأس المدمّر للروح البشرية التواقة إلى السلوان؟"[14]، وتتجلى تلك الوظيفة التدميرية فيما يأتي:

أ/ رأس كثير من البلايا الأخلاقية:

أغلب ما يفعله المسلم منافيا للإسلام ناشئ من اليأس والعناد لغفلة أبعدته عن النظر في عواقب الأمور، يشهد لهذا أنّ المصاب بالوساوس المتردد في شأن نفسه، يشرع بالقيام بأعمال وحركات منافية للإسلام، ولسانه يردد: ليكن ما يكون فلا أبالي...[15]

ب/ القضاء على أصول السعادة و تمكين السفاهة:

اليأس سبب قوي في استئصال أصول السعادة وتضييق الصدر ومنبع السفاهة والتفاهة، ذلك أن اليأس مخبوء في سوء الظن وينخر السعادة ويقتل الحياة، وهو أصل الضيق ومنبع السفاهة وسوء الظن [16]

ج / الألم الذي يطاق:

يعد اليأس عاملا رئيسا في الألم المهيمن على القلوب، ذلك لأنه شعور يحرق الوجدان حتى لا يكاد يطاق صراخه من شدة الألم.. لهذا يقول النورسي: ألا إن ألم اليأس لا يطاق حقاً![17]

د / اليأس قتل دائم و منبع الضلال :

يبعث الأمل الحياة في الناس، واليأس يقتلهم. لأن "اليأس داء قاتل"[18]، يؤكد هذا المعنى قوله المحيّن: "إن مما أملت عليّ تجاربي في الحياة وتمخض فكري عنه هو: أن اليأس داء قاتل، وقد دبّ في صميم قلب العالم الإسلامي. فهذا اليأس هو الذي أوقعنا صرعى

– كالأموات – حتى تمكنت دولة صغيرة – أمريكا– بفكرة – العولمة – من التحكّم في دول كبيرة –كما هو شأننا مع العولمة–، فتستعمرها وتسخرها في خدمتها.. وهذا اليأس هو الذي قتل فينا الخصال الحميدة وصرف أنظارنا عن النفع العام وحصرها في المنافع الشخصية.. وهذا اليأس هو الذي أمات فينا الروح المعنوية التي بها استطاع المسلمون أن يبسطوا سلطانهم على مشارق الأرض ومغاربها بقوة ضئيلة، ولكن ما أن ماتت تلك القوة المعنوية الخارقة باليأس حتى تمكّن الأجانب الظلمة – منذ أربعة قرون – أن يتحكموا في المسلمين والمستضعفين ويكبلوهم بالأغلال.[19]

تلك هي وسيلة العولمة في استعمارنا من جديد قبل الحلول ببلداننا، إن اليأس منبع ضلال الفكر وظلمة القلب وضيق الروح[20]، وتلك أهم عوامل تمكين فكر العولمة .

هـــ/ يجعل صاحبه أضحوكة للشيطان:

يجعل ضيق الصدر صاحبه لقمة سائغة لدسائس الشيطان، "فيقع في اليأس والقنوط. ويكون بيأسه هذا أضحوكة للشيطان الذي ينفث فيه يأسه القاتل، ويضرب دوماً على وتره الحسّاس، وينفخ في التباسا ته ويثيرها، فإما أن يخلّ بأعصابه وعقله، أو يدفعه إلى هاوية الضلالة.[21]

و / يولّد الخوف و قبول الإذلال و الإهمال الاجتماعي:

اليأس أبو الخوف وقبول الإذلال، إذ يتولّد من مرضي اليأس والحقد داء الخوف وعلّة الضعف ومرض الذلّة المستولي على القلب[22]، وينجم عنه ضرورة العطالة، والإهمال الاجتماعي بسبب عدم المبالاة والتملّص من المسؤولية، فيخلد صاحبه إلى الكسل، قائلا: "مالي وللناس، فكل الناس خائرون مثلي" فيتخلى عن الشهامة الإيمانية ويترك العمل الجاد للإسلام".[23]

وما دام هذا الداء قد فتك فينا إلى هذا الحد، ويقتلنا على مرأى منا، فنحن – كما يقول بديع الزمان – عازمون على أن نقتصّ من قاتلنا، فنضرب رأس ذلك اليأس بسيف الآية الكريمة: (**لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّه**) (الزمر: 53).[24]

ثانيا: دواء اليأس

جلي من الفرشة الآنفة الذكر أنّ المبادئ الحيّة فينا أساس الدواء، تلك القواعد والأسس التي ينبغي أن تبقى حيّة فينا ما حيينا، فإذا ما غابت فإنها ستمكّن لليأس من

أنفسنا، وبذلك يمر تيار الفكر الوافد – العولمي أو غيره – بديارنا دون تفكير في المقاومة لفقد عناصر الإغراء بها، لهذا فنحن في حاجة إلى مجموعة من العناصر لتجسيد الدواء.

أ/ الحاجة إلى المبادئ المجنّدة في الخير الإنساني العام:

لعل من أهم ما يخلّصنا من اليأس قوة معنوية تنتظر الخلاص من الفساد وأهله، ذلك أنّ البشر في كل وقت وكل عصر بحاجة إلى "معنى" المهدي الذي يكون أساساً للقوة المعنوية، وخلاصاً من اليأس، فيلزم أن يكون لكل عصر نصيب من هذا المعنى.وكذلك يجب أن يكون الناس في كل عصر متيقظين وحذرين من شخصيات شريرة تكون على رأس النفاق وتقود تياراً عظيماً من الشر، وذلك لئلا يرتخي عنانُ النفس بالتسيّب وعدم المبالاة.[25] وقائد تيار الشر في العصر الراهن العولمة، فهي توجب كسابقتها اليقظة والحيطة والحذر. ومواجهتها تفرض الاستناد إلى نقطة استناد قوية تستطيع أن تغري المستندين إليها بتحريك الكرة الأرضية من مكانها[26]، إنّ نقطة استناد كالإسلام تمكّن الإنسان الصغير الضعيف من أن يدير أعظم الأشياء كالكرة الأرضية، فإذا كان بمقدوره أن يحرّكها، فإن من هو أقل منها لا يضعفه ولا يمنعه من تجاوزها، لهذا فالعولمة مهما طغت وتجبّرت، فإن الإسلام كفيل بأن يكون نقطة استناد في مواجهتها واستثمار خيرها لصالح الإنسانية جمعاء.

ب/ الاعتبار من الماضي:

أكبر عوامل دفع اليأس الاعتبار بالماضي في فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل، "اجل! إن العوام الذين لم يبلغوا مرتبة إدراك سر القدر لهم مواضع لاستعماله، ولكن هذه المواضع تنحصر في الماضيات من الأمور وبخصوص المصائب والبلايا والذي هو علاج اليأس والحزن، وليس في أمور المعاصي أو في المقبلات من الأيام، والذي ينتفي كونه مساعداً على اقتراف الذنوب والتهاون في التكاليف.[27]

ج / المحبة و الشفقة:

يتجاوز اليأس بالمحبة والشفقة والصبر على البأساء والضراء، والعلامة الدالة على كون تلك المحبة لله وفي سبيله فهي الصبر مع الشكر عند البلاء، ولا سيّما عند الموت والترفع عن اليأس والقنوط وهدر الدعاء بل يجب التسليم بالحمد عند القضاء.[28]

د/ صيانة قوة الإيمان:

يدفع اليأس بنور الإيمان المتألّقة من وجه القرآن المعجز البيان، فتضيء بأنوارها الساطعة، ما لو تضاعف ما ينتاب المسلم من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات أضعافا

مضاعفة، لكانت تلك الأنوار كافية ووافية لإحاطتها[29]، لأننا متيقنون أنّ الإيمان – ببثه هذا الفرح والسرور في دنيانا هذه – يثبت أن حقيقته بذرة تحمل من الحيوية ما لو تجسمت لنبتت عليها جنة خاصة لكل مؤمن، ولأصبحت له شجرة طوبى.[30]

هـ/ التفاؤل باستثمار خفاء الأجل:

خفاء الأجل يدفع اليأس ويرفع القوّة المعنوية، ذلك أنّ" الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الأجل مجهولاً وقته، إنقاذا للإنسان من اليأس المطلق ومن الغفلة المطلقة.. أي أن الأجل متوقع مجيئه كل حين، فإن تمكّن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكّبده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية... وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموت في الذهن فيتأهب له. بل يحدث أن يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة.[31]

و / الرجاء مع العمل:

الرجاء مزيل لليأس إذا صاحبه العمل، بفضل الهداية المستفادة من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم فهي بلسمٌ شافٍ، ودواءٌ ناجع لذلك الداء الوخيم الذي يظن أنّه بلا دواء، ويبدل ذلك اليأس القاتم إلى نور الرجاء الساطع.[32]

ز / أهمية الإيمان في دفع اليأس:

الإيمان في رسائل النور ليس من قبيل الكلام الذي يلاك، ثم يرمى، بل هو موقف نظري تترجمه الأعمال المتجلية في الموقف المعيش، ولهذا المسلك دور هام في دفع اليأس واستئصاله من قلوب وعقول المؤمنين، إذ تكاد تنطفئ شعلة حياة المسلم و لا يجد في ظل الظروف الراهنة المعولمة، الصبر والسلوان إلا في الإيمان، الإيمان الذي يقابل اليأس القاتل بالأمل في حياة أسعد، ولو لا هذا الإيمان لشعر المسلم الضعيف – الذي هو أجدر بالشفقة والرحمة – باضطراب نفسي وقلق قلبي، ولضاقت عليه الدنيا بما رحبت، ولتحوّلت سجنا رهيبا، ولانقلبت الحياة إلى عذاب أليم قاس.[33]

ح / الحرص على العبادات:

من مقتضيات الإيمان أداء العبادات، وساعة العبادة كفّارة لبعض ما ارتكبنا من أخطاء وذنوب، ربما كانت السبب في سجن بعضنا، أليست العولمة سجنا جديدا يراد تطويقنا به؟

وما دفع به السجن الصغير يدفع به السجن الكبير، فقد دفع الأول بصرف الأوقات في الصلوات، فتتحوّل بذلك ساعات الابتلاء وأوقات المحن إلى يوم عبادة، فكأن

الساعات الفانية اكتسبت ببركة ساعة العبادة صفة الخلود، وتصبح في حكم ساعات أبدية باقية، فتنـــزاح سحب اليأس ويتبدد عن الروح ظلام القنوط[34]، اليأس والقنوط المطلق الذي من مضامينه، الشأن الحضاري والفكري والاجتماعي، فادفع ذلك اليأس المطلق بالعبادة فإنها أنفع لك ولدينك وأمتك إذا استحضرت مقاصدها، نافعة في التأسيس للإيمان ودفع الأفكار المزاحمة في كل حين، بشرط تعهّده بالاستغفار والأوبة الدائمة إلى الله تعالى.[35]

ط/ التساند بين البشر:

يعد التساند أنفذ سبيل في دفع الأفكار الإقصائية التي على رأسها في أيامنا هذه العولمة، وألزم ما ينبغي لنا عمله في هذه الأيام استثمار ما وضعه النورسي لمواجهة التيارات الفكرية والسياسية الغالبة في وقته، فقد ذكر أنها تجابه بعدم القلق والاضطراب، وعدم اليأس، وإسناد كل منا الآخر وإمداد روحه المعنوية، وعدم الخوف، واستقبال هذه المصيبة بالتوكل، وعدم الاكتراث بأقوال الصحف التي يطلقونها جزافاً ويستهولون كل حبة صغيرة، بل علينا استصغار ما استعظموه من أمور.[36]

ويفرض هذا التساند الصبر والحيطة مع كمال الاستسلام لله والثبات على الخدمة وعدم الوقوع في خيبة الأمل، وعدم اليأس من ظهور خلاف المأمول، وعدم التزعزع أمام أعاصير مؤقتة زائلة[37]، لاحظ جيّدا أنه رغم غلبة تلك الأفكار – أعاصير – وخطورتها فقد اعتبرها مؤقتة، أي أنها وإن طال أمدها فمآلها الزوال، ذلك حال كل فكرة غالبة عبر التاريخ، والأفكار الغالبة في وقتنا – العولمة – مآلها الزوال، فتذهب العولمة ويبقى الإنسان[38], أكبر شاهد على ذلك التجربة التاريخية التي تؤكد أن الفكر الإقصائي أيامه قصيرة مهما طالت، وبالتالي فلا خوف على الإنسان، وخاصة الإنسان المؤمن إذا تعلّق بمبادئ دينه وتمثّلها.

ي/إدخال السرور على قلوب المغبونين:

يدخل المؤمن بالتزامه السرور على نفسه ويسعد الآخرين بحاله قبل مقاله، لأن صحوته ستجعله – بإذن الله – مناط سلوان ومدار تسلٍ لأولئك المساكين و أمثالهم، وتجعل منك طبيباً حقاً يشع نوراً إلى القلوب وينثر البهجة في النفوس.[39] وبذلك يسهم في دفع اليأس من تجاوز العولمة.

كما يسهم بهذا العمل في الرفع من القوة المعنوية بالبشرى الصادقة، إزالة لليأس المخيم على آهل الإيمان، فقد كان الشيخ رغم الجو الحالك يبشّر بنور محيط واسع في

دائرة عظمى في عالم السياسة و الحياة الاجتماعية [40]، والسير على منهاجه يقتضي التبشير في عصرنا بما بشّر به الشيخ رحمه الله، دون نظر في الأفكار المزاحمة، فإنها وإن طال أمدها آيلة إلى الزوال، ويبقى الإسلام شامخا وخالصا من الشوائب، تلك هي الحقيقة فهل نكون أهلا لنيلها؟ إننا لن نكون كذلك إلا إذا تجاوزنا الحرص بالقناعة وسعينا باستمرار لتنمية قدراتنا الإيمانية بما يوافق مطالب الزمان، وهذا ما يدعونا إلى تجسيد الحيوية الإيمانية على مدار الزمان.[41]

ثانياً: موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.

استفادت الأفكار الإقصائية على مرّ التاريخ من العداوة بسبب موت الصدق الذي أريد إفناؤه في بيئتنا الإسلامية، فقد كان لفقده أثر وخيم علينا ماضيا وحاضرا وحتى مستقبلا إن استمر لا قدر الله، عالج النورسي هذه المعضلة وحددّ أسباب هذا الداء وخطورته وعلاجه.

1 / خطورة فقد الصدق في حياة الأمة:

حديثناعن الصدق بهذا الصدد بوصفه عاملا مهما في التأسيس للتواصل الاجتماعي والمعرفي بين أفراد الأمة، فقد كان فقده سببا في تهيئة النفوس لقبول الفكر الوافد على تنوّع مشاربه.

أ- سبب فقده التنافر:

يسبب فقد الصدق التنافر، ذلك أنّ الجماعات البشرية إن لم يكن بينها وحدة مبنية على الصدق والاستقامة، لأنها كلما زادت عددا صغرت ودبّ فيها الفساد والانحلال[42].

ب- موت الصدق نذير شؤم:

إذا انقطعت عرى الصدق والجدية من الأمة صارت كهشيم تذروه الرياح.[43] تتقاذفها الأرجل، نظرا ليسر السيطرة عليها من داخلها، بواسطة خدمة فكرة الغالب الوقتي، أولئك السدنة الجدد، الذين مات الصدق فيهم، فأرادوا إماتته في الأمة ليسهل تسويق أفكار الغالب الحالي، وهو مسلك العملاء، فاقدي الصدق على مرّ تاريخ الإنسانية.

2- أهمية الصدق:

أ – الصدق أساس الإسلام:

الصدق هو أس أساس الإسلام، أساس عظيم وجوهر ساطع، وواسطة العِقد في سجاياه الرفيعة ومزاج مشاعره العلوية. فعلينا إذا أن نحيي الصدق الذي هو حجر الزاوية في حياتنا الاجتماعية في نفوسنا ونداوي به أمراضنا المعنوية[44]. فهو أساس الإسلام، وهو خاصة الإيمان، بل الإيمان صدق.. وهو الرابط لكل الكمالات.. وهو الحياة للأخلاق العالية.. وهو العرق الرابط للأشياء بالحقيقة.. وهو تجلّي الحق في اللسان.. وهو محور ترقي الإنسان.. وهو نظام العالم الإسلامي.. وهو الذي يُسرع بنوع البشر في طريق الترقي – كالبرق – إلى كعبة الكمالات.. وهو الذي يصيّر الحمد الناس وأفقره أعزّ من السلاطين.. وبه تفوّق أصحابُ النبيّ عليه الصلاة والسلام على جميع الناس.. وبه ارتفع "سَيّدنا محمد الهاشميّ" عليه الصلاة والسلام إلى أعلى عليين مراتب البشر.[45]، إنّه طريق التودد إلى الحق والتعبّد له[46]، ذلك لأن ماهية الإيمان الصدق، إن بقاء حياتنا مرهونة بدوام الإيمان والصدق والتساند.... والإيمان إنما هو صدق وحقيقة. وعلى هذا فالبون شاسع بين الصدق والكذب بُعدَ ما بين المشرق والمغرب.وينبغي أن لا يختلط الصدق والكذب اختلاط النور والنار، رغم محاولات السياسة الغادرة والدعاية الظالمة خلط أحدهما بالآخر، فاختلطت كمالات البشرية ومثلها بسفسافها ونقائصها[47]، تلك هي أساليب كل غالب في جميع الأزمنة وفي كل الأمكنة، وتلك وظائف الإيمان في عصر العولمة وغيره.

ب – أساس انتظام الأخلاق:

حياة الأمة الإسلامية مربوط وجودا وعدما بوجود الصدق، بوصفه ضابط أخلاقها، لأن الأخلاق العالية تتّصل بأرض الحقيقة بالجدية، وان إدامة حياتها وانتظام مجموعها إنما هي بالصدق[48]، إنّه عقدة — أساس – الحياة في حياة الإسلام الاجتماعية[49]، لأنّه أساس النجاة وعروته الوثقى[50]

ج/ الأثر الإيجابي للصدق:

الصدق بالحال قبل المقال يسوق المخالف إلى الاقتناع بأنّه مسلك النجاة، وطريق التأسيس للتواصل بين البشر، لأننا بالصدق والاستقامة اللائقين بالإسلام، نساعدهم للدخول في الإسلام أفواجاً[51]، والانخراط معنا في سلك مواجهة الظلم العالمي المسلّط على المستضعفين من قبل المستكبرين الجدد المتدثرين بفكرة العولمة.

د / الصدق و الواقع:

تبليغ الصدق والدفاع عنه ليس محمودا بإطلاق وإن كانت القاعدة العامة مثبتة له، إلا أنّه ليس كل صدق كذلك في حقيقة الأمر، إذ ليس صوابا أن تقول كل الصدق، فإذا ما أدى الصدق أحيانا إلى ضرر فينبغي السكوت.[52]

ثالثاً: حبّ العداوة.

المنخرط في سلك الفكر الغالب الوقتي يضطر إلى عداوة أهله، بفعل غربة فكرته عن المجتمع، وقد لجأ الشيخ إلى تحديد خطورة تلك العداوة وسبل علاجها.

خطورة العداوة:

أ- العداوة سبب في الصراع:

العداوة داء خطير يمكّن من النفوس الثعبانية، تلك النفوس المخالفة لفطرة البشر، وقد كانت تلك الطبائع غير السويّة سببا في تهيئة الجو للإلحاد عبر التاريخ، فإليها يعود اهتزاز عقيدة الأمة[53]، وتجنيد أتباعها في سلك مخاصمة دينهم، ولعل أهم ما يحاولون تجنيد الأمة فيه العولمة، بجعلها ضرورة واقعية لا مناص منها[54]

ب- العداوة تعمي:[55]

العداء ظلم في نظر الحكمة، إذ العداء لا يجتمع مع المحبة، فهو كالظلمة لا يجتمع مع النور المعبّر عن المحبة، بل يعد معدن الشر المستطير المهيمن على النفس، فما وجد والشر وحوفظ عليه إلا بسبب العداوة والبغضاء الساكنة في سويداء القلب، حتى أنّ أسباب العداوة والبغضاء إذا تغلبت وتمكنّت من القلب، فان المحبة تنقلب عندئذ إلى محبة شكلية تلبس لبوس التصنع والتملق.[56]

ج / ذهاب الإخوان و هيمنة الأحزان:

العداوة ظلم للنفس وسبب في ملء القلب حقدا على الإخوان، فضلا عن ظلمه لنفسه بتجاوزها لحدود رحمة الله، حيث أنّه بالحقد والعداوة يوقع نفسه في عذاب أليم، فيقاسي عذاباً كلما رأى نعمة حلّت بخصمه، ويعاني ألماً من خوفه. وان نشأت العداوة من الحسد فدونه العذاب الأليم، لان الحسد اشد إيلاما للحاسد من المحسود حيث يحرق صاحبه بلهيبه، أما المحسود فلا يمسه من الحسد شئ، أو يتضرر طفيفاً.[57]

هذا عن العداوة في شكلها الفردي، أما عداوة المجتمع فإن خطرها أفتك وأشدّ على الأمة، وذلك لدوره التدميري، إذ سيسعى كل واحد من المتعادين إلى ترويج مسلكه

وإظهار صحة وجهته وصواب نظرته، مع العمل على هدم مسلك الآخرين والطعن فيهم من أجل إبطال مسالكهم، ذلك هو الاختلاف السلبي الذي قوامه تخريب سبل المخالف بكل ما أوتي من قوة[58]، وهو منهج العولمة في توظيف أبنائنا وبني جلدتنا من أجل تقويض حاضرنا بل وكل ما من شأنه أن يسهم في صناعة مستقبلنا.

د- طريق الندامة:

حمل العداء للإخوان بالعمالة للقطاء الشيطان، سبب قوي في تجرّع عذاب الندامة على اقترافها، فقد ثبت لدى الشيخ معاينة أن العذاب عقاب معجّل للسيّئات[59]، وعلى رأس تلك السيّئات عداوة الأمة والعمالة لأعدائها وعلى رأسهم في زماننا فكر الغالب الوقتي — العولمة –

هـ – القومية من أسس العداوة:

تستثمر الأفكار الدخيلة الفكرة القومية لتسهم في تفريق الأمة وتمزيق أوصالها، فقد تدثّرت الحركات الإلحادية باسم القومية في عالمنا الإسلامي، وهذا سيكون سببا في قهرهم أمام الفوضى والإرهاب الذي يتستر تحت ستار الكفر المطلق الذي يسعى لإبادة العالم الإسلامي[60]

و- العداوة استخفاف بالروابط الإسلامية:

إن غرور الإنسان وحبّه لنفسه قد يقودانه أحيانا إلى عداء إخوانه المؤمنين ظلماً ومن دون شعور منه فيظن المرء نفسه محقاً. مع أن مثل هذه العداوة تعدّ استخفافاً بالوشائج والأسباب التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض – كالإيمان والإسلام والإنسانية – وحطاً من شأنها. وهي أشبه ما يكون بحماقة من يرجّح أسبابا تافهة للعداوة كالحصيات على أسباب بجسامة الجبال الراسيات للودّ والمحبة.[61]

علاج العداوة:

أ – ضبط العداوة:

ضبط العداوة يخرجها من دورها السلبي التدميري إلى رحاب الإيجابية والفعالية، ومرد ذلك إلى عداوة ما في قلب المعادى لا لذاته، وذلك بمعاداة ما في قلبك من العداوة، ويقتضي هذا السعي المستمر إطفاء نارها واستئصال شأفتها، وطريق ذلك معاداة أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك، قاوم هواها، واسع لإصلاحها، ولا تعاد المؤمنين لأجلها، وإن كنت تريد العداء أيضا فعاد الكفار والزنادقة، فهم كثيرون، واعلم أن

صفة المحبة محبوبة بذاتها جديرة بالمحبة، كما أن خصلة العداوة تستحق العداء قبل أي شئ آخر.[62] وزنادقة هذا الزمان الذي يوجب حب الله عداوتهم، أعداء دينك بأي لون ظهروا وفي أي لباس تلبّسوا، سواء ألحدوا أو تفلسفوا أو تعولموا.

ب – الاقتصاد في العداوة:

لا ينبغي أن تحرمنا العداوة من النظر بموضوعية إلى أفكار مخالفين، فإننا وإن عاديناهم في بعض القضايا فينبغي أن تكون مواقفنا منهم بحسب ما نراه فيهم مما يوجب العداوة، فليس كل ما فعله العدو عدوا من حيث هو، بل قد يفعل ما يوجب استثماره والاستفادة منه من غير نظر إلى الفاعل نفسه، وعلى هذا فان محبتنا لهم ما هي إلاّ لاقتباس ما استحسناه من مدنيتهم وتقدمهم ولأجل المحافظة على نظام البلاد وأمنها الذي يُعدّ أساس سعادة الدنيا، فهذه الصداقة ذا لا تدخل قطعاً ضمن النهي القرآني.[63] من هذا المنطلق تعادى العولمة بالنظر إلى ما تعمل على تحقيقه من نفي وإقصاء لثقافتنا، أما وسائلها المادية والتقنية فهي حل لنا، إذ لا يمكن الاستغناء عنها أو إبعادها بسبب مكان ولادتها أو جنسية أو فلسفة مخترعها.

ج – العمل على إزالتها:

تستأصل شأفتها بالمحبة والفضيلة والمنفعة والتقارب والاستقبال بالبشر والابتسامة[64]، وبهذا نصون أبناءنا من التجنّد في سلك أعداء أمتهم، فالتلطّف معهم واجب صيانة لهم وحفاظ على الأمة ومصالحها.

التأسيس لجيل شهم يضحي بعناده وأغراضه الشخصية وعداوته لأجل سلامة أمته وراحة المسجونين والنجاة من إفساد المتسترين الذين يعملون بخفاء لصالح الفوضى والإرهاب ويلقحون أفكار الناس بالشيوعية – بالعولمة في الحاضر–، فيضحون بتلك العداوة التي لا فائدة فيها قطعاً بل فيها ضرر كبير ولاسيما في هذا الوقت العجيب.[65]

د– الحب دواء العداوة:

إذا وجدت المحبة بحقيقتها في القلب فان العداوة تنقلب حينئذ إلى الرأفة والشفقة. فهذا هو الوضع تجاه أهل الإيمان. أما إذا وجدت العداوة بحقيقتها ... إن أسباب المحبة هي الإيمان والإسلام والإنسانية و أمثالها من السلاسل النورانية المتينة والحصون المعنوية المنيعة.[66]

رابعاً: الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض:

إن الذين يشنون هجومهم على الدين – في كل عصر – يريدون أن يرجعوا بالبشرية إلى عهود البداوة والجهل بقانون أساسي ودستور جار لديهم متسترين باسم المدنية، والذي يفني سعادة البشرية وراحتها وعدالتها وسلامتها.فهم يريدون أن ينفذوا هذا القانون في بلادنا المنكوبة فيزرعون بذور الشقاق والاختلاف وبلبلة الأفكار بالتحزب وصولاً إلى مآرب شخصية وإشباعا للحرص والعناد.[67] والعولمة ليست بغريبة عن هذا المسلك ولا هو بغريب عنها، تؤسس مسلكها على تجهيل الناس دينهم باسم المدنية والعلم وحقوق الإنسان و.. لهذا فهي بداوة جديدة، هدفها تمكين الغلبة لفكر واحد هو مسلك الغالب.

أ- الجهل أساس الضلال الفكري والاجتماعي:

إخلاف الوعد مضاد لعزة قدرته، ومناف لإحاطة علمه، حيث لا يتأتى إخلاف الوعد إلا من الجهل أو العجز. وهو أساس الضلال المولّد للزندقة ومسوّق أفكارها[68]

ب – أساس الغفلة ومجلبة الوساوس:

الجهل مركب النوم والغفلة ووسيلته الكسل، وهو مجلبةٌ للوساوس، لهذا يقول الشيخ ناصحا:" أيها الأخ المبتلى بداء الوسوسة! ليت شعري هل تعلم بماذا تشبه وسوستك؟. إنها أشبه بالمصيبة؛ تبدأ صغيرة ثم تكبر شيئاً فشيئاً على مدى اهتمامك بها، وبقدر إهمالك إياها تزول وتفنى، فهي تعظم إذا استعظمتَها وتصغر إذا استصغرتَها. وإذا ما خفتَ منها داستك ودوّختك بالعلل، وان لم تَخَفْ هانَتْ وخَنَستْ وتوارت. وان لم تعرف حقيقتها استمرت واستقرت، بينما إذا عرفت حقيقتها وسَبَرتَ غورها تلاشت واضمحلت. فما دام الأمر هكذا فسأشرح لك خمسة وجوه، من وجوهها التي تحدث كثيراً. عسى أن يكون بيانها – بعون الله – شفاء لصدورنا. ذلك لأن الجهل مجلبةٌ للوساوس، بينما العلم على نقيضه دافع لشرها. فلو جهلتها أقبلت ودنتْ واذا ما عرفتها ولّت و أدبرت[69].

ج- الجهل سبب في تضييع الأمانة وتضييع أنوار الحياة:

يرجع تضييع الأمانة الاجتماعية والمعرفية إلى الجهل، فالمتلبّس بالخيانة للأمانة، إنما هو في جهل مطبق بل هو أجهل الجهلاء، يتخبط في درك جهالة مركبة حتى لو علِمَ آلاف العلوم والفنون، ذلك لأن ما تتلقفه حواسُه وأفكاره من أنوار المعرفة المبثوثة في رحاب الكون لا يجد في نفسه مادةً تصدّقه وتنوّره وتديمه، لذا تنطفئ كل تلك المعارف، وتغدو

ظلاماً دامساً؛ إذ ينصبغ كل ما يرِد إليه بصبغة نفسه المظلمة القاتمة، حتى لو وردت حكمةٌ محضة باهرة فإنها تلبس في نفسه لبوس العبث المطلق؛ لأن لون "أنا" في هذه الحالة هو الشرك وتعطيل الخالق من صفاته الجليلة وإنكار وجوده تعالى. بل لو امتلأ الكون كله بآيات ساطعات ومصابيح هدىً فان النقطة المظلمة الموجودة في "أنا" تكسف جميع تلك الأنوار القادمة، وتحجبها عن الظهور.[70] فالغارق في ذاته – مهيّأ بسبب جهله – لتضييع الأمانة التي كانت ومازالت وستبقى وشيجة قوية تربطه بالمجتمع، فمن ضيّعها جنّد بيسر فيما يضر بأمته حاضرا ومستقبلا.

د- الجهل من أهم مداخل الأبالسة[71]

أبالسة البشر كإبليس يعملون على إقناع جماعة من الناس بسبب جهلهم، بما ينقض أساس أمتهم، فقد كان الجهل وسيلة السقوط في شراك المعاصي والاستسلام للأبالسة على مرّ التاريخ، فالخاضع للكفر يستسلم ضرورة لمقاصده الاجتماعية والفكرية، لهذا كان الجهل خطرا على الشأن الاجتماعي بدرجة خطورته على مبادئ العقيدة إن لم يكن أشد، ذلك أن الإيمان والكفر يتجليان في الموقف الاجتماعي والفكري.

هـ – الجهل أساس النفور الاجتماعي:

العولمة وغيرها من الأفكار المشابهة، أفكار مجحفة ظالمة خادعة، كانت كسابقتها سببا في افتتان أبنائنا بها ونفورهم من أمتهم، بسبب روح الانفرادية بدلاً من روح التضحية والفداء لها. فيثبت بهذا كله انه لا يملك حمية للأمة وانه مبتوت الأصالة، فيكون جانياً منفوراً منه في نظر الحقيقة بحيث يتصرّف تصرّف الأحمق الأبله، كمن يحاول إلباس ملابس أعجبته لراقصة ساقطة في باريس عالماً فاضلاً في المسجد.[72]

و- الجهل من الانقلاب السياسي:

تحيين كلام النورسي في هذا المقام، يبيّن أن من يتوجّس خيفة على دينه من انقلاب سياسي أو فكري للعولمة أو غيرها، فليس له نصيب من الدين "إلا الجهل" – الواهي كبيت العنكبوت – الذي يدفعه إلى الخوف، وليس له إلاّ "التقليد" الذي يرميه في أحضان الاضطراب والارتباك..[73].

ز- الجهل سبب في الفرقة و التعصّب[74]

لا يلتئم الاتحاد والجهل، فالجهل أبو الفرقة لأنه لا يسمح بامتزاج الأفكار، بسبب التعصّب المهيمن على العقول والقلوب، وأخطر أنواع التعصّب هو ذلك الذي يحمله قسم من مقلدي أوربا وملحديها سابقا والعولمة حاليا، لما يصرّون بعناد على شبهاتهم

السطحية، وهذا شأن الجهلاء بدينهم المقلدين لغيرهم.[75]، لهذا كان الجهل بمثابة قوة العدو فينا[76]، ذلك أن الجهل والتعصب المتفشيان فينا قد ساعدا أوروبا سابقا والعولمة حاليا لتحمل ظناً خاطئاً من أن الشريعة تعين الاستبداد.

ح- يولّد شماتة الأعداء:

تفشي الجهل في الأمة يسبب شماتة الأعداء ويدفع إلى الاضطرابات وانتشار الشبهات والأوهام فيما بينهم وهذا ما يدعو أهل الغيرة والحمية إلى التأمل[77]، ودفع ما يزيل شماتة الأعداء بالعلم والتواصل.

2- دواء الجهل:

أ - دواء الجهل العلم:

فاعلية العقيدة الإسلامية في حياة المسلم، بما فيها من ألماس وجواهر ودرر الأحكام، وما حطّ قيمته إلاّ الجهل الذي يحط من قيمتها وينفّر طالبيه من متحري الحقيقة[78]، فقد كان الجهل بحقيقة الإسلام سببا في إبعاد ما هو من الدين وإقحام ما ليس منه فيه، لهذا كان العلم به سببا في قطع الطريق على المتصيّدين بالجهل تجنيدا للجهلة في سلك خدمة الأفكار الوافدة.

ودواء ذلك الكر على الجهل والفقر بالعلم والصنعة، إن عدونا الجهل والضرورة والاختلاف، ومجاهدة هؤلاء الأعداء الثلاثة بسلاح الصناعة و المعرفة والاتفاق[79]

ب- التذكير بالقرآن الكريم:

يعد القرآن دواء فاعلا في مواجهة الجهل، ذلك أنّ أوائل اكثر الآيات القرآنية وخواتمها، تحيل الإنسان إلى العقل قائلة: راجع عقلك وفكرك أيها الإنسان وشاورهما، حتى يتبين لك صدق هذه الحقيقة. فانظروا مثلاً إلى قوله تعالى (فاعلموا.. فاعلم.. أفلا يعقلون.. أفلم ينظروا.. أفلا يتذكرون.. أفلا يتدبرون.. فاعتبروا يا أولى الأبصار..) وأمثالها من الآيات التي تخاطب العقل البشري. فهي تسأل: لِمَ تتركون العلم وتختارون طريق الجهل؟ لِمَ تعصُبون عيونَكم وتتعامَوْن عن رؤية الحق؟ ما الذي حملكم على الجنون وانتم عقلاء؟ أي شئ منعكم من التفكر والتدبّر في أحداث الحياة، فلا تعتبرون ولا تهتدون إلى الطريق المستقيم؟ لماذا لا تتأملون ولا تحكّمون عقولكم لئلا تضلوا؟.[80]

ج – إنشاء المؤسسات العلمية:

تحقيق المقصود من الإيمان والتذكير بالقرآن لا ينفع ما لم يتحوّل ذلك التصوّر إلى جهد مؤسساتي، وسبيل ذلك إنشاء الجامعات لنـــزيل الجهل الذي هو داء وبيل[81]

خامساً: سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة:

1 - خطورة الاستبداد:

الاستبداد خطر من حيث هو، بصرف النظر عن مصدره، فإنه إن كان معيبا باسم الأنظمة السياسية المحلية، فإنه أخطر حال تلبّسه بالفكر في أساليب تلبيسية، كالعولمة القائلة بحالها ليس لكم مني مفر، لهذا كان حديثنا عن الاستبداد حديثا عما يتركه من آثار وخيمة على الفكر الإنساني بصفة عامة.

أ-الاستبداد سبب في الآهات:

كان وسيبقى الاستبداد بجميع أصنافه – الفكرية والسياسية - سببا في الصراخات والآهات جميعها، لأنها تصدر من تحت مخالبه، وخاصة ذلك الذي يسكننا، ويقوم سدا منيعا مظلما جائرا إزاء الحرية، رافعا لواء الوحشية[82]

والمتصفّح لأحوال العالم وما تتناقله الوكالات، يدرك أننا أمام خطر استبداد جديد متدثر بالاقتصاد والثقافة

ب – منبع تكدّر سعادتنا:

أنصار الاستبداد - على تنوّعه - رأوا الظلم فامتلأت قلوبهم غيظا ورغبة في الثأر، فيثيرون الآخرين للإخلال بالأمن ويهيّجونهم للقيام بالاضطرابات كي يتشَفّوا بإنـــزال العقوبة بهم، وتأديبهم.[83]

ج – الاستبداد وقلب الموازين:

يستدعي العيش بفكر النورسي تأوينه بما يتلاءم والمعطيات العولمية الجديدة، إن زماننا لا يختلف عن الزمان الذي سماه شيخنا، زمان يخفي الضد ضده، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة. وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد. ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية.[84] أليست هذه صفات العولمة في عصرنا هذا؟ لهذا فإن نص النورسي يخترق الزمان ليشمل كل مستبد سواء لبس قلنسوة أو قبعة إفرنجية أو تلبّس بالسياسة أو الاقتصاد.

لقد كان الاستبداد سببا في قلب الموازين، فيسمي القهر حرية، فقد كبّلت قوة سابقة بثلاثمائة موظف ثلاثمائة مليونا من خصومهم، وكذلك فعلت القوة الجديدة، إذ تريد لعدد معيّن من المتحكّمين الاستبداد بخيرات العالم، أعطت قوانينها - كسابقاتها -

الجائرة اسم العدالة والانضباط، فخدعت العالم ودفعته إلى دار الظلم، هذه الفكرة غدت مقتدى كل استبداد قادم[85]

د – الاستبداد سبب في الرشوة والفساد الإداري:

تيار الزندقة والعولمة الذي يحكم بالاستبداد المطلق والرشوة العامة قد سعى لتعذيبنا وإفنائنا في سبيل إرضاء أعداءنا[86]. ذلك لأن الاستبداد ظلم وتحكم في الآخرين[87]

هـ – الاستبداد مؤسس للمعاملات الاعتباطية:

الاستبداد هو التحكم أي المعاملة الكيفية – الاعتباطية – أي الجبر باستناد القوة، أي الرأي الواحد، أي المساعد لتطرق سوء الاستعمالات، أي المفتوحة أبوابه لتداخل المفاسد، وما هو الاّ أساس الظلم، وماح الإنسانية. وهو الذي دحرج الإنسان المكرّم إلى اسفل سافلين في السفالة.. وهو الذي أوقع العالم الإسلامي في المذلّة.. وهو الذي أيقظ الأغراض والخصومات.. وهو الذي سمم الإسلامية.. وهو الذي سرى سمّه في أعصاب العالم الإسلامي.. وهو الذي أوقع الاختلافات المدهشة...[88]

2 – دواء الاستبداد:

أ – التضحية:

يقبل أهل الشهامة وأهل الديانة ومناصري الحرية على مواجهة الاستبداد، ودفع أعزّ ما يملكون، حتى ولو لم يبق أمامهم إلا الموت أو دخول السجن لدخلوه[89]

ب – رسائل النور:

تقوم رسائل النور بتحطيم الكفر المطلق – الذي أسفله الفوضى وأعلاه الاستبداد المطلق – وتفتيته وردّه على أعقابه. واكبر برهان على ذلك هو رسالة "الثمرة" التي هي بمثابة دليل واحد من بين مائة حجة ودليل على أن رسائل النور تسعى لتأسيس الأمن والنظام والحرية والعدالة في هذا البلد، لذا اطلب تكليف هيئة علمية واجتماعية عالية لتدقيق هذه الرسالة، فان لم تقتنع هذه الهيئة بما أقول فإنني أرضى بكل عقاب وبأي نوع من أنواع الإعدام.[90]

ج – إنشاء الجامعات بنور القرآن:

يجب مجابهة المؤامرات في كل وقت مستمدا القوة من القرآن العظيم، وإنشاء جامعة ضخمة. فمنذئذ نسعى لإنقاذ آخرتنا. وإحدى ثمراته في الدنيا إنقاذ حياتنا الدنيوية من الاستبداد المطلق والنجاة من مهالك الضلالة وإنماء علاقات الاخوة بين الأقوام الإسلامية.[91]

د – طلب الثواب يدفع الاستبداد:

الحرية أول ركن من دساتير الحياة، وان سلب الحرية بحبائل الأوهام الكاذبة وتقييدها بقيود الاستبداد والطغيان يجعلنا نملّ مللا شديدا حتى نفضّل القبر على هذه الحالة فضلا عن السجن والحبس، إلا أنّ الذي يشد أزرنا ويدفعنا إلى الصبر والتحمّل هو الثواب الذي يجزل بحسب المشقة في سبيل خدمة الإيمان.(92)

هـــ- الإسلام يدفع الاستبداد:

يختلف المسلم عن أفراد الأمم الأخرى، إذ لو تخلّى عن دينه فلا يكون إلا إرهابيا فوضويا لا يقيده شيء أيا كان، بل لا يمكن إدارته بأيٍ من وسائل التربية والإدارة إلاّ بالاستبداد المطلق والرشوة العامة.(93)

ورفع أنواع الاستبداد عنهم إنما يكون بالشورى والحرية الشرعية النابعة من الشهامة الإسلامية والشفقة الإيمانية، تلك الحرية الشرعية التي تتزين بالآداب الشرعية وتنبذ سيئات المدنية الغربية.(94)

سادساً: حصر الهمة في المنفعة الشخصية.

ولمعالجة هذه الأمراض الستة الفتّاكة، أبيّن ما اقتبسته من فيض صيدلية القرآن الحكيم الذي هو بمثابة كلية الطب في حياتنا الاجتماعية – أبيّنها بست كلمات، إذ لا اعرف أسلوبا للمعالجة سواها.

1 – أساس الفكر الإقصائي:

المنفعة والصراع أساس التفاعل مع الآخر:

النورسي وهو يتحدّث عن المدنية الحاضرة في وقته كأنه يتحدّث عن مدنيتنا الحاضرة، فهما مشتركتان في كثير من الصفات، لهذا يحمل كلامه عن المتقدمة على المتأخرة ضرورة، يقرر هذه الحقيقة قوله: "المدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: أن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي "القوة" وهي تستهدف "المنفعة" في كل شئ. وتتخذ "الصراع" دستوراً للحياة. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطةً للجماعات. وغايتها هي"لهو عابث"لإشباع رغبات الأهواء وميول النفس التي من شأنها تزييد جموح النفس وإثارة الهوى. ومن المعلوم أن شأن "القوة" هو "التجاوز". وشأن "المنفعة" هو "التزاحم" إذ هي لا تفي بحاجات الجميع وتلبية رغباتهم. وشأن "الصراع" هو"التصادم" وشأن "العنصرية" هو "التجاوز" حيث تكبر بابتلاع غيرها."(95)

الدواء التطلّع إلى المنفعة الحق:

أ – القرآن ضابط المنفعة:

يقبل على المنفعة وفق حكمة القرآن، التي تقبل"الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة، وتجعل رضى الله ونيل الفضائل هو الغاية والهدف بدلا من المنفعة[96]، التي جعلتها الفكرة الغالبة في كل وقت مقصدها ومحرّك مشاريعها.

ب – المنفعة المبرهن عليها:

ترجيح المنفعة العامة على الخاصة، المرتبطة برغبات إنسانية؛ لذا لا يثبت المدّعى بغير البراهين القاطعة. فنحن أبناء الحال الحاضرة والمرشحين للمستقبل لا يشبع أذهاننا تصوير المدّعى وتزيينه بل نطلب البرهان.[97] وبهذا نقطع الطريق على الأفكار المتلبّسة بالمنفعة وهي بعيدة عنها كل البعد، بغرض تعريتها وغرس مواجهتها في قلوب أفراد الأمة، وذلك بسبب ظلمها وعدوانها.

الخاتمة:

يتجلى مما سلف أن الأمم ما تمرض باستغلال الأفكار المهيمنة التي تستغل: حياة اليأس الذي يجد فيهم أسبابه، بسبب: موت الصدق في حياتهم الاجتماعية والسياسية، حبا منه للعداوة، المتسرّبة إليهم بفعل الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض. زيادة إلى سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة، المسقية بحصر الهمة في المنفعة الشخصية. وقد بيّن بديع الزمان خطورتها وطرق علاجها، وخلاصة العلاج اكتشاف نقطة الاستناد المستفادة من صيدلية القرآن الكريم، إنّك باكتشافها والاستناد إليها يمكن أن تحرّك العالم وليس العولمة فحسب، وبالتالي لا يمكن أن تخيفك العولمة مهما قويت شوكتها وعلا صوتها، فإنها آيلة إلى الزوال ويبقى الإنسان، لأنها تحمل بذرة فنائها فيها بحكم تأسيسها على اليأس والجهل والعداوة والمنفعة الشخصية زيادة إلى الاستبداد، وهو ما تعافه الأنفس الشريفة وتدفعه بكل ما تملك، ذلك أنها أمراض الأمم، والأمم مجبولة على دفع أمراضها، وما علينا إلا مساعدتها بما يدفع تلك الأمراض وفق الخطة التي رسمها بديع الزمان النورسي رحمه الله.

الهوامش

1 / فوكوياما
2 / انظر كتابنا- بالاشتراك- العولمة من منظور شرعي، دار المحامد للنشر والتوزيع، الأردن عمان، الطبعة الأولى 2002
3 / انظر العولمة من منظور شرعي
4 /الخطبة الشامية المقدمة، صيقل الإسلام 492
5 / المهدي المنجرة في كتابه عولمة العومة /منشورات الزمن، سبتمبر 2000 ص20
6 / المرجع نفسه 28
7 / انظر العولمة من منظور عربي / الدكتو رلحبيب الجنحاني(من أبرز المنتصرين)
8 / جعلها صالحة للحين
9 / صيقل الإسلام 369
10 / صيقل الإسلام/السانحات - ص: 368
11 / انظر صيقل الإسلام 368
12 /راجع كتابنا العولمة من منظور شرعي
13 / الكلمة الرابعة عشرة - ص: 195
14 / الكلمة الثانية والثلاثون - ص: 757 اللمعة الثالثة عشرة - ص: 117
15 / صيقل الإسلام/المناظرات - ص: 405
16 / اللوامع - ص: 854، 873
17 / اللوامع - ص: 894
18 / المكتوبات 51، صيقل الإسلام (الخطبة الشامية) 505
19 / المرجع نفسه
20 / المكتوبات 96-99
21 / اللمعة الثالثة عشرة - ص: 115
22 / انظر إشارات الإعجاز - ص: 96
23 / صيقل الإسلام23، 505
24 / المرجع نفسه، انظر صيقل الإسلام 505 ، 515، 506، 528، 545
25 / الكلمة الرابعة والعشرون - ص: 391، الشعاعات 119
26 / انظر صيقل الإسلام 369
27 / الكلمات 542
28 / الكلمات 576
29 / اللمعات 352
30 / الشعاعات 249
31 / انظر اللمعات 34، 326

32 / انظر اللمعات 344
33 / انظر الشعاعات 229، 281، صيقل الإسلام 422
34 / الشعاعات 242
35 / انظر الملاحق 125، و صيقل الإسلام 381
36 / الشعاعات 391
37 / انظر الشعاعات 401، 102
38 / انظر كتابنا العولة من منظور شرعي، وانظر حوارات من أجل المستقبل/ طه عبد الرحمن 132-133
39 / انظر الملاحق 46
40 / انظر الملاحق 117
41 / انظر في هذه المعاني الملاحق 275، صيقل الإسلام 49، 99، 355،
42 / المكتوبات 64، انظر اللمعات 854
43 / انظر صيقل الإسلام 143
44 / صيقل الإسلام 506
45 / الإعجاز 97، صيقل الإسلام 507
46 / انظر المثنوي العربي 68
47 / انظر صيقل الإسلام 417، 505
48 / انظر صيقل الإسلام 143، إشارات الإعجاز 166
49 / صيقل الإسلام 506
50 / صيقل الإسلام 508
51 / انظر صيقل الإسلام، المثنوي العربي 14
52 / صيقل الإسلام 508
53 / انظر اللمعات 879
54 /انظر العولمة من منظور عربي/الحبيب الجنحاني
55 / انظر المكتوبات 138، 340
56/ انظر المكتوبات 340
57 / المكتوبات 344
58 / انظر المكتوبات 347، 351
59 / انظر اللمعات 434
60 / انظر الملاحق 304، السيرة الذاتية 378
61 / صيقل الإسلام 509
62 / انظر المكتوبات 343
63 / انظر المثنوي العربي 158، صيقل الإسلام 400
64 / اللمعات18، 856

65 / الشعاعات 549
66 / صيقل الإسلام 509–510
67 / الملاحق 378
68 / انظر الكلمات 84، 199، المكتوبات 28
69 / الكلمات 297، وأمظر 303
70 / الكلمات 446، 639، 796
71 / انظر اللمعات 135، انظر المثنوي 97، الملاحق 53
72 / انظر صيقل الإسلام 370
73 / انظر صيقل الإسلام 388
74 / انظر صيقل الإسلام 421، 430
75 / أنتظر السيرة الذاتية 305
76 / انظر صيقل الإسلام 443، السيرة الذاتية 83
77 / السيرة الذاتية 498
78 / انظر صيقل الإسلام 66، 94
79 / انظر صيقل الإسلام 463، السيرة الذاتية 94، صيقل الإسلام 527
80 / صيقل الإسلام 495
81 / انظر السيرة الذاتية 80
82 / انظر صيقل الإسلام 397، 410
83 / انظر صيقل الإسلام 389، الكلمات 172
84 / اللمعات 849، صيقل الإسلام 467
85 / الملاحق ، صيقل الإسلام 382126
86 / انظر الملاحق 332
87 / انظر السيرة الذاتية 94
88 / السرية الذاتية 75
89 / انظر الشعاعات 332
90 / الشعاعات 334
91 / انظر الملاحق 416
92 / انظر الملاحق 232
93 / انظر الملاحق 306
94 / انظر صيقل الإسلام 527
95 / الكلمات 472
96 / انظر الكلمات 472
97 / انظر صيقل الإسلام 50

الكونية الأخلاقية
بين علوم القرآن وعلوم الإنسان
دراسة في نظرية الأخلاق عند
الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي

د. فريد الأنصاري(*)

مقدمة:

أَنْ تَدْخُلَ فضاءَ (رسائل النور)؛ يعني أنك أحد (المبصرين!) وتلك دعوى كبرى! من ذا يتجاسر على ادعائها؟ ومن ذا قدير على أن يبوء بثقلها؟ كيف وقد ثبت أن ليس كل من (ينظر) بعينين يعد من (المبصرين)؟ ألم يقل ربنا جل وعلا: (**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**)؟(الأعراف:198). ولقد عُلِمَ أن الأستاذ بديع الزمان سعيدا النورسي ما صعد إلا أعلى مقامات الإبصار وأدقها! فأنى للدارس إذن؛ أن يواكب مشاهداته إن لم يكن مبصرا حقا؟ وإذا كان لكل حكم شرط، فقد ثبت أن ذلك هو شرط الأستاذ! أليس هو القائل: (أتكلم في مكاني، لا في مقام السامع المواجه لي – خلافاً لسائر المتكلمين، الذين يفرضون أنفسهم في مقام السامعين – فيصير أمام كتابي (الذي) وجههُ إليّ، ومعكوسه ومقلوبه إلى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسّر عليه؛ فإذاً لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو خياله إليّ لأضيفه على عيني ، في رأسي؛ كي يرى كما أرى!)[1]

(*) رئيس شعبة الدراسات الإسلامية – جامعة المولى اسماعيل، مكناس – المغرب

تلك إذن هي القضية! وذلك هو شرطها على الإجمال!

فكيف إذا كان التفصيل دراسة مفهوم كثيف الاكتناز الدلالي، مثل مفهوم الأخلاق؟ هذا المصطلح الكوني، الذي يعتبر من أهم المصطلحات المفاتيح؛ لكليات رسائل النـــور! مصطلح يحيلنا على كل أبعادها الكونية! فليس لنا إذن؛ أن ندعي غير المقاربة، ومحاولـــة الاقتراب. وأما الغوص والإبحار؛ فدونك رسائل النور؛ ليس ينوب عنها شيء!

نعم، إن مفهوم ''الأخلاق'' كما قدمه الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمـــه الله ـــ من خلال تفسيره التفكري للقرآن العظيم ـــ يعتبر مفتاحا من أهم المفاتيح؛ لفهم نســـق الرسائل من جهة، ولمقاربة المفهوم الكلي للدين نفسه من جهة ثانية. وما كليات رسائل النور في نهاية المطاف؛ إلا مرآة صافية تعكس شعاع القرآن، وتجليـــه لهـــذه الإنســـانية المتمردة، الضاربة اليوم في العمى.

وما العولمة الجديدة/القديمة التي تنفث ظلماتها على العالم الإسلامي؛ إلا مرحلة مـــن مراحل التمرد البشري على رب الكون. وإن نظرة واحدة في المفهوم النوري للأخلاق؛ لكفيلة ببيان هشاشة البناء البشري لمنظومة العولمة الخُلُقية. إذ هي أشبه ما تكون بالبنـــاء العشوائي الذي يحيط المدن الكبرى في العالم. إنها محاولة لغزو النظـــام المتكامـــل لبنيـــة الأخلاق لدى المسلمين، والتشويش على النسق الجميل للبعد الكوني لمفهوم الأخلاق في أصولها القرآنية.

إن بديع الزمان الذي تكلم في هذا الموضوع بمنهج استبصاري: ''علوم المســـتقبل'' ليدل على وعيه المبكر جدا، والغريب؛ بما ستؤول إليه أخلاق الغرب ـــ والشرق المتأثر به ـــ من إفلاس عجيب، لقد كان يتكلم رحمه الله وكأنه يعيش لحظتنا هذه: مرحلة ما بعد سقوط الاتحاد السوفياتي بالذات!

إن الفلسفة الغربية التي هي سليلة الفكر اليوناني القديم، والتي تنكرت لمسيحيتها حتى في صورتها المحرفة! قد وصلت إلى الرأسمالية في بعدها العولمي الأخير، التي أنذر بها بـــديع الزمان في رسائله، مبينا أنها أمارة الانتحار والإفلاس للفكر البشري، وبداية الانتصـــار لمنظومة القرآن. وهذا واحد من معاني تأكيده أن رسائل النور ستقرأ في كـــل مكـــان، وستغزو كل العالم[2]. ذلك إذن؛ وجه من وجوه عالمية القرآن، المستوعبة لكل الأشكال الهندسية، لأنماط الحياة في العالم.

إن الفرق بين التعبد والتمرد؛ هو الفرق بين البقاء والفناء! وهو كالفرق بين المعـــنى واللامعنى!

من هنا إذن كان لابد من دراسة هذا المفهوم ابتداء: (الأخلاق)، كما هو معروض بشموليته الكونية في كليات رسائل النور؛ لنتبين مدى الاكتناز الدلالي الذي يتصف به هذا المصطلح، في بناء تصور النورسي للإنسان كما تلقاه من القرآن العظيم، وبيان مدى الإخفاق الذي منيت به فلسفة الأخلاق في الفكر العقلاني المتمرد، المعتصم بـ(أناه)، في معناها (الاسمي)، على اصطلاح بديع الزمان النورسي كما سنوضحه بحول الله[3].

ولقد انطلق الإنسان نحو (الكونية الأخلاقية) لكن بمعنيين وبمنهجين: الأول منهج القرآن، والثاني: منهج الفلسفة، مما انتشر في علوم الإنسان الاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

أما الكونية الأخلاقية في القرآن فقد جردت (أنا) الإنسان من (اسميتها)، وربتها على المعنى (الحرفي) المفتقر إلى اسم الله تجريدا وتفريدا، فامتدت أخلاقه بذلك لتسع الكون كله إمامةً للعابدين، سيرا في فلك التعبد لله رب الكون كله. وأما الكونية الأخلاقية في الفكر الفلسفي؛ فقد رسخت اسمية (الأنا)؛ فتضخمت ثقة الإنسان بمعارفه تضخما سرطانيا؛ حتى انتهى إلى اعتقاد استغنائه عن كل عون من الله وكل مدد. بل استغنى عن وجود الله جل وعلا! وَهْماً وتوهما؛ فطغى! وتحول إلى وثن يعبد ذاته ويؤلهها. ولذلك قال عز جل: (**كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**)(العلق:6ـ7).

إن بديع الزمان النورسي رحمه الله قد صاغ نظرته الأخلاقية المستنبطة من القرآن، وعرضها بمنهج مقارن عجيب، مبينا آفاقها الكونية العالية، وسبقها التربوي، بالنظر إلى ما آلت إليه النظريات الأخلاقية الفلسفية قديمها وحديثها، التي لم تعتمد القرآن منطلقا وطريقا مختصرا للوصول. ونحن في هذه الدراسة سنحافظ في عرض مفهوم الأخلاق عنده؛ على المنهج نفسه الذي اعتمده، مع ما نضيفه من منهج الدراسة المصطلحية، المبني على الاستقراء للنصوص، والجمع بين أجزائها؛ عسى أن نصل إلى المعنى الكلي، الذي أعطاه بديع الزمان لمفهوم الأخلاق، والذي بثه خلال أجزاء رسائل النور مجملا ومفصلا.

وبيان ذلك هو كما يلي:

1 ــ الأخلاق في التعريف اللغوي:

ترجع مادة (خلق) في اللغة إلى معنى التقدير والإنشاء والطبع والتكوين. ومنه تفرعت الدلالة إلى سائر المعاني التي استعمل فيها اللفظ بعد. ولذلك دل أصالة على فعل الله في تكوين المخلوقات وإنشائها على غير مثال سابق، فكان بذلك شاملا لكل الصفات

الجبلية في صور المخلوقات الظاهرة حسا. وهي مظاهر الخليقة. ثم دل تبعا على كل سجية، أو طبيعة من الصفات النفسية، وهي الأخلاق. قال الراغب الأصفهاني: (الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: "**خَلَق السموات والأرض**"(الأنعام:1) أي: أبدعهما، بدلالة قوله: "**بديع السموات والأرض**"(البقرة:117). ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: "**خلقكم من نفس واحدة**"(النساء:1) (...) والخَلْقُ: يقال في معنى المخلوق. والخَلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد (...) لكن خص الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخص [الخُلُقُ] بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة. قال تعالى: "**وإنك لعلى خلق عظيم**")[4]. وقال صاحب مختار الصحاح: (الخَلْقُ: التقدير يقال خَلَقَ الأديمَ: إذا قدره قبل القطع، وبابه نصر. والخَليقةُ الطبيعة والجمع الخَلاَئقُ، والخَليقةُ أيضا: الخلائق، يقال هم خليقة الله، وهم خَلْقُ الله. وهو في الأصل مصدر. والخِلْقَةُ: الفطرة، وفلان خَليقٌ بكذا: أي جدير به، ومضغة مُخَلَّقَةٌ: تامة (...) والخُلُقُ بسكون اللام وضمها: السجية. وفلان يَتَخَلَّقُ بغير خلقه: أي يتكلفه)[5]. وفي اللسان: (الخِلْقةُ: الفطْرة (...) والخُلْق والخُلُق: السَّجيّة (...) وفي الحديث: "ليس شيء في الميزان أَثْقلَ منَ حُسن الخُلُق"[6]. الخُلُقُ بضم اللام وسكونها: وهو الدِّين والطبْع والسجية. وحقيقته أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفْسُه، وأَوصافها، ومعانيها المختصةُ بها؛ بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة، وأَوصافها، ومعانيها)[7]، وفي القاموس: (خالَقَهُم: عاشَرَهُمْ بخُلُقٍ حَسَنٍ.)[8]

فكانت الأخلاق في اللغة إذن؛ هي: التصرفات الإنسانية، الصادرة عن أوصاف النفس وسجاياها الباطنة. أو هي سيماء النفس وصورتها الباطنة.

2 ــ الأخلاق في التعريف الفلسفي:

أما مفهوم (الأخلاق) في الفكر الفلسفي، فلم يستطع أن يخرج عن نطاق تمجيد (الأنا)، على حد تعبير الأستاذ بديع الزمان النورسي، كما سيأتي بدليله. بدءا بالفكر الفلسفي اليوناني وانتهاء بالفلسفة الغربية الحديثة. لقد سكنت (الأنا) لاشعور الفلسفة، عير مسيرتها التاريخية، منذ تبلور التفكير الفلسفي مع قدماء اليونان، حيث كان الفكر الوثني أصلا هو الإطار الثقافي الذي تخلقت فيه الفلسفة الأولى. فكان لذلك دور كبير في (استصنام) الأفكار الفلسفية، وتوثينها؛ إذ كان الفيلسوف اليوناني في الحقيقة مصارعا للآلهة ومنازعا لها في (الهيمنة) على الكون، مما سجله (هوميروس) في ملاحمه الكبرى. إن

فكرة (الصراع) التي طبعت الوجدان الفلسفي اليوناني قد حكمت عليه بالذاتية (الاسمية)، والرغبة في تأليه الإنسان إلى الأبد. فكانت الفلسفة بذلك تدور على محور استصنام (الأنا) عبر تاريخها الطويل. ولم تستطع أن تتخلص منها حتى في صورتها المشائية الإسلامية وصورتها المسيحية على السواء، أي مع الفلاسفة المشائين المسلمين، وفلاسفة القرون الوسطى من المسيحين!

فقديما انطلق أفلاطون في نظريته الأخلاقية من مفهوم (الخير الأسمى) أو (الخير بالذات)؛ مما يوحي بالمثالية المطلقة والمجردة عن الأهواء، لكنه لما أراد تطبيق ذلك على (جمهوريته المثالية) أو ما سمي في الترجمات العربية القديمة (بالمدينة الفاضلة)؛ لجأ إلى ما يمكن تسميته (بالكذب الفلسفي). حيث أنه لم يجد حرجا في لجوء الحكام والفلاسفة أحيانا إلى الكذب الصراح؛ لخداع المواطنين من الطبقة الدنيئة بدناءتهم، وقطع كل أمل في تغيير أوضاعهم الاجتماعية، بينما لا يجوز لهؤلاء المواطنين أن يخدعوا الحكام. ويكون ذلك الكذب الضروري بالقول بأن المعدن الذي خلقت منه كل طبقة مختلف عن المعدن الذي خلقت منه الأخرى![9] وهكذا آل أمر نظرية الأخلاق الأفلاطونية إلى تمجيد (الأنا) الطبقية للحكام والفلاسفة وطبقة المترفين!

وانتقلت هذه (الأنا) الوثنية إلى فلاسفة الإسلام، حيث تجلت بصورة أخرى لدى فيلسوف الأخلاق المسلم ابن مسكويه؛ الذي لم يستطع التحرر من أثر الفلسفة الأخلاقية، لدى فلاسفة اليونان ــ رغم محاولته التوفيق بين الفلسفة والشريعة، على غرار سائر فلاسفة الإسلام ــ حيث كان يرى أن غاية الأخلاق هي تحقيق السعادة، وما السعادة إلا نوع من تحقيق الاكتفاء الذاتي على المستوى الوجودي، كما هو عند الملائكة وعند الله(!) وهو ما قال به الفارابي أيضا، حيث اعتبر أن غاية السعادة هي تحصيل الكمال الذاتي[10]، وإنما هذا من خصائص الحضارة اليونانية، التي كانت ترى أن استعمال العقل في التأمل يجعل الإنسان يشارك الآلهة في حياتها!

وعندما انتقلت النهضة الفلسفية إلى بلاد الغرب ازداد التوغل الأناني في التفكير الأخلاقي لدى فلاسفة أروبا؛ انطلاقا مما ورثوه عن أفلاطون وأرسطو؛ وما آلت إليه من نرجسية متألهة على يد فلاسفة القرون الوسطى المسيحيين، الذين اصطبغت فلسفتهم بنوازع (الأنا)، وطلب السعاة المطلقة، كما عرفها فلاسفة اليونان الوثنيين. لكنها هنا تلبست بلبوس مسيحي، كما هو الشأن عند توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى[11]، ثم عند (عمانويل كانط) شيخ الفلسفة في العصر الحديث[12]، ولم

تزل الرغبة في تحقيق سعادة (الأنا) هي أساس التفكير الأخلاقي في الفلسفة الغربية؛ حتى تطورت الأخلاق إلى (المذهب النفعي) في صورته المادية[13]؛ بفعل التحولات الاجتماعية العميقة التي شهدتها أروبا؛ استجابة لتطور الأوضاع الصناعية؛ ابتداء من القرن الثامن عشر الميلادي، كما أثبته مؤرخ الفلسفة الغربية الفيلسوف الانجليزي (برتراند رسل)، الذي قال: (لقد اشتق مذهب المنفعة من نظرية أخلاقية ترجع بوجه خاص إلى هتشسون، الذي كان قد عرضها عام: 1725م، وترى النظرية باختصار أن الخير هو اللذة، والشر هو الألم)[14]. ولم تزل كذلك؛ حتى آلت إلى النفعية الحديثة، سواء في صورته الماركسية؛ أو في صورتها الليبيرالية. وهكذا تطورت النظريات الفلسفية الأخلاقية إلى ما انطلقت منه ابتداء، من مثل فلسفة أفلاطون الذي بنى جمهوريته على توظيف الكذب لاستغلال الشعوب. وذلك هو بالضبط جوهر (العولمة) في صورتها الجديدة.

3 ــ التعريف النوري: وأما في اصطلاح بديع الزمان النورسي؛ فالأخلاق هي:

ــ الأخلاق: هي نظام القرآن الذي يطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها، ويسلك بها مدارج التربية والمجاهدة؛ لاكتساب معناها الكوني.

ولتبين التصور الشمولي لهذا التعريف، الذي ركبناه من استقراء نصوص رسائل النور، كما وضعها بديع الزمان رحمه الله؛ فإنه يجدر بنا أن ندرس عناصره فقرة فقرة؛ حتى يتسنى لنا تبين جوهر المفهوم الذي استنبطه بمنهجه التفكري من القرآن العظيم. وبيان ذلك هو كما يلي:

1.3 ــ الأخلاق نظام القرآن:

إن الهم الرسالي الذي كان يحمله بديع الزمان رحمه الله، والقصد الإصلاحي الذي كان يسكن وجدانه وهو يكتب رسائل النور؛ جعله يمضي في تدبره للقرآن، وتفكره في أحوال النفس والمجتمع؛ فقاده ذلك إلى اكتشاف حقيقة الأخلاق في القرآن. حيث عرضها بعد ذلك في رسائله على أنها هي كل نظام القرآن، أي النسق الكلي للقرآن. فرسالة القرآن إنما جاءت لتصنع مجتمعا قائما على أساس الأخلاق، بمعنى كلي. فكل التصرفات البشرية في العلاقات النفسية، والاجتماعية، والوجودية، مع سائر الكائنات؛ إنما هي أخلاق. وهذا مفهوم خاص لمعنى (أخلاق)، الذي يحصره بعضهم فقط في مجال (الفضائل)، بمعناها الاجتماعي الصرف. و(الفضائل) ــ في المعنى السائر المتأثر بالدلالة الفقهية ــ مفهوم موح بنوع من النفل الزائد، الذي يفعله الإنسان تطوعا. وهذا معنى

فرعي، بينما تصور النورسي للأخلاق قائم على أنها (أصول) لا (فروع)، كما سيأتي بنصه وتعبيره، وعلى أنها (قانون) بمعنى نظام مطرد، ونسق كلي، ولسيت أحوالا تقبل الحدوث كما تقبل التخلف؛ وعلى أنها (قواعد) بمعنى ضوابط، سيقت لتكييف السلوك الإنساني، والتصرف البشري تكييفا تربويا، وفق ميزان معين، ثابت، لا يلحقه العبث ولا تثلمه الفوضى. إن تصور الأخلاق على أنها (فضيلة نافلة) هو مفهوم جزئي. والاقتصار عليه يؤدي إلى تحريف الدلالة القرآنية، ذات البعد الشمولي العميق لمصطلح (أخلاق). وأحسب أن تحقيق مفهوم الأخلاق نوع من التجديد، الذي رامه بديع الزمان، في عرض حقائق القرآن، من خلال رسائل النور، وهو يتحدى الغزو الفكر والخلقي الغربي. إن تصور النورسي لهذا المعنى المستنبط من القرآن قائم على دلالة أخرى تماما. إنه دال عنده على كل الحركة الإنسانية في النفس والمجتمع، فلا يبقى بعد ذلك شيء من تصرف الإنسان إلا وهو مشمول بمصطلح (الأخلاق). ومن هنا صح أن يكون القرآن ــ كل القرآن ــ إنما جاء لبناء الأخلاق، بهذا المعنى الشمولي الواسع. وذلك هو منطوق حديث عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت قولتها المشهورة: (كان خلق القرآن)[15] هكذا على سبيل الاستغراق الشامل لكل القرآن. وهو أيضا قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[16] هكذا بهذا الحصر الشامل المستغرق لكل مقاصد البعثة المحمدية. فكان إذن أن القرآن كله ــ من حيث هو نظام رباني، أنزله الله لتنظيم حياة الإنسان التعبدية والنفسية والاجتماعية ــ إنما هو نظام للأخلاق. ولذلك بيَّن بديع الزمان النورسي أن أخلاق القرآن قد وسعت ــ بهذا المعنى ــ كل ما جاءت به الكتب السماوية السابقة وزيادة. قال رحمه الله: (إن **أصول الأخلاق** في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها. وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق (...) إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جداً، وقد لا تجد دينا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة)[17].

ولذلك فإن التغيير الذي أحدثه القرآن في المجتمعات التي دانت له كان عميقا وجذريا. إنه بهذا المعنى الذي قدمه للأخلاق؛ غيَّر البنية الثقافية والوجدانية، لكل الأعراق التي انتسبت إليه، وجعلها منصهرة في نسق واحد، ونظام واحد، هو أخلاق القرآن. إن

دمج العرقيات والجنسيات المختلفة والمتناقضة؛ لغة، وتاريخا، وسلالة، وعادات وتقاليد...إلخ، في خفقة وجدان واحد؛ لهو من أغرب المستحيلات قطعا! ولكن ما (المعجزة) إن لم تكن هي صناعة المستحيل؟ وما القرآن إن لم يكن هو كتاب الإعجاز الأول بلا منازع؟

إن كثيرا من الأحكام الدينية، والتشريعات القرآنية، التي دأب بعض الكتاب على تصنيفها خارج مفهوم الأخلاق، جعلها بديع الزمان من صميم الأخلاق، وأصولها. إن القوانين التشريعية الإسلامية كلها؛ إنما أنزلها الشارع الحكيم على أنها سلوك خلقي لا مجرد قانون ملزم؛ شريعةً وعقوبةً. بل إن السر في التزام الناس بالقانون التشريعي الإسلامي إنما يرجع إلى عمقه التخلقي الرفيع. فهذا الجمع والتوفيق بين الأمرين هو الذي سعى به القرآن لبناء الإنسان. إن بديع الزمان لم يكن يرى في نصوص التشريع إلا نظاما أخلاقيا اجتماعيا بديعا. قال رحمه الله في نص عجيب، مكتنز بحكم بالغة: (إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، **ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية**، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس... الخ)[18].

إن أدق أحكام القرآن الجزئية في التشريع الاجتماعي مثلا؛ ما هي إلا عنصر من عناصر نظام الأخلاق، سواء كانت من أحكام المواريث كما رأيت في النص المذكور، أو من أحكام العقود...إلخ. كل ذلك وما في معناه ــ مما قد لا يبدو للناظر، غير الخبير بطبيعة القرآن؛ أنه ذو بعد أخلاقي ــ إنما هو تشريع راجع إلى مفهوم (التعبد) في الإسلام. وإنما مفهوم التعبد قائم على معنى (المحبة). وذلك هو جوهر الأخلاق في الدين. (المحبة) هي أساس التشريع الإسلامي. وأي خُلُق صالح في سلوك الإنسان خارج عن معنى المحبة؟ وأي آية لا ينتظمها ذوق المحبة في القرآن؟ فمن أهم الفروق ــ التي ذكرها النورسي ــ بين الفلسفة والشريعة؛ أن هدف الفلسفة إنما هو (المنفعة)، بينما الشريعة (هدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المودّة والتجاذب)[19].

ومن هنا أبصر بديع الزمان أن كل آي القرآن مشع بنور المحبة؛ فضلا عن الآيات التي يصنفها العلماء على أنها آيات الفضائل، التي سيقت أصالة لذلك، والتي هي ظاهرة في النطق بكل معاني الحب.

قال رحمه الله: (لا تجد في القرآن آية إلا توحي بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة ـــ خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي ـــ وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف، وحسن المقاصد، والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم. ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة، المملوءة حكمة ورشداً؛ لإثبات صفاء **قواعد الأخلاق** في القرآن. إنه أبصر كلّ شئ!)[20].

إن الجمال والمحبة أمران مرتبطان. وبما (أن الله جميل يحب الجمال) كما في الحديث الصحيح[21] فقد تسلسل الكون بشعاع المحبة الصادر عن جمال الأسماء الحسنى. فكان كل من عَبَدَ الله حقا؛ منتسبا إلى ذلك النور، ومتخلقا بذلك الخلق الكلي الشامل: المحبة. ومن هنا ارتباط الأخلاق الإسلامية بنظام الكون، من حيث كونه يمثل انعكاسا نوريا للأسماء الحسنى؛ وبنظام القرآن من حيث كونه ناطقا بحقائق الكون، وناظما لها في سلك العبودية؛ وبهدي النبوة من حيث كونها أرفع نماذج ذلك الانعكاس والامتثال. ولبديع الزمان نص بديع في بيان هذه العلاقات النورية المتوالية في الكون، التي تضرب بنظام الأخلاق القرآني في الامتداد الكوني كله. قال رحمه الله: (لمحبته سبحانه لجماله؛ يحب حبيبَه صلى الله عليه وسلم إذ هو مرآة ذلك الجمال، ولمحبته لأسمائه الحسنى يحب حبيبه صلى الله عليه وسلم وإخوانه، إذ هو المدرك الشاعر لتلك الأسماء. ولمحبته لصنعته سبحانه يحب حبيبه صلى الله عليه وسلم وأمثاله، إذ هو الدال على صنعته والمُعْلِن عنها، ولمحبته لمصنوعاته سبحانه يحب حبيبه صلى الله عليه وسلم وَمن هم خلفه من المقتدين بهديه، إذ هو الذي يقدّر قيمة المصنوعات، ويباركها بـ : "ما أجمل صنعتها!" ولمحبته لمحاسن مخلوقاته يحب حبيبه صلى الله عليه وسلم، ومن تبعه وإخوانه، إذ هو الجامع لمكارم الأخلاق)[22].

ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أكمل الخلق في تمثل جمال أخلاق المحبة، أو قل: الأخلاق القرآنية. ومن هنا كان عليه صلوات الله وسلامه أجمع الخَلْق خُلُقا. لأنه كان أجمعهم للقرآن تطبيقا وامتثالا. كما هو منطوق حديث عائشة السالف الذكر. وقد وقف بديع الزمان على هذا المعنى وقفة خاصة، ونبه إلى ما في ذلك من الدلالة على أنما سنته صلى الله عليه وسلم هي خُلُق القرآن، ولا شيء سوى خلق القرآن، فمن فاته هذا المعنى فقد فاته اتباع السنة. وفي هذا درس بليغ لأولئك الذي يفصلون بين السنة والقرآن،

ويجزئون الأخذ منهما؛ فيغيب عنهم هذا النظر الجامع الذي يبصر من خلاله بديع الزمان الكليات الخلقية في الإسلام. فيكون كثير ممن يدعون الالتزام بالسنة؛ أبعد ما يكونون عنها؛ اتباعا ومقاصد. ذلك درس عظيم ما أحوج حركات التجديد الديني اليوم إلى إدراكه فكرة ودعوة. قال رحمه الله: (ووَصَفهُ الصحبُ الكرام كما وصفته الصحابية الجليلة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كان خُلُقهُ القرآن). أي: أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسن، بل إنه خلق فطرة على تلك المحاسن (...) ينبغي أن يكون كل من أفعال هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم وأقواله وأحواله، وكل من حركاته نموذج اقتداء للبشرية. فما أتعس أولئك المؤمنين من أمته الذين غفلوا عن سنته صلى الله عليه وسلم ممن لا يبالون بها، أو يريدون تغييرها، فما أتعسهم! وما أشقاهم!)[23]. بل إن مقياس اتباع السنة إنما هو رهين بدرجة التخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذلك أن الله (سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته يحب محمداً صلى الله عليه وسلم ، إذ هو في ذروة الأخلاق الحميدة، كما اتفق عليها الأولياء والأعداء، ويحب كذلك من يتشبهون به في الأخلاق، كلا حسب درجته)[24].

إن إحالة أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم على القرآن، إنما معناه إحالتنا على الكون كله! ومن هنا نتبين سر وقوف النورسي على هذا الحديث العجيب (كان خلقه القرآن). حيث اتخذت الأخلاق الإسلامية عنده نظاما كونيا، كما قلنا في التعريف: (هي نظام القرآن ــ إلى قولنا ــ لاكتساب معناها الكوني) ذلك أن القرآن في المفهوم التفكري لدى بديع الزمان هو كشاف كتاب الكون الكبير. والتخلق بأخلاق القرآن هو ضرب في عمق الكونية، وارتباط بأخوة الكائنات جميعا من حيث هي سيارات في نظام الكون البديع على وزان فلك القرآن. و لم يزل تعريفه رحمه الله للقرآن كما درسناه بمحله[25] من أعمق الالتفاتات التفسيرية في رسائل النور. وإنما نقتطف منه ههنا عبارات تدل على بعض المقصود؛ مما يساعدنا في دراسة مفهوم الأخلاق عنده. قال رحمه الله: (فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة (...) وكذا هو أساس وهندسة

وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه. وكذا هو مرب للعالم الإنساني.)[26].

ومن هنا كان تخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بأخلاق القرآن كمالا عظيما، وليس عبثا أن ترد آية في كتاب الله ناطقة بذلك في حق محمد صلى الله عليه وسلم شهادةَ تعديل كامل من رب الكون، بجملة اسمية دالة على الثبات والاستمرار، في قوله تعالى: (**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**)(القلم:4).

وبذلك صار خلقه صلى الله عليه وسلم في حد ذاته معجزة، إضافة إلى ما تلقاه من معجزة القرآن العظيم. قال بديع الزمان: (إن أعظم معجزة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد القرآن الكريم هو ذاته المباركة، أي ما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق السامية، والخصال الفاضلة، وقد اتفق الأعداء والأولياء على أنه أعلى الناس قدراً، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلا)[27]. وما ذلك طبعا إلا من حيث (كان خلقه القرآن)! وذلك معنى وصفه صلى الله عليه وسلم أيضا بأنه (كان قرآنا يمشي بين الناس)!

إن القرآن من حيث هو كلام الله الأزلي؛ كان في تربيته للإنسان على أخلاقه؛ ناظما له في سلك العبودية، السائر إلى الله عبر أنوار الأسماء الحسنى، والصفات العلى. وتلك هي الأخلاق الكونية الكبرى، التي جاء الإسلام ليصنع الاجتماع الإنساني على وزانها، وينشئه على مقياسها ونظامها. قال بديع الزمان: (إن الكون العظيم يكون أمامي بمثابة حلقة ذكر في أثناء قراءتي لخلاصة الخلاصة، ولكن لأن لسان كل نوع من الأنواع واسع جداً، يتحرك العقل عن طريق الفكر كثيراً؛ كي يذعن بالأسماء الإلهية وصفاتها بعلم اليقين، وبعد ذلك يتمكن أن يبصر ذلك بوضوح. وعندما ينظر إلى الحقيقة الإنسانية، في ذلك المقياس الجامع، في تلك الخريطة المصغرة (...) فإنه يصدق تلك الأسماء والصفات، بإيمان، واطمئنان، ووجدان جازم، شهودي وإذعاني (...) فيكسب الإيمان التحقيقي، ويدرك المعنى الحقيقي للحديث الشريف: "إن الله خلق الإنسان على صورة الرحمن"[28]. لأن المراد من الصورة، السيرة والأخلاق والصفات)[29].

إن هذا النص العجيب يحيلنا على مفهوم (الكون) عند الأستاذ النورسي. ولقد وجدنا أن من خواصه التعريفية أنه (منعكس عن الأسماء الحسنى)، بمعنى أنه مفعول للربوبية العليا، المتصفة بصفات الكمال، والمتسمة بأسماء الجمال؛ مما يؤول مرة أخرى

بهذه الكثرة المتناثرة في الوجود إلى الوحدة، وذلك من خلال الرجوع إلى رب واحد عبر أسمائه الحسنى، المشعة على الكون؛ إيجادا ورعاية ورحمة. فما من شيء إلا وهو مرتبط في وجوده باسم من أسماء الله الحسنى، ذلك أن الرب العظيم ــ سبحانه وتعالى ــ متصرف في الكون خلقا وإيجادا؛ من حيث هو خالق، مصور، بديع، محي، مميت، رازق، مهيمن، رحمن، رحيم ...إلخ. فأي شيء إذن يمكن تصوره خارج هذه الدوائر الربانية؟ من هنا كان الوجود الحقيقي للأشياء إنما هو بالأسماء، لا بذوات تلك الأشياء[30].

فما وجود الإنسان إذن؛ إلا رشحة من رشحات الأسماء الحسنى؛ خلقا ورعاية وتكريما. وما غاية ذلك كله إلا أن يسعى هذا المخلوق المكرم إلى تحقيق العبودية؛ بدورانه حول هذا الفلك العظيم؛ رغبة ورهبة. وذلك هو ما قصده بديع الزمان من تعبير (التخلق بالأخلاق الإلهية)، أو تعبير (التخلق بأخلاق الله)، الذي أورده في كثير من المواطن، من مثل قوله رحمه الله: (إن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي **التخلق بالأخلاق الإلهية**، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة ــ التي يأمر بها الله سبحانه ــ وأن يعلم الإنسانُ عجزَه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفَه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى)[31]، بمعنى أن الانتساب إلى الله عبادة وسلوكا هو استنارة بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ رغبا ورهبا. وعلى هذا المعنى حمل دلالة الحديث المذكور: (إن الله خلق الإنسان على صورة الرحمن). فالاعتراف بالعجز والضعف البشريين، يؤول إلى طلب الانتساب إلى القوة والعظمة، والاحتماء بظلالهما. وإنما كمال ذلك وحقيقته متمثل في ذات الله رب العالمين. وطلب السمو بفعل الخضوع هو عين العبودية، وهو عين التخلق بأخلاق الله. ذلك أن (من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية، **التخلق بأخلاق الله**. أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين **بأخلاق الله** محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم)[32].

إن بديع الزمان بهذا الطرح الشمولي لمعنى الأخلاق، يعرض على العالم فعلا نظام القرآن عرضا اجتماعيا، ويعرض الاجتماع عرضا كونيا؛ وبذلك يبلغ قمة التحدي في سياق بناء المجتمع الإنساني من خلال المنهج القرآني العظيم، إذ تتحول الآيات بين يديه إلى سلاح يصد به هجمات المغرضين الذين يحطون من شأن الأخلاق الإسلامية،

ويدعون إلى إباحية وعلمانية تملك الحرث والنسل، وتُفقد الهويةَ الإسلامية خصوصيتها الحضارية، وانتماءها القرآني، وامتدادها الكوني. إنه بهذا الفعل يحاصر أخلاق الفلسفة الغربية في زاوية الشهوات الحيوانية، ومستنقع النزوات البَهَمِيَّة، في حين يرتفع بالخُلُق القرآني إلى أفق الكون الفسيح، ناظما لسلوك الإنسان المسلم في سلك الوجود السرمدي، الذي يمنحه الخلود الحقيقي، والتوحيد الحقيقي. إذ يصل وجدانَه بأنوار أسماء الله الحسنى، ويجد بذلك حقيقة ماهيته الوجودية. فلا يصدر منه شر ولا أذى. ومن هنا كان المسلم مصدر أمن للعالم ومصدر سلام.

ونقتطف ههنا كلمة لأستاذنا الدكتور محسن عبد الحميد في تقديمه لكتاب إشارات الإعجاز، تبين مدى وعي النورسي بخطورة الحرب الأخلاقية، التي يقودها الغرب ضد المسلمين، ومدى تأثير ذلك على نظام القرآن كله، من حيث إن الأخلاق الإسلامية إنما هي نظام القرآن. يقول حفظه الله: (لقد كان أسلوب رسائل النور في وضوحه الحاسم، وهدوئه العلمي الباهر، وبيانه الذوقي الرفيع، وحججه العقلية الدامغة؛ هو البديل العصري الذكي؛ لأسلوب إثبات إعجاز القرآن اللغوي، والبياني، والعقلي، من خلال نظرية النظم، لأن ما أثاره الأعداء لم يكن يتصل بالطعن في بلاغة القرآن، أو مناقشة ما يتعلق بإعجازه، أو بتناسب سوره وآيه وكلماته. وإنما كان يركز على شن هجوم عام، شامل، على أصول الإيمان، وحكمة التشريعات، ومحاولة تفكيك النظام الأخلاقي الذي جاء به القرآن الكريم. لقد وعى الأستاذ النورسى التغييرات الهائلة، التي أحدثها الصراع الجديد؛ فتوجّه إليها بحقائق القرآن، التي قدمها من خلال أصول المنطق العقلي الفطري، وعلوم ومعارف عصره)[33].

حقيقةً؛ لقد عالج بديع الزمان المسألة الخلقية بمنهج استبصاري غريب! فقد كشف الستار ببصيرته النافذة، وفراسته المستنيرة بنور القرآن؛ فخاطب ما كان يتوقعه من حال الأمة بعد خمسين سنة قادمة، وهو تماما ما نشهدها عليه اليوم من أحوال، في مستهل الألفية الثالثة! يقول رحمه الله عن أوضاع زمانه، وما توقعه بعدها: (فالأوضاع الحاضرة ستنعكس على الجيل الآتي لهذه الأمة – البطلة، المتدينة، الغيورة على شرفها – بعد خمسين سنة. ولا يخفى عليكم ما ستؤول إليه السجايا الدينية، والأخلاقية الاجتماعية)[34]، ثم يتوجه بالكلام إلى الجيل الذي يأتي بعده، مناديا بصورة عجيبة: (يا إخوتي! ويا زملائي الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!)[35]

إن هذا الحدس الاستبصاري الكاشف، الذي كان يتمتع به بديع الزمان النورسي رحمه الله، هو الذي ساعده على النفاذ ـــ في معالجة المسألة الخلقية ـــ إلى أغوار النفس الباطنة، تشخيصا وتعليلا، ثم تطبيبا ووصفا. فكما كان يحاول إزاحة حجب الزمن؛ لاستبصار المستقبل؛ فقد كان يحاول إزاحة حجب البدن؛ لاستبصار ماهية النفس؛ قصد تهذيبها وتشذيبها، وطبع أخلاقها. وبيان ذلك كما يلي:

2.3 ـــ الأخلاق تطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها

إن مفهوم الأخلاق لدى بديع الزمان ـــ كما تَقَطَّر من تفكراته القرآنية ـــ يرجع إلى معنى تربوي خصوصي. إذ هو تنقيح لـ(ماهية الإنسان) من شوائب الأنانية الوجودية، وخزف الصنمية الكاذبة. وذلك بتجلية صورة الروح الإنسانية، وتصفيتها حتى تبدو مرآتها على أجلى حقائقها، من حيث كونها أكمل رمز للعبودية. وفي ذلك تتميز الأخلاق القرآنية عن أخلاق الفلسفة، التي تكثف الحجب الكاذبة على حقيقة الإنسان وماهيته، فتوهمه أنه إله من دون الله الواحد القهار. إن الفلسفة تنطلق منذ القديم من أسطورة (انتزاع) شعلة المعرفة من (إله المعرفة)، إنها سليلة مبدأ الصراع بين الآلهة والإنسان. ولذلك أنتجت الفكر الفلسفي الغربي ذا الطبيعة المتمردة على كل شيء، بما في ذلك القيم الإنسانية المثلى. إن تلميذ الفلسفة يسعى إلى عبادة نفسه وتمجيدها. وفي هذا السياق فرق بديع الزمان بين مفهوم (التخلق بأخلاق الله)، الذي سبق بيانه، وبين مفهوم (التشبه بالله)، الذي هو غاية الفكر الفلسفي في نظريته الأخلاقية. فإذا كان الأول نفيا (للأنا)، فإن الثاني ترسيخ لها وتصنيم! قال رحمه الله في تتمة نص سبق إيراده في سياق التخلق بأخلاق الله: (من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية، **التخلق بأخلاق الله**. أي كونوا عباد الله المخلصين، متحلين **بأخلاق الله** محتمين بحماه معترفين في قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم. فأين هذه القاعدة الجليلة من قول الفلسفة: " تشبهوا بالواجب " ! التي تقررها غايةً قصوى للإنسانية؟ أين ماهية الإنسان التي عجنت بالعجز، والضعف، والفقر، والحاجة غير المحدودة؛ من ماهية واجب الوجود؟ وهو الله القدير القوي الغني المتعال!!)[36]

من هنا إذن؛ كانت الأخلاق عند النورسي (تطبع صورة الروح الإنسانية بماهيتها)، كما عبرنا في التعريف. بحيث تبرز طبيعتها الاستنادية ووجودها الحرفي؛ حتى تتعلق بخالقها فناء وبقاء، وتتفانى في خدمة المقاصد التعبدية لوجودها. وتكسب بذلك معناها وتحقق ماهيتها. ومن هنا أيضا حرص بديع الزمان على الاهتمام بصورة الروح بدل

صورة الجسم؛ رغبة في تجلية الماهية الروحية للإنسان التي هي سر البقاء فيه؛ على حساب الماهية الطينية، التي ليست سوى مظهر من مظاهر الفناء. وبذلك فسر رحمه الله ـــ في إشارات لطيفة ـــ سر فرض الحجاب على المرأة المسلمة. إذ لم يعتبره فقط نوعا من الوقاية من الوقوع في الغواية والفتنة، وإنما اعتبره رمزا عميقا للدلالة على الماهية الروحية للإنسان. فكأنه أخفى الصورة الكاذبة؛ ليدلك على الصورة الحقيقية. وهذا غاية من الدقة واللطافة في تدبر النصوص القرآنية، والتفكر في الطبيعة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي، في مثاليته الراقية. يقول النورسي رحمه الله: (إن القرآن يأمر النساء أن يحتجبن بحجاب الحياء؛ رحمةً بهن، وصيانة لحرمتهن وكرامتهن؛ ولكيلا تهان تلك المعادن الثمينة، معادن الشفقة والرأفة، وتلك المصادر اللطيفة للحنان والرحمة؛ تحت أقدام الذل والمهانة، ولكي لا يكنّ آلة لهوسات الرذيلة، ومتعة تافهة لا قيمة لها. أما المدنية فإنها قد أخرجت النساء من أوكارهن وبيوتهن، ومزقت حجابهن، وأدت بالبشرية إلى أن يجنَّ جنونها. علماً أن الحياة العائلية إنما تدوم بالمحبة، والاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة. بينما التكشف والتبرج يزيلان تلك المحبة الخالصة، والاحترام الجاد، ويسممان الحياة العائلية؛ ولا سيما **الولع بالصور فإنه يفسد الأخلاق ويهدمها كلياً، ويؤدي إلى انحطاط الروح وتردّيها**)[37].

إن الصورة مضادة للروح، وقاتلة لها شعورا وإحساسا. بمعنى أن الذي استهوته الصورة لن يرى الجمال الحق، بل سيعمى عن صورة الروح الخفية، التي تتجلى في إنسانية المرأة، ورقتها، وشفقتها السيالة جمالا وكمالا. والأخلاق إنما هي التربية على هذا، وطبع الرغبة الإنسانية؛ تهذيبا وتشذيبا؛ على حب النظر إلى جمال الروح، والكشف عن كمالاته. ولذا كان النظر إلى جسم المرأة مثلا؛ هو كالنظر إلى جثة الموت سواء. فأي جمال فيها وأي بهاء؟ ذلك (أن النظر بدافع الهوى وبشهوة إلى جنازة امرأة حسناء، تنتظر الرحمة وترجوها؛ يهدم الأخلاق ويحطها، كذلك النظر بشهوة إلى صور نساء ميتات، أو إلى صور نساء حيات – وهي في حكم جنائز مصغرة لهن – يزعزع مشاعر الإنسان ويعبث بها، ويهدمها)[38]. وهذا سر من أهم أسرار نجاح الأسر أو فشلها، فإذا ما تعلق نظر القلب بالروح، كان ذلك سببا من أسباب الدوام؛ لأن جمال الروح خالد لا يفنى. وإذا ما تعلق بالصورة الجسدية آل حتما إلى الذبول والفناء؛ بذبول المتعلق به، وهو الصورة الجسمية الفانية. ثم إن جمال الصورة الجسمانية نفسه ما هو ـــ عند المبصرين جوهره لا شكله فقط ـــ إلا انعكاس لجمال الروح. فمن نظر إلى الروح

وجمالها؛ كان له في جمال الصورة الجسمانية ما لا يجده فيها غيره، ممن كان نظره حسيا فقط، حسيرا، لا يتعدى حدود الجلد؛ إلى ما هنالك من جمال روحاني فياض. إن الزوج الذي يحب الروح الساكن في كينونة زوجته، يرى منها حقيقتها، ولذلك فهو يعرفها حقا. أما الذي لا يرى من زوجته إلا أشكالها وأشباحها فهو لا يعرفها؛ ولذلك فإنه يصطدم معها اصطداما كلما خفتت النوازع المادية التي ربطته بها. ولأمر ما ذكر الله تعالى في القرآن العظيم؛ أن الزواج إنما هو زواج أنفس، لا زواج أبدان، في إشارة لطيفة عجيبة من قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء)**(النساء: 1).

ومن هنا تتدفق العواطف الجياشة بالمحبة الحقيقية، ويجد الزوج لزوجته من الفضل ما لا يجده لنفسه هو! وبذلك تصان حقوق المرأة في الإسلام، صيانة وجدانية، لا صيانة قانونية كاذبة، لا تكاد تذكر حتى تخرق. كما هو الحال اليوم في بلاد الغرب، الذي يملي على المجتمعات الإسلامية ما فشل هو في تحقيقه فشلا ذريعا! وإن بديع الزمان النورسي كان يعيش عصره بملاحظاته الدقيقة (من نهاية القرن التاسع عشر؛ حتى النصف الأكبر من القرن العشرين)، حيث كانت هذه المقولات في بدايتها آنئذ، لكنه أبصر بفراسته الدقيقة مآلاتها فأنذر بخطورتها، ورد عليها بإشاراته اللطيفة وتفكراته العميقة، مبينا من خلال ذلك حقيقة الأخلاق في الإسلام، ومبرزا صورة الروح على حساب صورة البدن الكاذبة. قال رحمه الله في محبة الزوجة: (عليك بمحبتها على أنها هدية أنيسة لطيفة من هدايا الرحمة الإلهية. وإياك أن تربط محبتك لها برباط الجمال الظاهري السريع الزوال، بل أوثقها بالجمال الذي لا يزول ويزداد تألقاً يوماً بعد يوم، وهو جمال الأخلاق والسيرة الطيبة المنغرزة في أنوثتها ورقّتها. وإن أحلى ما فيها من جمال وأسماه هو في شفقتها الخالصة النورانية. فجمال الشفقة هذا، وحُسن السيرة يدومان ويزدادان إلى نهاية العمر. وبمحبتهما تُصان حقوق هذه المخلوقة اللطيفة الضعيفة، وإلاّ تفقد حقوقها في وقت هي أحوج ما تكون إليها؛ بزوال الجمال الظاهري)[39].

إن (المستقبلية الوجودية)، و(المستقبلية الاجتماعية) التي كانت تطبع نظرات بديع الزمان جعلته ينفذ ببصره إلى أعماق الحركة التاريخية، ويبصر ما يتوقع أن تصير إليه الحالات من مآلات! فصار يعالج المسألة الخلقية بمنهج استبصاري نادر ومؤثر. ومن ألطف إشاراته رحمه الله في هذا السياق قصته التي حكاها في كتاب (الشعاعات)، حيث كان مرة في سجن (أسكي شهر) يطل من النافذة، فرأى بنات صغيرات يلعبن ويمرحن

في عيد الجمهورية، فانخرط في بكاء حار، أثار انتباه رفقاء سجنه؛ فاستفسروه عن سبب بكائه؛ فكانت قصته الغريبة. قال رحمه الله: (كنت في أحد أيام عيد الجمهورية جالسا أمام شباك سجن "أسكي شهر" الذي يطل على مدرسة إعدادية للبنات.. وكانت طالباتها اليافعات يلعبن ويرقصن في ساحة المدرسة وفنائها، ببهجة وسرور، فتراءت لي فجأة على شاشة معنوية ما يؤول إليه حالهن بعد خمسين سنة! فرأيت: أن نحواً من خمسين من مجموع ما يقارب الستين طالبة؛ يتحولن إلى تراب ويعذبن في القبر! وأن عشرة منهن قد تحولن إلى عجائز ذميمات، بلغن السبعين والثمانين من العمر! شاهت وجوههن، وتشوه حسنهن، يقاسين الآلام، من نظرات التقزز والاستهجان؛ من الذين كنّ يتوقعن منهم الإعجاب والحب، حيث لم يصنّ عفتهن أيام شبابهن! نعم رأيت هذا بيقين قاطع، فبكيت على حالهن المؤلمة بكاء ساخناً؛ أثار انتباه البعض من زملاء السجن، فأسرعوا إليّ مستفسرين!)[40].

إن بكاء بديع الزمان يرجع إلى أنه كان يبصر الصورة الحقيقية للإنسان: صورة الروح. لقد كان ينفذ ببصره من خلال صورة البدن؛ إلى ما هنالك من حقائق باطنة: النفس الزكية أو النفس الشقية، فيبصر في ضوء ذلك مآلات المستقبل، ويبكي لهول ما يرى! لقد كان منهجه التفكري الاستبصاري قائما على قراءة حركة التاريخ، في صيرورتها المقبلة، بقواعد العلم، والسنن الجارية في الكون وفي المجتمع. ولذلك جاء في قوله العجيب: (لو أمكن عرض ما سيقع من أحداث مقبلة بعد خمسين سنة مثلاً، على شاشة الآن، مثلما تُعرض الأحداث الماضية عليها؛ لبكى أربابُ الغفلة والسفاهة بكاءً مراً أليماً على ما يضحكون له الآن!)[41]

إن من أسباب الغواية أن الإنسان إذ تأسره صورته الخزفية؛ يعيش للحظة التي هو فيها. وإن تفكر في المستقبل؛ ففي اتجاه العيش الحيواني الساذج، ليس إلا. إنه عادة ما يضعف عن محاولة خرق حواجز النفس؛ إلى التفكر في نهاياتها، وفيما تحتمله تلك النهايات من مفاجآت واحتمالات! فذلك أمر تكرهه النفس بطبيعتها. ومن هنا كان أسلوب النورسي حملها على تلك المشقة، التي هي حقيقة مرة، ولكنها حقيقة! حتمية لا مفر منها: الهرم والموت! ثم ماذا بعد؟ أين صورة الإنسان؟ أين ماهيته؟ تلك هي القضية! قال في اللمعات، بعدما أبصر صور الشباب في مآلاتها المقبلة: (إن خمسة من كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن، والذين يمرحون في نشوة وبهجة، سيكونون كهولاً

بعد خمسين عاماً، وقد انحنت منهم الظهور، وناهز العمر السبعين! والخمسة والأربعون الباقية يُرمّون في القبور!)[42]

لقد كان هذا المنهج الفعال هو المفتاح العجيب، الذي استعمله الأستاذ النورسي؛ للنفاذ إلى صورة الروح ــ التي هي مناط التخلق ــ لتجلية ماهيتها الإنسانية، بما ذكرناه مفصلا. فالماهية التي يراد طبعها على صورة الروح، بالتخلق؛ يجب أن تتجاوز صورة البدن، ولا يمكن ذلك إلا بالنفاذ الاستبصاري إلى أغوار النفس؛ لتهذيب (أناها) بالوسائل التربوية، التي هي أساس التخلق التعبدي، وذلك كما يلي:

3.3 ــ الأخلاق تسلك بالروح الإنسانية مدارج التربية والمجاهدة:

إن المنهج الذي اعتمده الأستاذ النورسي للوصول إلى حقيقة الأخلاق من حيث هي نظام القرآن هو المنهج القرآني نفسه، والذي سماه في غير ما موضع من رسائله بـ(طريق القرآن)، أو (المعراج القرآني) الذي هو أقصر الطرق الموصلة إلى الله، والتخلق بأخلاقه جل وعلا، بما ذكرنا من معنى. يقول رحمه الله: أما (المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!)[43]

والمنهج القرآني لطبع الروح بماهيتها الخلقية؛ راجع في دلالته إلى معنى التربية والمجاهدة. ولذلك كان عنصرا جوهريا في (مفهوم الأخلاق) لدى بديع الزمان؛ حيث إن الأخلاق كسب وصفي، ينطبع على صورة الروح الإنسانية، بفعل السلوك التربوي اليومي، الذي يربي النفس بصغار العلم قبل كباره، على أساس الربانية المذكورة في قوله تعالى: (**وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**)(آل عمران:79).

إذن يمكنك أن تقول: (إنما الخُلُق بالتخلق) على وزان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه)[44].

والتخلق إنما هو: التربية والمجاهدة. ومن هنا قال بديع الزمان في كلمة جامعة مانعة: (أما مسلكنا: فهو التخلق بالأخلاق المحمدية صلى الله عليه وسلم وإحياء السنة النبوية)[45]. ولا تخلق إلا بمجاهدة؛ وذلك هو نص قوله من أن (نشوء الحسيات العالية ونموّ الأخلاق إنما هو بالمجاهدة، وتَكَمُّلُ الأشياء إنما هو بمقابلة الأضداد ومزاحمتها)[46]. وفي هذا التعبير إشارة إلى ما يقصده (بالمجاهدة) أيضا من معاني التدافع النفسي، الحاصلة

لدى المسلم الذي عزم على مواجهة عدوى فساد الأخلاق، فينخرط بذلك في صراع مع الشهوات الحيوانية، التي تثور في نفسه، وتريد أن تنحرف به عن فلكها السيار مستقيما على نظام القرآن، الدائر على محورها النموذجي في كمال الأخلاق: الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . قال الأستاذ رحمه الله في بيان ما ينبغي أن تكون عليه (جمعية) تأسست في زمانه، وتسمت باسم: (الاتحاد المحمدي): (فجمعية مثل هذه، رئيسها هو: فخر العالمين سيدنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ومسلكها ومنهجها: **مجاهدة كل شخص نفسه أي التخلق بأخلاق الرسول الكريم** صلى الله عليه وسلم ، وإحياء السنة النبوية، ومحبة الآخرين، وإسداء النصح لهم، ما لم ينشأ منه ضرر)[47].

إن المجاهدة في هذا الزمان هي بمثابة حرب على المستوى الباطني والنفسي، يخوضها الإنسان مع نوازعه الشريرة. ولذلك فقد أورد قصة تمثيلية ــ كعادته في عرض أفكاره ــ من الحرب العالمية الأولى، في سياق استنباط العظات والعبر؛ منزلا حقائقها بصورة مجازية على حرب الإنسان مع النفس ومع الشيطان، فقال: (وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والإنس؛ إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين)[48].

فالمجاهدة ليست نزهة، بقدر ما هي عملية وجدانية، تنتقل بالطبيعة البشرية من طين العادات إلى ماء العبادات. وليس غير القرآن أقدر على هذا التحويل الجبلي العجيب، وهذه الصناعة التربوية العميقة. ومن هنا لم يزل بديع الزمان منبهرا بتلك العملية التربية التي قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت راية القرآن، وهو يقوم بتحويل قبائل العرب من أخلاق البداوة والتوحش إلى أخلاق القيادة والسيادة؛ حتى صاروا كأكرم ما تكون الأمم في التاريخ! من معاني الفضيلة والمثل العليا. فقد قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في موطن: (فإن شئت أن تعرف أن ما يحرّكه، إنما هو قوة قدسية، فانظر إلى إجراءاته في هذه الجزيرة الواسعة! ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية في هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين في عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميعَ أخلاقهم السيئة البدائية وقلعها في زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيّرهم معلمي العالم الإنساني وأساتيذ الأمم المتمدنة)[49].

وقال في موطن آخر؛ متفكرا ومتأملا؛ كيف أن هذا النبي الأمي (عليه الصلاة والسلام) قد (غلب على الأفكار، وتحبب إلى الأرواح، وتسلط على الطبائع، وقلع من أعماق قلوبهم العادات والأخلاق الوحشية، المألوفة، الراسخة، المستمرة، الكثيرة. ثم غرس في موضعها في غاية الإحكام والقوة – كأنها اختلطت بلحمهم ودمهم – أخلاقاً عالية وعادات حسنة. وقد بدّل قساوة قلوب قوم خامدين في زوايا الوحشة بحسيات رقيقة، وأظهر جوهر إنسانيتهم، ثم أخرجهم من زوايا النسيان ورقي بهم إلى أوج المدنية، وصيّرهم معلمي عالمهم، وأسس لهم دولة عظيمة في زمن قليل. فأصبحت كالشعلة الجوالة والنور النوار؛ بل كعصا موسى تبتلع سائر الدول وتمحوها. فأظهر صدقه ونبوته وتمسكه بالحق؛ إلى كل مَن لم تعم بصيرته)[50].

ذلك ما دفع الأستاذ النورسي إلى البحث عن أسرار التحولات، ومفاتيح التغيرات، التي أحدثها القرآن في أخلاق الناس؛ عساه يمسك برأس الخيط الذي يعيد به تشكيل المجتمع الإسلامي المعاصر، ويعيد تركيبه على أساس تجديد الدين للأمة، كما هو موعود به في الحديث الشريف. ومن هنا وصل إلى أن سر التغيير الذي أحدثه القرآن في الإنسان هو أنه ربط المسلم بحقيقة ماهيته الجوهرية القائمة على التنكر (للأنا)، بمعناها الوجودي. فعقد لذلك مقارنة لطيفة بين تلميذ التربية القرآنية وتلميذ الفلسفة، نوردها مختصرة فيما يلي، قال رحمه الله: (للوصول إلى مدى الفرق بين التربية الأخلاقية التي يربي بها القرآن الكريم تلاميذه، والدرس الذي تلقنه حكمة الفلسفة، نرى أن نضع تلميذيهما في الموازنة:

فالتلميذ المخلص للفلسفة "فرعون" ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس شئ لأجل منفعته، ويتخذ كل ما ينفعه رباً له(...) بينما تلميذ القرآن المخلص هو "عبد" ولكنه عبد عزيز، لا يستذل لشيء حتى لأعظم مخلوق، ولا يرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله. ثم إنه تلميذ متواضع، لين هيّن ، ولكنه لا يتذلل بإرادته لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه)[51].

إن العبودية بمعناها الشرعي في الإسلام هي أساس التربية الخلقية، ومن عجيب الأمر أنها تجمع بين نقيضين العزة والذلة؛ ذلك أن الذلة لله الواحد القهار تورث العبد عزة، من باب (الانتساب)، كما هو مفهومه عند النورسي[52] حيث يستفيد عبد الله أنوارا من أسماء الله الحسنى، وتسنده صفات الله العلى، من قوة وعظمة وجلال وعزة، فيعز العبد بالانتساب إليه تعالى. ويتخلق في الأرض ـــ من جهة الاجتماع البشري ـــ بأخلاق الصلاح، حيث يعبد ربه بمعاملة الناس، والسعي في حوائجهم صلاحا وإصلاحا؛ وهذا

ما يجعل أخلاق المسلم مطبوعة بالصدق والوفاء بصورة مثالية، تنعدم معانيها في غير مجتمع العابدين. إن التلقائية التعبدية التي تطبع الأخلاق الإسلامية هي سر نجاح التربية التي يشرف عليها القرآن. وهذا لا يمكن تصوره في التربية الفلسفية. إن الاحتكام إلى العقل الفلسفي لا يورث إلزاما ولا التزاما. ما دام القلب لا يستجيب بشكل وجداني لعاطفة المحبة، التي هي سر التحولات الخلقية في الإنسان. تماما كما تحولت قبائل العرب من بداوتها المتوحشة إلى أستاذية عالمية في درس الأخلاق! وبهذا المنطق تحدى بديع الزمان الفلسفة والفلاسفة، وعلماء الاجتماع والسياسة؛ فرفع نداءه عاليا: (فليلق السمعَ علماء الاجتماع والسياسة والأخلاق من المعنيين بشؤون الإنسان وأخلاقه واجتماعه!)[53] ونادى: (فلترن آذان الاجتماعيين والأخلاقيين من المعنيين بشؤون الإنسان!)[54]

إن التربية القرآنية تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا سهل الانقياد، سهل الإدارة؛ لما له من قابلية تعبدية، ولما له من رغبة في التقرب إلى الله، بالانضباط الخلقي، والالتزام التلقائي لحدود الله؛ (حتى إن قروياً مثلي [يقول بديع الزمان] يستطيع أن ينظر إلى إدارة الدولة التي هي في أوج العلا كالثريا، ويربط نوى الأماني والاستعدادات هناك. وحيث إن كل فعل وطور يصدر يلقى صداه هناك، لذا ستتعالى همته كالثريا وتتكامل أخلاقه بالدرجة نفسها، وتتوسع أفكاره بقدر سعة الممالك العثمانية، وسيسبق بإذن الله الأفذاذ من أمثال أفلاطون، وابن سينا، وبسمارك، وديكارت، والتفتازاني)[55].

إن هذا السبق الذي قد يبدو مستحيلا لغير العارف بالحقيقة القرآنية من جهة، وغير العارف بالحقيقة التاريخية من جهة أخرى؛ ليس ناشئا عن فراغ، ولا هو وليد استرخاء وترف فكري. كلا! بل هو ناشئ عن مجاهدة ومكابدة. إن المجاهدة التربوية تورث الأمي البدوي، أسرار المعرفة الإيمانية التي هي شرط السبق في قيادة البشر. وها هم هؤلاء الخلفاء الراشدون تحولوا ـــ بفضل ذلك المنهج التربوي العجيب ـــ من رعاة للجمال في بطاح مكة؛ إلى أساتذة في فن قيادة المجتمعات، ذات العرقيات المتباينة، والثقافات المختلفة، واللغات العديدة؛ بحبل واحد ووحيد: هو (حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)، كما في الحديث الصحيح[56] أي: القرآن العظيم!

إن المجاهدة التربوية ـــ التي هي أساس التخلق في الإسلام ـــ تصل بالإنسان إلى الغاية الكونية التي خلق من أجلها، والتي تمثل حقيقته الوجودية، لولا تلبيس إبليس على العالمين. ومن هنا كان مفهوم (الأخلاق) في الإسلام ـــ على ما تقَطَّر لبديع الزمان

النورسي من تفكراته ـــ ذا بعد كوني أعجز الفكر الفلسفي كله؛ أن يقرب من ثرياه، ولا أن يحلم بمنتهاه. إذ بقيت المدينة الفاضلة في الفلسفة اليونانية ـــ بغض النظر عن طبقيتها العنصرية ـــ حبرا على ورق عبر التاريخ! وآل أمر الديموقراطية في الفكر الغربي المعاصر؛ إلى فضيحة عالمية، من بعدما كشرت عن نابها الاستعماري، وتغطرست في جلدها العولمي الجديد!

إن الكونية الخلقية في الإسلام ترفع الإنسان بمعراج المحبة؛ ليرتبط بعلاقة أخوة وجودية؛ مع جميع السائرين في فلك العبادة، من ذوي الحياة والشعور الظاهر والباطن، في هذا الكون الفسيح. ولهذا استطاع الأستاذ النورسي ـــ وهو المولع ببيان الأبعاد الكونية لمفاهيم القرآن ـــ أن يرصد لنا (كونية) حقيقية في مجال التخلق، خلال كليات رسائل النور، ويرسم لطلاب النور مدارجها التربوية؛ خطوة خطوة. فكان أن أكمل بذلك بناء ـــ ما يمكن تسميته ـــ بالتصور النوري لمفهوم (الأخلاق) نظريةً وتطبيقا. وذلك كما يلي:

4.3 ـــ الأخلاق تُكسب الروحَ الإنسانية معناها الكوني:

يرجع مفهوم (الإنسان) لدى الأستاذ النورسي إلى معنى خلافي كوني، كما درسناه بمحله[57]، وذلك من حيث هو (ثمرة شجرة الكائنات)، و(فهرست العالم) على حد تعبيره، الذي تواتر عنه رحمه الله في غير ما موطن من رسائله. وهذا شيء مهم في بحثنا الأخلاقي هذا؛ إذ بدونه لا يمكن تصور حقيقة معنى (الأخلاق والتخلق) عنده على التمام والكمال. ذلك أن البعد الكوني للإنسان، والغاية التعبدية التي خلق من أجلها في هذا السياق أيضا؛ كلاهما شرط من شروط معرفة الماهية، والخاصية التي تميز مفهوم الأخلاق من حيث هو مصطلح كوني، وليس مصطلحا (اجتماعيا) وحسب، بالمعنى الضيق للكلمة!

يقول بديع الزمان في كلمة جامعة: (هذا الإنسان، هو سيد الموجودات، رغم أنه صغير جدا؛ لما يملك من فطرة جامعة شاملة. فهو قائد الموجودات، والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة، ومظهرها. لذا فإن له أهمية عظمى)[58]، ومعنى ذلك أنه مؤهل لمهمة كونية كبرى، هي الإمامة التعبدية، إذ جعله الله إماما للعابدين ولسائر السائرين من الخليقة أجمعين، كما هو مشار إليه في آية الأمانة: (**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**)(الأحزاب:72). وهو إذ أسكنه الله عز وجل

الأرض؛ جعلها مؤهلة لذلك وصالحة لاستضافة خلفية الله بالمعنى المذكور. فهيأها لجميع أنواع العبادات الإنسانية، العملية والتفكرية، وجعلها مسالك تقود العباد إلى الله. فكان الإنسان بذلك جامعا ـــ بالقوة دون الفعل ـــ لكل أخلاق الكون التعبدية. فإذا انخرط في سلك المجاهدة التربوية اكتسب صفاتها بالفعل، وإذا تخاذل واستجاب لشهواته بقيت تلك الصفات في قبر (القوة)، وبرزت على حسابها أخلاق الشر والعياذ بالله. ومن هنا كانت الأرض مسجده الكلي المستعد لكل أنواع الصلوات. قال بديع الزمان: (إن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة (...) ومن هنا فإن مهد هذا الإنسان، ومسكنه، وهو الأرض، كفء للسماء معنى وصنعة. ومع صغر الأرض وحقارتها بالنسبة إلى السماء فهي قلب الكون ومركزه، ومشهر جميع معجزات الصنعة الربانية، ومظهر جميع تجليات الأسماء الحسنى وبؤرتها، ومعكس الفعاليات الربانية المطلقة، ومحشرها، وسوق عرض المخلوقات الإلهية بجود مطلق، ولا سيما عرضها لكثرة كاثرة من النباتات والحيوانات. وهي نموذج مصغر لما يعرض في عالم الآخرة من مصنوعات، ومصنع يعمل بسرعة فائقة لإنتاج المنسوجات الأبدية، والمناظر السرمدية المتبدلة بسرعة، وهي مزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بذور البساتين الدائمة الخالدة)[59].

كل ذلك إذن؛ إنما هو لإتاحة الفرصة أمام الاستعدادات الفطرية، التي جعلها الله عز وجل في نفس الإنسان؛ لبلوغ كمالات التقوى خُلُقا وتخلقا. تلك الكمالات التي هي زبدة الشريعة، وغاية الدين، ومجمع البحرين، من سور القرآن وآياته. وقد سبق في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[60].

هذه غايتك يا ابن آدم فكيف السلوك؟ وتلك هي قصة الكونية الأخلاقية في القرآن منذ بدايتها، فكيف تحقيق مناطها؟ تلك أسئلة جعلها النورسي جزءا من مضمون المفهوم. وبيانها كما يلي:

مجاهدة (الأنا) بين التخلي الاسمي والتحلي الحرفي:

لقد انطلق الأستاذ النورسي في رسم طريق المجاهدة الأخلاقية، من مبدأ تفكري استقرائي، في تشخيص أصل الأمراض الخلقية كلها. وهو رجوعها جميعا إلى غرق الإنسان في مشاهدة (الأنا) الذاتية التي تسكنه، بصورة تعميه عن مشاهدة أي شيء سواها إلا من خلالها! فتنشأ بباطنه رغبة آثمة لتوظيف كل مصالح الاجتماع البشري لصالحه فقط، ولا عليه بعد ذلك أن يهلك الآخرون. قال رحمه الله: (لو تأملت في مساوئ جمعية البشر لرأيت: أس أساس جميع اختلالاتها وفسادها، ومنبع كل الأخلاق

الرذيلة في الهيئة الاجتماعية، كلمتين فقط: إحداهما: "إن شبعتُ فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع!". والثانية: "اكتسبْ أنت لآكل أنا! واتعبْ أنت لأستريح أنا!")[61] فالكلمة الأولى راجعة إلى الرغبة الآثمة في تمجيد (الأنا)، وتمتيعها بذاتها، ولذاتها فقط. فهي الهدف من كل ما يراه. والكلمة الثانية راجعة إلى توظيف كل شيء؛ من أجل تحقيق الأولى، فهي وسيلتها.

ومن هنا انطلق بديع الزمان إلى علاج هذا الداء الخلقي العضال، من تبين طبيعة الوجود البشري؛ لتحديد طريق التخلص من سيطرة (الأنا) على الإنسان، وترقيته في بمدارج الصلاح الخلقي بصورة تحقق له توازنا فطريا، وكمالا حقيقيا لا وهميا. وذلك أن وجود الإنسان ــ بالنسبة إلى وجود الخالق جل علاه ــ إنما هو كسائر الموجودات. أي أنه فرد من المخلوقين يستوي وإياهم في الخضوع لصفة الخالقية. وإنما تميزه من حيث هو أحوجهم جميعا إلى رحمة الله، فهو ثمرة شجرة الكون، وثمر الشجرة هو أضعف ما فيها، وأجمع لخصائصها! وذلك سر إمامته كما تبين بمحله[62]. أما من الناحية الوجودية الصرف؛ فكل الخلق خاضع للوجود (الحرفي)، ولا شيء داخل المعنى الاسمي إلا اسم الجلال الله الخالق لكل شيء، سبحانه وتعالى. وعلى هذه الأرضية تنبني إمكانية المجاهدة التربوية عبر مسالك التخلق الكوني، إذ يتعين على الإنسان من حيث هو موجود بـ(المعنى الحرفي) أن يسلك مسلك تحقيق (الحرفية) بمشاهدة استنادها إلى (الاسمية) في (الوجود الاسمي) الحق، الذي هو وجود الخالق جل وعلا. ومن خلال مشاهدة الحرفية الذاتية للإنسان في نفسه؛ يشاهد آنئذ كل المخلوقات الكونية تصدقه، ويصدقها، إذ هي جميعا مجرد حروف، تدور في فلك الاسم الأعظم؛ وهكذا يجد صداها جميعا في نفسه، فيشعر بوجوده الحقيقي وقد تخلق بأخلاق كونية شمولية؛ وذلك بالسير إلى الله الذي له الاسم الأعظم، والأسماء الحسنى. وهو معنى (الانتساب الإيماني) أيضا كما درسناه بمحله[63].

لقد استعار بديع الزمان اصطلاحات النحاة من (حرفية) و(اسمية)؛ ليوظفها توظيفا تفكريا بديعا. إذ عبر بذلك عن أدق حقائق الوجود وألطفها، وبين بها إعجاز القرآن وإشاراته، في الأنفس وفي الآفاق، ورسم بها مسلكا عمليا خلال آيات القرآن للتخلق الكوني. وأصل دلالة (الحرف) نحويا: أنه غير مستقل بنفسه، في حاجة مستمرة إلى غيره. وهو ما يسميه النحاة ب(الافتقار). أما (الاسم) فهو مكتف بذاته على دلالته على المعنى[64].

من هنا إذن كانت الكائنات موجودة بالمعنى الحرفي لا الاسمي، بمعنى أنها غير مستقلة بنفسها، بل هي في حاجة مستمرة إلى خالقها، مفتقرة في بقائها إلى إرادته سبحانه. فالنظر إلى الموجودات على أن وجودها (حرفي) فحسب؛ يجعلها مجرد مظاهر تعكس تجليات الأسماء والصفات، من حيث إن تلك الموجودات مفتقرة إلى خالقها البارئ المصور العليم الخبير. ذلك أن تأمل (الحاجة) يدل على جمال (الغنى). ومن هنا كان من المستحيل أن تحمل الكائنات الحرفية حقيقة الاسم، إذ كل الحروف تقود إلى الاسم الواحد الأعظم. قال رحمه الله مجيبا عن أسئلة بعض طلاب النور: (أما سؤالك الثاني الذي يتعلق ببحث المعنى الاسمي والمعنى الحرفي، فمثلما أشارت كتب النحو عامة إليه في بداياتها، فقد وضحته توضيحاً كافياً بالأمثلة كتب علم الحقيقة كالكلمات والمكتوبات ويعّد من الإسراف الإسهاب في الإيضاح لمن يملك ذكاءً ودقة ملاحظة مثلك.

فإنك إذا نظرت إلى المرآة من حيث إنها زجاجة، ترى مادتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح أمامك حتى تدفعك إلى القول (**فتبارك الله احسن الخالقين**) (المؤمنون:14) بينما تبقى زجاجة المرآة أمراً ثانوياً.

النظرة الأولى تمثل (المعنى الاسمي) أي: زجاجة المرآة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها (معنى حرفي) غير مقصود. أما النظرة الثانية فصورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن معنى (اسمي) أما الزجاج فمعنى (حرفي). وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم أنه: دلّ على معنى في نسفه. أما الحرف فهو: ما دلّ على معنى في غيره.

فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات جميعها حروفاً، أي أنها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبّر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

أما نظرة الفلسفة الميتة فهي تنظر على الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزل قدمها إلى مستنقع الطبيعة)[65].

وبهذا النظر كان بديع الزمان يدرس الظواهر الكونية كلها ويتفكر فيها. قال: (فهذا الطريق على نهج القرآن ينظر إلى الكائنات أنها مسخرة لفاطرها الجليل، وخادمة في سبيله، وأنها مظاهر لتجليات الأسماء الحسنى، كأنها مرايا تعكس تلك التجليات. أي أنه يستخدمها بالمعنى الحرفي، ويعزلها عن المعنى الاسمي، من أن تكون خادمة ومسخرة

بنفسها. وعندها ينجو المرء من الغفلة، ويبلغ الحضور الدائمي على نهج القرآن الكريم. فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شئ)[66].

فقوله هذا: (فيجد إلى الحق سبحانه طريقاً من كل شئ) دال على أن تحقيق الإنسان المؤمن للمعنى الحرفي في النفس؛ اعتقادا وعبادة وتفكرا؛ هو الكفيل بأن يبلغ به إلى تحقيق العبودية الكاملة لله الواحد الأحد سبحانه، وهو الكفيل بتحقيق انتسابه إلى الوجود الحق، وأما قصد (الاسمية) في النفس فهو قصد إلى العدم عينه.

وإنما كل ذلك (أخلاق) و(تخلق). إذ منطلق تحقيق الحرفية قائم أساسا على نكران الذات، والتجرد من الشهوات، ومجاهدة (للأنا) التي هي سبب كل بلاء. وما ألطف قول النورسي في هذا: (فإذا تأمّلت في "أنا" بالمعنى الحرفي، صار لك عيناً تفهّمت ورأيت به كل ما في الكون؛ لأنه إذا جاءت المعلومات الآفاقية صادفتْ في "أنا" ما يصدقها. فإذا فهمتها انتهت وظيفة "أنا" وربوبيته الموهومة، ومالكيته المفروضة. فليرجع "أنا" من السّمكتية إلى الحبابية! وأما إذا نظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمي واعتقدته مالكاً، وخنت في الأمانة دخلت تحت (**وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّيها**)(الشمس:10)، إذ الأمانة التي تدهشتْ من حملها السماوات والأرض والجبال هي "أنا" من هذه الجهة، إذ منها يتولد الشرك والشرور والضلالات، إذ إذا تستَّر "أنا" عنك غلُظ، حتى صار حبلاً بلع وجودك، فصار كلك "أنا". ثم استغلظ بأنانية النوع والاستناد به؛ فيصير شيطانا يبارز أمر صانعه. ثم يقيس الناس، ثم الأسباب؛ على نفسه؛ فيقع في شرك عظيم. ففي هذا الوجه لو أرسلت عينك وفتحت كل الآفاق انغلقت في وجهك، برجوع عينك إلى نفسك؛ إذ ترى كلَّ شئ بلون ما في نفسك من "أنا". ولونُه في ذاته – في هذا الوجه – الشرك والتعطيل، ولو مُلئت الآفاق آيات باهرةً، وبقي في "أنا" نقطة مظلمة؛ طمَّت على الآيات!)[67]

إن هذا النص لهو من ألطف كلمات الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله! فقد ضمنه غرة معاني العبودية، وجوهر أصول التوحيد! وذلك ــ كما رأيت ــ بأسلوب إشاري رفيع! (الأخلاق) إذن بكل امتداداتها الكونية؛ إنما منطلقها: (أنا)! هذه هي القضية. (فليرجع "أنا" من السّمكتية إلى الحبابية!) ذلك هو بيت القصيد، وإن دونه لفل الحديد وقطع الوريد!

ولي كبدٌ مقروحة من يبيعني بها كبدا ليست بذات قروحِ؟
أباها علي الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيحِ؟

والمقصود بـــ(السمكتية): المعنى الاسمي، والمقصود بـــ(الحبابية): المعنى الحرفي. ذلك أن السمكة السابحة في الماء (ذات)، بينما الحُباب إنما هو نفاخات الماء وفقاقيعـــه، الـــتي ليس وراءها غير الهواء! فوجوده تبعي، لا ذاتي. وتحول السمكة إلى حباب يعني إنكارها لذاتها، وانتسابها في الوجود إلى الماء. فلا ترى الأشياء إلا من خلاله؛ تجريدا وتفريـــدا. وذلك عين التوحيد. بينما إصرارها على اسميتها يعميها عن إبصار الانتساب إلى بحرها، فلا ترى الأشياء إلا من خلال ذاتها! وذلك هو عين الشرك العظيم!

وإذن؛ (فليرجع **"أنا"** من السّمكتية إلى الحبابية!) ذلك ألطف مثال ـــ ولا مشـــاحة في الأمثال ـــ ساقه بديع الزمان لبيان الحقيقة الوجودية، والبعد الكوني للأخلاق.

فـــ(أنا) هي موضوع التخلق، وباب التربية، وسبيل المجاهدة؛ للوصول إلى الكونيـــة الخلقية. وإنما انـــزلقت قدم تلميذ الفلسفة في منطلق التفكر ومبدئه الأول هذا: (الأنا)، التي هي منطلق كل خير، ومنطلق كل شر، على حسب ما رَكّبْتَه عليه من (الاسمية) أو (الحرفية). قال رحمه الله: (إنَّ "أنا" له وجهان: وجه أخذته النبوة، ووجه أخذته الفلسفة.

فالوجه الأول: منشأ العبودية المحضة. ماهيته حرفية، ووجوده تبعي، ومالكيته وهمية، وحقيقته فرضية، ووظيفته: صيرورته ميزانا ومقياسا لفهم صفات الخالق. فالأنبياء هكذا نظروا إلى "أنا"، فسلموا الملك كله لله. وحكموا بأنه لا شريك له، لا في ملكـــه ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته. وبيده مقاليد كل شيء، وهو على كل شيء قدير. ومن هـــذا الوجه الشفاف الحي أنبت الرحيم جل جلاله شجرة طوبى العبودية، فأثمرت أغصـــانها المباركة في حديقة الكائنات، دانية قطوفها، متدليةَ ثمرات الأنبياء والمرسلين، والأوليـــاء والصديقين، المتلألئين كالنجوم في الظلمات!

وأما الفلسفة فنظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمي دون الحرفي، وبالوجود الأصـــلي دون التبعي، وزعموه مالكا بالحقيقة، وظنوه حقيقة ثابتة، وتوهموا وظيفته: تكمل ذاته بحـــب ذاته! فمن هنا تشعبت أنواع الشرك، وعلى رأس "أنا" نبتتْ شجرة زقوم الضلالة (...) فـــ"أنا" في العالم الصغير، كالطبيعة في العالم الكبير: كلاهما من الطواغيت!)[68].

فإذن؛ آل أمر الأمانة الكونية الكبرى إلى قضية واحدة؛ موقفا وسلوكا. هي: (أنا). كيف يمكن تربيتها حتى تتخلق بأخلاق القرآن؟ كيف يمكن إخراجها من الجزئية البشرية

الضيقة، إلى الاستخلافية الكلية، والأمانة الكونية الفسيحة؟ إن حديث عائشة رضي الله عنها في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه (كان خلقه القرآن)[69]؛ حديث محيل على الكون العابد لله الخاضع لسلطانه. أليس القرءان هو ترجمان الكون؟ أليس هو الثبت الكشاف عن أسراره؟ ثم أليس الكون هو كتاب الله المنظور؟ أليس هو برهانه المنشور؟ كما بينه بديع الزمان في غير ما موطن من رسائله[70]. إذن؛ التخلق بأخلاق القرآن هو تخلق بأخلاق الكون، السائر إلى الله عبر أفلاك العبادة؛ رغبا ورهبا، كما في قوله تعالى: (**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**)(الإسراء:44). وقال مخبرا عن ذوات الشعور من الأحياء: (**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**)(الأنعام:38ـ39).

إن إخراج (أنا) من طينيتها الخزفية الفانية؛ هو إخراج لها من (اسميتها) الوهمية؛ إلى حرفيتها المستندة إلى الحق الباقي سبحانه وتعالى. وهي لذلك في حاجة إلى تهذيب وتشذيب. حتى ترتقي إلى أعلى مراتب الكونية. وتتبوأ أرقى مدارج العبودية، كلما برهنت على حرفيتها؛ بالتجرد من ذاتها والفناء عنها؛ حتى لا تبقى إلا بالله. الاسم الحق وحده دون سواه في الكون كله. ذلك هو العلم الذي أوتيه الإنسان ليبرهن به على وحدانية الله سلوكا وعبادة. وذلك هو الخُلق العلي الرفيع، بل هو مفتاح الأخلاق كلها وسر أسرارها. وتأمل كيف أن الله جل جلاله يغضب غضبا شديدا على كل متكبر؛ ذلك أن التكبر هو سر غلو (الأنا) وإصرارها على اسميتها الوهمية. ولا انتقال لها إلى حرفيتها الفطرية؛ إلا بالتجرد الكامل من كل أنواع الكبرياء، والدخول في خُلق التواضع والخضوع. وليس عبثا أن أنذر الرحمن عباده بما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي قال: (قال الله تعالى : الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار!)[71]

خاتمة في أن الأخلاق مفتاح الإصلاح:

وبعد،

فإننا بهذا البحث المتواضع نستطيع الوصول ـــ إن شاء الله ـــ إلى نتيجة، فيما يتعلق بباب الخروج من الأزمة الراهنة، التي تكبل نهوض الأمة الإسلامية اليوم. وذلك أن الدارس لكليات رسائل النور، يمكن أن يثبت بسهولة؛ أن للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رأيا في الخلاف المشهور بين علماء الدعوة والإصلاح، في الفكر الإسلامي المعاصر، والذي مداره حول سؤالين إشكاليين، هما:

ـــ طبيعة الأزمة ما هي؟

ـــ ثم كيف الخروج منها؟

ومعلوم أن الأجوبة تضاربت في ذلك وتباينت، فمن داعية يرى أن الأزمة أزمة فكرية، إلى من يرى أنها أزمة روحية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو عسكرية... إلى غير ذلك من الاجتهادات والتصورات. ثم يختلفون بعد الاختلاف الأول في باب الخروج منها: أهو العمل السياسي الحزبي؟ أم هو العمل الثقافي العلمي؟ أم هو العمل الروحي الصوفي؟ ... إلخ. وربما اتفقت أقوال بعضهم على توصيف معين للأزمة، لكنهم يختلفون في تحديد باب الخروج كيف؟

إن بديع الزمان يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الأزمة اليوم أزمة أمانة! لكن ليس بالمعنى الفقهي للكلمة. بل هو بمعناها الكوني، الراجع إلى الوظيفة الوجودية للإنسان في القرآن، والتي هي عنوان الاستخلاف الرباني، في قوله تعالى: (**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**)(الأحزاب:72). ثم إن هذا المفهوم الشمولي الذي أعطاه الأستاذ النورسي للأخلاق؛ جعله يعتبرها هي باب الخروج من الأزمة؛ صلاحا وإصلاحا. إذ بصلاحها ينهض الناس بالأمانة، وبفسادها يتمردون عليها ويخونونها. فهي غاية ووسيلة في الآن نفسه، وهي مادة التربية، وهي مقصدها.

ولقد ألغى الأستاذ النورسي العمل السياسي ـــ بمعناه الضيق ـــ من الاعتبار في العملية الإصلاحية، وجعله من الهوامش والتوابع، لا من المنطلقات والأصول، في المشروع التجديدي للدين، منطلقا في ذلك من الطبيعة التشريعية للإسلام من جهة، ومن فقه الواقع السياسي المعاصر، واعتبار المآلات الاجتماعية من جهة أخرى. قال رحمه الله:

(إن نسبة الأخلاق والعبادة، وأمور الآخرة، والفضيلة؛ في الشريعة؛ هي تسع وتسعون بالمائة. بينما نسبة السياسة لا تتجاوز الواحدة بالمائة!)[72]

وفي هذا نقد واضح وصريح للتصورات السياسية الجزئية، التي حجرت العمل الإسلامي في زاوية وَسَلِيَّة، لا تفضي إلى غاية كونية.

إن الأخلاق في كليات رسائل النور هي جوهر العمل الديني. فمن خلالها خاطب الأستاذ النورسي أجيال ما بعد جيله وزمانه، وضمن للتدين امتدادا في المستقبل، بل ضمن له انتصارا على كل منظومات العولمة في كل أشكالها وكل مقولاتها.

وما أسعدنا أن نختم بحثنا هذا بكلمة صدرت عنه رحمه الله، أطلقها نداء كونيا في أثير الوجود، فلم تزل تطن في أذن العالم إلى الأبد، قال: (يا أبناء الوطن! لا تفسروا الحرية تفسيراً سيئاً كي لا تفلت من أيديكم ، ولا تخنقونا بسقي الاستعباد السابق، الفاسد؛ في إناء آخر! ذلك لأن الحرية إنما تزدهر بمراعاة الأحكام الشرعية وآدابها، والتخلق بالأخلاق الفاضلة!)[73]

تلك بصيرته التي أبصرت مستقبلات الحياة ببصائر القرآن؛ فكانت رسائل النور تبصيرا لمن لم ير؛ عسى ألا يكون من العَمين. يقول الحق جل وعلا: (**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**)(الأنعام:104).

* * *

الهوامش والإحالات:

(1) المثنوي العربي النوري: 218.

(2) الملاحق: 100.

(3) لابد من التنويه بأن بديع الزمان لا يهاجم الفلسفة بإطلاق، وإنما يهاجم قسمها الضار للاجتماع البشري. قال رحمه الله: (إن الفلسفة التي تهاجمها رسائل النور وتصفعها بصفعاتها القوية، هي الفلسفة المضرة وحدها، وليست الفلسفة على إطلاقها، ذلك لأن قسم الحكمة من الفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية البشرية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد السبل للرقي الصناعي، هي في وفاق ومصالحة مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لحكمة القرآن، ولا تعارضها، ولا يسعها ذلك؛ لذا لا تتصدى رسائل النور لهذا القسم من الفلسفة). الملاحق: 286.

(4) مفردات الراغب الأصفهاني: مادة: (خلق).

(5) مختار الصحاح: (خلق)

(6) رواه أحمد عن أبي الدرداء، مرفوعا. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 5390

(7) لسان العرب: (خلق)

(8) القاموس المحيط: مادة:(خلق).
(9) أفلاطون، سيرته وفلسفته: 142 إعداد أحمد شمس الدين.
(10) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور أبي ريان: 268ــ269
(11) ن. توماس الإكويني، تأليف الشيخ كامل محمد عويضة.
(12) ن. عمانويل كانط، تأليف الشيخ كامل محمد عويضة.
(13) حكمة الغرب: 207/2 وما بعدها. لبرتراند رسل.
(14) حكمة الغرب: 213/2.
(15) رواه مسلم
(16) رواه ابن سعد والحاكم عن أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: 2349
(17) إشارات الإعجاز: 285.
(18) إشارات الإعجاز: 266
(19) المكتوبات:607
(20) إشارات الإعجاز: 272
(21) رواه مسلم.
(22) الكلمات:741. ن. نحوه أيضا في المكتوبات: 393.
(23) اللمعات: 95
(24) المكتوبات: 393.
(25) ن. مصطلح القرآن، في مشروع (معجم رسائل النور)
(26) إشارات الإعجاز: 22/5، والمكتوبات: 267/2.
(27) المكتوبات: 236
(28) رواه الطبراني في الكبير: 430/12 وقال ابن حجر: رجاله ثقات، فتح الباري: 183/5، لكن الهيثمي ضعفه في مجمع الزوائد: 106/8. والمحفوظ هو قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله خلــق آدم علــى صورته) متفق عليه.
(29) الملاحق: 284.
(30) ن. مصطلح الكون، في مشروع (معجم رسائل النور)
(31) الكلمات: 642
(32) الكلمات: 643
(33) من مقدمة د.محسن عبد الحميد لإشارات الإعجاز: 8
(34) الملاحق: 234
(35) صيقل الإسلام: 518.
(36) الكلمات: 643ــ644.
(37) الكلمات: 476
(38) الكلمات: 476.

(39) الكلمات: 765
(40) الشعاعات: 247
(41) الكلمات: 159.
(42) اللمعات: 446
(43) صيقل الإسلام: 123.
(44) رواه الدارقطني بإسناد حسن، كما جاء في صحيح الجامع الصغير: 2328
(45) صيقل الإسلام/الخطبة الشامية: 532
(46) إشارات الإعجاز: 207.
(47) صيقل الإسلام: 446.
(48) الكلمات: 19
(49) الكلمات: 258
(50) صيقل الإسلام: 148
(51) الكلمات: 144.
(52) ن. مصطلح الانتساب، في مشروع (معجم رسائل النور)
(53) الكلمات: 106
(54) الشعاعات: 284
(55) صيقل الإسلام: 470
(56) رواه الطبري في تفسيره: 31/4، نشر دار الفكر بيروت لبنان: 1405هـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:4473.
(57) ن. مصطلح الإنسان، في مشروع (معجم رسائل النور)
(58) الكلمات: 63 ــ64
(59) الكلمات: 204
(60) سبق تخريجه.
(61) المكتوبات: 604
(62) ن. مصطلح الإنسان، في مشروع (معجم رسائل النور)
(63) ن. مصطلح الانتساب، في مشروع (معجم رسائل النور)
(64) ن. ألفية ابن مالك: "وكافتقار أصلا".
(65) اللمعات: 171 ــ 172
(66) الكلمات:561.
(67) المثنوي العربي النوري: 328.
(68) المثنوي العربي: 329
(69) رواه مسلم
(70) ن. مصطلح القرآن، في مشروع (معجم رسائل النور)

(71) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص):4311
(72) صيقل الإسلام: 446
(73) صيقل الإسلام: 467

* * *

المصادر والمراجع:

ـــ صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي. دار القلم بيروت. ط. الأولى: 1407هـ/1987م.

ـــ صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث بالقاهرة. ط. الأولى: 1412هـ/1991م.

ـــ صحيح الجامع الصغير وزياداته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي بيروت/ دمشق. ط. الثالثة: 1408هـ/1988.

– كليات رسائل النور تأليف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلر) للنشر، فرع القاهرة ط 2 بمصر 1412 هـ/ الموافق 1992 م. وتتضمن:

ـــ الجزء الأول : الكلمات
ـــ " الثاني : المكتوبات
ـــ " الثالث : اللمعات .
ـــ " الرابع : الشعاعات
ـــ " الخامس: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز.
ـــ " السادس : المثنوي العربي النوري .
ـــ " السابع : الملاحق .
ـــ " الثامن : صيقل الإسلام .
ـــ " التاسع : سيرة ذاتية .

ـــ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني. نشر دار المعرفة بيروت: 1379هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

ـــ القاموس المحيط للإمام مجد الدين الفيروزأبادي.

– لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور – دار صادر بيروت بلا تاريخ.

- مختار الصحاح لأبي بكر الرازي طبعة المكتبة الأموية بيروت: 1391هـ
- المفردات في غريب القرآن. تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. طبع شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر:1381هـ/1961م.
- أفلاطون سيرته وفلسفته إعداد أحمد شمس الدين. نشر دار الكتب العلمية بيروت. ط. الأولى: 1411هـ/1990م.
- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور محمد علي أبي ريان. دار النهضة العربية بيروت. ط. الثانية:1973م.
- توماس الأكويني الفيلسوف المثالي في العصور الوسطى. تأليف الشيخ كامل محمد عويضة. نشر دار الكتب العلمية بيرزت. ط. الأولى:1413هـ/1993م.
- حكمة الغرب تأليف برتراند رسل. ترجمة الدكتور فؤاد زكريا. سلسلة عالم المعرفة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت. العدد: 72 صفر/ربيع الأول:1404هـ. 1983م.
- عمانويل كانط شيخ الفلسفة في العصر الحديث تأليف الشيخ كامل محمد عويضة. نشر دار الكتب العلمية بيرزت. ط. الأولى:1413هـ/1993م.

موقف بديع الزمان سعيد النورسي من الحضارة الغربية

د. محمد بنتهيلة(*)

أدرك النورسي منذ منتصف القرن الماضي أن منظري الحضارة الغربية سيسعون إلى عولمة أسسها ومعالمها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية، فبين "أن هذه المدنية السفيهة المصيرة للأرض كبلدة واحدة، يتعارف أهلها ويتناجون بالإثم وما لا يعني بالجرائد صباحا ومساء، غلظ بسببها وتكاثف بملاهيها حجاب الغفلة، بحيث لا يخرق إلا بصرف همة عظيمة. وكذا فتحت لروح البشر منافذ غير محدودة نظارة إلى الدنيا يتعذر سدها إلا لمن خصه الله بلطفه." [1] منبها بذلك إلى اعتمادها على وسائل الإعلام المتطورة لنشر أخلاق الميوعة والخلاعة في العالم واستعمالها لكل أنواع التمويه والتلبيس لتبليد العقول وشغلها بالتافه من الأمور والساقط من الأعمال والخبيث من الأهداف. إذ بذلك يتمكن الغرب من استعباد البشرية وإخضاعها لنفوذه وسلطته.

فيقف بذلك النورسي موقف الناصح الأمين والعالم الخبير الذي يدعو المؤمن للتسلح بالإيمان القوي والعلم العميق والمعرفة الدقيقة ليكون على دراية بمكر الغرب وخداعه ولكي لا يسقط في حبائله ولا يجرفه تياره المزخرف بالنوادي الصاخبة والملاهي المزركشة والمتعفنة. ولذلك، حرص النورسي على تحليل قواعد وأسس المدنية الغربية وعلى نقد مقوماتها الفكرية والفلسفية مبينا آثارها السلبية وانحرافاتها الحضارية:

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، أكادير – المغرب

أولا: تصفية "الذات" قبل نقد "الآخر"

1- صحوة متأمل:

أقر النورسي بوجوب تصفية نفسه من اثر الفلسفات الأوروبية التي علقت بها قبل أن يبين أسباب حكمه على الحضارة الغربية بالسفاهة معلنا بذلك عن بداية مرحلة جديدة في حياته الفكرية والعملية. فقد صرح قائلا في المذكرة الخامسة من اللمعة السابعة عشرة: "حينما سار "سعيد الجديد" في طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوروبية الفلسفية وفنونها التي كانت مستقرة إلى حد ما في أفكار "سعيد القديم" إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة في تلك السياحة القلبية، فما كان من "سعيد الجديد" إلا القيام بتمخيض فكره والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة. فرأى نفسه مضطرا إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوربا لكبح جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوربا، فهي محاورة مقتضبة من ناحية ومسهبة من ناحية أخرى". [2] فقد كان منبهرا في المرحلة السابقة بالفكر الفلسفي وبقواعده العلمية والمنهجية ظنا منه أنها تساعد على معرفة حقيقة الوجود والإنسان وعلى تنمية وسائل الفهم والتحليل وعلى الإسهام في الابتكار والإبداع. لكن، كشف بعد ذلك أنه كان منخدعاً وأن لباس البحث العقلي المجرد لا يناسبه ولا يلبي حاجاته المعرفية والوجدانية. فقرر الانسلاخ منه انسلاخا كاملا. وقد تحكم في هذا التحول الجذري في حياته نضجه العلمي وخبرته المكتسبة وتفكيره العميق:

فقد عاش النورسي حياة مليئة بالنشاط العلمي والسياسي والتربوي، خاض تجربة التعلم والتعليم وتجربة الغربة والارتحال وتجربة الجهاد ضد المستعمر وتجربة التربية والتوجيه وتجربة التأليف والإبداع وتجربة المحنة والابتلاء. إذ تصلب مراسه وأثمر إدراكه وتفتحت بصيرته وقوي ذكاؤه، فانكشف له حقيقة طريقه انكشافا جليا وتحقق من أن ملك الإيمان بالله تعالى والتقرب إلى نفحاته وتجليات أسمائه الحسنى هو الذي يضمن سعادته في الدنيا والآخرة، وهو ما عبر عنه في موضع آخر بقوله: "ثم إن الإيمان قد بصرني بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العلم على شكل نعش وجنازة، إنها ليست كذلك، إنما هي انطلاق لروحي –التي هي أهل

للحياة الأبدية ومرشحة للسعادة الأبدية- من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد." [3] إنه لا شئ يمكن أن يعيده إلى اهتماماته وأنشطته وآماله في المرحلة السابقة، ولا شئ يمكن أن يقف في وجه التحول العميق الذي حدث في نفسه حين غمر الإيمان قلبه وتلهف وجدانه لنيل الإشراقات الربانية وللتنعم بالفتوحات الرحمانية. لقد بدأ يتطلع بشوق كبير إلى لقاء الله تعالى بعد تنبهه إلى انطلاق شرارة الشيب في شعره وبعد أن تصفح كثيرا من الوقائع والأحداث السياسية التي عايشها في ظل الإمبراطورية العثمانية. [4] وكذلك بعد أن نظر إلى التحولات العميقة التي طرأت في مجتمعه وبعد أن راجع علاقاته مع الناس التي لم تسلم من بعض الصدمات المؤثرة، خصوصا عندما أدرك "عدم الوفاء وفقدان الصداقة من صديق حميم، يعد من أوفى الأصدقاء " [5] فقد أصبح واثقا حين شعر بنداء القبر أن طريق الخلاص لا يكمن في الارتباط بالأشياء التي تؤول حتما إلى الفساد، ولا يكمن في الارتباط بالأشخاص الذين يلحقهم الفناء ولا يكمن في الانغماس في الملذات الدنيوية التي يعتريها الزوال، بل يكمن في الارتباط بالإيمان بالله تعالى الذي يضفي على حياة المؤمن سعادة روحية ويؤهله للقيام بالأعمال الحسنة وهو الذي سيضيء قبره ويجعل روحه فرحة ومطمئنة للقاء الله تعالى في الآخرة.

ومن ثم اقتنع النورسي في هاته المرحلة الجديدة من حياته بوجوب الاقتصار على ما يزكي إيمانه ويغذي روحه، علما منه بأن "الإيمان وسيلة للفوز بالحياة الأبدية ومفتاح السعادة الخالدة فينبغي إذا السعي لأجله. [6] فقرر ترك الملذات الدنيوية والمعارك السياسية وكل ما يكدر صفاء قصده ونيل هدفه، خصوصا عندما أدرك أن الناس في بلده قد تبينوا من قيمة علمه وحلمه واتخذوه موجها لهم في فهم قواعد الدين ومعرفة حقيقة الحياة.

2 – تهافت الفلسفة:

قام النورسي بتصفية دقيقة لنفسه وباختبار عميق لمعارفه فتبين من وجود تعارض كبير بين منهج الإيمان وبين منهج الفلسفة، وهو ما عبر عنه بقوله: "راجعت أول ما راجعت، تلك العلوم التي اكتسبتها سابقا، ابحث فيها السلوة والرجاء. ولكن كنت – ويا للأسف – إلى ذلك الوقت مغترفا من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظنا مني – ظنا خطأ جدا – أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنور الفكر، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روحي كثيرا، بل أصبحت

عائقة أمام سموي المعنوي" [7] فقد انبهر في مرحلة تكوينه العلمي بقواعد البحث الفلسفي ومناهجه الاستدلالية وأسسه المنطقية، سواء منها المناهج والأسس التي أبدعها اليونان أو التي أنتجها علماء الإسلام والتي أسهمت في تطور الفكر الغربي، معتقدا أنها تمكن العقل الإنساني من معرفة حقيقة الوجود والحياة والإنسان ومن حسن تحليل كثير من الظواهر الفكرية والاجتماعية. فقد أغوته الفلسفة بمصطلحاتها المزركشة وقواعدها المنمقة وتعابيرها الأخاذة قبل أن يصحو من غفلته ويتنبه إلى تهافتها وعجزها عن بيان الحقائق والتصورات التي تقوم عليها سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية. وقبل أن يتفطن إلى أن افتتانه بها قد أحدث حجابا على عقله منعه من الفهم الصحيح للحقائق الكونية، وكون غشاوة على روحه حرمه من تلمس كثير من الأنوار الربانية. فكان ملزما بالقيام بمجهود عقلي كبير ونشاط روحي عميق للتخلص من كل ذلك. وهو ما أشار إليه بقوله: "فغسلت أدران تلك المسائل الفلسفية وطهرت روحي منها- كما هو مبين في كثير من الرسائل. إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية يغرق روحي ويطمسها في الكائنات فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نورا ولا أجد قبسا، و لم أتمكن من التنفس والانشراح، حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقن "لا إله إلا هو" فمزق ذلك الظلام وبدده. فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان." [8] ذلك أن المبادرة لتطهير الروح وتنقية النفس تتطلب تركيزا كبيرا وتدبرا مضطردا وتفكيرا عميقا ومجاهدة تربوية هادئة، خاصة أن الداء قد استقر في وجدان سعيد فترة طويلة وأن مرارته قد تشربها كيانه بشدة. لكن عناية الله سبحانه ألهمته الاستناد إلى العقيدة الصحيحة التي أمدته ذلك التركيز وذلك التدبر وذلك التفكير وتلك المجاهدة بحيث تنبه إلى التلازم الحاصل بين الموازين المنظمة للكون وبين القلوب القادرة على الاستضاءة بإشراقات وإشارات الإعجاز فيها.

3 – غزالي القرن العشرين يتألق:

شاءت قدرة الله تعالى أن تتجدد تجربة شيخ الإسلام الغزالي المتوفي سنة 495هـ في القرن العشرين على يد بديع الزمان النورسي. فالغزالي نفسه قد نبه إلى فساد مذهب الفلاسفة وبين أنهم "على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد" [9] وخصص كتابه القيم " تهافت الفلاسفة" لتحليل ونقد آرائهم ومناهجهم وهو الذي خلص بعد طول تأمل وتفكير في خلواته إلى الاعتقاد أن "الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى

خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطـــريقهم أصـــوب الطـــرق، وأخلاقهـــم أزكـــى الأخلاق"[10] مؤكدا أن منهجهم المعتمد على ترسيخ الإيمان في القلوب وتزكيته بالذكر والإغراق في التعبد يمكنهم من كشف كثير من الحقائق الصحيحة الموافقة للشرع. أمـــا النورسي، فبعد معاناته الشديدة للتخلص من الفكر الفلسفي أقر بأن "غايـــة الطريقـــة وهدفها هو معرفة الحقائق الإيمانية والقرآنية، ونيلها عبر السير والسلوك الروحاني في ظل المعراج الأحمدي وتحت رايته، بخطوات القلب وصولا إلى حالة وجدانية وذوقية بما يشبه الشهود فالطريقة والتصوف سر إنساني رفيع وكمال بشري سام" [11] سائرا بذلك ســـير الغزالي ومسترشدا بعلمه وحكمته. فبالإيمان القوي والعلم الصالح والذكر الخاشع يدرك المريد أسرار الوجود وحقائق العبادات الشرعية ومقاصد الأحكام الربانية. فالتقدير الكبير الذي يكنه النورسي للغزالي هو الذي أفرز هذا التوافق بينهما إذ نجده يعتبره من ورثـــة الأنبياء [12] ويدعو إلى وجوب الاسترشاد بتعاليمه [13] بل، ويرى " أن مهمة رسائل النور وطلابها هي الحفاظ على مسلك أستاذهم حجة الإسلام الغزالي" [14] وهو مسلك بـــني على الإلمام الكبير بالعلوم النقلية والعقلية وعلى الفهم العميق للمقاصد الشرعية وعلـــى التصوف السني البعيد عن الانحرافات العقدية.

ثانيا: النصرانية تراث غربي نافع:

يعتقد النورسي أن مظاهر التقدم العلمي الذي تميزت به الحضارة الأوروبية الحديثة قد أسهمت فيه بعض التصورات الإيجابية في الفكر النصراني، فقد استثنى في انتقاده لمقومات الحضارة الغربية" أوربا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية بما توصلت إليه من صناعات وعلوم وتخدم العدل والإنصاف"[15] فلعله ربط بين مضامين بعض النصوص في الإنجيل التي تدعو إلى التمسك بالحق ورحمة الضعفاء وإلى السلام ونفع الناس والعفو عنهم وإلى الإخاء والمساواة [16] وبين سعي بعض علماء أوروبا إلى الاجتهاد والبحث عن كسل الوسائل التي تساعد على رقي وازدهار الحياة البشرية، مخالفا بذلك بعض المفكرين المسلمين المحدثين الذين لم يجدوا في النصرانية دعوة إلى العلم والرقي الحضاري [17] .

وبالإضافة إلى ذلك يرى النورسي أن اهتمام أوربا بالتقدم التقني والعلمي وخدمتـــها للجانب المادي في المجتمع الغربي لم يوقعها في التنكر المغرض للفكـــر الـــديني ولتعـــاليم النصرانية، بل "إن أوربا متعصبة بدينها" [18] بحيث إن "نقطة الاستناد، هي مدنية أوربـــا

التي هي معسكر "كتلة مسلحة" وكنيستها العظيمة، وهي مستعدة في كل آن أن تـــنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديهم من كل صوب [19] إذ يستحضـــر النورسي الدعم المادي والمعنوي الكبير الذي مدت به الأنظمـــة الأوربيـــة الحمـــلات التنصيرية في شتى بقاع العالم ويدرك أن كثيرا من منظري الحملة الاستعمارية الغربية على العالم الإسلامي كانوا يعتقدون أنها استمرار للحملة الصليبية.

وتجدر الإشارة إلى أن إقرار النورسي باستفادة الحضارة الغربية من تعاليم النصرانية لا يعني أنه يؤمن بصحة عقائدها، بل نجده يشير إلى التحريف الذي لحق الإنجيل من قبـــل الرهبان [20] ويؤكد على فساد عقيدة النبوة التي تمنح في نظره "أهمية للوســـائط وقيمـــة الأسباب، فلا تكسر الغرور والتكبر بل يسند قسطا من الربوبية الإلهيـــة إلى الأحبـــار والرهبان" [21] ولا تقاوم الأنانية باسم الدين، بل تمنح الأنانية نوعا من القداسة، وكأنهـــا وكيل مقدس عن سيدنا عيسى عليه السلام" [22] تأكيدا منه على الموقف القرآني الـــذي يفرق بين النصرانية الحقيقية التي جاءت على يد نبي الله تعالى عيسى عليه السلام والـــتي توافق عقيدة التوحيد الإسلامية وبين النصرانية المعتمدة في الكنائس التي تضـــفي علـــى الذات الإلهية صفات التجسيم وتطعن في قيمة العبودية الخالصة لله تعالى القائمة علـــى الارتباط المباشر بين الحق سبحانه وبين عباده.

ثالثا: الحضارة الغربية حضارة مادية:

يرى النورسي أن الحضارة الغربية قد "تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفســـدت بالمادية الجامدة. وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها،وتوهمت مســـاوءها فضـــائل، فساقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة"[23] فقد انحرف الفكر الأوربي عن التصور الديني للوجود واعتقد كثير من منظريه أن الطبيعة أوجدت نفسها بنفســـها أو وجدت عن طريق الصدفة وحاولوا تسخير الثروات الطبيعية والإبداعات الإنسانية لخدمة الجانب المادي في الحياة والجانب الغريزي الشهواني في الإنسان. وينبه النورسي بذلك إلى التوجه الفلسفي الذي ساد في المعاهد والأكاديميات الغربية منذ القرن الســـادس عشـــر الميلادي القائم على وجوب فهم الحقائق الوجود وتحليل خصائصه اعتمادا على القواعد الرياضية والفيزيائية والبيولوجية التي يتوصل إليها بواسطة الدراسات المختبرية الدقيقـــة

والتجارب المادية والحسية بعيدا عن التصورات الدينية النصرانية. مما مهد لبروز وتطور التيار العقلاني التنويري الداعي إلى إخضاع الدين للعقل وإلى عدم الربط بين الألوهية والخلق والتدبير وبين التشريع وسن القوانين المنظمة للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية [24] لكن لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل مال الفكر الأوربي في بداية القرن التاسع عشر إلى تمجيد الطبيعة على حساب الدين والعقل وإلى ازدراء المعرفة الدينية الغيبية لأنها- في رأي الوضعين- مغرقة في المثالية ومخالفة للمعرفة الحقيقية العلمية الكامنة في الواقع والحس [25] فجاءت بعد ذلك الفلسفة الماركسية داعية إلى تقديس المادة وجعلها أساس وجود الموجودات وإلى إنكار وجود إله للكون معتبرة الدين تخديرا للبشر وتكريسا للظلم في المجتمع.[26]

وكانت نتيجة سيادة المذاهب الطبيعية المادية في الفكر الأوربي حسب رأي النورسي هو تبني النظم الحضارية التي تقيس رقي الإنسان بناء على تلبية مطالبه المادية دون الالتفات إلى نبل الأخلاق وصيانة الأعراض وسيادة العدل ولذلك وسم الحضارة الأوروبية بقوله "أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود! ترى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟.. أي سعادة يمكنك أن تضمني لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل يمكن أن يطلق لمن روحه وقلبه يعذبان في جهنم، وجسمه فقط في جنة كاذبة زائلة.. أنه سعيد؟ [27] فسعادة الإنسان الدنيوية والأخروية تتحقق حسب تصور النورسي بالإيمان القوي بالله تعالى وبالإقرار بربوبيته للعالم وبالامتثال لتعاليمه وتوجيهاته، علما منه بأن تغذية الكائن الروحي فيه هي أساس طمأنينته وراحته النفسية وهي تتم عنده بتصفية القلب بحب الله سبحانه وذكره وشكره وحسن عبادته وبالإغراق في أعمال الخير والبر والإحسان. ولذلك أقر بأنه حين غفل الإنسان الغربي عن هذه النفحات الربانية والإشراقات الرحمانية اسود قلبه وخبث وجدانه ولاحقه الضنك من كل جانب وصاحبه الملل في أغلب أوقاته، إلا أنه عوض أن تتفطن أوروبا لأسباب أسقامها الحقيقية وتقف على أدوائها وتنتفع بها، بحثت عن علاجها فيما يدمر كيانها، مما دفع النورسي إلى مخاطبتها قائلا: "... ثم أدركت أن هذه الحالة داء عضال لا دواء له إذ يهوي بالإنسان من ذروة

أعلى عليين إلى درك أسفل السافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها ولا عـــلاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاهيك الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحس وتخدير الشعور مؤقتا، وكمالياتك المزخرفة وأهوائك المنومة فتعسا لك ولدوائك الذي يكون القاضـــي عليك" [28] فقد افتتن الأوربي بالشهوات الدنيوية والملذات الغريزية وفضل الســـقوط في الحياة الدوابية المقدسة للأكل والشرب والجنس واللهث وراءها كما يلهث الكلاب على العظام النتنة، متأثرا بالتصورات العبثية الماجنة المعارضة للعفـــة والطهـــارة والأخـــلاق الفاضلة، وحين أحس بالران المغلف لقلبه وبالانقباض المتحكم في نفســـه ســـارع إلى الارتماء في أحضان الخمور والمخدرات لإتلاف فكره وإلهاء عقله وإطفاء يقظته مستعينا في ذلك بالرقص الصاخب في نوادي الفسق والفجور إلى أن سقط في الإدمان والشذوذ وافتقد طعم الحياة السعيدة فكان لهوه حماقة وتحضره سفاهة ورقية ندامة. ولذلك وصفه النورسي بقوله: "إن الذي يتلقى الدرس منك ويسترشد بهـــديك يصـــبح "فرعونـــا" طاغية... ولكنه فرعون ذليل إذ يعبد أخس الأشياء، ويتخذ كل شئ ينتفع منه ربا له.

وتلميذك هذا "متمرد" أيضا... ولكنه متمرد مسكين إذ لأجل لذة تافهة يقبل قـــدم الشيطان ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل والهوان.

وهو جبار "ولكنه عاجز في ذاته لأنه لا يجد مرتكزا في قلبه يأوي إليه" [29] فقد ربط بين الرقي والتحضر والفهم العقلاني للحياة وبين الثورة ضد كل التصورات والأخـــلاق والأعراف والقيم التي تمنعه من إرضاء نزواته المحرمة فظن أن حريته لـــن تتحقـــق إلا إذا شعر بالاستغناء عن كل موجود وعن كل معبود حتى لو كان ربه الذي خلقه وأخرجه للوجود. إلا أنه لم يدرك أنه سقط في عبادة المادة وتقديس المنفعة وإجلال الأشـــياء، إذ أصبح عبدا لمخدراته وخموره ولا يستطيع التحرر من مستلزماتها الخبيثة ومقتضياتها النتنة "وهي تتمادى في تهييج نار الاسراف والحرص والطمع [30] ولا تترك للمفتتن بها سبيلا إلى الاهتمام بالفضائل والإشتغال بالمكارم. ونظرا للخل الذي أحدثته الماديـــة الطبيعيـــة في الفكر الأوربي – بل وفي الفكر الإنساني – حاول النورسي إبطال أسسها بقولـــه: "إن الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون ذلك الأمر الموهوم الذي ليس له حقيقة، إن كان ولا بد أنها مالكة لوجود حقيقي خارجي فإن هذا "الوجود" إنما هو" صنعة صانع ولن يكـــون صانعا، وهو نقش ولن يكون نقاشا، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكما وشريعة فطرية

ولن يكون شارعا، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقا، وفطرة منفعلة ولن يكـــون فاطرا فاعلا، ومجموعة قوانين ولن يكون قادرا ومسطر ولن يكون مصدرا" [31] فيرى أن تأليه الطبيعة وتقديس المادة جاء نتيجة إنكار وإجحاد كثير من الحقائق الإنسانية المتجلية بوضوح في الوجود. إذ إن دقة صنع العالم والحفاظ على توازنه وعظمة خلق المخلوقات وتنوع مكوناتها وأشكالها، كل ذلك يدل دلالة قاطعة انه يستحيل على المخلوقـــات أن توجد نفسها بنفسها أو أن توجد عن طريق الصدفة لأن العاقل الذي سلم تفكيره مـــن الأهواء والنزوات حين يتدبر الكون يتحقق من استلزامه وجود خالق مدبر متصف بكل صفات الكمال ومنزه عن كل صفات النقص وهو الحق سبحانه ويتبنى بذلك النورسي أهم الأدلة التي اعتمدها علماء الإسلام لإثبات وجوب افتقار العالم للخالق سبحانه وهي دليل الاختراع ودليل النظام ودليل التوازن التي جمعها بعضهم في دليل الآيات،أي آيات الله تعالى في الكون. [32] كما تبنى النورسي بالإضافة إلى ذلك دليل الحدوث الذي ارتكز عليه المتكلمون [33] لتأكيد وجوب وجود محدث للعالم، فنبه إليه بقوله: "أيها المســـكين المفتون بالطبيعة! ما دامت طبيعة كل شئ مخلوقة كالشي نفسه لأن تكونها محدث – غير قديم- وعليها علامة الصنعة والإتقان، وإن سبب وجود هذا الشيء الظاهري هو أيضـــا مصنوع حادث ولما كان وجود أي شئ مفتقرا إلى وســـائل وآلات وأجهـــزة كـــثيرة جدا... فلا بد من قدير مطلق القدرة ليخلق تلك الطبيعة في الشيء، ويوجـــد ذلـــك السبب له... "[34] مثيرا بذلك إلى أن الاختلاف الحاصل في أعراض كـــل المخلوقـــات المؤلفة من الجواهر وثبوت تغير خصائصها وألوانها وأشكالها يدلان على حدوثها نظـــرا للتلازم الحاصل بين التغير والحدوث وتلك الجواهر نفسها لابد أن يكـــون محدثـــة لأن الأعراض الحادثة هي التي تقوم بها وتميزها عن غيرها، وما قامت به الحوادث لابـــد أن تكون محدثا، فالقديم وحده المتصف بالأولية، هو الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى غـــيره ليتحقق وجوده. فكل المخلوقات محدثة ومفتقرة إلى محدث ينقلها من العدم إلى الوجود ولا يستطيع أحد الإدعاء أنه خلق نفسه بنفسه أو يتحكم فيها تحكما مطلقا، ولذلك رد النورسي على من تنكر لهذه الحقيقة بقوله: "... وأوضح دليل عليه هـــو أن أشـــرف الأسباب وأوسعها إرادة واختياراً هو الإنسان والحال ليس في يد اختياره ولا في دائـــرة اقتداره من أظهر أفعاله الاختيارية من الأكل والكلام والتفكر، إلا جزء واحد مبهم من

بين المائة" [35] لأن من لا يقدر على التحكم في خلقه وموته وفي خلقتـــه وتكوينـــه وفي شقائه وفرحه وفي رزقه وقدره وفي غير ذلك من الأمور الخارجة عن إرادته وتصـــرفه لا يسعه إلا الانقياد والاستسلام لمن تكفل بذلك وقدره تقديرا، وهو الحق سبحانه. وسبب عدم استجابة أوروبا لذلك الانقياد وذلك الاستسلام نعتها النورسي بقوله: "فيا أوربا! ما ورطك في هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقـــد نسيت بذكائك هذا ربّ كل شيء وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعـــة إلى الأســـباب والطبيعة الموهومة! [36] فلم يزدها ارتماؤها في أحضان الفكر المادي إلا ضلالا، علما بأنه سبحانه هو المتحكم في الأسباب والمسببات وهو الذي نسق بين العلل والمعلولات وفق الموازين التي قدرها بين العناصر والمكونات، سواء منها الموازين الفيزيائية أو الرياضية أو الكميائية أو البيولوجية.

رابعا: الحضارة الغربية حضارة صراع وعنصرية:

أدرك النورسي أهمية الإخاء والمساواة في بناء المجتمع الإنساني السليم، لكنه حـــين حلل النظام الاجتماعي الغربي وجده عكس ذلك "فالمدنية الحاضرة تؤمن بفلسفتها: إن ركيزة الحياة الاجتماعية البشرية هي "القوة" وهي تستهدف "المنفعة" في كـــل شـــئ. وتتخذ الصراع دستورا للحياة. وتلتزم بالعنصرية والقومية السلبية رابطة للجماعات" [37] فقد تحكم – في رأيه – نظام الغاب في المجتمع الغربي ومنحت فيه السلطة للقوي بمالـــه وجاهه وعشيرته على حساب الضعيف والمسكين وأصبحت لغة المصالح هي المتداولة فيه بين الأفراد والجماعات والأحزاب ولو كان ذلك على حساب بعض الفئات أو بعـــض القيم الحميدة، فتحول بذلك إلى حلبة للصراع والتنافس والتسابق إلى تحقيـــق المنـــافع والثروات والأغراض ولو كان ذلك على حساب الأخلاق الفاضلة والمعاملات النظيفة. ولعل النورسي يستحضر بعض الفلسفات وبعض النظريات القائمة على "مبدأ الصراع" التي أسهمت في توجيه الفكر الغربين مثل الفلسفة الهيجيلية [38] التي اعتبرت نظام الحضارة الإنساني قائما على الصراع بين جوانب الضعف وبين جوانب القوة فيه وفـــق "مبـــدأ النقيض" الذي استفادت منه فيما بعد الفلسفة الماركسية الـــتي أقـــرت بـــأن النظـــام الاجتماعي والاقتصادي الإنساني يقوم على الصراع الطبقي، ومثل الفلسفة الداروينيـــة التي أسست على "الصراع على الوجود وبقاء الأصلح" [39] سواء تعلق ذلك بالإنسان أو

بالكائنات الحية. وقد نتج عن ذلك سيطرة الأنانية في الحياة الأوربية لأن "كل كائن حي مالك لنفسه، ابتداء من أعظم ملك وانتهاء إلى اصغر سمك. كل يعمل لذاته فقط ولأجل نفسه فحسب، ولا يسعى أحد إلا للذته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة فغاية همته وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته"[40] إذ سعى الإنسان الغربي لتكثير ثرواته دون أن يهتم بالفقراء، واهتم بتلبية جميع رغباته دون أن يكترث بالمحرومين. فالحياة الرغيدة قدرت في تصوره للغني والقوي والذكي والمحظوظ ومن لم يكن كذلك، فلا بأس أن تدوسه الأقدام ويعيش مهمشا مكتفيا بالفتات والقشور. وبذلك انتشرت في المجتمع الأوربي " نوازع الإسراف والسفاهة محل بوادر الاقتصاد والقناعة" [41] لأن تلبية المطالب والثروات لا حد لها ولأن عين الإنسان الغربي المترف لن تملأ إلا بالتراب.

ويرى النورسي أن الأنانية التي انتشرت في المجتمع الأوربي قد تغذت بالنزعات القومية القائمة على التمييز العرقي واللغوي والتي كانت سببا في نشوب حروب مدمرة، إذ إن "شعوب أوروبا لما دعوا إلى العنصرية وأوغلوا فيها في هذا العصر نجم العداء التاريخي المليء بالحوادث المريعة بين الفرنسيين والألمان، كما أظهر الدمار الذي أحدثته الحرب العالمية، مبلغ الضرر الذي يلحقه هذا الفكر السلبي للبشرية" [42] وذلك لأن كل قومية تدعي أن عرقها هو أرقى الأعراق وأن جنسها هو أنبل الأجناس وأن لغتها هي أسمى اللغات، وتريد اعتبارا لذلك أن تخضع لسلطتها جميع الأعراق والأجناس، فتسخر لتحقيق تفوقها جميع الوسائل بما فيها الوسائل العسكرية، فيؤدي ذلك كله إلى إزهاق الأرواح وتدمير الممتلكات وتضييع المنافع وكأن الناس قد أوجدهم سبحانه للتناحر والتنافر وللانتصار للعصبيات، ولم يوجدهم للتعارف والتعايش.

وارتباطاً مع ذلك، بين النورسي" أن المدنية الفاسقة أبرزت رياء مدهشا يتعذر الخلاص منه على أصحاب المدنية، إذ سميت الرياء بـ (شان وشرف) وصيرت المرء يرائي للملل ويتصنع للعناصر كما يراني للأشخاص، وصيرت الجرائد دلالي له، وجعلت التاريخ يصفق ويشوق بالتصفيق وأنست الموت الشخصي بحياة العنصرية المتمردة بدسيسة الحمية الجاهلية الغدارة" [43] بحيث غرس التعصب للقوميات في الإنسان الأوروبي مرض حب الظهور الذي جعله عبدا للمظاهر الخادعة والدعاية الكاذبة والمناورة الذميمة، يحاول بكل جهده فضح سلبيات وهفوات أبناء القوميات والعصبيات الأخرى

التي تنافسه وتعاديه، ويعمد إلى إخفاء نقط ضعفه ومواضع سقوطه وإلى تضخيم وتفخيم بعض امتيازاته وإنجازاته معتمدا في ذلك على أقلام الوصوليين ونشرات المخدوعين الذين يتقنون المدح الكاذب والتنميق الماكر فقد وقع امتزاج بين الأنانية والعنصرية والريـــاء في نفسية الأوربي وذابت فطرته الأصلية وانمحت مبادرته المخلصة.

خامسا: إبطال تقليد الغرب:

تفطن النورسي إلى خطورة تقليد الغرب على المسلمين فأشار بقوله" فيا أسفي! ويا ويل من ضل بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارة أولئـــك الـــذين يقلدونهم تقليدا أعمى ويتبعونهم شبرا بشبر وذراعا بذراع.

فيا أبناء هذا الوطن لا تحاولوا تقليد الأفرنج! وهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا الشنيع وعدواتهم اللدودة، تتبعونهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب أفكارهم الباطلة؟ وتلتحقون بصفوفهم، وتنظمون تحت لوائهم بلا شعور؟ فأنتم بهـــذا تحكمـــون علـــى أنفسكم وعلى إخوانكم بالإعدام الأبدي... كونوا راشدين فطـــنين! إنكـــم كلمـــا اتبعتموهم في سفاهتهم وضلالتهم ازددتم كذبا وافتراء في دعوى الحمية والتضحية، لأن هذا الاتباع استخفاف بأمتكم واستهزاء بملتكم"[44] إذ يحذر تحذيرا شديدا من الانخـــداع بمظاهر الحياة الغربية البراقة وأزيائها الفاتنة وينبه إلى السم الكامن في مبادئها الذي يـــأتي على مكارم الأخلاق وعلى الاطمئنان الروحي للإنسان، علما منه بأن علماء الإسلام قد أجمعوا على إبطال التقليد الأعمى القائم على إتباع آراء وتصورات معارضة في أسســـها ومقاصدها للشرع ومخالفة للتعاليم التي تحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخـــرة لأن الله تعالى قد ميز الإنسان بالعقل حتى لا يكون إمعة منعدم الشخصية والمســـؤولية. ويـــرى النورسي أن تقليد المسلم للمستعمرين الغربيين وعملائهم في بعض الممارســـات الخبيثـــة وآرائهم الكفرية بالرغم من اعتدائهم الحاقد على الشعب التركي المسلم يعد استســـلاما لسلطتهم وركونا إلى ظلمهم واعترافا بغزوهم القائم على المكر والقهر. بحيث يستحيل – في نظره – على المستعمر (بفتح الميم) أن يقاوم الإفرنجي المستبد وهو يفكر بتفكيره أو يتوق إلى منهجه في الحياة أو ينظر إليه نظرة إجلال وتقدير أو كذلك "يحث المســـلمين ويشوقهم على حطام الدنيا ويسوقهم قسرا إلى صنائع الأجانـــب والتمســـك بأذيـــال

رقيهم"[45] فهو يرى أن الاستعمار لا يتجلى فقط في الجانب العسكري بل لـــه جانـــب فكري يسعى من خلاله إلى محو هوية الشعوب المسحوقة وإلهائهـــا بـــالأمور الحقـــيرة وبالأعمال التافهة، وله جانب اقتصادي يهدف بواسطته نشر بضـــائعه الاســـتهلاكية ومنتوجاته الصناعية ليتمكن من تزيين صورته في أنفس المقهورين فيظنوا أنه ناقل حضارة ورقي وحامل تنمية وازدهار، فينصرفوا عن مجابهته ويستجيبوا لخططه ومناهجه. لقد أراد النورسي بهذا النقد للفكر الاستعماري أن لا تنشأ في المجتمع التركي ما سمـــاه المفكـــر المسلم مالك بن نبي بعد ذلك ب "القابلية للاستعمار" [46] التي يصبح معهـــا المســـتعمر (بفتح الميم) مستلبا ومهيأ للاستعباد.

وإذا كان الانبهار بالتقدم العلمي عند الأوروبين سببا يدفع المسلمين لتقليدهم، فقد حرص النورسي على بيان الأسباب الموضوعية التي ساعدت على ذلك التقدم، فأوضـــح أن "الوضع الفطري لأوروبا التي هي كنيسة النصرانية عامة، ومنبع حياتها، فهي ضـــيقة جميلة تملك الحديد، متعرجة السواحل تلتف فيها الأنهار والبحار التفـــاف الأمعـــاء في الجسد، مناخها بارد، نعم، إن أوروبا على الرغم من كونها عشر الخمس للكرة الأرضية، فإنها جذبت ربع البشرية نحوها بلطافه مناخها الفطري" [47] فتمكنت بفضل ذلك مـــن توفير المنتوجات الفلاحية المتنوعة ومن استغلال الثروات المنجمية استغلالا حسنا ومـــن التواصل بين بلدانها وسكانها برا وبحرا وجوا، بحيث لو كانت أراضي أوربـــا واســـعة الأرجاء مهددة باستمرار بالجفاف- كما هو الشأن بالنسبة لبلدان الجنوب- لما كانـــت قبلة للهجرة والاستقرار لفئات كثيرة من الناس. علما بأن "اجتماع الأفراد الكثيرين يولد الحاجات، فلا يستوعب إنتاج الأرض تلك الحاجات التي تتزايد بأسباب كثيرة كالتقليد وغيره ــ ومن هنا تصبح الحاجة أم الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع معلم العلم، والضيق الروحي مولد السفاهة" [48] فقد كان علي العقل الأوروبي أن يجتهد ويبدع حتى يتمكن من تلبية المطالب المختلفة والقدرة الشرائية المتزايدة لشريحة متنوعة من ســـكان أوربا الطامحين إلى العيش الرغيد والحياة الراقية ومسايرة التطور العلمي، مما دفع المبتكرين والمهندسين إلى إنجاز أدق الاختراعات وأحسن الإبداعات وأضخم المصنوعات لاكتساح الأسواق وتنمية الثروات وتطوير الاقتصاد، وهم الذين أدركوا أن ترف الإنسان الأوربي متقد وأن إسرافه مشتعل وأن ملذاته لا حدود لها. فبدت أوربا قوية بصناعتها العسكرية ومنتوجاتها الاستهلاكية وتجارتها الكاسحة.

فليس هناك عند النورسي أي مسوغ يدفع المسلم للانسلاخ عن معتقداته ويجعله ينخدع بدعاة التغريب الذين "سكروا باحتراصات عجيبة وتفرعنات غريبة، فجاءوا يدعون المسلمين إلى اتباع عادات الأجانب، وترك شعائر فيها شعور وإشعار بأنوار الإسلام" [49] فمقياس الاتباع عنده هو التوافق مع التعاليم الإسلامية ومقاصدها النبيلة والالتزام بالشعائر الربانية ونفحاتها الروحانية، وما دام الغربيون واتباعهم قد تنكروا للدين والتدين فإن السالك لطريقهم لن يكون مآله إلا الشقاء والحرمان.

ومن ثم، رغبة من النورسي في إفحام دعاة التغريب، فقد عمد إلى بيان المقاصد الأساسية لبعض الأحكام الشرعية التي ادعوا أنها مخالفة لمبادئ الحرية والمساواة والحداثة التي أسست عليها الحضارة الغربية، فردا على معارضتهم لتعدد الزوجات أشار قائلا"... فما دام الزواج للتكاثر وإنجاب النسل ولبقاء النوع حكمة وحقيقة، فلا شك أن المرأة التي لا يمكن أن تلد مرة واحدة في السنة لا تكون خصبة إلا نصف أيام الشهر وتدخل سن اليأس في الخمسين من عمرها لا تكفي الرجل الذي له قدرة على الإخصاب في أغلب الأوقات حتى وهو ابن مائة سنة.لذا تضطر المدنية إلى فتح أماكن العهر والفحش"[50] فليس – في رأيه- في إباحة الإسلام للتعدد احتقار للمرأة أو تقييد لحريتها أو حصر لمهمتها في تلبية رغبات الرجل الجنسية، بل يعتقد أن ذلك يتماشى مع دعوة الإسلام الحثيثة إلى تكثير النسل وتقوية سواد المسلمين حتى يكونوا أمة قوية بمبادئها وبعدد أبنائها وقادرة على الدفاع على حوزة الإسلام، ولذلك اعتبر إقامة الغرب لمؤسسات تنظم الممارسات الجنسية المحرمة، تتحول فيها بعض النساء إلى "مراحيض" يفرغ فيها الفساق شهواتهم مقابل دراهم معدودة بديلا لإباحة الإسلام لتعدد الزوجات.

وإذا كان المنبهرون بالحياة الغربية ينتقدون بشدة مقتضيات قوله تعالى "**للذكر مثل حظ الأنثيين**" (النساء:11) فإن النورسي يرى " أن أغلب الأحكام في الحياة الاجتماعية إنما تسن حسب الأكثرية من الناس، فغالبية النساء يجدن أزواجا يعيلونهن ويحمونهن، بينما الكثير من الرجال مضطرون إلى إعالة زوجاتهم وتحمل نفقاتهم" [51] فالأب ملزم بالنفقة على بنته، وإذا تزوجت وجبت النفقة على زوجها وكذلك نفقة نساء المسلمين موكولة إلى إخوانهن أو أقربائهن أو إلى الجماعة المسلمة إذا لم يجدن من يعولهن حتى لا يصبحن عرضة للضياع والانحراف وتتحقق كرامتهن وتزكية الإسلام لهن فيكون

حصولهن على نصف ما يحصل عليه الرجل من الإرث تأكيدا للمساواة بينهن وبين الرجال وليس هضما لحقوقهن.

وأما قول المقلدين للغرب أن حجاب المرأة يعد إقبارا لأنوثتها، فإن النورسي يرى" أن القرآن يأمر النساء أن يحتجبن بحجاب الحياء رحمة بهن وصيانة لحرمتهن وكرامتهن، ولكيلا تهان تلك المعادن الثمينة معادن الشفقة والرأفة وتلك المصادر اللطيفة للحنان والرحمة تحت أقدام الذل والمهانة ولكي لا يكن آلة لهوسات الرذيلة ومتعة تافهة لا قيمة لها" [52] فهو يعرف أن الفساق من الرجال الذين في قلوبهم مرض يريدون كشف مفاتن النساء وإظهارها في أحسن زينة للاستمتاع بالنظر إليهن وإغوائهن حتى يستجبن لمطالبهم الشهوانية فمطالبتهم بنزع الحجاب تفرضه الرضوخ لأنانيتهم واشمئزازهم من العفة والطهارة.

وبناء على ذلك يستنتج النورسي "أن المدنية وحكمة الفلسفة والآداب الأجنبية التي هي نتائج أفكار الجن والإنس وحتى الشياطين وحصيلة أعمالهم هي في دركات العجز أمام أحكام القرآن وحكمته وبلاغته" [53] لأن من أكرم الإنسان بالإيجاد والخلق في أحسن تقويم هو الكفيل وحده تعالى بسن التشريعات والأحكام التي تضمن رقيه واطمئنانه في الحياة، علما بأن المتدبر لمقاصدها الاجتماعية والاقتصادية لا يجد ذريعة تخول له تشرب التصورات الفكرية الغربية والانغماس في مقتضياتها المتعفنة.

بهذا كله، يظهر أن الغاية من نقد النورسي للحضارة الغربية هي ترسيخ التصور الإسلامي للحضارة الإنسانية الراقية، فقد أشار بقوله "أما حكمة القرآن فهي تقبل "الحق" نقطة استناد في الحياة الاجتماعية بدلا من القوة" وتجعل" رضى الله ونيل الفضائل "هو الغاية والهدف بدلا من "المنفعة" .. وتتخذ دستور "التعاون" أساسا في الحياة، بدلا من دستور "الصراع" .. وتلتزم رابطة "الدين والصنف والوطن لربط فئات الجماعات بدلا من العنصرية والقومية السلبية".. وتجعل غاياتها "الحد من تجاوز النفس الأمارة ودفع الروح إلى معاني الأمور وتطمين مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل العليا لجعل الإنسان إنسانا حقا" [54] فالنظام الحضاري الإسلامي عند النورسي يضمن حقوق جميع الفئات في المجتمع بما فيهم الفقراء والضعفاء ولا يتركها عرضة للأهواء والنزوات البشرية بل يجعل الالتزام بالواجبات وأداء الحقوق في المدنية الإسلامية عبادة

لله تعالى يشترط في قبولها الإخلاص والتطهر من الرياء والنفاق وحب الظهـــور. ويـــتم ذلك كله وفق مبدأ "الأخوة الإسلامية" الذي يوجب الوفاق والتعايش بين الناس ويزرع في نفوسهم نوازع الحب والمودة ويلزمهم بجعل ولائهم لله تعالى ولرسوله وللمـــؤمنين، بعيدا عن كل تعصب للأجناس والجماعات والأعراق الذي يطعن في رابطـــة الإيمـــان الموحدة لأهل القبلة.

فقد جاءت أسس وقواعد الحضارة الإنسانية عند النورسي مترابطة ومتلازمة في مـــا بينها لأن إحقاق الحق يؤدي إلى سيادة التعاون والإخاء بين الناس ويـــدعو إلى تزكيـــة الأنفس والمشاعر وربطها بالحق سبحانه بالدعاء والتسبيح، تأكيدا على توازنها وتكاملها وشمولها.

الهوامش

1 المثنوي العربي النوري- بديع الزمان سعيد النورسي، ص: 266 تحقيق إحسان قاسم الصالحي الطبعة الأولى (1414م – 1995م) دار سوزلر للنشر – استانبول.
2 اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ص: 176- ترجمة إحسان قاسم الصالحي- الطبعة الثانية (1413 – 1993م) دار سوزلر للنشر- القاهرة
3 اللمعات، ص: 353
4 راجع الأفكار والمشاعر التي أوردها بعد فترة تأمل فوق قمة قلعة أنقرة – اللمعات ص: 351
5 اللمعات، ص: 376
6 المكتوبات – بديع الزمان سعيد النورسي – ص: 78 – ترجمة إحسان قاسم الصالحي- الطبعة الثانية (1413هـ 1992م)، دار سوزلر للنشر – القاهرة.
7 اللمعات، ص: 367
8 اللمعات، ص: 367-368
9 المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال – أبو حامد الغزالي ص: 18- الطبعة الثانية (1969م) اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع – بيروت.
10 المصدر السابق – ص: 39
11 المكتوبات، ص: 571
12 المصدر السابق، ص: 361
13 المصدر نفسه، ص: 577
14 الملاحق في فقه دعوة النور – بديع الزمان سعيد النورسي، ص: 192- ترجمة إحسان قاسم الصالحي- الطبعة الثانية (1416هـ 1995م) دار سوزلر للنشر- القاهرة.
15 اللمعات ص: 176
16 وردت هاته التعاليم – مثلا – في الإصحاح الخامس من إنجيل متى.

17 هذا هو رأي رشيد رضا في كتاب "شبهات النصارى وحجج الإسلام" ص: 7 والمودودي في كتابه "نحن والحضارة الغربية" ص(41-42) وسيد قطب في كتاب، "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته" ص: 79
18 المكتوبات، ص: 564
19 صيقل الإسلام- بديع الزمان النورسي، ص: 369- ترجمة إحسان قاسم الصالحي- الطبقة الثانية (1416هـ 1995م) دار سوزلر للنشر-القاهرة.
20 الشعاعات- بديع الزمان سعيد النورسي- ص: 664 ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية (1414هـ1993م) دار سوزلر للنشر - القاهرة.
21 المكتوبات ص: 419
22 المصدر السابق 563
23 اللمعات ص: 176-177
24 قال رينه ديكارت (1596-1650) مبينا أهم مبادئ التيار العقلاني في الفكر الأوربي: لقد اعتقدت دائما أن السؤالين الخاصين بالله والروح هما السؤالان الأساسيان بين الأسئلة الجديرة بان تبرهنها الفلسفة العقلانية بدلا من اللاهوت.. ص: 61، نقلا عن كتاب: الفكر الأوربي الحديث- فرانكلين باومر- ترجمة احمد حمدي محمود الهيئة المصرية العامة للكتاب 1887م
25 انظر فصل "تيارات الفكر في القرن التاسع عشر في كتاب" تاريخ الفلسفة الغربية. برتراند رسل، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977م
26 انظر فصل "كارل ماركس" في المصدر السابق.
27 اللمعات ص: 177
28 المصدر السابق، ص: 178
29 المصدر نفسه ص: 181
30 الملاحق، ص: 380
31 اللمعات، ص: 283
32 أنظر -مثلا- كتاب "الفقه الأكبر" لأبي حنيفة (ص: 17-18) وكتاب "دلائل التوحيد" للقاسمي من ص: 22 إلى ص: 35.
33 اعتمد جل المتكلمين الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة "دليل الحدوث" لإثبات وجود الله تعالى.
34 اللمعات ص: 283-284
35 المصدر السابق، ص: 180
36 نفس المصدر والصفة.
37 الكلمات -بديع الزمان سعيد النورسي- ص: 472 ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية (1412هـ -1992م) دار سوزلر للنشر--القاهرة.
38 أنظر فصل "هيجل" في كتاب تاريخ الفلسفة الغربية - برتراند رسل.
39 المصدر السابق، ص: 345
40 اللمعات، ص: 179
41 الملاحق، ص: 377-378
42 المكتوبات، ص: 414
43 المثنوي العربي النوري، ص: 309

44 اللمعات ص: 184
45 المصدر السابق ص: 186
46 يقول مالك بن نبي: "وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يديه من وسائل استخداما مؤثرا، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، وأما أن لا يستخدم وقته في هذه السبيل، فيستسلم – على العكس – لحظة إفقاره وتحويله كما مهملا، يكفل نجاح الفئة الاستعمارية: فتلك هي القابلية للاستعمار" – وجهة العالم الإسلامي – ص: (95–96) ترجمة عبد الصبور شاهين– الطبعة الخامسة (1406هـ –1986م) – دار الفكر – دمشق.
47 صيقل الإسلام، ص: 367–368
48 المصدر السابق، ص: 368
49 المثنوي العربي النوري، ص: 360
50 الكلمات ص: 475
51 نفس المصدر والصفحة.
52 المصدر السابق ص: 476
53 نفسه ص: 477
54 نفسه ص: 472–473

الكليات الخلقية في رسائل النور

د. محمد خروبات(*)

1- مقدمة :

تحتوي رسائل النور على ثروة من المصطلحات الخلقيـــة ذات المفـــاهيم المتعـــددة والمتداخلة، ويراد لهذه المادة العلمية بتركيبالها المتعددة أن تتجه لواقع بشرية هذا القـــرن، هذا الواقع الذي تصدعت فيه القيم وتزعزعت فيه المبادئ وانهارت فيه الأخلاقُ انهيـــارا كبيرا، نتج عن ذلك طمس لإنسانية الإنسان، وتغييب يكاد يكـــون مطلقـــا لشـــرفه ولكرامته .... وتتوجه رسائل النور إلى الإنسانية الغافلة لتؤدي وظيفة الإصلاح والتقويم والتوجيه والإرشاد نحو الصراط الذي أراده الله للبشر .... تيسيرا لذلك وتسهيلا عمدنا في هذه المحاولة إلى جرد عام للكليات الخلقية من بعض المصادر التي توفرت عليها أيدينا من " **رسائل النور** " وقد استقر البحث في " **الكليات الخلقية** " لأنها ظاهرة النعت وبينة القصد، فإذا تكلم بديع الزمان عن " الرذيلة الخلقية " فمن موقع أنها مانعة من تحصـــيل "فضيلة خلقية"، فتجنب الرذيلة يوقع في الفضيلة، من ذلك قوله: (المانع الأول للإخلاص هو الحسد الناشئ من المنافع المادية)[1]، وقوله : (المانع الثاني للإخلاص :هو إعطـــاء مـــا يداعب أنانية النفس الأمارة بالسوء).[2]

وفي بعض الأحيان يقدم الفضيلة كـــ (علاج) من مرض الرذيلة، فعـــلاج (عـــدم الإخلاص) مثلا مع (أسباب غلبة أهل الحق) يقدمه النورسي في تسعة أمور[3]، كلـــها من الكليات الخلقية المطلوبة، وكذلك فعل في (علاج الوساوس وحكمتها)[4].

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية – قسم الدراسات الإسلامية ، جامعة القاضي عياض – مراكش – المغرب

وفي أحيان أخرى يقدمها (ميزانا) يتحقق بها عدل الخلق، كقوله في مرشد أهل القرآن: (ميزان القناعة والحرص)[5].

وقد تصبح دستورا في الحياة، والدستور هو القانون المرجوع إليه والمحتكم إليه، مثل قوله: (دستوركم الأول : ابتغاء مرضاة الله في عملكم)،[6] و(دستوركم الثاني :[7] عدم انتقاد إخوانكم العاملين في هذه الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء)،[8] و(دستوركم الثالث : هي أن قوتكم جميعا في الإخلاص والحق)[9]، و(دستوركم الرابع : هو الافتخار شاكرين بمزايا إخوانكم).[10]

هكذا نلاحظ أن الكليات الخلقية هي مقصودة قصدا من المصنف، وتأخذ أوصافا من النعوت، وهي نعوت لم تبتعد عن المفهوم الذي قصده السلف، فمنهم من أطلق عليها (المكارم)، ومنهم من سماها بـ(الفضائل)،ومنهم من نعتها بـ(الأصول)، ومنهم من وصفها بـ(الأركان)، - يعنون بـ"الأصول" أصول المكارم -، ويعنون بـ" الأركان" "أركان الأخلاق"، وقد وقع اختيارنا على مصطلح(الكليات) لأنه جامع ومستغرق للقضايا الخلقية، ولا مشاحة في الألفاظ كما يقول الفقهاء، وتكملة للمراد جعلنا هذا العرض في أربعة مباحث مبدوءة بمقدمة ومنتهية بخاتمة.

المبحث الأول عرضنا فيه لـ (الكليات الخلقية) من ناحية المفهوم والشكل، والمبحث الثاني أوضحنا فيه الرؤى المنهجية التي تتخلل بحث موضوع الأخلاق، والثالث كشفنا فيه طريقة تصنيف (الكليات الخلقية) بين النورسي ومفكري الإسلام، والرابع صنفنا فيه الكليات الخلقية التي تم استخلاصها من بعض رسائل النور حسب المقامات الخلقية الثلاث: مقام (الإيمان) ومقام (التقوى) ومقام (العمل الصالح)، عرضناها حسب موضوعاتها، ورتبناها حسب قضاياها الأخلاقية .

وهذا العمل في مجموعة ما هو إلا محاولة مصحوبة بدعوة للتفكير في تكوين **معجم شامل للكليات الخلقية من رسائل النور**، نسأل الله التيسير والتأييد والتسديد .

2-الكليات الخلقية : المفهوم والشكل .

2-1 المفهوم :

نريد بـ (المفهوم) المعنى أو المعاني التي تعطى لمصطلح " الكليات الخلقية "، و"الكليات الخلقية مصطلح مركب من كلمتين محوريتين يهمنا في التحديد هنا كلمة " الكليات ".

لقد جرى استعمال هذا المصطلح بتركيب إضافي إما بالعدد أو بغيره عند اللغويين والمناطقة والأصوليين والفلاسفة، فالكليات – **عند اللغويين** – من الكل، وهم اسم لمجموع الشيء وصفة لما هو كلي، وكلية الشيء أجمعه، أي بلوغ الغاية فيما توصف به من الجمع[11]، **والمناطقة** ينعتونه بـ (الكليات الخمس) التي حددوها بـ (الجنس، والنوع، والفصل والخاصة والعرض العام)[12] ، وكذلك فعل **الأصوليون** في مقاصد الشريعة، فقد حصروها في الكليات الخمس، وهي المشهورة في استعمالهم بـ (الضرورات الخمسة)، وهي : (حفظ الدين، والنفس والنسل والمال والعقل)[13].

واعترى البحث في مسألة الكليات في **الفلسفة** اختلاف كبير، وعد البحث فيها من اصعب البحوث في تاريخ الفلسفة، وأقوى ما وقع فيه الاختلاف هو في مرجعيتها : هل هي موجودة في العقل أم خارج العقل، وتضاربت الآراء بين المدرسة الوجودية والمدرسة الاسمية والمدرسة التصورية .[14]

أما" الكليات الخلقية" في **التصور الإسلامي** فترجع إلى أصلين اثنين : القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد حدد النورسي هذه المرجعية في غير ما مرة من رسائله[15]، وهي تعني الجامعة لكل ما يندرج تحتها أو يتولد منها أو على إثرها من (أخلاق)، فهذا هو المعنى الذي يتنزل عليه المدلول الاصطلاحي الذي قصدناه من عنوان هذا العرض، وهو "الكليات الخلقية في رسائل النور" فقد أردنا به ما يندرج تحتها من قضايا خلقية جزئية أو كلية بحيث تكون القضية الخلقية تشهد للكلية وتدل عليها، كما أن " الكلية الخلقية " تدل على " الاستغراق " لأفراد ما يضاف إليها، أو أجزائها من القضايا الخلقية، ثم إنها من وجه آخر قد تفيد الحصر في ارتباط القضايا الخلقية تحت الكلية الخلقية برباط منهجي ومعرفي .

من حيث **التعليل** فقد لاح لنا هذا بالاستقراء من صنيع النورسي في رسائله، فهو حين يسطر قضية خلقية كلية يذكر ما يندرج تحتها من (فضائل) بحسب ما يراه ضروريا لمعالجة الموضوع، من ذلك مثلا :

-"ابدأ بنفسك قضية خلقية كلية، يذكر تحتها قضايا خلقية أخرى من مثل : (رضوخ النفس للعقل)، (غلق منافذ النفس)، (طريق الصحابة الكرام)، (أسوأ النسيان نسيان النفس)، (دع الغرور وانظر إلى السلف من قرب)[16].

ومن أمثلة ذلك أيضا :

-"خدمة الإيمان أجل وظيفة"، هي قضية خلقية كلية، يذكر تحتها قضايا خلقية مثل: (إنقاذ الإيمان اعظم إحسان في هذا الزمان)، (خدمة الإيمان فوق كل شيء)، (التحدي بالإيمان)، (الإيمان خبز الحياة والتصوف فاكهة) .[17]

أما من حيث **التأويل** فلا يقاس استعمال الكلية في الخطاب الإسلامي داخل هذا الموضوع على استعمالها في الخطاب المنطقي، فاستعمالها في هذا الأخير لا يدل إلا على ورودها في مقابل (الجزئية)، لدلالة الجزئية عليها والعكس، أما هنا فالأمر يختلف من وجهتين:

الأول : أن أخلاق الإسلام لا تؤخذ إلا مجتمعة، وبصيغتها الكلية، ولا مكان للتجزيء في أخلاق الإسلام على المستويين : الفكري والعملي، ولذلك يغيب في الاستعمال " الجزئية الخلقية "، ويهيمن استعمال مقابلها في المقابل .

الثاني : أن المعنى الذي حددناه للكلية الخلقية في الاصطلاح إنما هو على مستوى البحث والتصنيف، أما على مستوى الموضوع والمضمون فالأمر نسبي جدا، فالكلية الخلقية هي على هذا الوصف في سياق، أما في سياق آخر فتتحول إلى (جزئية خلقية) والعكس، ذلك أن كل خصلة خلقية تتبعها خصال خلقية أخرى، وكل خصلة تجر أخرى، وهذا راجع إلى مرونة الأخلاق الإسلامية وشمولها وتداخلها، كما هو راجع إلى تبدلها وتغيرها بحسب المنازل .[18]

2-2 الشكل :

يتباين شكل هذه الكليات بحسب تباين المعايير التي تتخللها :

أ- من معيار الجماعة والفرد تأتي " الكلية الخلقية" على صيغة نصيحة أو أمر بالنصيحة إلى الأمة كلها، من ذلك :" لا تسندوا حصيلة الجماعة لشخص واحد "[19]، وقد تأتي لكل فرد فرد من مثل : " التزم وظيفتك "[20].

ب- ومن معيار الإفراد والتركيب تأتي مفردة من مثل :" العدل " [21]، و تأتي مركبة من مثل :" بلغ رسالتك واترك أمر نجاحها إلى الله " [22]

ج- ويتباين شكل القضايا الخلقية من جهة الاستفهام والتأكيد والنهي والأمر، فمما جاء على صيغة الاستفهام قوله :" كيف تحصل على علم الحقيقة " [23]، وقوله : " لم نضطر إلى إعلان العناية الربانية؟ ".[24]

ومما جاء على صيغة التأكيد قوله : " ضرورة الإيمان بالآخرة "، [25] " إنما الشكوى بلاء" [26] ومما جاء على صيغة النهي قوله :" لا تنشغلوا بلسعات البعوض "[27] " لا تحسن الظن بالنفس " .[28]

ومما جاء على صيغة الأمر نوعان : نوع هو من الأمر الخفيف، مثل قوله : (أقل عثرات أخيك) [29]، وقوله : " تسامحوا فيما بينكم " [30]، ونوع هو من الأمر المشدد، مثل قوله :" ليكن همك إرضاء الخالق لا الخلق " [31] وقوله :" لا تجعل من الدين وسيلة لمكاسب دنيوية "[32].

د- وبالنظر إلى الكليات الخلقية الواردة في أسلوبه نجدها تتباين أيضا من جهة التحذير والتنبيه والتلطيف، فمما جاء بأسلوب التحذير قوله :" احذروا الغش في تجارة الأفكار "[33] ، وقوله :" حذار من شياطين الإنس "[34].

ومما جاء بأسلوب التنبيه قوله :" إياكم والمراء " [35]، وقوله :" انتبه قبل أن تغرق "[36]

ومما جاء بأسلوب التلطيف قوله :" من لوازم الفضيلة " [37] و"الإيمان سلوان "، [38]" ولطفات الرأفة وصفعات الرحمة "[39].

هـ- ثم إنها تأتي بصيغة الإجمال ثم تفصل في جزئيات خلقية، وقد تفصل الجزئية بدورها في صفحات وقد تشرح في أسطر قليلة .

وقد تأتي الكلية الخلقية في جملة قائمة بذاتها، مستقلة بنفسها، مثلما ذكر في شروط الإخلاص مثلا .[40]

و- ثم إنها تتكرر باللفظ في مقام معين وقد تتكرر بالمعنى في مقام آخر، وقد يدخل بعضها في بعض في موضوع آخر من الرسائل، والشواهد على هذا كثيرة .

هذا مبحث عرضنا فيه " الكليات الخلقية " من حيث المفهوم والشكل، لكن ماذا عن مستوى بحث " الكليات الخلقية " ضمن مستويات بحث قضية الأخلاق في رسائل النور؟.

3-الكليات الخلقية : رؤية منهجية :

في أفق البحث تظهر لنا ثلاثة مستويات لبحث قضية الأخلاق عند بديع الزمان سعيد النورسي .

-***المستوى الأول*** : يتناول بحث " المصطلح الخلقي عند بديع الزمان "، فالأخلاق علم قائم برأسه، له مصادره وأعلامه ومنهجه ومقاصده وأهدافه ومصطلحاته، والبحث في " المصطلح الخلقي " تعيينا وجردا وتصنيفا ودراسة هو البحث في كل العلم، وهذا

المستوى من البحث لم نقم به في عملنا هذا لحاجته إلى عمل جماعي منظم يروم جهة الدراسة المصطلحية للمصطلح الخلقي في رسائل النور.

-***المستوى الثاني*** : يتناول بحث " الكليات الخلقية ": عند بديع الزمان، وهذا المستوى من حيث الأهمية يلي المستوى الأول، فهو يتممه ويكمله إن لم يكن قرينه ومشابهه، وعرضنا هذا يدخل ضمن هذا المستوى .

-***المستوى الثالث***: يتناول بحث الأخلاق بطريقة عامة، مثل البحث في خصلة من خصال الأخلاق محمودة كانت أو مذمومة، مع تحليل قول بديع الزمان والتعليق عليه، أو اختيار موضوع أخلاقي مستوحى من رسائل النور وفق ما يراه الباحث ملائما لطبيعة تخصصه، وهذا المستوى من البحث له أهميته على كل حال.

إذا كنا قد اخترنا المستوى الثاني فذلك لأسباب منهجية ومعرفية،ذلك أن الكليات الخلقية هي كل شيء في بحث الأخلاق، ثم إنها مدخل معرفي يمكن من الوقوف على القضايا الخلقية التي جاءت في رسائل النور، فمنها يمكن النفاذ إلى الأخلاق بعمق، لاسيما وأن موردها مكشوف، فقد استفيدت جل عناصرها من أسئلة طلبة النور إلى الأستاذ، وغالبا ما تأخذ هذه الرسائل عناوين ذات كليات خلقية مستوحاة من تجربة الطالب مع الرسائل على صغر هذه الرسائل وقصرها مثلما نجد في الملاحق مثلا، ثم إنها تستفاد بشكل مباشر مما كتبه سعيد النورسي بنفسه.

وتقف الكليات خلف العناوين القصيرة التي خصصها المؤلف لمنهجه مثل: "الإشارة" و "النقطة" و "السؤال" و "اللمعة" و"الكلمة" و "المقام" و "الأساس" و "الوجه" و"السر" و "المذكرة" و "الرمز" و "المحال" و "الحكمة" و "النكتة" و "المرتبة النورية" و "الرجاء" و"الفقرة" و "الخاطرة" و "الفصل" و "الباب" و "الختم" و "الشعاع" .... إلخ .

إذن، هذه لمحة عن طرق منهجية لبحث الكليات الخلقية والأخلاق عند بديع الزمان بينا موقع الطريقة التي سلكناها في البحث ضمن مواقع طرق البحث، وبررنا لماذا اخترنا هذه الطريقة دون سواها، والذي يبقى بعد هذا هو الكشف عن موقع بديع الزمان ضمن أسماء من بحث في هذا العلم من مفكري الإسلام المشهورين، أولئك الذين صنفوا أصول المكارم ورتبوا الكليات الخلقية بمعايير متباينة ومختلفة، وهذا ما نراه في النقطة الموالية.

4-الكليات الخلقية بين النورسي ومفكري الإسلام :

4-1-تصنيف الأخلاق عند مفكري الإسلام .

تكلم في أصول مكارم الأخلاق الفلاسفة والفقهاء والمحدثون والأدباء والشعراء والمفكرون والوعاظ والنساك والزهاد، وتباينت آراؤهم في مواطن واتفقت في مواطن أخرى، واختلفت تحديداتهم وتعديداتهم للكليات الخلقية في جهات معينة واتفقت في جهات أخرى، سنشير إلى بعض ذلك، ذاكرين من اتفق مع بعضه، ومشيرين للمختلف والمختلف حسب نوع الاختلاف وحسب موضوعه، غرضنا من هذا كله بيان تصنيف بديع الزمان للكليات الخلقية ضمن تصنيفات وترتيبات أهل العلم من مفكري الإسلام.

الكليات الخلقية هي أصول مكارم الأخلاق التي اختلف العلماء في تحديدها:

أ- منهم من حصرها في أربعة أصول، وهي : (الحكمة والشجاعة والعفة والعدل)، وهذه الأصول تكلم فيها الفلاسفة على هذا النحو من الاستقراء والاستنباط، فذكرها ابن مسكويه[41]، والراغب الأصفهاني[42] وأبو حامد الغزالي[43] وأبو بكر بن العربي[44] وغيرهم، وهي تتولد حسب تصورهم من ثلاثة قوى : (القوى الفكرية، والقوى الغضبية والقوى الشهوية). [45]

ب- ومنهم من أبقى على هذا الحصر، غير أنه استبدل (الحكمة) بـ (الصبر)، ومن هؤلاء ابن قيم الجوزية، الذي قابل بين الكليات الخلقية لحسن الخلق والكليات الخلقية لمساوئ الأخلاق، حصر الأولى في (الصبر والعفة والشجاعة والعدل)، والثانية في (الجهل والظلم والشهوة والغضب)[46].

غير أنه في كتاب الفوائد يطلع بتصانيف متباينة ففي موضع يقول : (إن أصول الخطايا ثلاثة) فيذكر : (الكبر والحرص والحسد) [47].

وفي موطن آخر يقول : (إن أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة) فيذكر: (تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية والقوة الشهوانية) [48]، فغاية (التعلق بغير الله الشرك، وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا) [49]، وهذه الآفات جمعت كلها في آية واحدة من سورة الفرقان: (**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ**)[50].

وفي موطن ثالث يقول: (أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة) [51]، وفرع رحمه الله عن هذه الكليات قضايا خلقية كثيرة بسطها في فصل مستقل من كتاب الفوائد .[52]

ج- ومنهم من خالف لا في العدد ولا في المضمون مثل الحافظين ابن الجوزي وابن حجر، فابن الجوزي حدد الكليات الخلقية في خمسة أصول : (الكرم والإيثار وستر العيوب وإبداء المعروف والحلم عن الجاهل).[53]

وكذلك الحافظ بن حجر، فقد حددها في خمسة أصول، وبصفته محدثا فقد استنبط ذلك من حديث خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قالت : (كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" [54]، علق فقال: (ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدا بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق) [55] والكلام هنا يعود على النبي صلى الله عليه وسلم، وأضاف في موطن آخر فقال: (واستبعد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرجوه لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها).[56]

د- ومنهم من حصرها في عشرة أصول، وهي بالترتيب (العقل والدين والعلم والحلم والجود والصدق والبر والصبر والشكر واللين)، نسب هذا الحصر إلى بعض الصحابة من أمثال علي بن أبي طالب، وسار عليه بعض المتأخرين، فقد نقل الماوردي الشافعي عن بعض أهل الأدب قصيدة من البحر البسيط معزوة إلى علي بن أبي طالب يقول فيها:

إن المكارم أخلاق مطهرة فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والصدق ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشيها [57]

وشبيه بهذا ما نقله الحافظ المحدث أبو حاتم ابن حبان في **روضة العقلاء** عن بعض أعلام العلم وهو علي بن محمد السباعي أن حصر الكليات الخلقية في عشرة أصول أيضا، نظمها في قصيدة شعرية معارضة للأولى من البحر البسيط جاء فيها :

إن المكارم أبواب مصنفة فالعقل أولها والصمت ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والصدق ساديها
والصبر سابعها والشكر ثامنها واللين تاسعها والصدق عاشيها [58]

فذكر هنا : (العقل والصمت والعلم والحلم والجود والصدق والصبر والشكر واللين والصدق)، ولا خلاف بين التقسيم العشاري الأول وهذا التقسيم إلا في استبدال (الدين) في الأولى ب (البر) في الثانية.

هـ- ومنهم من قسم أصول مكارم أخلاق الدين إلى ثلاثة مقامات مستهديا في ذلك بحديث جبريل عليه السلام، حيث يذكر الحديث ثلاثة مقامات : مقام الإسلام، ومقام الإيمان ومقام الإحسان [59] فذكر لكل مقام ما يلزمه من خلق، ومن هؤلاء عبد الجليل القصري في كتابه (شعب الإيمان) [60].

2.4 : تصنيف الأخلاق عن بديع الزمان :

يقول بديع الزمان :(لقد فكرت - في هذه الأيام - في أسس التقوى والعمل الصالح اللذين هما أعظم أساسين في نظر القرآن الكريم بعد الإيمان)[61].

يقدم بديع الزمان في هذا النص تصنيفا للكليات الخلقية فيجعله في ثلاثة مقامات : مقام الإيمان ومقام التقوى ومقام العمل الصالح، يربطها بما لأجله سيقت، ويؤصلها بمصدرها ثم يرتبها ويعرفها الواحدة تلو الأخرى .

سيقت هذه المقامات (لهذا الوقت الذي يتسم بالدمار الأخلاقي والروحي وبإثارة هوى النفس الأمارة وبإطلاق الشهوات من عقالها) [62]، ثم إنها تأصلت من القرآن الكريم، فالقرآن أصلها الأساس وهو الذي رتبها حسب أهميتها .

(الإيمان) هو كل شيء في حياة الإنسان، فهو (خبز الحياة) [63] كما عرفه النورسي، وهو تعريف يمس حياة الإنسان العادية حين يكون (الخبز) في الحياة هو أساس الحياة .

و (التقوى) هي: (ترك المحظور والاجتناب عن الذنوب والسيئات)[64] ، أما (العمل الصالح) فهو: (فعل المأمور لكسب الخيرات)[65].

أعلى هذه المقامات هو مقام (الإيمان)،وأدناها من حيث الترتيب هو (العمل الصالح)، وأوسطها هو مقام (التقوى).

هذه المقامات قلما تجتمع في إنسان، فإذا اجتمعت فسيكون على الوصف الذي قرره القرآن في النبي صلى الله عليه وسلم حين وصفه بقوله: (وإنك لعلى خلق عظيم)[66]، فالنبي صلى الله عليه وسلم حاز هذه المقامات الثلاث التي قررها القرآن، لذلك (كان خلقه القرآن) كما وصفته الصديقة عائشة رضي الله عنها[67].

رغم هذا الترتيب فإن المقامات تتداخل فيما بينها تداخلا كبيرا، فالعمل الصالح من الإيمان، وأساسه التقوى، والتقوى طريق الإيمان، وتنبني على العمل الصالح، فالإيمان لا يكون كاملا إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهذا التداخل هو الذي يجعل المصطلحات الخلقية تتداخل فيما بينها بحسب تداخل مفاهيمها، بحيث يتعذر تصنيفها في بعض الحالات، وهذا مؤشر دال على أن كل خصلة هي فضيلة قائمة بذاتها، لذلك فالقول

بالكليات والجزئيات تصبح أهميته قليلة أمام هذه الحالة، فالذي نتصوره جزئية خلقية يتحول إلى كلية خلقية لأنه يكون سببا في جلب فضيلة أخرى، فحين يكون المرء (كريما) مثلا فإنه في نفس الوقت يكون سخيا وجوادا ومنفقا، وحين يكون (عادلا) فإنه يكون حليما ومشفقا ورحيما ومنصفا ... وكذلك الأمر بالنسبة للرذائل ... ومع ذلك كله فهذا لا يمنع الباحث من تمييز الخصال الخلقية بعضها عن بعض، والنظر فيما إذا كانت خصلة من الخصال قابلة لأن تضم بين جنباتها خصالا أخرى جزئية ... لا مانع إذن من التصنيف مادامت صورة هذه الخصال رذيلة كانت أم فضيلة تسمح جزئيا بمثل هذا النوع من التصنيف،وهذا ما حاول مفكرو الإسلام فعله ومنهم بديع الزمان.

5- تصنيف الكليات حسب المقامات

5-1 مقام الإيمان :

يوازي مقام الإيمان مقام الكفر من جهة الضد والنقيض، فلما كان نقيض الإيمان الكفر كان من باب أولى أن يجعله النورسي في المقام الأول، ويجر الإيمان من الخصال الخلقية المحمودة ما يجره مقام الكفر من الخصال الخلقية المذمومة، فالمؤمن بإيمانه يتقلب في مراتب المكارم والفضائل، والكافر بكفره يتقلب في مراتب المشاين والرذائل، فلا يصدر عن المؤمن إلا فعل الخير في الغالب، ولا يصدر عن الكافر إلا فعل الشر وقول الشر في الغالب، وعمل الكفر هو عمل سلبي على الإطلاق، وعمل الإيمان هو عمل إيجابي على الإطلاق، والإيمان هو الأصل لذلك، فطعم الإيمان حلو والكفر هو الطارئ وطعمه مر، وفي الحديث : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحب إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[68].يعبر الحديث ب (الحلاوة) لأن الله عز وجل شبه الإيمان في القرآن بالشجرة فقال (**مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة**) [69]، الكلمة هي كلمة التوحيد والشجرة هي أصل الإيمان وأغصانها هي كل الخصال الخلقية التي تدخل في الإيمان[70] وقد ذكر بديع الزمان أمورا مهمة منها، نميز فيها بين نوعين : نوع هو كليات خلقية لمقام الإيمان ونوع هو كليات خلقية لمستلزمات الإيمان.

5-1-1 : كليات خلقية لمقام الإيمان : أطلقنا عليها هذا الوصف لأنها تكون في مجموعها مدخلا لبيان (الإيمان) والكشف عن أهميته من ذلك :

-" الإيمان خبز الحياة والتصوف فاكهة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 54.

-" الإيمان سلوان "،مصطلح مشروح في كتاب مرشد الشباب ص :60.
-" إنقاذ الإيمان اعظم إحسان في هذا الزمان "، مصطلح مشروح في الملاحق ص259 وفي كتاب مرشد أهل القرآن ص : 44.
-" التحدي بالإيمان "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص :46.
-" إنقاذ الآخرة " كذا، ويأتي على الصيغة التساؤلية الآتية " كيف ننقذ أخرتنا ؟"، مصطلح مفسر في مرشد الشباب في موطنين، في ص 10 وص 35.
-" ضرورة الإيمان بالآخرة "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 85 وما بعدها.
-" غاية العبادة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص : 66
-" الغاية القصوى من خلقك "،مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 59.

5-1-2 : كليات خلقية لمستلزمات الإيمان : أطلقنا عليها هذا الوصف لأن الإيمان لا يستقيم إلا بها، ولذلك كانت من مستلزماته، وهي على ثلاثة مكونات : مكون الصلاة، ومكون الذكر، ومكون الدعاء.

1- مكون الصلاة، ومن كلياتها الخلقية :
- "الصلاة عماد الدين"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان، ص: 13 وما بعدها.
- "حكم أوقات الصلاة"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان، ص: 16 وما بعدها.
- "الشوق إلى الصلاة"، مصطلح مشروح في المصدر السابق، ص: 27 وما بعدها.
- "وقوموا لله قانتين"، آية كريمة من سورة البقرة 238، مفسرة في اللمعات ص241.
- "إلى المتكاسل في أذكار الصلاة"، مصطلح مشروح في كتاب السنة النبوية ص 47-48.

2- مكون الذكر، ومن كلياته الحلقية :
- "صحوة القلب"، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 67.
- "الذكر لا يخلو من الإفاضة"، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 57.
- "الأسماء الحسنى منبع الحقائق والعلوم كلها "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 57.
- "التسبيح لله" المتمثل في قوله: "باسمه سبحانه"، مصطلح مشروح في مرشد الشباب في المواطن الآتية : ص 46-50-53-109 .

- "القدوس"، مصطلح مبين في رسالة الاسم الأعظم ص 14، وفي اللمعات ص 517.
- "العدل"، مصطلح مبين في رسالة الاسم الأعظم ص 23 وفي اللمعات 523.
- "الفرد"، مصطلح مبين في الاسم الأعظم ص 48 وفي اللمعات ص 539.
- "الحي"، مصطلح مبين في الاسم الأعظم ص 75 وفي اللمعات ص 557 .
- "القيوم"، مصطلح مشروح في الاسم الأعظم ص 100 وفي اللمعات ص 537.
- "الحكم"، مصطلح مشروح في الاسم الأعظم ص 31 وفي اللمعات ص 528.

3- مكون الدعاء، ومن كلياته:

- "حكمة الاستعاذة"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 35 وفي اللمعات ص109.
- "الدعاء مخ العبادة"، حديث سيق مساق المصطلح[71]، انظر شرحه في السنة النبوية ص 52.
- "المعاونة بالدعاء"، مصطلح مشروح في الملاحق ص 173.

وتقابل هذه الكليات كليات أخرى لمقام الكفر، سيقت كلها في مقام الإيمان، لأنه من إتمام الكلام في الإيمان ذكر ضده، والإشارة إلى نقيضه، ما فتئ بديع الزمان ينقض عرى الكفر عروة عروة، فهي إما في موقع موازنة بين الكفر والإيمان لبيان محاسن الإيمان وإيجابياته في ضوء مساوئ الكفر وسلبياته، أو بيان ما يؤول إليه الكافر بكفره في النهاية، أو التحذير من مسببي الكفر من الشياطين على اختلاف درجاتهم وإنتماءاتهم مع ما يصدر عنهم من شر ... كل هذا دلت عليه هذه الكليات التي نسوقها مجتمعة في وحدة مستقلة كآلاتي:

- "الفرق بين الإيمان وعدم الإنكار"، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص64.
- "تغيظ الكائنات على الكفر"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 60.
- "صعوبة طريق الكفر وآلامه"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 52.
- "الكفر يتجاوز حقوق المخلوقات"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 41.
- "إثبات وجود الشياطين"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 58.
- "حكمة خلق الشيطان"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 40.
- "خلق الشر ليس شرا"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 48.

5-2 : مقام التقوى :

التعريف الذي أعطاه النورسي لمقام التقوى هو مؤشر مهم في تحصيل كليات هـذا المقام وفي تمييزها، وبعد النظر تبين أن موقع التقوى لا يكون إلا بين الإيمـان والعمـل الصالح، فهي جسر للعبور من الإيمان إلى العمل الصالح والعكس، فلا يكـون مؤمنـا ويعمل صالحا إلا متقيا، والتقوى تدفع المؤمن الحق إلى أن يعمل صالحا لأنـه قـال في الملاحق (التقوى والعمل الصالح)[72] .

تتنوع الكليات التي تدخل في هذا المقام بحسب أغراضها إلى أربعة أنواع.

5-2-1 كليات عامة : تعذر تصنيفها تحت محور معين لكونها دالة على أمور عامة تهم التقوى، منها على سبيل المثال :

- "لذة الجنة في الدنيا"، مصطلح مشروح في الملاحق،ص 397.
- "لطمات الرأفة وصفعات الرحمة"، مصطلح مشروح في اللمعـات ص 66 وفي مرشد أهل القرآن ص 177 .
- "لذة العجز والفقر"، مصطلح مشروح في الملاحق ص 32.
- "من هو اسعد إنسان؟" ،على صيغة سؤال، مصطلح مشروح في مرشد الشـباب ص 124.
- "فقر الإنسان وضعفه"، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 17.

5-2-2 كليات تخص النفس البشرية، منها :

- "ترك فضول النفس"، مصطلح مشروح في الملاحق ص 171.
- "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"، آيتان من سـورة الحشـر 9-10 أجراهما مجرى المصطلح،انظر تفسيرهما في اللمعات ص 241.
- "لا تحسن الظن بالنفس"، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 40.
- "الغفلة سبب لفرعونية النفس"، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 36.
- "أسوأ النسيان نسيان النفس"، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 35.
- "ابدأ بنفسك"، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 20.
- "غلق منافذ النفس"، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 31، وفي الملاحـق ص 310.
- "رضوخ النفس للعقل"، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 30.
- "لا أحسن الظن بنفسي"، مصطلح مشروح في الملاحق ص 307.

5-2-3 : كليات تخص الحق والحقيقة، منها ما يلي :

-" خدمة الحق تتطلب ترك الأنانية "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص39.

-" كيف تحصل على علم الحقيقة؟ "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 66.

-" الحاجة إلى حقيقة نزيهة "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 68.

5-2-4: كليات تخص التحذير من بعض الرذائل، منها:

أ-الذنوب، مثل قوله :

-" الذنوب في آخر الزمان "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 121.

-" مقابلة الذنوب المهاجمة "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 139.

-" مرض العصر "، مصطلح مبين معناه في الملاحق ص 200، وفي مرشد أهل القرآن ص 227 .

ب- رذائل أخرى مثل :

-" النظر الحرام "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 312-313.

-" الشهرة عين الرياء "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 37.

-" دع الغرور وانظر إلى السلف عن قرب "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص36.

-" ما ينجم من العداوة والعناد "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 208.

-" عاد ما في قلبك من العداوة "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 208 أيضا .

-" إن الشكوى بلاء "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 117.

-" كيف نجوت من ألم الشفقة "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 205.

-" تعديل الشفقة المفرطة "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص123.

-"عدم البحث عن مقامات معنوية "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص121.

-" ما يسوق إلى الرياء وما يمنع منه "، مصطلح مشروح في الملاحق،ص 139.

-" دسيستان شيطانيتان "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 228.

-" إياك والمراء "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 123.

-" فتنة النساء "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 24.

-" مرض النسيان "، مصطلح مشروح في المصدر السابق ص 134.

5-3: مقام العمل الصالح :

(العمل الصالح) مقام خلقي مطلوب وجوبا : (**وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)[73] ، تباينت آراء العلماء في تصنيفه وتعيين مرتبته بحسب ما جاءت به الآثار الدالة على ذلك، منها ما يجعل الأعمال كلها من الإسلام[74]، ومنها ما يجعلها من الإيمان، ومنها ما يجعلها مستقلة بذاتها[75]، لكن "المشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان، قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان"، وقد حكاه الشافعي عن الصحابة والتابعين [76]، ولأهمية(العمل الصالح) اقترن بالإيمان في أزيد من مائة آية، نستدل فقط بهذه الآية التي جمعت بين المقامات الثلاث، يقول تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين)، [77]والإحسان من جنس العمل الصالح .

وتأخر (العمل) عن الإيمان والتقوى تقتضيه العبودية، فالعمل هو المصدق لإيمان المرء ولتقواه، ولذلك جاء في الحديث: (الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان، وعمل بالأركان)[78] .وإذا وضعنا تعريف النورسي (للعمل الصالح) الذي هو (فعل المأمور لكسب الخيرات)[79] في إطار كل ما تقدم تبين لنا انه تعريف جامع، فالمأمورات - كما يقول ابن القيم- : (خير وتفضي إلى الخيرات، والخير بيده سبحانه وتعالى) كما أن (المنهيات شرور وتفضي إلى الشرور)، والشر ليس إلى الله لأنه لا يدخل في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه وإنما هو في المفعولات المكتسبة [80]، فالعمل الصالح إذن هو ترجمان للإيمان والتقوى لأنه من شرط وصف الأعمال بالصلاح، ثم إنه يروم جهة تحقيق مقصد واحد وهو اغتنام المؤمن المتقي الفرصة للتزود بفعل الصلاح، ولا يقبل العبد الصالح على فعل الخير إلا لكسب الخير (فاستبقوا الخيرات)[81] ، ولذلك جوز فيه الشرع التنافس والتحاسد [82]، ولابن القيم تحليل رائع في هذا الموضوع يقول فيه : (وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الذي بفواته يحصل ضده من الشر، وكلما كان المأمور احب إلى الله سبحانه كان الشر الحاصل بفواته اعظم كالتوحيد والإيمان)[83] .

وقد تحصلت لدينا للدلالة على هذا المقام كليات خلقية كثيرة تنوعت حسب أغراضها إلى تسعة أنواع، وهي :

5-3-1: كليات خلقية دلت على أن (العمل الصالح) لا يكـــون خادمـــا إلا للإيمان،من ذلك :

-" العمل لأسس الإسلام أولى "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 148.

-" خدمة الإيمان أجل وظيفة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن،ص 44.

-"خدمة الإيمان فوق كل شيء "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص 45، وفي الملاحق ص 145.

-" العمل الإيجابي البناء "، مصطلح مشروع في مرشد أهـــل القـــرآن،ص 132-133.

-" لم نضطر إلى إعلان العناية الربانية ؟ "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القـــرآن ص 126.

-" الحق يعلو"، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 71 وفي مرشد أهل القرآن ص 172.

-" أجدى عمل في الوقت الحاضر "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 114.

-" واجب أولى من واجب ، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 51.

5-3-2 كليات خلقية العمل بها ينفع في عمل العمل الصالح، منها :

-" الإخلاص "، مصطلح مشروح في اللمعات ص 225.

-" قوة الإخلاص "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 135.

-" مانع الإخلاص "، مصطلح مفسر في اللمعات ص 246 – 250.

-" علاج عدم الإخلاص "، مصطلح مشروح ومفصـــل في اللمعـــات ص 228 –229.

-" كسب الإخلاص "، مصطلح مشروح في اللمعات ص 246.

-" إدامة الإخلاص "، مصطلح مشروح في اللمعات ص 248-249.

-" التجرد من المنافع "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 74.

-" اكتفوا بالشرف المعنوي "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص 135.

-" المحبة "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 159.

-" اعظم إحسان "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 55.

-" الاقتصاد "، مصطلح مشروح في اللمعات ص 211.

-"التزم وظيفتك "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 108 .

-" إهداء العيوب "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 205.
-" التخريب سهل "، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان، ص 39.
-" خير الشباب"، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 125.
-" علاج الوساوس "، مصطلح مشروح في حقائق الإيمـــان ص 46 وفي الملاحـــق ص101.
-" انتبه قبل أن تغرق "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 133.
-" المنتبهون النائمون "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 132.
-" ميزان القناعة والحرص "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 166.
-" حب المال والطمع ثغرة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص 211.

5-3-3 : كليات خلقية تؤصل للعمل وتقعد له، من ذلك :

-" ليكن همك إرضاء الخالق لا الخلق "، مصطلح مفسر في مرشد أهـــل القـــرآن، ص132.
-" المجاهدة بنور القرآن "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 48.
-" لحظة في سبيل الله تورث الخلود "، مصطلح مشروح في مرشد أهـــل القـــرآن ص76.
-"لا تجعل من الدين وسيلة لمكاسب دنيوية "، مصـــطلح مشـــروح في الملاحـــق ص243.
-" افضل الأعمال أحمزها " [84]، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 213.
-" ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا "، آية كريمة من سورة التوبة، تؤصل للعمل الصالح، مفسرة في اللمعات ص 241.
-" ظن المألوف معلوما"، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن،ص 230.
-" بلغ رسالتك واترك أمر نجاحها إلى الله "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 108.

5-3-4 : كليات خلقية تحض العاملين على الإقتداء والإتباع والصحبة حـــتى يكون عملـــهم (عملا صالحا)، من ذلك قوله:

-" اقرب طريق إلى الله "،مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 12.
-" ضرورة اتباع السنة النبوية "،مصطلح مشروح في مرشد أهل القران، ص 18.
-" طريق الصحابة الكرام "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 135.

-"الافتخار بصحبة السالكين "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 116
-" صحبة أهل الحقيقة "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 99.
-" صداقة الأبطال "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 132، وفي مرشد أهل القرآن، ص 73.

5-3-5: كليات خلقية توجه كل عامل على التمسك بالجماعة إن ابتغى الصلاح، قوله:

-" زمان الجماعة "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 100.
-" مهمة الفرد في الجماعة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص101.
-" الجماعة لا الفرد "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 101.
-" لا أنا بل نحن "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 103.
-" لا تسندوا حصيلة الجماعة لشخص واحد "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 105.
-"أساس مسلك النور: الأخوة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 105.
-" أهمية التساند والترابط "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص 106.
-" روابط الأخوة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن،ص 107.
-" أدخلوا قلعة : (إنما المؤمنون اخوة) مشروح في مرشد أهل القرآن ص 119.
-" الشخص المعنوي "،مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن،ص 101.
-"وشاورهم في الأمر "، آية من سورة آل عمران رقم (159) مفسرة في الملاحق ص 237.
-" نسيان الذات"، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 122.
-" بث السلوان "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 112.
-" ليضمد بعضكم جراح بعض "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص113.
-" تذويب الأنانية والغرور "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 104.
-" الاشتراك المعنوي الأخروي "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن،ص 102.

5-3-6: كليات خلقية تحث العاملين للإسلام على عدم الاختلاف والتفــرق، من ذلك

-" تجنبوا التفرق والتحزب "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 209.

-" انسوا خلافاتكم "،مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 118.

-" ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم "، آية من سورة الأنفال 46، وانظر التعليق عليها في اللمعات ص 241.

-" لا تفسحوا المجال للانتقاد "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 212.

-" الإسلام يرفض التحيز "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 203.

-" الاختلاف الإيجابي والسلبي "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 209.

-"الاتفاق في الأسس وإن اختلفت الوسائل "، مصطلح مشروح في مرشــد أهــل القرآن ص 210.

-" لا تضيعوا الوقت في النقاش "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص125.

-" اتركوا السيئات مستورة "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 166.

-" تسامحوا فيما بينكم "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 124.

-" أقل عثرات أخيك "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص 114.

-" ترك المناقشات الداخلية "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن، ص 117.

5-3-7: كليات خلقية توجه العمل العلمي والفكري نحو فضائل معينة، مــن ذلك:

-"العلوم تعرفنا بالآخرة "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 76.

-" احذروا الغش في تجارة الأفكار "، مصطلح مشروح في مرشــد أهــل القــرآن ص226.

-" التفكر نور "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 19.

-" العبادة الفكرية لا تطلب بها مقاصد دنيوية "، مصطلح مفسر في مرشــد أهــل القرآن ص 137، وفي الملاحق ص 219.

5-3-8 كليات خلقية تنبه العاملين إلى حكمة الابتلاء والمحن، من ذلك:

-" المحن محك الصادقين "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 214.

-" حكمة الابتلاء والتمحيص "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القران ص 215.

-" تأسوا بالأئمة العظام "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 219.

-" حول دسائس الشيطان "، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 66.
-" الصدقة تدفع البلاء "، مصطلح مشروح في الملاحق ص 109.

5-3-9 كليات خلقية لكيفية تعامل العاملين للعمل الصالح مع مخالفيهم، من ذلك قوله :

-" أسس العمل مع المعترضين "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 211.
-" لا تنشغلوا بلسعات البعوض "، مصطلح مشروح في مرشد أهل القرآن ص 115 وفي الملاحق ص 214.
-" حذار من شياطين الإنس "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص 143.
-" سر شقاء الضال وسعادة المؤمن "، مصطلح مشروح في مرشد الشباب ص143.
" تمكن أهل الضلالة من مقاومة الحق وأهله "، مصطلح مشروح في حقائق الإيمان ص 55.

6- خاتمة

كشفنا في هذا العرض عن الكليات الخلقية وعن الأساليب والصيغ التي جاءت بها، وخلصنا إلى تعيينها مفهوما وشكلا مع الإشارة إلى الطريقة المتبعة والمنهج المسلوك في بحث قضية الأخلاق من رسائل النور بصفة خاصة، ثم أتينا على طرق تصنيف الكليات الخلقية بين بديع الزمان ومفكري الإسلام، ثم تعرضنا إلى تصنيف الكليات المستخلصة من الرسائل حسب المقامات التي نرى أن بديع الزمان عينها وقصدها .

وهذا العرض هو محاولة متبوعة بالبحث في مصادر أخرى لم تقع عليها أيدينا من رسائل النور، ومستدركة بالشرح والتفصيل في المفاهيم التي أرادها بديع الزمان وقصدها باستعماله لتلك المصطلحات، محاولة تنير طريق البحث في **المعجم الخلقي الشامل** المستخرج من رسائل النور وتدعو إليه، وسيكون العمل مكللا بالنجاح إن انبثقت عن المؤتمر ورشة تبحثه بطريقة جماعية، وجهود الجماعة مكللة بالنجاح و (لا تسند حصيلة الجماعة لشخص واحد) كما قال بديع الزمان، وصلى الله وسلم وبارك على محمد و آله وصحبه .

الهوامش:

1 انظر اللمعات –كليات رسائل النور 7– ص 246 –ترجمة إحسان قاسم الصالحي –مطبعة سوزلر للنشر– الثانية 1993م.
2 المصدر السابق ص 250.
3 المصدر السابق ص 228–229.
4 انظر الملاحق –كليات رسائل النور رقم 3–ص 101 –ترجمة إحسان قاسم الصالحي –مطبعة سوزلر للنشر– الثانية 1993م.
5 مرشد أهل القرآن –ص166– ترجمة إحسان قاسم –سوزلر للنشر –الأولى 1998م.
6 اللمعات / مصدر سابق ص 242.
7 المصدر السابق .
8 المصدر السابق .
9 المصدر السابق .
10 المصدر السابق .
11 لسان العرب لابن منظور –فصل الكاف حرف اللام– 110/14 – طبعة مصورة عن طبعة بولاق – الدار المصرية للتأليف والنشر. وانظر تاج العروس لمرتضى الزبيدي – 959/15 – طبعة دار الفكر – 1994 .
12 انظر تلخيص كتاب ارسطو طاليس في الجدل لأبي الوليد ابن رشد – تحقيق وتعليق د. محمد سليم سالم – ص16 وما بعدها – الهيئة المصرية العامة للكتاب – طبعة 1980. وانظر كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي – 1261/3 – دار صادر – بيروت .
13 انظر الموافقات للشاطبي –المجلد الثاني كتاب المقاصد – 20/2– تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان – دار ابن عفان –الأولى 1997م .
14 راجع المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا –239/2–240– دار الكتاب اللبناني – الطبعة الأولى 1973م.
15 انظر ما ذكره بخصوص هذا الموضوع في مرشد أهل القرآن ص 81 و ص91 مصدر سابق ،وراجع السنة النبوية مرقاة ومنهاج– كليات رسائل النور رقم 3 – ترجمة إحسان قاسم الصالحي سوزلر للنشر – الأولى 1997م.
16 انظر مرشد أهل القرآن . من ص 20 الى ص 43.
17 انظر المصدر السابق من ص 44 الى 79.
18 راجع البحث الجيد الذي كتبه بديع الزمان في مرشد أهل القرآن تحت عنوان : (تبدل الأخلاق باختلاف المنازل) والذي حكم فيه على الأخلاق بالنسبية ص 170 وما بعدها .
19 انظر مرشد أهل القرآن ....ص105.
20 المصدر السابق ص 108.
21 انظر اللمعات ص 523.
22 مرشد أهل القرآن ص 108.
23 المصدر السابق ص 66.

24 المصدر السابق ص 126.
25 انظر مرشد الشباب : ص 85 ترجمة إحسان قاسم الصالحي –سوزلر للنشر– الأولى 1997م.
26 مرشد أهل القرآن ص 117.
27 المصدر السابق ص 115.
28 المصدر السابق ص 40.
29 مرشد أهل القرآن ص 114.
30 المصدر السابق ص 124.
31 المصدر السابق ص 132.
32 انظر الملاحق ص 243.
33 مرشد أهل القرآن ، ص 226
34 المصدر السابق ص 225 .
35 المصدر السابق ص 123.
36 انظر مرشد الشباب ص 133
37 مرشد أهل القرآن ص111
38 مرشد الشباب ص 60.
39 انظر اللمعات ص66.
40 انظر ما ذكره في الشرط الرابع من " اللمعات " ص 229.
41 انظر تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ....ص 65.
42 الذريعة الى مكارم الشريعة ...ص 142.
43 إحياء علوم الدين 73/3.
44 العواصم من القواصم 198/1
45 الذريعة الى مكارم الشريعة ص 142.
46 مدارج السالكين لابن القيم 308/3– تحقيق محمد حامد الفقي – دار الكتاب العربي– بيروت –1972.
47 كتاب الفوائد ص 81– دار الكتب العلمية –بيروت الطبعة الثالثة 1983م .
48 المصدر السابق ص 81–82.
49 المصدر السابق .
50 سورة الفرقان الآية 68.
51 الفوائد ص143.
52 الفوائد ، ص (143–144).
53 صيد الخاطر ص 383.
54 طرف من حديث طويل أخرجه البخاري من حديث عائشة في كتاب بدء الوحي – أنظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري 22/1 رقم 3 – تحقيق عبد العزيز ابن باز– طبعة دار الفكر
55 فتح الباري 24/1 .
56 المصدر السابق 26/1.

57 انظر أدب الدنيا والدين ص 47.
58 انظر روضة العقلاء ص 24.
59 حديث جبريل الطويل ، أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب ، انظر صحيح مسلم 1/36-37 ، حديث رقم 8 – كتاب الإيمان – باب بيان الإيمان والإسلام ...تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة دار إحياء الكتب العلمية – القاهرة – طبعة 1954.
60 أنظر شعب الإيمان ،ص 517.
61 انظر الملاحق ،ص :168 ومرشد أهل القرآن ،ص 192.
62 الملاحق ،ص : 169 ومرشد أهل القرآن ،ص 192.
63 مرشد أهل القرآن ،ص 54.
64 المصدر السابق ،ص 192.
65 المصدر السابق
66 سورة القلم آية 4.
67 حديث سعد بن هشام بن عامر ذاك الطويل ، أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه – كتاب صلاة المسافرين وقصرها –باب جامع صلاة الليل – 1/513 رقم الحديث 746.
وأخرجه أبو داود في السنن – كتاب الصلاة – باب صلاة الليل 2/40 رقم الحديث 1342، والنسائي في السنن 3/199 في باب قيام الليل – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية –بيروت.
68 حديث انس بن مالك مرفوعا – أخرجه البخاري في صحيحه –كتاب الإيمان – بابا حلاوة الإيمان – انظر فتح الباري 1/60 رقم الحديث 16.
69 سورة إبراهيم الآية ،26.
70 أنظر فتح الباري ، 1/60 بتصرف.
71 أخرجه الترمذي في سننه ، أبواب الدعوات – باب ما جاء في فضل الدعاء – رقم 3371 وانظر الترغيب والترهيب للمنذري 2/482 – حديث رقم 21- دار الجيل بيروت – طبعة 1987.
72 أنظر الملاحق ، ص 168 ، ومرشد أهل القرآن ،ص : 192 ، ومرشد الشباب ،ص : 136.
73 سورة سبأ الآية 11.
74 حديث جبريل المتقدم ، أنظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ،ص: 104.
75 راجع على سبيل المثال كتاب (اقتضاء العلم العمل) للخطيب البغدادي – تحقيق ناصر الدين الألباني – فهو رسالة طيبة في هذا الباب.
76 جامع العلوم والحكم ،ص :104.
77 سورة المائدة الآية 93.
78 أنظر الذر المنثور للسيوطي – تفسير سورة الشورى –10/6 دار الفكر بيروت – وتاريخ بغداد 1/255 ترجمة رقم 79 دار الكتب العلمية بيروت – وأبو حاتم ابن حبان في المجروحين 2/106 طبعة دار الوعي .
79 أنظر مرشد أهل القرآن ،ص : 192.
80 الفوائد ،ص : 128.

81 سورة المطففين الآية 26.

82 حديث (لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ،ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها) أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه – كتاب صلاة المسافرين وقصرها –559/1 رقم الحديث 816، وانظر كتاب الفوائد مع تعليق ابن القيم عليه في ص:140

83 كتاب الفوائد ،ص : 128 ، وراجع بعناية ما كتبه في ص 119 وما بعدها .

84 أي أمتنها وأقواها واشدها ، مستوحى من حديث لابن عباس رضي الله عنهما ،:" سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟ فقال : أحمزها " ، قال في تاج العروس :" وهو مجاز " ، أنظر تاج العروس 53/8.

بديع الزمان... والمناعة من آثار العولمة

د. محمد عبد النبي(*)

البحث في سير الرجال مورد قد لا تصفو دلاؤه، وتسجيل انطباع أو الخروج بمنهج قد لا يسر المحب،أ و قد يغيظ خصيما يسوءه أن ينسب إليه فضل، و يذكره الأخلاف بخير، أو أن ينصفه تاريخ بعد أن أغمط حقه أقران، و رجال ساءهم أن يشوش عليهم سوء مسلك أو شرور خيار.

إننا في وقت لا يرحم فيه من يتخلف، عن مواكبة حدث، أو متابعة قضية، أو تحصيل معرفة، فأين موقع من ينـــزوي في ركن، أو يختلي بنفسه، بعيدا عن ضوضاء عصـــر، تتلاحق فيه الأحداث سراعا، وأنى لمن هذه حاله، أن يدعي سبقا في فكر، أو ريـــادة في إصلاح، و هو على قيد الحياة،فإذا غيبه الموت خشي عليه أن يخمل ذكره، فضلا عـــن بقاء الأثر.

يقول شمعون بيريز : "... إن رخاء الأمة يأتي حصيلة تجميع المعرفة، فالمعرفـــة هـــي الثروة الحقيقية على أعتاب القرن الحادي والعشرين ."[1]

و يذهب أبعد من ذلك حين يقرر " أن موقع الصدارة و الهيمنة سيكون للمبـــادئ القائمة على العلوم والمعرفة التي يتم إحرازها في الجامعات و معاهد الأبحاث." [2]

لا يعني سوق هذا الكلام الآن الانبهار بقائله أو الاستدلال به دون تحفظ، غـــير أن الأيام تثبت أن من يسيطر على صناعة المعلومة و توظيفها أقدر على تســـنم الصـــفوف الأولى. ولو استحضر القارئ كلام النورسي واقتطعه من السياق العام لمنهج الرجـــل في التفكير لوقف على حجم المفارقة، و انتابه إحساس غامر بأن قائله يعيش التزاما يتذوق حلاوته، يشوش عليه خيار فرضه عليه أغيار، فتمتزج الحرية بالإكراه، و تختلط فلســـفة

(*) أستاذ بكلية العلوم الإسلامية – رئيس اللجنة العلمية لقسم أصول الدين – جامعة الجزائر – الجزائر.

العزلة مع أنين التشكي من الوحدة،و جهاد تصبر تبتغى محامده، مع نفثات جزع لا يكاد يبين، لترتسم لوحة لأسير تحبسه جدر، فيكسرها بسياحة عقل ووجدان تتخطى عيون من يترقب، و تقفز على أسوار لا تمسك إلا بالجسد، ولا سلطان لها على فكر يتأبى على القيد، و مشاعر لا ترضى بسوى الحب طريقا ومنهجا.

لعل من الأمور التي يتميز بها منهج النورسي، و قد يذهب في هذا التميز حد التفرد أن له في الدعوة–ربما على غرار الفقه – مذهبا قديما و آخر جديدا، و هو ما لم نلمسه عند أحد من الدعاة في العقود الماضية على الأقل،ومهما اتفقنا أو اختلفنا مع المذهبين أو الخيارين فإن هذا لا يمنعنا من الإحساس بالإعجاب والإكبار، برجل يراجع فكرا مشى عليه عقودا،و ربما أقنع به أتباعا، فيتراجع و لا يعدم الشجاعة في الجهر بذلك، لكن الأهم من ذلك كله أن نقف على النسق الفكري و الدعوَيّ الذي تلتئم به مفردات المنهج،حتى إذا أخضعت التجربة للنقد و التقييم انتفت عن العمل أمارات ارتجال يسئ، أو بوادر تحيز أو تحامل لم يسلم منهما كثير من الناس.

من السهل أن يسارع المرء إلى اتهام–من "يفاخر" بل "يتحدى"بعدم الاطلاع على جريدة طيلة ثماني سنوات[3] – بقلة الوعي أو قصور المنهج أو حتى الإخلال بالسنة ؟ وقد يكون رأيا له وجاهته، لكن الصحيح في منهج النظر أن يدرج التصرف ضمن الخيار الثاني المعلن و المبرر، تماما كالنهج القديم الذي كان يسمح له بقراءة ثمان جرائد في اليوم الواحد.[3]

وعندما يشرح سبب إعراضه عن السياسة فيقول بأنه خاض غمار السياسة، " ما يقارب العشر سنوات عله يخدم الدين و العلم عن طريقها فذهبت محاولته أدراج الرياح، إذ رأى أن تلك الطريق ذات مشاكل ومشكوك فيها...و أن أغلبها خداع و أكاذيب، وهناك احتمال أن يكون الشخص آلة بيد الأجنبي دون أن يشعر.." [4] عندما يفعل ذلك لا يهمه أن يوافَق أو يخالَف، و قد نناقشه في مدى صحة بعض الحجج التي تسانده، أو المدة التي جُعلت مقياساً للفشل إذا قيست بمدد الأنبياء و المصلحين، و قد نجادله حتى في الإيحاء بالنجاح في الخيار الثاني، إذ القياس قد لا يثبت مع فوار ق المقارنة، والنجاح حين يناط السعي فيه بفرد يختلف التقدير فيه عن الفشل الذي يلحق شخصاً وفي العنق تبعات شعب و أمة. والدعوات الكبرى لا يلاحقها التردد أو التعثر أو حتى التبديل بمجرد احتمال التوافق مع الآخر أو التسخير من قبل العدو.

إن من يعيش على ضفاف أحداث العولمة – و ليس الواقع فيها – تصدمه تصريحات في هذا الموضع أو ذاك من الرسائل، و يكاد يجزم- لأول وهلة – بأن النورسي لا يؤمن بآلياتها الأولية فضلاً عن نتائجها أو آثارها، فالرجل لم يكن يراسل أحداً " وما كنت أكتب رسالة إلا نادراً إلى صديق و حول مسألة إيمانية، بل لم أكتب حتى لشقيقي إلا رسالة واحدة خلال أربع سنوات، فكنت أمنع نفسي عن مخالطة الناس والاتصال بهم، فضلاً عن أن أهل الدنيا كانوا يمنعونني عن ذلك ... " .[5]

إن قضية المنع قضية ثانوية، ولا تساق – في رأيي على الأقل – إلا للتشهير من طرف خفي، أما السبب الحقيقي للإعراض عن الدنيا فهو العناية " بخدمة القرآن والإيمان، والتي هي أجلّ خدمة و أخلصها و أحقها "[6].

ومراجع الرسائل يقف على هذه الخدمة المبتغاة، و هو يعلم و يقدر مسؤوليته كعالم دين:" مكلف شرعا بإفاده الناس، و لذا أريد أن أخدمهم من هذه الناحية أيضاً، إلا أن هذه الخدمة تعود بالنفع على الحياة الاجتماعية ولدنيوية، وهذه ما لا أقدر عليها، فضلاً عن أنه يتعذر القيام بعمل سليم صحيح في زمن عاصف..."[7]

والرجل شديد التواضع في تقدير نفسه و جهده، فلا يجرؤ على التصريح أو الإيحاء بدور أكبر مما يستطيع أو يبتغي، و قد قنع بوصول ما كسبه لنفسه – من حقائق الإيمان وما جربه من أدوية معنوية – إلى الآخرين."لعل الله يقبل هذه الخدمة (يكاد يقول اليسيرة) و يجعلها كفارة لذنوب سابقة. ".[8]

قد لا يعدم المحب المتأول لكلام الشيخ نصا هنا أو هناك، يجري به تعديلاً على منهج استقر، أو فكرة شاعت، يدعو به الأتباع إلى الخروج من" عزلة فكر " أملتها ظروف، لا يحسن أن تدوم مع زوال أسبابها، ألم يوحي كلام النورسي نفسه بمثل ذلك حين ربط وضعاً يعيشه بشيخوخة لا تسهم بالنشاط و تكاد تفقده، وبوحدة لا خيار له فيها تكاد تقطعه عن العالم،" فالدخول في ألاعيب السياسة الخطرة و غير الضرورية في زمن الشيخوخة إنما هو خلاف العقل، و مجانبة للحكمة لشخص مثلي لا صلة له مع أحد، و يعيش منفرداً، ومضطر إلى التحري عن كفارات لذنوبه السابقة ، بل يعد ذلك جنونا وبلاهة ، بل حتى البلهاء يفهمون ذلك ." [9] فهل الشيخوخة و الإكراه يمنعانه من ممارسة السياسة، و لو تغيرت الظروف أو تحسنت لكان له شأن آخر ؟

وهناك كلام آخر للشيخ قد يعزز هذا الطرح لدى المحب المتأول، في أثناء رده على السائل " المفترض" يمكن أن يفهم منه المتأول إمكانية تغيير سعيد لنمط حياته و أسلوب

تفكيره إذا زالت أسباب الأسر والإكراه: "أيها السادة: بأي حق تكلفونني أن أطبق آداب مدنيتكم ؟ فأنتم قد أجبرتموني على الإقامة ظلما في قرية طوال خمس سنوات، ومنعتموني حتى عن المراسلات و الاختلاط مع الناس، وكأنكم قد أسقطتموني من الحقوق المدنية، فضلا عن أنكم جردتموني بغير سبب من كل شيء، و لم تسمحوا لي أن أقابل أهل مدينتي ... فهذه المعاملات تعني أنكم لا تعدونني من أفراد الأمة ولا من رعايا هذا الوطن،فكيف إذن تكلفونني تطبيق قوانين مدنيتكم، وأنتم قد ضيقتم علي الدنيا على سعتها، وجعلتموها لي سجنا، أفيكلف من هو في السجن بمثل هذه الأمور؟..."[10]

من الواضح أن الرجل يتكلم بمنطق الحقوق و الواجبات في الوطن الواحد،بما يشعر بفهمه الكامل لما يدور حوله،على خلاف مسلك بعض العباد و المنقطعين الذين لا دراية لهم بمثل ما سبق. لكنه في نفس المحاورة يدلي بإشارات تبدو متناقضة في تقييم موقفه "المتردد" أو الموحي بالاضطرار تارة، والاختيار تارة أخرى،"وأنتم قد أقفلتم علي باب الدنيا، وأنا بدوري قد طرقت باب الآخرة، ففتحته باب الرحمة الإلهية، فكيف يطالب من هو واقف في باب الآخرة أن يطبق عادات أهل الدنيا وآدابها المشوشة، فمتى أطلقتموني حرا وأعدتموني إلى مدينتي وموطني ، وأعطيتموني حقوقي كاملة، فلكم عندها أن تطالبوا بتطبيق آدابكم."[11]

فهل سبب الانقطاع عن مدنية "السائل " وآدابها ، ورفض طراز حياته من ملبس وهيئة بما يوحي بالمعارضة :السجن و المنع ؟ أو هو الإقبال على الآخرة الذي يمنعه عن طرق عادات أهل الدنيا ؟

أكاد أجزم بأن السبب الرئيس هو ما ذكر آخرا، أما السبب الأول فلم يذكره إلا من باب التعجيز بالمنطق الذي يدعون احترامه، بدليل جوابه على سؤال مريب وتأكيده الانقطاع الكلي عن الخوض فيما يخوض فيه السائل بإحالتهم على مسلكه السابق على الاعتقال، ففي " الوقت الذي لم أتدخل في دنياكم و أنا في مدينتي و حولي طلابي وأقربائي، و أعيش في وسط من يصغي إلي و يستشيرني،بل لم أتدخل في دنياكم حتى في خضم تلك الحوادث المثيرة، أفيمكن أن يتدخل فيها من هو في دار الغربة، و هو وحيد منفرد، وضعيف عاجز،متوجه بكل وسعه للآخرة ، منقطع عن الاختلاط والمراسلات، و لم يجد إلا بضع أصدقاء في الآخرة، و هو الغريب عن الناس...هذا

الإنسان إذا تدخل في دنياكم العقيمة و الخطرة ينبغي له أن يكـــون مجنونـــا جنونـــا مضاعفا."[12]

قد تكون هناك ثلاث دعائم لمذهب سعيد الجديد ليس لجانب الإكراه أو التقيـــة أو التحيل فيها من أثر، ولتصريح بها أقوى من أي احتمال مجرد، أو مشوب بتأويل، يلجأ إليه عادة تابع مجدد، أو تلميذ حريص على تراث،يخشى عليه الهجران، أو انفضـــاض الأتباع عنه.

فالدعامة الأولى يمكن وصفها بالدعامة المبدئيـــة أو الفلســـفية، إذ ســـعيد القـــديم والمفكرون (المشار إليهم في السؤال) "قد ارتضوا بقسم من دساتير الفلسفة البشرية، أي يقبلون شيئا منها، ويبارزونهم بأسلحتهم (الدفاع عن الإسلام اتجاه أوروبـــا الـــوارد في السؤال) ويعدون قسما نت دساتيرها كأنها العلوم الحديثة فيسلمون بهـــا، و لهـــذا لا يتمكنون من إعطاء الصورة الحقيقية للإسلام على تلك الصورة من العمل، إذ يطعمون شجرة الإسلام بأغصان الحكمة التي يظنونها عميقة الجذور، و كـــأنهم بهـــذا يقـــوون الإسلام. ولكن لما كان الظهور على الأعداء بهذا النمط من العمل قليل (قليلا)؟، ولأن فيه شيئا من التهوين لشأن الإسلام، فقد تركت ذلك المسلك ، و أظهرت فعلا أن أسس الإسلام عريقة وغائرة إلى درجة لا تبلغها أبدا أعمق أسس الفلسفة، بل تظل ســـطحية تجاهها.."[13]

أما الدعامة الثانية فتتعلق بالأولى من حيث الحرص على نظافـــة الفكـــرة وعـــدم التشويش عليها بالشبهات تقتنص، أو بالاتهامات تلقى، يسمح بها أو يبررهـــا موقـــع يتبوؤه المصلحون، لخدمة الدعوة، فيستغله خصيم لتوجيه سهام، قد لا تصـــيب، فـــإذا طاشت شاه بها وجه الحقيقة الناصع : " إن الحقائق الإيمانية والقرآنية ثمينة غالية كغلاء جواهر الألماس، فلو انشغلت بالسياسة لخطر بفكر العوام (أو لأخطروا ؟): أيريد هـــذا أن يجعلنا منحازين إلى جهة سياسية ؟ أليس الذي يدعو إليه دعايـــة سياســـية لجلـــب الأتباع؟ (أو لجلب المنافع) بمعنى أنهم ينظرون إلى تلك الجواهر النفيســـة أنهـــا قطـــع زجاجية تافهة، و حينها أكون قد ظلمت تلك الحقائق النفيسة، و بخست قيمتها الثمينة، بتدخلي في السياسة."[14]

ويقول في موضع آخر: " إن خدمة الإيمان وحقائق الإيمان هي أجل من كل شئ في الكون، فلا تكون أداة لأي شيء كان، فإن خدمة القرآن الكريم قد منعتنا كليـــا مـــن السياسة، حيث إن أهل الغفلة والضلالة في هذا الزمان يبيعون دينهم للحصـــول علـــى

حطام الدنيا، و يستبدلون بالألماس القطع الزجاجية المتكسرة، يحاولون اتهام تلك الخدمة الإيمانية بأنها أداة لتيارات قوية خارج البلاد، و ذلك للتهوين من شأنها الرفيع ."[15]

وقد لخص الرجل في عبارة وجيزة خلاصة تجربة تنضاف إلى مبررات انسحاب، وأمارات وعي بأوضاع إذا دخلت، ابتاع فيها الأقوياء المبادئ بثمن بخس، يطلب بمثله المزيد، كلما أبدى الضعيف رغبة في تنازل، يحسبه ظفرا بموقع، حتى إذا جرد من كل ما يملك، أعيد احتلال مواقع السراب، وأرسل من فرط من غير ثوب يتحسر، على دعوة أوهم نفسه بالسعي لخدمتها، فإذا به يستدرج لدفع الأجر مرتين.

يقول بديع الزمان: " إن السياسة الحاضرة الدائرة رحاها على المنافع وحش رهيب، والتودد إلى وحش جائع لا يدر عطفه، بل يثير شهيته، ثم يعود و يطلب منك أجرة أنيابه و أظفاره."[16]

و الدعامة الثالثة في النظرة الجديدة سياسية، بمعنى أن مبرر الاعتزال ينبع من العمل السياسي نفسه،".. فالذي يخوض غمار السياسة إما أن يكون موافقا لسياسة الدولة أو معارضا لها، فإن كنت موافقا فالتدخل فيها بالنسبة إلي فضول، و لا يعنيني بشيء، حيث أنني لست موظفا في الدولة و لا نائبا في برلمانها، فلا معنى عندئذ لممارستي الأمور السياسية، و هم ليسو بحاجة إلي لأتدخل فيها، و إذا دخلت ضمن المعارضة أو السياسة المخالفة للدولة، فلا بد أن أتدخل إما عن طريق الفكر أو عن طريق القوة، فإن كان التدخل فكريا فليس هناك حاجة إلي أيضا، لأن الأمور واضحة جدا، والجميع يعرفون المسائل مثلي، فلا داعي للثرثرة ، وإن كان التدخل بالقوة، أي بأن أظهر المعارضة بإحداث المشاكل لأجل الوصول إلى هدف مشكوك فيه، فهناك احتمال الولوج في آلاف من الآثام والأوزار، حيث يبتلى الكثيرون بجريرة شخص واحد، فلا يرضى وجداني الولوج في الآثام و إلقاء الأبرياء فيها، بناء على احتمال أو احتمالين من بين عشرة احتمالات..." .[17]

بعض من يقرأ الرسائل أو يكتب عنها يسيء إلى الرجل حين يجرّد منهجه من السياسة أو يدرجه في قائمة من يلعنها، لأن هذا الفهم يسلم إلى" انطباع " أو غل في الإساءة عندما يظن قارئ أن بديع الزمان ينقض مبدأ الشمول الذي يفاخر به المفكرون والدعاة، و الذي يعد من الخصائص الكبرى لهذا الدين، أو أن الرجل استسلم لضغوط واقع عجز عن مواجهته، فانزوى في أحد أركانه يتأمل هذا الدين من خلاله، فانحصرت رؤيته عند حدود القفل الذي يستر ق منه النظر .

لكن التدقيق في السياق ينصف الرجل، و الوقوف عند ضوابط الإطلاق ينفي التهم، و" الفقه " الذي تنضح به الرسائل يربأ به عن مجاراة طرائق لا يخفى عـــوار بعضـــها أو قصور بعض دعاتها.

ومن هنا يميز الرجل نفسه عمّن يلج أبواب المشاركة بدون قيـــد، يتحمـــل أو زار العواقب فيها، أو تبعات الإساءة إلى ما يحمل، كما نأى بنفسه عمن يجاهر " بعزلـــة " مدّعاة، تساق إليه بها مغانم يشيع في الناس إقباله عليها، أو يتخذ من الإدبار المعلـــن وسيلة للتكسّب، قد يعجز عن نيل حصائلها مقبل على الدنيا ذو لهفة و لوعة.

إن الرجل لم يكن في كلامه ينفي مثل تلك الانطباعات فحسب، بل كان يؤصـــل لموقف يتخذ، تجاه مدنية خبر أسسا فيها و مبادئ، تجعلها تتناقض – حتى في صورتها التي لم تبلغ الذروة كما هي اليوم، وكما لم يعاصرها بديع الزمان – مع أسس ومبادئ الشريعة الإسلامية، و هو إذ يعمد إلى المقارنة التي تقود إلى التفضيل فإنه لا يرفض ضمنا " عولمة " مبادئ الآخر في صورتها البدائية فحسب، بل ينقض الأسس و المبادئ ذاتهـــا، ويدعو إلى التمسك بقوة بمبادئ المدنية الإسلامية.

ولا يُقال بأن الرجل لا يمكنه أن يحكم على شيء لم يدركـــه أو لم يعاصـــره، لأن الأسس و المبادئ المذكورة في "المدنية الحاضرة" هي نفسها اليوم كما كانت بالأمس، و لم يتغير فيها إلا ازدياد وتيرة النمو في الفضائل السلبية، و لئن رفض الرجل مغرياتها قبل قرن، فينبغي – من باب أولى – أن يكون أشدّ رفضاً لها في الوقت الحاضر مع بقاء نفس الأسس و المبادئ .

" فنقطة إستنادها القوة بدل الحق، و شأن القوة الاعتداء و التجاوز و التعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة ."[18]

فهل تغير شئ من هذا القانون الظالم ، بل إنه يزداد شراسة وشـــراهة كلمـــا ازداد ضعف الآخر، و بخاصة في الظرف الذي تتمحض فيه القوة للظلم، وتنفـــرد بالهيمنـــة والصدارة اللذان يمنعان التدافع، ويضيق على الآخرين هوامش المناورة، و لا تكتفي هذه القلة من البشر الاستئثار بالقوة حتى تضيف إليها الثروة لإحكام طوق النفوذ على باقي البشر. بل إن الرجل يتنبأ بهذا أو بمثله حين يقول عن " آخر الزمان" : " ...أما التيـــار الثاني : فهو التيار الطاغي المتمرد، المتولد من فلسفة الطبيعيين ، هذا التيار ينتشر ويتقوى تدريجيا بوساطة الفلسفة المادية في آخر الزمان حتى يبلغ به الأمر إلى إنكار الألوهيـــة، ويمنح أفراد هذا التيار المنكرون لله سبحانه أنفسهم نوع من الربوبيـــة كـــأنهم نمـــاردة

صغار... "[19] حتى صار بعض الكتاب ينفون-في احتجاج ذي مغـــزى - أن يكـــون "بوش" إلها ؟ !

و الأساس الثاني لهذه المدنية يتعلق بالهدف الذي تقوم عليه، فهو " منفعة خسيســـة بدل الفضيلة، و شأن المنفعة التزاحم و التخاصم، ومن هنا تنشأ الجناية." [20] و هـــل هناك جناية أعظم من السطو المباشر و غير المباشر على مقدرات الشعوب و ثرواتها، من خلال "استعمار "بغيض عايشه النورسي، ومن خلال الشركات الكبرى التي تســـتظل بها عولمة يجري التبشير بها و التمهيد لها على عجل في العالم الإسلامي كله.

" ودستورها في الحياة : الجدال و الخصام بدل التعاون، و شأن الخصـــام التنـــازع والتدافع ، ومن هذا تنشأ السفالة." [21] وقد وصلت السفالة الآن إلى حد التشهير علنا بالإسلام ومبادئه، من قبل أناس تفرض عليهم مواقعهم قدرا من التحفظ يمـــنعهم مـــن الجهر بمشاعر الكره تجاه الآخر، وبخاصة إذا كان مخالفا لهم في العـــرق أو في الـــدين، ولكن زهو القوة يستدرجهم لخرق كل الأعراف و الأذواق.

"ورابطتها بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، و تتقـــوى بـــابتلاع الآخرين، و شأن القومية السلبية ولعنصرية : التصادم المريع، و هو المشاهد، ومن هـــذا ينشأ الدمار و الهلاك." [22] وهي نفسها العنصرية التي تقوم الآن أحزاب على أساسها في الغرب، تقيم برامجها و تسوق نفسها من خلال الوعود بتهجير المسلمين من أوروبا.

"وخامستها : هي أن خدمتها الجذابة تشجيع الأهواء و النوازع، و تذليل العقبـــات أمامهما، و إشباع الشهوات ولرغبات، و شأن الأهواء و النوازع دائما :مسخ الإنسان وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية و تمسخ مسخا معنويا ."[23]

إن إرهاق الإنسان بالمتع و الشهوات، و إشغاله بالتوافه و الاهتمامات الهزيلـــة لا يشكو من وطأتها وآثارها المدمرة المسلمون وحدهم فحسب، بل حتى عقلاء الغرب يجأرون بالشكوى من تغير أنماط الحياة، و تدني الأخلاق، و تسفل الأذواق .

هل هي قراءة دقيقة وناقدة لواقع المدنية الغربية ؟تستشرف مستقبلا يكتنفه غموض، أو تنبؤ بالأسوأ تبين لاحقا أنه أشد ضراوة ؟ قد يكون هذا أو ذاك، من رجل سمح لـــه التأمل بملاحظة ما لا يلاحظه كثير من الناس، و بخاصة أولئك الذين بهـــروا بمظـــاهر خادعة، و أشكال زائفة، تخفي حقائق الأشياء

" إن معظم هؤلاء المدنيين لو قلبت باطنهم على ظاهرهم لرأيت في صورتهم ســـيرة القرد و الثعلب والثعبان ولدب و الخنـــزير ." [24]

و من ثاقب بصر النورسي و هو يتحدث عن أسس هذه المدنية الغربية أنه تنبأ لها وللعالم بالمزيد من الآثار المدمرة . " إن مجموع ما ارتكبته البشرية من مظالم و جرائم وخيانات في القرون الأولى قاءتها واستفرغتها هذه المدنية الخبيثة مرة واحدة ، و سوف تصاب بالمزيد من الغثيان في قابل أيامها " [25] ووقع ما تنبأ به الرجل فعلا، فقد استفرغت حربين عالميتين بعد ذلك كما يقول المترجم.

وفي مقابل ذلك تقوم مدنية القرآن على أسس مختلفة تماما بل متناقضة :

" فنقطة استنادها الحق بدل القوة، و من شأن الحق دائما العدالة و التوازن، ومن هذا ينشأ السلام و يزول الشقاء.

و هدفها الفضيلة بدل المنفعة، و شأن الفضيلة المحبة و التقارب، و من هذا تنشأ السعادة وتزول العداوة .

و دستورها في الحياة التعاون بدل الخصام و القتال، و شأن هذا الدستور الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

و خدمتها للمجتمع بالهدى بدل الأهواء و النوازع، و شأن الهدى الارتقاء بالإنسان و رفاهه إلى ما يليق به مع تنوير الروح ومدها بما يلزم.

و رابطتها بين المجموعات البشرية رابطة الدين و الانتساب للوطن، و علاقة الصنف والمهنة و أخوة الإيمان،

و شأن هذه الرابطة أخوة خالصة و طرد العنصرية و القومية السلبية." [26]

هذه هي المبادئ التي ينبغي أن تسود، و أكاد أقول : هي التي ينبغي أن **"تعولم"**، لأنها نافية للشر مجلبة للخير

و حتى مظاهر الغبن التي يستدل بها السيد بديع الزمان قبل عقود هي نفسها تقريبا التي توردها دوائر الإحصاء ولمتابعة، فالمدنية التي يرقبها " ألقت بثمانين بالمائة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة بالمائة منها في سعادة مزيفة، أما العشرة الباقية فهم حيارى بين هؤلاء و هؤلاء، و تتجمع الأرباح التجارية بأيدي أقلية ظالمة، بينما السعادة الحقة هي في إسعاد الجميع ، أو على الأقل أن تصبح مبعث نجاة للأكثرية "[27]

و يعرض النورسي لتلميذ المدنية الغربية و تلميذ مدنية القرآن، و كيف أن الأسس السالف ذكرها تجعل الأول عبدا للقوة و اللذة، أما الآخر" فهو عبد عزيز " لأنه يخضع لعبودية حقيقية ، وهي غير تلك التي يخضع لها الأول.

" إن الذي يتلقى الدرس منك(المدنية الغربية) و يسترشد بهديك يصبح" فرعونا " طاغية، و لكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس الأشياء، و يتخذ كل شئ ينتفع منه ربا له، وتلميذك هذا متمرد أيضا، لكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذة تافهة يقبل قدم الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل و الهوان .و هو" جبار"، لكنه جبار عاجز في ذاته، لأنه لا يجد مرتكزا في قلبه يأوي إليه.

إن غاية ما يصبو إليه تلميذك و ذروة همته : تطمين رغبات النفس و إشباع هواها، حتى إنه دساس يبحث تحت ستار الحمية و التضحية و الفداء عن منافعه الذاتية، فيطمئن بدسيسته و خبثه و حرصه، و يشبع نهم غروره، إذ لا يحب حقا إلا نفسه، بل يضحي بكل شئ في سبيلها.

أما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم فهو " عبد "، و لكنه لا يتنزل لعبادة أعظم مخلوق، فهو "عبد عزيز " لا يرضى حتى بالجنة؟ (هل كل الناس مثل رابعة العدوية، و على كل حال فالطمع في الجنة أمر مشروع و مرغوب .).تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله. و هو " لين هين "، و لكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره و إذنه، فهو صاحب همة عليا و عزيمة صادقة.

و هو " فقير "، و لكنه مستغن عن كل شيء بما ادخره له مالكه الكريم من الثواب الجزيل.

و هو " ضعيف " و لكنه يستند إلى قوة سيده المطلقة، فلا يرضى تلميذ القرآن الكريم الخالص حتى بالجنة الخالدة مقصداً و غاية له؟! فكيف به بهذه الدنيا الزائلة...".[28]

هذا هو الإنسان الذي تنتجه كلتا الفلسفتين، و هذا هو مبلغ التفاوت بين همتي كل منهما، و لعل الفرق يظهر أكثر في مدى التضحية و الفداء لدى كل منهما: " فتلميذ الفلسفة يفر من أخيه أثَرة لنفسه، ويقيم عليه الدعوى، أما تلميذ القرآن فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين في الأرض و السماوات إخواناً له، و يشعر من أعماق روحه بأواصر تشدّه نحوهم... " [29] هذا هو الوضع المثالي المفترض في هذا التلميذ" ...بيد أن درجات الناس متفاوتة في الهداية و الضلالة، و مراتب الغفلة مختلفة متباينة، فلا يشعر كل واحد بهذه الحقيقة في كل مرتبة، إذ الغفلة تبطل الحس و الشعور و تخدرهما، و قد أبطلت في هذا الزمان الحس والشعور إلى حد لم يعد يشعر بألم ومرارة هذا العذاب الأليم أولئك السائرون في ركاب المدنية الحاضرة ...".[30]

كثيراً ما يلجأ النورسي إلى هذه المقارنات ليوقف قرّاءه على حقيقة الخير الموجود في دين غفل عنه الأتباع، وليدعوهم للتمسك بما يفرطون فيه، و الحذر مما تهواه أنفسهم من السير في ركابه، إنها دعوة للتحصن يتبعها بنداء صريح لا لبس فيه: " فيا أبناء هذا الوطن لا تحاولوا تقليد الإفرنج، و هل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا الشنيع (اليوم أميركا) وعداوتهم اللدودة تتبعونهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب أفكارهم الباطلة، وتلتحقون بصفوفهم و تنضوون تحت لوائهم بلا شعور؟...".[31]

و يكرر النداء فيقول: " فيا شبان الترك : فهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا معكم و عداوتهم لكم تتبعونهم في سفاهاتهم و أفكارهم، بل تلتحقون بصفهم بلا شعور؟ ألا إنكم تكذبون في دعوى الحمية، إذ هذا الاتباع استخفاف بالملية و استهزاء بالملة. هدانا الله وإياكم إلى الصراط المستقيم ." [32]

و إذا أردنا أن نستحضر هذا الكلام الآن، أو أن نسقط هذه الدعوة للمفاصلة على عصرنا الحاضر، فلا مفرّ من الإقرار بأنها تناقض دعوات الانصهار أو التبعيّة تناقضاً مطلقاً، وتقف من قوانين العولمة و آلياتها الجاري تعميمها موقفاً معارضاً لا مجال فيه لأدنى تأويل أو ترقيع، و الرجل لا يقنع بذلك – و كأنه بيننا – حتى يشن حملة على الخصال و الأخلاق و أنماط العيش التي تمكن لهذه العولمة في ديارنا، و قد لا تختلف كثيراً الأجواء التي تصطنع قديماً و حديثاً، و الفراغ الذي يُستحدث في ميدان القيم، لملئه بمظاهر التقليد المفضية للخضوع و التبعية.

إن الأوضاع التي صدرت فيها هذه الدعوة قد لا تختلف مع أوضاع اليوم إلا في القدر و الحجم، و الآليات الناتجة عن الثورة التكنولوجية، ذلك أن الإنسان هو المستهدف في النهاية عبر كل العصور: في دينه وخلقه و ذوقه وتقاليده .

لقد أشار فيما مضى إلى رابطة الدين كأساس من أسس مدنية القرآن، و ذكر أن من شأن هذه الرابطة الأخوة المنافية للعنصرية و القومية السلبية. و ذكر في مواضع عديدة من الرسائل أن لها آثارا مدمرة،" منها أن الأمويين خلطوا شيئا من القومية في سياساتهم فأسخطوا العالم الإسلامي، فضلا عما ابتلوا ببلايا كثيرة من جراء الفتن الداخلية. وكذلك شعوب أوروبا لما دعوا إلى العنصرية و أوغلوا فيها في هذا العصر، نجم العداء التاريخي الملئ بالحوادث المريعة بين الفرنسيين و الألمان..." [33]

و ذكر أيضا أن بعض الأوروبيين يشيعون هذه الفكرة أو القومية السلبية في أوساط المسلمين ليسهل لهم ابتلاعهم " فأطماع أوروبا لا تفتر و لا تشبع، و هي كالثعابين الضخمة الفاتحة أفواهها للابتلاع."[34]

و قد أملت هذه الدعوة حتى أضحت الدعوة للقومية السلبية مطمحا ترنو إليه الجماهير لما بلغت حالا من التفكك طال القطر الواحد، بعد أن أتى على رابطة العرق التي جعلت بديلا لرابطة الدين فغدت دعوة المعتصم صرخة في واد، ليس فقط لذهاب النخوة و الشهامة ، بل لأن الصرخة نفسها يستهجنها أخلاف متمردون ،و تتأكد بهذا مقولة النورسي أن أوروبا (أمريكا اليوم) لا تشبع و لا تنتهي أطماعها .

إن كلام بديع الزمان عن قومية سلبية يوحي بتزكيته لأخرى " ... إيجابية نابعة من حاجة داخلية... تكون وسيلة لإسناد أكثر للأخوة الإسلامية ... و هي مطلوبة حين تكون خادما للإسلام ... لا بديلا عنه." [35] وشعارها قوله تعالى :[**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**...] الحجرات:13 " أي خلقناكم طوائف و قبائل و أمما وشعوبا كي يعرف بعضكم بعضا، و تتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية ، لتتعارفوا فيما بينكم، و لم نجعلكم قبائل و طوائف لتتنا كروا فتتخاصموا ."[36]

هذا هو المبدأ الذي أكده الشيخ مرارا، و حذر أمته من الانحراف عنه، لأن في ذلك إيذانا بالأفول والزوال، و هو ما تحقق بالفعل، إذ لم تجد دعوته و تحذيراته آذانا صاغية، فبعد أن أعمل الغرب فينا معاول الهدم و التفكيك راح يستمسك بشعارات القومية والدين لإنجاز مشروعه الوحدوي ؟!

تعتبر "صناعة " الجوع من أبرز تداعيات أو "آليات" العولمة، لأنه يدفع حكومات العالم النامية إلى الاستدانة من مؤسسات الإقراض الدولية، فتزداد الشعوب رهقا على رهق، و يصبح الهم الوحيد هو تسديد فوائد الديون، حتى أضحت كثير من الدول رهائن في أيدي هذه المؤسسات، و كان من نتائج ذلك أن انتهكت السيادة، و طوّح بالقرار المستقل.

لا يمكن المجازفة بالقول : إن النورسي كان يطرح في زمانه حلولا لمشاكل يومنا، فهذه –ربما – شنشنة يرددها تابع محب، لا يكاد يرى غير الأفضال و الفضائل ، و لكن لا يمكننا أن ننكر وجود كلام للرجل في الرسائل، يتنبأ فيه باشتداد بعض الأزمات، يقترح لها عناوين للعلاج، من واقع تشبعه بهدايات القرآن،وتأملاته في الواقع و الآفاق،

فحين يتوقع حدوث الجوع – مثلا - في آخر الزمان لا يهم الباحث أن يدرج ذلك ضمن الكرامات التي يمكن أن يُعنى الكثيرون بنسبتها للشيخ، و قد يكون هذا صنيع أتباع يتصيدون ما يغيظون به الخصوم،ولكن التحرج من هؤلاء لا يمنع من تقدير هذا الأمر ، و بخاصة حين يذكر أسباب الظاهرة ، و العلاج المقترح ، و هو إذ يفعل ذلك لا يفعله في نقاش أو جدل اقتصادي أو اجتماعي، و إنما هي أوزاع فكر مهمة الباحث أن يدرجها في سياق فكري متكامل.

يقول بديع الزمان : " يفهم من الروايات أن الجوع سيؤدي دورا مهما في فتنة آخر الزمان، و أن أهل الضلالة يحاولون بهذا التجويع إغراق أهل الإيمان – الضعفاء الجائعين - في متطلبات هموم العيش حتى ينسوهم مشاعرهم الدينية، أو يجعلوها في المرتبة الثانية أو الثالثة."[37] وهذا الذي حصل و لا يزال يحصل.و ينبه القراء إلى أن المدنية الغربية أفرزت أنماطا معيشية أدت بالناس إلى إعادة ترتيب أولوياتهم، وأغرقهم بالتقليد الذي دفعهم إلى الإسراف و التبذير ، و في هذا إشارة واضحة لأسباب بعض العلل،

تكمن في التحرر من التقليد الأعمى، فقد " كان البشر في عهد البداوة تعوزهم ثلاثة أو أربعة أشياء، وكان اثنان من كل عشرة أشخاص يعجزان عن تدارك تلك الأشياء الثلاثة أو الأربعة، بينما في الوقت الحاضر – تحت سطوة المدنية الغربية المستبدة، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال، و الدفع إلى الإسراف، و تهييج الشهوات، و إدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية - فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد و الإدمان مفتقرا إلى عشرين حاجة بدلا من أربع منها ضرورية، و قد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخصا أن يلبوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بشكل مباح، و يبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء، فهذه المدنية الحاضرة إذن تجعل الإنسان فقيرا جدا و معوزا دائما..."[38]

إن العنوان العام لهذا البلاء هو العصيان، و لا يرفع إلا بالتوبة و الرجوع إلى الله، من خلال الإقلاع عن تناول واكتساب المال الحرام، و الإقلال من الطيبات على قدر الضرورة، والسعي لدفع الزكاة، كل ذلك في قوله: " إن أهم سبب لهذه المصيبة هو العصيان النابع من كفران النعمة، و عدم الشكر، وعدم تقدير النعمة الإلهية حق قدرها... إن مهمة أهل الإيمان و أهل الحقيقة - ولا سيما طلاب رسائل النور- هي السعي لجعل بلاء الجوع هذا وسيلة الالتجاء إلى الله، و الندم على الذنوب، والتسليم لأمر الله...والسعي لدفع الزكاة إلى أولئك الفقراء الجائعين، الذين لا يرأف بحالهم قسم

من الأغنياء و بعض أهل المرتبات..."[39] ثم يوجه طلاب رسائل النور إلى ضرورة الانسحاب"... من الذنوب و الفحش، بعدما أطغوا نفوسهم بالأطعمة اللذيذة، فأفقدوها وعيها، و ساقوها إلى الطغيان و الهوى الدنيء ... في هذا الوقت الذي أصبح أغلب الناس جياعا، واختلط المال الحرام بالحلال اختلاطا شديدا حتى استحال تمييز أحدهما عن الآخر..." وحثهم على القناعة "... بمقدار الضرورة من الإعاشة العامة – التي يشترك فيها الجميع ضمنا-ليكون حلالا، فيقابل القدر الإلهي بالرضا بدلا من الشكوى." [40]

أما الإقلاع عن الذنوب و التوبة النصوح فهذه نصائح العقلاء في كل زمان و مكان، و أما الاقتصاد في المعيشة و دفع الزكاة فهي وصايا أهل الاقتصاد – اليوم و غدا – كحلول ناجعة لمشاكل الجوع و الفقر المزمنة .بل إن سعادة البشرية " منوطة بالاقتصاد و عدم الإسراف، و على إثارة الهمم للسعي و العمل والكد..و أنه بهذين الشرطين يتم التآلف و الوئام بين طبقتي البشرية..." [41]

و يوجه خطابا إلى عقل المسرف و قلبه، فيقول له : " يا أخي المسرف : لقمتا ن مغذيتان، إحداهما بقرش والأخرى بعشرة، هما سيان قبل دخولهما الفم، و سيان كذلك بعد مرورهما من الحلقوم، فلا فرق إذن إلا ذوق يدوم لبضع ثوان للغافل الأحمق، إذ تخدعه حاسة الذوق دوما بهذا الفرق ...." [42]

و يقول له في الثاني : "لم يكن أكثر المسلمين في السابق جائعين، فكان الترفه جائز الاختيار إلى حد ما، أما الآن فمعظمهم يبيتون جياعا ، فلم يعد لنا إذن شرعي في التلذذ..."(43) لقد بدأ بنفسه فكان شعاره العيش " بالاقتصاد و البركة ..." [44] لأسباب كثيرة لعل من أهمها رفضه أن يقبل من غير رازقه منة من أحد [45] و لأن "... الذي يحد غالبا أن المعطي يعطي باسم نفسه، فيتمنن ضمنا ، أو أن الآخذ يسند الشكر ولثناء الخاص بالمنعم الحقيقي إلى الأسباب الظاهرية فيخطئ." [46] بتصرف يسير.

إن كثيرا من أسباب المشاكل – على مستوى الدول بخاصة – هي الأيدي التي ترسل بلا حرج، أو تمد على استحياء للتلقي، فيساء إلى المبادئ، و ترتهن المواقف، قد يكون بديع الزمان مبالغا في التزامه، وقد تكون له و لدعوته ظروف خاصة، غير أن المثال الذي ضربه ، لو التزم، و الكلمات التي سطرت،

لو تم استيعابها، على مستوى الأفراد و الجماعات و الدول، لتجنبت كثير من المشاكل والكوارث.لكن الأهم من ذلك أن ما طرح كان مفردات لمنهج مفترض، لمواجهة سلبيات مدنية عاصرها النورسي، و أعتقد أنه يصلح – بقوة الإيمان و العمل – للتخفيف من آثار عولمة هذه السلبيات التي لم يعاصرها، و ما أحسبه يفعل غير ما فعل، لو قدرت له الحياة مرة أخرى.

الهوامش

(1) شمعون بيريز – الشرق الأوسط الجديد: ص173

(2) شمعون بيريز ص:179

(3) بديع الزمان النورسي– كليات رسائل النور– المكتوبات – تحقيق إحسان قاسم الصالحي– دار سوزلر للنشر– القاهرة – مصر– الطبعة الثانية – 1413ه–1992م :77/2

(4)المكتوبات 76/2

(5)المكتوبات 81/2

(6)المكتوبات 78/2

(7)المرجع نفسه

(8)المكتوبات 78/2

(9)المرجع نفسه

(10)المكتوبات 87/2

(11) المرجع نفسه

(12) المكتوبات 87/2

(13) المكتوبات 570/2

(14) المكتوبات 78/2

(15) الملاحق في فقه دعوة النور 159/7

(16) الكلمات 850/1

(17) المكتوبات 76/2–77

(18) الكلمات 855/1

(19) المكتوبات 71/2

(20) الكلمات 855/1

(21) المرجع نفسه

(22) المرجع نفسه
(23) المرجع نفسه
(24) المرجع نفسه
(25)الكلمات 857/1
(26) الكلمات 855/1-856 و انظر أيضا حول الفرق بين المدنيتين : المثنوي العربي النوري 181/6
(27) الكلمات 856/1
(28) اللمعات 181/3
(29) اللمعات 182/3
(30) اللمعات 183/3-184
(31) اللمعات 184/3
(32) المثنوي العربي النوري 272/6
(33) المكتوبات 414/2 و انظر كذلك :70/2 حيث ذكر الأسباب التي أدت إلى ارتكاب المظالم من قبل الأمويين في حق الحسين و شيعته، و التي من أهمها اعتمادهم على قومية العرب و نظرتهم المتعالية إلى سائر الأقوام كأنهم عبيد.
(34)المكتوبات 415/2
(35) المرجع نفسه
(36) المكتوبات 413/2
(37)الملاحق في فقه دعوة النور 161/7
(38) الملاحق في فقه دعوة النور 378/7
(39) الملاحق ...161/7-162
(40) الملاحق...162/7
(41) الملاحق... 378/7
(42) الكلمات 867/1
(43) الكلمات 869/1
(44) المكتوبات 82/2
(45) المرجع نفسه
(46) المكتوبات 16/2

أخلاق العولمة في نظر الإسلام
من
منظور رسائل النور للنورسي

الدكتور موسى البسيط(*)

تـــقـــــديـــم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

إذا قُدّر لأساتذة ومفكرين أن يخاطبوا الإنسان ؛ يرصدوا آماله, ويتحسسوا آلامـــه، ويعالجوا علله وأسقامه, فهذا الأستاذ النورسي الذي من خلال رسائله، تخطّـــى المحليـــة والإقليمية، إلى خطاب عالم الإنسان، منطلقا من عالمية الإسلام، الذي ينبـــذ العنصـــرية والقومية والتعصب، ويعتمد العدل والمساواة والرأفة والرحمة وخالص العبودية، متبرئا من الشرك وطغيان الكفر وَصَلَفه، وما يترتب عليه من ظلم، بوضع الشيء في غير موضعه.

إن آخر صرعات الكفر وأشكاله في عالمنا المعاصر، ما يسمى تدليسا (بالعولمة)، التي يرفضها الإنسان، لأنها لا ترعى له كرامة، ولا تُبْقى له على سيادة.

فما العولمة ؟ وما أخلاقها التي تتميز بها ؟ وما بديلها في الإسلام ؟

وهل تتفق العولمة وأخلاق الإسلام ؟ ذلك ما نعرض له من خلال هذا البحث.

والله اسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل.

(*) جامعة القدس – فلسطين.

مفهوم العولمة

(العولمة) مصطلح حديث يربط الناس بعالم اللاوطن واللاهوية, ويتبنى أنموذج الحضارة الغربية, بل الأنموذج الأمريكي, سعيا إلى الهيمنة الكاملة, ولعل ذلك قد تبدّى في أجلى صورة في الأحداث المتعاقبة، بعد الحادي عشر من سبتمبر حتى يومنا هذا.

وعُرِفت العولمة، بأنها عمليه تقودها القوى الفاعلةُ المؤثرةُ في النظام العالمي، من اجل ترويج قيمٍ وسلوكياتٍ وسياساتٍ ومفاهيم النموذج الغربي الرأسمالي الليبرالي بأبعاده الثلاثة، سياسية واقتصادٍ وثقافية.

إن العولمة فيها الانتقال من المجال الوطني أو القومي الضيق إلى المجال الكوني، وتخطي الدولة القومية، وصولا إلى العالمية، ومما ساعد على تحقيق ذلك والتسريع به، الثورة التكنولوجية والمعرفية والمعلوماتية، وتخطي الحواجز الجغرافية في الاتصالات، حتى لكأن العالم صار بين يديك وفي ناظرك قرية صغيرة.

إن للعولمة جذورها الضاربة في التاريخ، ولا يقال : إنها وليده هذا العصر، بل إن النزعة العالمية كانت وما زالت منذ القدم تراود أذهان البشر، إلا أن واقع ما نراه اليوم من انتشار ظاهرة العولمة واعتبارها تيارا جارفا، ومذهبا هادفا له رؤاه الاقتصادية والسياسية والثقافية، إنما كان شيوعه والدعوة إليه وتبنيه بعد انتهاء الحرب الباردة .

ولابد من التفريق ابتداء بين "العالمية" من حيث أنها تهدف إلى الخير والنفع والتعاون...، وبين "العولمة" كمفهوم له ارتباطه بالهيمنة وتسلط القوي على الضعيف.

أجل، إن "العولمة" ..... أو قل إن شئت الأمركة، إنما تعني تحقيق عالمية الأمر ولو قسرا من غير تدرّج، وهي حالة تطبيع عالمي لكل ما هو غربي، أو على وجه الأخص أمريكي، وهي الحركة النشطة والحرة والمتسارعة للمقاولات العالمية،

(مالية، وتجارية و معلوماتية)، وهي كما عرّفتها (ندوه العرب والعولمة) تعني :

"سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع والأموال والأفكار بين مختلف الدول على نطاق الكرة الأرضية، ولا يمكن لأحدٍ أن يعزل نفسه خارجاً أو يبتعد عن تأثيراتها"[1].

أخلاق العولمة

إن العولمة تتخطى الحدود والقيود، ولا تعترف بشيء منها، إنها تعني انتقال الآخر إلينا، وعالمية ما عنده، وهي استرقاق كلي تحت غطاء عصري مزيف، وذلك كله يحمل ضياع الهوية الشخصية.

لقد دخلت العولمة كل بيت وكل أسرة، لتصوغ المجتمع وفق عقلية القوي الغالب، ووفق التركيبة الغربية، وأصبح من الحداثة التمسك بالمظاهر الاجتماعية ذات الطابع الغربي، كالحرية الجنسية للمرأة والرجل، وحق المرأة في المعاشرة والإجهاض، الأمر الذي فيه الهدْم للأسرة، ومن ثم للمجتمع المسلم.

إننا شاهدنا (العولمة) في أجلى صورة لها، وخبرنا أخلاقها من غير لبْس أو غموض، إذ ظهرت في الآونة الأخيرة بعد الحرب التي شنتها أمريكا على ما تسميه (الإرهاب)، وهو المصطلح الذي دأبت تطلقه على كل من يخالف رؤيتها وخط سيرها، فكل مَنْ لا يرعوي لهذه القوى وينصاع لعولمتها، إنما هو إرهابي.

العولمة والمصطلح المقلوب !!

حتى إن القيم والمبادئ التي يسعى الإنسان لتحقيقها؛ من حرية، وعدالة ومساواة، وديمقراطية، وسلام، وحقوق إنسان، كلّها مبادئ عظيمة في خدمه الإنسان والحفاظ عليه، غير أنها، وهي تروّج عالميا وتتبناها قوى العولمة، تنزعها من مضمونها، وتجعل لها مضامين أخرى تتفق مع مصالح تلك القوى؛ فما الحرية إلا التحلل من كل القيود الخُلقية والعُرفية والدينية والإنسانية، حتى لكأن الحرية هي التفلّت واستباحة الدماء والأعراض، إنها الشذوذ الجنسي، إنها الزواج الأثني، إنها عدم الاعتراف بمؤسسة الأسرة، ما يجلب مزيدا من الإنحطاط والتردي.

(وحقوق الإنسان) وما أدراك ما حقوق الإنسان، هي حقوق الإنسان الغربي بل حقوق الإنسان الأمريكي بل حقوق الإنسان اليهودي، أما إذا كان مسلما فلا إنسانية له، حلال حرقُه وإبادته وسحقه بالدبابات، وتقطيعه ودفنه في مقابر جماعية، وكل ذلك قد حصل، ووقف العالم يشهد ذلك على شاشات التلفزة في البوسنة وفلسطين.

(وحقوق الإنسان) سلاحٌ تشهره قوى العولمة حين ترغب في ممارسة مزيد من الضغط على حكومة من الحكومات التي تريد منها الانصياع لها، والسير في ركابها، فتعدّ لها لائحة اتهام، بأنها فعلت وفعلت .... وانتهكت حقوق الإنسان ...

(وحقوق الإنسان) هذه تُفَسّرها قوى العولمة حسبما يتفق مع رؤاها السياسية، وحين يعطي الإسلام للمرأة وضعا خاصا يتناسب مع طبيعتها وفطرتها، ويوفيّها حقوقها كاملة فيكرمها، وينزلها المنزلة اللائقة بها ... في ذلك كله هو ينتهك حقوق الإنسان من وجهة نظر العولمة ..

والإسلام حين يُلْزم المرأة بالحجاب، ويمنع من تبذلها واختلائها بالرجال، واختلاطها بهم، الاختلاط المنحل، إذن هو يميز بين الجنسين بما يمس حقوق الإنسان ... في نظر دعاة العولمة.

وبالجملة فحقوق الإنسان تريدها – قوى العولمة المسيطرة – أداةً تخدم مصالحهم، وحين يطلقون حقوق الإنسان فهم يعنون حقوق إنسانهم فقط .

وهذا الإنسان عندما ألْحدَ وقطع علائقه بالسماء، و لم يعترف بالله ربا ومعبودا، نصّب نفسه (الرب)[1]، وهي ظاهره تتكرر في التاريخ البشري، تعرف بظاهرة الفرعونية، وقد برزت في قول فرعون : (أنا ربكم الأعلى)، وأراد بذلك أن يسحق ويمحق ويتجبّر, ونفى أن يكون في الكون رب سواه ومعبود غيره يستحق العبادة، فقال {ما علمت لكم من اله غيري} .

المصطلحات كلها في نظر قوى العولمة، مصطلحات مقلوبة، مفرّغة من مضامينها، ليست هي كما نفهمها، ولكن كما يفهمها الآخر ويفسرها، فالسلام الذي يحقق الهيمنة لقوى العولمة والصهيونية هو السلام الحقيقي!! وليس بسلام ذلك الذي يحقق أدنى معاني الكرامة للإنسان المسلم !

"والعولمة " لها مؤسساتها المتنوعة، التي من خلالها تحقق الهيمنة، اقتصاديا وسياسيا ومعلوماتيا وثقافيا، ولا تزال المؤسسات الثقافية تعمل وتضغط حتى تنزع الهوية الثقافية

---

[1] استقر هذا التوجه في العقلية الغربية منذ أن أفصح " نيتشة " في كتابه (هكذا تكلم زرادشت) عن عقيدة موت الإله!!

هذه المقولة التي تعبر عن انتقال مصادر المعرفة من الكنيسة إلى الإنسان وتمثل مرحلة الحداثة، لكن الأخطر، أنه وبعد مرحلة الحداثة تبنى الفكر الغربي موت الإنسان وبالتالي أصبحت القيم والأخلاق من النسبي المتغير غير المنضبط إلاّ بالأهواء والشهوات والمصالح والهيمنة، وصولا إلى شريعة الغاب.

للامة، فتنطبع الحياة الثقافية بالصبغة الغربية، بصبغة الأمركة ولا حاجة إلى ممارسة ضغط عسكري ليحقق انسلاخا من الهوية الثقافية .

والعولمة الاقتصادية المعاصرة اتخذت آليات جديدة لفرض هيمنتها الاقتصادية على الشعوب، حيث تبقى هذه الشعوب مشرئبة الأعناق تتطلع إلى قوى العوله الاقتصادية بمؤسساتها تمدها الأخيرة بالغذاء .

وابرز آليات ووسائل العولمة الاقتصادية التي تمارس استرقاقا واستعبادا للشعوب، صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية (الجات)، والشركات المتعدية الجنسية .

وكل ذلك من شأنه التدخل المباشر في سياسات الدول، و الهيمنة على المقدرات، واستباحة التدخل في رسم السياسة الاقتصادية للدولة المقترضة، ومن ثم جرّ هذه الدول إلى التنازل عن مقدساتها ومبادئها.

ولله درّ الأستاذ النورسي حين حذر من الاستسلام لهذه القوى بدافع الإسراف وعدم الاقتصاد، فقال ناصحا :

"إن المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها " وبيّن قيمة الاقتصاد ومخاطر الإسراف فقال: " إن الدلائل كثيرة على أن الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة، وأساس متين للعيش الأفضل الكريم، وإن من لا يقتصد مدعو للسقوط في مهاوي الذلة، ومعرضٌ للانزلاق إلى الاستجداء والهوان .

إن المال الذي يستعمل في الإسراف في زماننا هذا، لهو مال غال وباهظ جدا، حيث تدفع أحيانا الكرامة والشرف، ثمنا ورشوة له، بل قد تُسلب المقدسات ..."[2]

إنها كلمات نفيسة من النورسي حذرت من خطر الاستسلام إلى وسائل العولمة الاقتصادية و أثارها.

طغيان العولمة

أخلاق العولمة أخلاق فرعونية يتجسد فيها الظلم والطغيان والاستعباد واسترقاق الآخر في أوضح صوره، ومردّ ذلك كلّه، الكفر والإلحاد، وقد خاطب النورسي هذا الجانب في العقلية الغربية، والذي ساق البشرية، فآلت إلى ما آلت أليه اليوم فقال :

" يا أوروبا الثانية !

اعلمي جيدا انك أخذت بيمينك الفلسفة المضلّة السقيمة و بشمالك المدنية المضـــرة السفيهة، ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما، ألا شُلّت يداك .....

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود ! تُرى هل يمكن أن يسعد إنسانٌ بمجرّد تملكه ثروة طائلة، وترفّله في زينه ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه ووجدانه، وفي عقلة وفي قلبه بمصائب هائلة ؟[3]

أجل، إن هذه القوى العالمية قطعت صلتها بالله تعالى، وجحدت، فانعكس ذلك على البشرية وجلبت لها التعاسة .

وتأمل قول النورسي :

" لقد أفسدتِ – أيتها الروحُ الخبيثة – البشريةَ حتى طاشت بتعاليمك، فتقاسي منك العذاب المرير، بإذاقتك إياها عذاب الجحيم في نعيم جنة كاذبة "[4].

علتان و دواءان

إن هذه القوى لا ترى إلا نفسها ولا يعنيها إلا مصالحها، وقد أجاد الأستاذ النورسي حين شخّص بلاء البشرية وأمراضها التي كانت سببا فيما آلت إليه من انحطاط وتردي، وبالتالي اضطرابات خطيرة، وأرْجَعَ كل ذلك البلاء الذي أحدثته قوى العولمة المتنفّذة المؤثرة إلى نقطتين اثنتين هما :

- " إن شبعتُ فلا عليّ أن يموت غيري من الجوع " .

ولعل اصدق تمثيل لذلك ما نقرؤه من إحصائيات حول التفاوت الكبير، والفجـــوة الواسعة بين الأغنياء والفقراء في العالم.

إن من تأثيرات العولمة ما ظهر لنا بوضوح وجلاء، من أن أشخاصا يملكون ســـلطة عابرة لكل الحدود، وهم أولئك الذين يملكون الثروات الهائلة إذْ إن أغنى أفراد العالم هم حوالي(6) مليون إنسان، ارتفعت ثرواتهم إلى (16) ترليون دولار، وفي العالم (358) ملياردير، ربْحُهم يعادل دخل (45٪) من سكان العالم و(20٪) من كبار أغنياء العالم يقتسمون (80٪) من الإنتاج العالمي[5].

هذا خلل عظيم يصيب البشرية، أحدثته وتُحدثه قوى العولمة في العـــالم في المجـــال الاقتصادي .

والأمر الثاني الذي يردّ الأستاذ النورسي الأمر إليه في انتشار الاضطرابات في البشرية هو:

" اكتسبْ أنتَ لأكل أنا، اتْعب أنتَ لاستريحَ أنا ".

انه الاسترقاق بعينه، أو صورة من صوره المقنّنة، وهو ما تمارسه مؤسسات العولمة الاقتصادية على تنوّعها، فينتهي الأمر بالانصياع لها على مستوى الدول فلا سيادة، وعلى مستوى الأفراد فلا إنسانية ولا كرامة، وهذا الذي نراه من الآليات الاقتصادية التي تسخّر اليد العاملة الرخيصة، تستبعدها ساعات عمل أطول، بأجر زهيد، متجاهلة الحقوق الطبيعية للعامل، لا، بل الحقوق الإنسانية لهذا العامل.

وصدق النورسي فيما قال :

" إن الإنسان كما لا يرضى أن يكون أسيرا لا يرضى أن يكون أجيرا "[6]، أي ذلك الأجير الذي تستعبده قوى العولمة التي تملك الرساميل المتحركة في الأرض من مشرقها إلى مغربها، من غير قيد ولا شرط، والتي تغزو المجتمعات الفقيرة المعدمة، تستغل حاجتها، لتأخذ الإنتاج فتبيعُه بأسعار عالية لإنسان العولمة.

وقل لي بربك أين ذلك في شرعة الإسلام ونظامه ؟؟

إن الأستاذ النورسي – رحمه الله – يشير إلى أن سبب هاتين العلتين إنما يتمثل في فساد النظام الاقتصادي، في إباحة الربا ومنع الزكاة، وعلاج ذلك كله يكمن في، تطبيق الزكاة في المجتمع، وفرضها فرضا عاما، وتحريم الربا.

وأهمية الزكاة في النظام الإسلامي لا تنحصر في أشخاص وجماعات معيّنة فقط، كما يقول النورسي، بل إنها ركنٌ مهمٌ في بناء وسعادة الحياة البشرية ورفاهها جميعا.

"إنها إعطاء الفقير حقَه من غير منّه، وما أنتم إلا مستخلفون مأمورون تقومون بتوزيع مال الله على عباد الله ".[7]

وبخصوص خطر الربا الذي تتخذه "العولمة" طريقا لاستعباد الشعوب، يبيّن النورسي عدالة القرآن، ويشير إلى محاذير شيوع الربا على النحو الذي نراه فيقول :

"إن عدالة القران تقف على باب العالم وتصيح في الربا : ممنوع . لا يحق لك الدخول "، ثم يعقب محذراً ومنذراً "إن البشرية لمّا لم تُصْغ إلى هذا الكلام، تلقت صفعةً قويةً، وعليها أن تصغي إليها قبل أن تتلقى صفعة أقوى و أمّر ".[8]

ويا للأسف هذه اليوم البشرية قاطبة تقع فيما حذر منه النورسي من استرقاق العولمة لشعوب الأرض كلها.

والعلل التي أشار إليها النورسي تُعدّ منطلقا من منطلقات العولمة الاقتصادية، ورسملة العالم في ظل هيمنة النظام الدولي الأُحادي هيمنةً كاملةً، عن طريق الإقراض بفائدة

عالية، واستغلال حاجة الدول والشعوب الفقيرة، ومن ثم ممارسة الضغوط عليها بحيث تتنازل هذه الشعوب – وغالبا ما تكون شعوبا إسلامية – عن مقدساتها وكرامتها وقيمها، وتضطر بالتالي إلى الانضواء في تَحالف يفرضه عليها السيد المتنفذ ! فتكون بعدها موالاة الكافر، ومؤازرته، وتأييده في حرب المسلمين، وتقتيلهم والسيطرة على مقدراتهم، وما اجمل كلام الأستاذ النورسي حين يحذر من التفريط بالمقدرات، والتهاوي في الذلة والمهانة فيقول :

" ... حيث تدفع أحيانا الكرامة والشرق ثمنا ورشوة للمال بل قد تسلب المقدسات".

وفي مثل هذه الظروف يدعو النورسي إلى أن يقتصر المسلم على الحاجات الضرورية، وضرورة الاقتصاد في عيشه، لئلا يلجأ إلى قوى العولمة الاقتصادية، يقول: "فان المقتصد لا يعاني فاقة العائلة وعوزها " ويقول أيضا :

" ولو اقتصر الإنسان على الحاجات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها، فسيجد رزقا يكفل عيشه، من حيث لا يحتسب، وذلك بمنطوق الآية { **إنّ الله هو الرّزاق ذو القوة المتين** } ويقول الله تعالى (**وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها**) يتعهد بذلك تعهداً قاطعا "[9] .

إن النورسي يعلّم الشعوب المسلمة كيف تقتصد، لئلا تقع في مديونية آليات العولمة، انطلاقا من القناعة، وابتعادا عن الإسراف، فالإسراف يُنْتج الحرْص، والحرص يولد نتائج ثلاثة هي؛ – عدم القناعة – الخيبة والخسران – وإفساد العمل الأخروي[10] ..... .

نهاية العولمة

إن العولمة بجوانبها العديدة لا تحمل إيجابية وخيرا للبشرية قاطبة، وإنما تحمل الحقد والغلّ والعداء[11], والعداء كما يقول الأستاذ النورسي: ظلم شنيع يفسد حياة البشرية في جميع جوانبها، الشخصية والاجتماعية والمعنوية، بل هذا العداء الذي تمارسه العولمة للإنسانية هو السم الزعاف للبشرية قاطبة.

فأيّ خير تحمله العولمة للبشرية، حين تستعبدها بسبب حاجتها للغذاء ؟؟!!

أيّ خير تحمله العولمة للبشرية، حين لا تقيم وزنا للكرامة الإنسانية ؟؟

أيّ خير تحمله العولمة للبشرية حين تتسلط على السيادة، فتسلبها سيادتها ؟؟

أيّ خير تحمله العولمة للبشرية حين تعبث في الإنسانية وخصائصها ؟؟

أيّ ظلم وإجحاف تمارسه العولمة على البشرية حين تناصبها العداء .

" إن عداء الإنسان لأخيه الإنسان ظلم في نظر الحقيقة .

فإذا كان عداء الإنسان لأخيه الإنسان ظلم في نظر الحقيقة كما يقول النورسي[12]، فكيف يكون الأمر حين تناصب العولمة بقواها ومتنفذيها العداء للإنسانية كلها ؟.

إن تيارا جارفا، أو حريقاً هائلاً أو زلزالا عنيفاً، يتهدد كيان الإنسانية بأسره إذا استسلمت لهذه العولمة .

والظلم الذي تمارسه قوى العولمة بكافة أشكاله، ينذر بنهاية هذا التيار وزواله، إذ يحمل تيار العولمة بذور فنائه في أحشائه، وهذا ما تنطق به السنن الكونية، والأدلة الشرعية من كتاب رب البريّة، وتأمل معي هذه النصوص الكريمة :

قال تعالى مبينا مصير الظالمين ونهايتهم :-

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} يونس (13)

وقال: **{فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}** الحج (45)

وقال: **{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}** الكهف (59)

وقال: **{هل يهلك إلا القوم الظالمون}**

وقال: **{وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ}** الأنبياء (11)

وقال: **{وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}** الحج (48)

العولمة والفرعونية

ما أشبه العولمة بقواها المتنفّذة في سائر الجوانب بالفرعونية وطغيانها وأخلاقياتها .

إن قوى العولمة تدّعي مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان والدعوة إلى ضرورة إدخال الإصلاحات على الأنظمة في الكون، وكذلك فعل فرعون حين حمل لواء الإصلاح وزعم الديمقراطية .....

نجدُ فرعون يستشير حلفاءه ومناصريه في قتل موسى فيقول :**{ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ }** غافر (26)

اجل، إنّه حريص على أن لا يُدخل المذاهب الفاسدة المفسدة على حدّ زعمه، المبادئ التي تهدد سلطانه وهيمنته .

ولماذا يريد فرعون قتل موسى؟ انه – أي فرعون – المصلح، الداعية لحقوق الإنسان، والذي يمثل الشرعية الدولية، لا بل الكونية، أما موسى فمخرب، يحمل لواء الإرهـــاب، ولسوف يُظهر في الأرض الفساد !!!

هذا المنطق الفرعوني، المقلوب هو ذاته المنطق الذي تلجأ له قوى العولمة في الأرض.

وباختصار، يمكننا بعد المقارنة بين الفرعونية والعولمة، أن نـــوجز أخـــلاق العولمـــة المعاصرة، وما تمتاز به بصفتين اثنين؛

(الكبر، والكفر) هذه العولمة ترى نفسها اكبر من أي شيء، وما زالت تكبر حـــتى رأت أنها محل الإله الرب .

– وكذا هي كافرة كما أسلفنا من قبل، فلا يؤمن أهلها المتنفذون بيوم الحساب، ولو آمنوا به، لحسبوا حسابه، ولما طغوا وأفسدوا .

إن من أخطر أخلاق العولمة إضافة إلى ما تقدم "الأنانية والحرص"، هما داءان قاتلان، يفتكان بالإنسانية قاطبة، وبالتأمل في ممارسات العولمة البغيضة في شتى المجالات تشخص أمامنا هذه الخصائص والصفات.

ونجد النورسي رحمه الله يحذر من خطرها إذا ما تأصّلت وكان لها تأثيراتها فيقول :

" الحرص أضرّ على الحياة الإنسانية وأدهى " .

" الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة وذلة، وهو الـــذي يجلـــب الحرمان والدناءة .

والحرص يظهر تأثيرُه السيئ بدءً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاء إلى أصـــغر فرد فيه"[13].

وما يؤكد عليه النورسي ويكشفه، هو ما حصل ويحصل اليوم على يد قوى العولمـــة من حروب ودمار وإبادة، بدافع الأنانية والحرص فيقول :

" ولكن الذي تمكّن فيه الحرصُ والأنانيةُ، يصبح إنسانا يريدُ القضاء على كل شـــيء يقف دون تحقيق حرصه حتى تدمير العالم والجنس البشري إن استطاع "[14].

ولقد صدق النورسي فيما قال، فما نراه اليوم، أن مصالحَ العولمة تُقَدَّم علـــى حيـــاة الشعوب، فلا قيمة لدمِ الإنسان، ولا قيمة لملايين البشر حتى لو أبيدوا عن بكرة أبيهم، حفاظا على المصَالح الذاتية لقوى العولمة المتنفذة في العالم .

نعم للعالمية لا للعولمة

إن الإسلام دين يحمل صفة العالمية، والفرق بين العولمة بما ينجم عنها من سيطرة وتطبيع عالمي واسترقاق كلي وبين عالمية الإسلام الخيّرة الطاهرة النظيفة ؛

أن "العالمية" صفة أساسية من صفات الإسلام، وخصيصة من خصائصه،

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا } سبأ (27) .

{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } الأنبياء (107) .

إن العالمية للإسلام جاءت نتيجة لموافقة الإسلام للفطرة، وصلاحيته لحكم الناس، إنها نتيجة إقبال الناس على الإسلام، ودخولهم فيه أفواجا.

وما كانت عالمية الإسلام بإكراه الناس على اعتناقه، فلا إكراه في الدين، وإنما كانت القناعة الإيمانية، حتى إن الإسلام في كثير من بقاع الأرض، ما انتشر بقوة الحسام، وإنما بنور الحجة والبرهان، وبحسْن السلوك والتعامل.

وبالتأمل في جوانب الإسلام، الدين العالمي، نجد عقيدته عقيدة عالمية، لأنها تجسّد الانتماء للخالق الواحد، وهي عقيدة الفطرة التي يتطلع إليها الإنسان بمحض إرادته وحريته.

إنها العقيدة التي تربط الإنسان بالخالق الواحد القهّار، خالق الأكوان، فالكل خلق الله.

ونجد التشريعَ في الإسلام تشريعاً له صفة العالمية، لأنه يتسع لتغيرات الزمان والمكان، ويمتاز بالربانية والثبات والشمول والفطرية، فكيف لا يكون دينا عالميا .

أما العولمة وقوانينها، فلا تخدم إلا أهلها، وتفسر لصالحهم، وترعى مصالحهم .

إن الإسلام بعالميته، لا يُلغي الانتماءات، بل يعتبرها، لكنه يقدم عليها العالمية الخيّرة، ويدعوا إلى الانصهار في بوتقتها وفق مبادئه و أخلاقه،" ليس منا من دعا إلى عصبية " "كلكم لادم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" فلا تشابه بين العالمية الإسلامية القائمة على أخلاق الإيمان، والعولمة القائمة على الكفر بالديّان .

إن اعظم ملامح عالمية الإسلام، المساواة بين الأجناس كلها، والعدل في التعامل وأقرا قوله تعالى **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}** الحجرات (13) .

واستوعب الإسلامُ بعالميته هذه كل انتماء بسماحته عدالته، حتى أقر لأهل الذمة حقوقهم، ومنع من إيذائهم وانتقاص حقوقهم فقال رسول الله عليه السلام

" من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله " .

وقال " لهم مالنا وعليهم ما علينا " .

ولله درّ الأستاذ النورسي حين يلمح إلى هذه العالمية بدواعيها فيقول :

" إن خالقكما واحد، مالككما واحد، معبودكما واحد، رازقكما واحد، وهكذا واحد، واحد، إلى أن تبلغ الألف .

ثم إن نبيكما واحد، ودينكما واحد، وقبلتكما واحدة وهكذا...

ثم إنكما تعيشان معا في قرية واحدة، تحت ظل دولة واحدة، في بلاد واحدة، وهكذا وهكذا ...

فلئن كان هناك إلى هذا القدر من الروابط التي تستدعي الوحدة والتوحيد، والوفاق والاتفاق، والمحبة والاخوة .

ولها من القوة المعنوية ما يربط أجزاء الكون الهائلة، فما اظلم من يُعرض عنها جميعا، ويفضّل عليها أسبابا واهية أوْهن من بيت العنكبوت، تلك التي تولّد الشقاق والنفاق والحقد والعداء، فيوغر صدره عداءً وغلا وحقدا على أخيه ؟

أليس هذا إهانة بتلك الروابط التي توحّد، واستخفافا بتلك الأسباب التي توجب المحبة، واعتسافا لتلك العلاقات التي تفرض الأخوة ؟ "[15]

فلا عنصرية ولا إقليمية ولا قومية، ولا اعتبار للون البشرة أو لعرق من الأعراق، وإنما هو مقياس القرب من الله تعالى، والاشتراك بعلاقة الأخوة في الله تعالى، خالق الإنسان والكون .

لقد نمّى الإسلام في الفرد وفي الجماعة روح التآخي على القيم الإنسانية، تلك القيم النابعة من الإسلام، فأصبحت النزعة العنصرية نزعة مرفوضة في المجتمع المسلم لمنافاتها نصوص الشريعة، مما أضفى على الإسلام بعده العالمي المستوعب للبشرية جمعاء.

إن العالمية في الإسلام تقوم على العدالة القرآنية المحضة، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ويحرص الإسلام في تعامله مع الآخر على تحقيق أعلا درجات العدل حتى لو كان خصم الآخر " غير المسلم " هو الخليفة ذاته، ولنا في قصة الحكم بين علي والرجل اليهودي خير مثال على ذلك[16],

واستمع إلى النورسي وهو يظهر هذه الخصيصة في عالمية الإسلام فيقول :

" العدالة القرآنية المحضة، لا تُهدر دم برئ، ولا تزهق حياته، حتى لو كان في ذلك حياة للبشرية جمعاء، فكما أن كليهما في نظر القدرة سواء، فهما في نظر العدالة سواء أيضا ".

الخلاصة

إن البشرية تتطلع إلي الخلاص من هذه العولمة بكل ما تحمله من كفر وكبر وحرص وأنانية وتسلط وهيمنة، إنها تنشد سعادة ورخاء وعدالة ومساواة وإيمانا يخاطب الفطرة ولا يصادمها، يوافقها ولا يعاديها، وذلك كله لا يتحقق ولن يتحقق إلا من خلال الإسلام بمبادئه العظيمة، وهذا ما يتوقعه النورسي حين استشرف المستقبل؛ العالمية بديلا عن العولمة، العدل بديلا عن الظلم .

" إن الإسلام وحده سيكون حاكما على قارات المستقبل حاكما حقيقيا ومعنويا، وإن الذي سيقود البشرية إلى السعادتين الدنيوية والأخروية ليس إلا الإسلام، والنصرانية الحقة المنقلبة إلى الإسلام والمتفقة معه والتابعة للقران بعد تحررها من التحريفات والخرافات ".[17]

المراجع

1. مجموعة كليات رسائل النور للأستاذ النورسي .
2. العولمة ومستقبل العالم الإسلامي، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة .
3. العولمة، نشأتها، أهدافها، محمد سعيد أبو زعرور، دار البيارق .
4. ما العولمة ؟ حوارات لقرن جديد، حسن حنفي، دار الفكر المعاصر .

الهوامش

1 العولمة ومستقبل العالم الإسلامي , فتحي يكن ص23
2 كليات رسائل النور " اللمعات" (215/3)
3 كليات رسائل النور "اللمعات" 3\177
4 المصدر السابق 5 (3\177)
5 العولمة ومستقبل العالم الإسلامي ص11
6 كليات رسائل النور للنورسي , المكتوبات (2\605)
7 المصدر السابق (2\605)
8 المصدر السابق
9 كليات رسائل النور , اللمعات (3\215)
10 المصدر السابق (3\220)
11 كليات رسائل النور , اللمعات (2\340)
12 كليات رسائل النور, اللمعات (2\349)
13 كليات رسائل النور , اللمعات (2\315)
14 المصدر السابق (2\608)
15 كليات رسائل النور اللمعات(341/2)
16 حين نادى عمر رضي الله عنه اليهودي باسمه, ونادى عليا بكنيته, فغضب على رضي الله عنه لذلك, وأراد من عمر أن يسوي بينهما.
17 كليات رسائل النور " صيقل الإسلام " (8\499)